المُنجيات والمُوبقات في الأدعية

للعلامة
شهاب الدين أحمد بن إدريس
القرافي المالكي
رحمه الله تعالى

دراسة وتحقيق وتكميل
الدكتور محمد بن يونس
السويسي التوزري العباسي
وفقه الله تعالى

دار ابن حزم



المُنَجِيَاتُ والمُوبِقَاتُ في الأَدْعِيَةِ

للعلّامة

شهاب الدين أحمد بن إدريس

القرافي المالكي

رحمه الله تعالى

دراسة وتحقيق وتكميل

الدكتور محمد بن يونس

السويسي التوزري العباسي

وفقه الله تعالى



دار سحنون للنشر والتوزيع

تونس

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م



ISBN: 978-9938-8-34-43-7

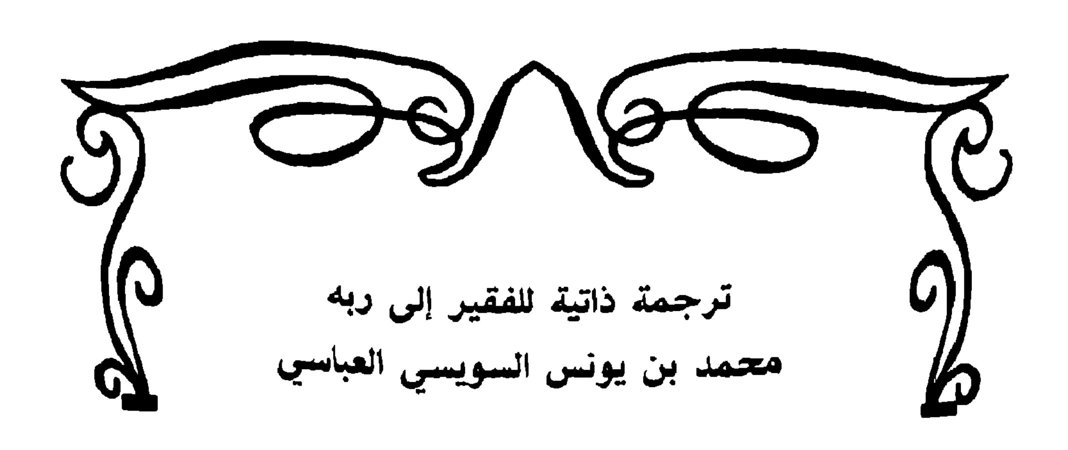


10 مكرر نهج هولاندة
1000 تونس

الهاتف: 216+ - 71256435
216+ - 71253456
216+ - 71253839

الفاكس: 216+ - 71362926
216+ - 71856775

alouini.aws@planet.tn



ترجمة ذاتية للفقير إلى ربه
محمد بن يونس السويسي العباسي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله العلي الأكبر الوهاب المتفضل علينا بنعم لا يحصيها حساب، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله الكريم التواب، وأن محمداً عبده ورسوله المبعوث بأقدس كتاب، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله والأصحاب، صلاة وسلاماً مباركين متجددين إلى يوم المرجع والمآب.

وبعد، فاستجابة مني لطلب أحد أبنائي الأعزاء من الطلبة الأفاضل المجتهدين الأذكياء الأستاذ الفاضل المربي الواعظ المختار الجبالي حفظه الله وفتح عليه فتح العارفين بالله، الذي طلب مني ترجمة ذاتية لحياتي العلمية لنشرها في مصنفه الجليل «أعلام من الزيتونة» الذي يعكف على تحريره وفاء بما قدمه شيوخنا الأعلام من جهود معرفية، وتضحيات جسيمة في سبيل نشر تعاليم ديننا الحنيف وتركيز دعائمه في القلوب.

فجازاك الله خيراً، ووفقك إلى المزيد من الخيرات والعلوم والمعارف، وأعانك على إتمام هذا العمل القيم، وها هي ذي ملامح من سيرتي الذاتية موجزة:

* * *

1 ـ المولد والنشأة

الاسم: محمد بن يونس بن السويسي ابن الحاج أحمد بن مبارك، المولود في الثلاثين من شهر نوفمبر سنة ثمانية وعشرين وتسعمائة وألف الموافق لسنة سبع وأربعين وثلاثمائة وألف هجرية، في قرية «عباس» إحدى قرى مدينة توزر جنوبيها، وهي قرية محاطة بالواحة قاطنوها كلهم يشتغلون بالفلاحة أجراء ما عدا أسرتي ودار جيراننا المؤدب الشهير الطالب عثمان بن الطاهر دار القرآن الكريم الذي جمع أربعة أخوة جميعهم حفظة لكتاب الله ﷻ.

نشأت في أسرة متواضعة فقيرة جدًّا تتألف من أبوي الأميّين، وأخت صغرى شقيقة وأختين من أمي في كفالة أبي.

عيشنا يعتمد أوّلاً على مرتّب صغير جدًّا يتقاضاه والدي من المستعمر الفرنسي بعد أن أنهك قوته واستغل شبابه في حروبه، لا يكفي لإعالة شخص واحد ويعتمد ثانياً في جلّه على خدمة أمي للصوف ونسجه برانيس وجبباً بمعية أختيّ ابنتيها الكبيرتين.

❋ ❋ ❋

2 ـ التعليم الابتدائي

لم يكن في قريتنا إلّا كتاب جارنا في مسجد القرية المؤدب الطالب عثمان بن الطاهر بجوار مقام الولي الصالح أحمد التواتي العالم اللغوي شارح كتاب سيبويه، وهو مخطوط عند أحد أقربائه، أطلعنا عليه ولعله تعرض للضياع أو التآكل، ولا يُعرف الآن مكانه.

أما المكتب العربي الفرنسي فكان بمدينة توزر التي تبعد عن قريتنا حوالى ثلاثة أميال، ولم يرغب والدي بإدخالي إلى هذه المدرسة للبعد أوّلاً، وثانياً: لمعاداة التعاليم الفرنسية لديننا الإسلامي في اعتقادهم.

ولذلك كان تعليمي الابتدائي في كتاب قريتنا الذي دخلت إليه في حدود السادسة من عمري وكان أمل والدي أن أحفظ القرآن الكريم، قد حفظته وعمري لم يتجاوز الثانية عشرة، ولعل هذه السنوات الست التي قضيتها في إتقان حفظ كتاب الله تعتبر مدة طويلة في نظر البعض، ولكن الأمر ليس كذلك؛ لأن هذا الحفظ الذي كان يعتمد ويتركز على أسس تربوية ناجحة مجربة قلّ أن يتطرق النسيان لمن نجح فيها ولو عند كبر السن والهرم كما هو ملاحظ في شخصي وأمثالي، فأنا الآن في سن الثالثة والثمانين، وقد اغتالني النسيان وهرم الذاكرة، ومع ذلك لا أزال حافظاً لكتاب الله ﷻ والحمد لله.

ومن هذه الأسس التي يرتكز عليها الحفظ الجيد: أن ما يملى على التلميذ في لوحته كل يوم بعد مروره بمرحلة التهجي وتعلمه الكتابة يتم حفظه على المؤدب في فترات ثلاث مختلفة الأزمنة، فترة صباحية بعد كتابته، وفترة مسائية، والفترة الأخيرة صباح اليوم الموالي، وبعد ذلك يمحى ليستقبل التلميذ كتابة آيات أخرى جليلة لحفظها حسبما ذكر، وهذا كفيل بأن يجعل الحفظ راسخاً في الذاكرة عميق الجذور.

وهذا المقدار الذي يملى على التلاميذ يختلف باختلاف درجته وسنه فيكون ابتداء بالسور القصيرة ويتدرج إلى أن يصل نصف ثمن الحزب في الختمة الأولى للقرآن، ثم يرتقي إلى ثمن الحزب في ختمة القرآن الثانية، ثم إلى ربع الحزب في الختمة الثالثة مع المراجعة المستمرة والتكرار لما يحفظ على المؤدب أو بواسطة المصحف المطهر، وبذلك يزداد الحفظ للقرآن الكريم رسوخاً لا يقوى عليه النسيان في الذهن.

وكان المؤدب يعتمد عليّ أحياناً عند تغيبه للقيام بوظيفة الإملاءات على تلاميذه الذين يعدون بالعشرات، وكل تلميذ يختلف عن غيره في الآية التي يطلبها، وكنت موفقاً في جميع ذلك بعد اختباري لمَّا كنت في ختمة القرآن الثالثة والأخيرة.

وبعد أن أنهيت ختمة القرآن الكريم انتدبت من بعض الأسر

البعيدة منازلهم عن الكتاتيب لتعليم أبنائهم في مقام الشيخين الجليلين الشقراطسي[1]، وابن الشباط[2]، ثم في كتاب الجامع الكبير ببلد الحضر.

* * *

3 ـ المرحلة الأولى من التعليم الثانوي الزيتوني

لاحظت وأنا أقوم بتعليم القرآن الكريم، أن أمثالي من حفاظه بعضهم يدخل مباشرة إلى الفرع الزيتوني لتلقي العلوم الدينية ولا سيما أن مهنة المؤدب حينية، وليست قارة وأن صاحبها عليه أن يتنقل بين البوادي ليجد من يطلبه، وهو الملاحظ عند أخوين من جيراننا ولذلك عزمت وقررت الدخول إلى الفرع الزيتوني، وأقنعت أبوي بذلك، فما كان من أمي إلا أن باعت ما تملكه من ذهب واشترت ما يلزمني من الأدوات والكتب، وانخرطت في سلك الفرع سنة ستة وأربعين وتسعمائة وألف درست فيه أربع سنوات إلى مرحلة الشهادة الثانوية الأولى التي كانت تسمى «الأهلية».

إلّا أني رسبت في امتحانها للإخلال بالمواظبة على الدروس لأسباب مادية قاهرة، منها: قلة ذات يد أسرتي والعجز عن تحصيل القوت فأبي مرتبه صغير ـ كما تقدم ـ وقد أصابه كسر في أحد ساقيه أقعده عن السير

---

(1) الشقراطسي هو: أبو محمد عبدالله بن يحيى الشقراطسي نسبة إلى قلعة بالقرب من قفصة، وهو توزري الأصل، من فحول نبغائها، أخذ العلوم بالقيروان، وأقرأها بتوزر فكان له الباع الطويل في العلوم الدينية، وفنون الآداب.

(2) اشتهر ذكره بالآفاق بقصيدته الفريدة في مدح النبي ﷺ، المعروفة بالشقراطيسية أنشدها بالمدينة المنورة تجاه القبر الكريم، وشرحها جماعة، منهم: ابن الشاط وكانت هي التي تنشد في مجالس الذكر، قبل ظهور بردة البوصيري، كانت وفاته سنة 466. الشجرة: 117.

وأمي التي كانت تساعده في خدمة الصوف ذهب بصرها وابنتاها الكبيرتان تزوجتا، وشقيقتي صغيرة لا تحسن أي عمل آنذاك ولا تقدر عليه.

إذن ـ والحالة هذه ـ أصبح مفروضاً عليَّ الشغل والسعي للرزق لإعالة أسرتي فعملت مرة في جمع التمور، ومرة في حضائر البناء، وازداد الأمر سوءاً بوفاة والدي وكان ذلك هو المانع الأكبر الذي تركت بسببه مقاعد الدراسة، وانصرفت كليًا إلى طلب الرزق.

عملت في التجارة صانعاً زمناً يسيراً ثم سافرت لمنجم الفسفاط في «أم العرائس» حيث كان ابن عمتي «علي مشعب» رحمه الله تعالى عاملاً هناك بالمنجم، ويشتغل حداداً، ولما استحال الحصول على عمل عند شركة الفسفاط اشتغلت عند قريبي في الحدادة شهوراً.

كنت لا أحسن أي وظيفة سوى تعليم القرآن، وسدت في وجهي مواطنه ـ وبلدي توزر لا تحتاج إلى أمثالي لاستغنائها بالمؤدبين القائمين على الكتاتيب المعروفة المشهورة ـ فشرعت أطوف البلاد بحثاً عن من يطلب مؤدباً من أهل البوادي. وصلت إلى بلدة «المزونة» وهناك طلبني رجل من المهاذبة لأقرىء أولاده وأخوته بعيداً عن جبل «بوهدمة» أقمت هناك مؤدباً محترماً مكرماً قرابة ستة أشهر.

وحدث أن ابن عمتي كان قد طلب يد شقيقتي من والدي للزواج وكانت صغيرة آنذاك ووعده بالبناء عليها في حياته ولما صارت أهلاً لذلك طلبني لإتمام الزفاف بها، فحضرته ودخل بها وكفل معها والدتي وبذلك خف الحمل عني.

لم أعد للعمل في بادية المهاذبة لصعوبة الحياة هناك من حيث بعد المسافة وصعوبة التنقل وواصلت البحث عن مكان آخر فكان في بادية القصرين قريباً من جبل «الشعامبي» قضيت فيه مؤدباً قرابة العام ونصف العام، أدخر أجرتي لكي تساعدني عند رجوعي إلى الدراسة إذا سمح لي

بذلك وكان الكتاب الذي أعد للتعليم عبارة عن كوخ صغير مغطى بالأعشاب مفتوح الباب هو نفسه محل إقامتي وسكني، كابدت فيه ما لا يحصى من الأتعاب والشدائد والحر والبرد والثلوج وغيرها وكنت طوال هذه المدة عاكفاً على مراجعة ما درسته في السنة الرابعة من مناهج.

ولحسن حظي وجدت أحد الطلبة بالفرع الزيتوني بقفصة يقطن قريباً من الكتاب فتعرفت عليه، وكان من طلبة السنة الرابعة فصار يتردد علي للمراجعة والاستعداد لامتحان شهادة الأهلية.

وفي السنة الدراسية 1950 ـ 1951 سمح لي بالترسيم والدراسة في السنة الرابعة التي ختمت بنجاحي في هذه الشهادة.

* * *

4 ـ المرحلة الثانية من التعليم الزيتوني

انتقلت إلى تونس لمواصلة الدراسة بجامع الزيتونة في السنة الخامسة وخلالها نفد ما جمعته من مال ولم يعد أمامي سوى التخلي عن الدراسة.

لكنني شرحت الأمر لصهري وابن عمتي «علي مشعب» البر الكريم الخيّر، فرقّ لحالي ورتب لي مبلغاً زهيداً شهرياً حسب طاقته إضافة إلى أكلة غداء مجانية في مطعم «الهداية» الذي أسسه شيوخ الزيتونة الكرماء بإشراف العالمين الجليلين: محمد الزغواني والطيب التليلي لتمكين ضعاف الطلبة الزيتونيين من دراستهم الدينية.

وبذلك أمكن لي مواصلة التعلم في تلك السنة وسنتين بعدها انتهت بنيل شهادة التحصيل في العلوم نهاية السنة السابعة التي تعادل شهادة البكالوريا وذلك سنة 1954.

* * *

5 ـ الشهائد العلمية

1 ـ شهادة الأهلية ـ جوان 1951.

2 ـ التحصيل في العلوم ـ أكتوبر 1954.

3 ـ الجزء الأول من الشهادة العالمية ـ جوان 1954.

4 ـ الإجازة في الشريعة ـ جوان 1972.

5 ـ دكتوراه المرحلة الثالثة في الفقه والسياسة الشرعية ـ أكتوبر 1981.

6 ـ دكتوراه الدولة في الفقه والسياسة الشرعية ـ 1986.



6 ـ الوظائف

1 ـ معلم بالمدارس الابتدائية من سنة 1956 إلى سنة 1972 توزعت هذه السنوات كما يلي:

- سبع سنوات في نفطة بالمدرسة الابتدائية.

- خمس سنوات ببادية الفحص في «صوار» بمدرسته الابتدائية.

- أربع سنوات في مدرسة نهج «المقطر» بتونس الابتدائية.

وفي هذه المدرسة أصبحت قريباً من الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين فعزمت على مواصلة الدراسات العالية التي كانت المحاضرات بها مسائية ما عدا يوم الأحد تكون صباحية.

وسبب هذا التوقيت أن الشيخ محمد الفضال ابن عاشور رحمه الله الذي كان عميداً للكلية الزيتونية لاحظ عزوف الطلبة الناجحين في شهادة البكالوريا عن التسجيل بهذه الكلية وظل الدارسون فيها قليلي العدد

فاستحدث قانوناً يسمح للمعلمين الزيتونيين استكمال دراستهم العالية من جهة وإعداد أساتذة التربية الإسلامية في المعاهد الثانوية من جهة أخرى.

سجلت في هذه الكلية سنة اثنتين وسبعين وتسعمئة وألف وكنت موقناً أن الجمع بين الدراسة والقيام بوظيفتي في المدرسة عسير جدًّا ذلك أن المعلم مطالب بست ساعات يومياً تقريباً وبعد حوالى السادسة يلتحق بالكلية لتلقي المحاضرات إلى حدود الثامنة مساء، ولكن ومع هذا المجهود الشاق واصلت الدراسة العليا خلال أربع سنوات انتهت بالحصول على شهادة الإجازة في الشريعة: جوان 1972.

2 ـ أستاذ مجاز بمعهد الوعظ والإرشاد بالقيروان من سنة 1972 إلى 1974/12/31.

3 ـ أستاذ التعليم الثانوي حافظ لمكتبة الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين من 1975/1/1 إلى سنة 1981.

4 ـ مساعد بالكلية الزيتونية من سنة 1981 إلى سنة 1983.

5 ـ أستاذ مساعد بالكلية الزيتونية من سنة 1983 إلى سنة 1986.

6 ـ أستاذ محاضر بالكلية الزيتونية من سنة 1986 إلى سنة 1987.

وبعد إحالتي على التقاعد في سبتمبر 1987 دعيت من قبل وكالة التعاون الفني للتدريس بجامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية في قسنطينة بمعهد الشريعة بالجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية من سنة 1988 إلى سنة 1993.

7 ـ أستاذ التعليم العالي، وقد حصلت على هذه الرتبة سنة 1992.

8 ـ إمام خطيب بجامع الإمام مالك بن أنس بالوردية الرابعة من سنة 1993 إلى أواسط سنة 1432هـ/2011م حيث طلبت من وزارة الشؤون الدينية إعفائي لما اشتد بي المرض.

* * *

7 ـ الأعمال العلمية

1 ـ مجال النية في الفقه الإسلامي مع تحقيق كتاب «الأمنية في إدراك النية» للقرافي، نشر دار سحنون.

2 ـ الوسط المدني في عصر الفقهاء السبعة وشيوخ مالك ـ مخطوط.

3 ـ المقاصد في الطاعات والقربات بين الأغراض الشرعية والدوافع المنافية لها ـ مخطوط.

4 ـ تحقيق رسالة «إتقان الضبط في الفرق بين السبب والشرط للشيخ أبي إسحاق الرياحي» مخطوط.

5 ـ محمد الطاهر ابن عاشور مفتي تونس الأشهر خلال القرن الرابع عشر الهجري، محاضرة ألقيت في الملتقى الذي أقامته الكلية الزيتونية بعنوان: «تفسير كتابه: التحرير والتنوير» في ديسمبر 1985 ـ مخطوط.

6 ـ أطروحة دكتوراه الدولة «الفتاوى التونسية في القرن الرابع الهجري» قامت بنشره دار سحنون بتونس 1986.

7 ـ الأيمان: بحث مقارن في نطاق المذاهب السنية الأربعة ـ مخطوط.

8 ـ جمع القواعد والضوابط الفقهية والأصولية مع شرحها من كتاب «المدونة الكبرى» لسحنون بن سعيد التنوخي المتوفى سنة 250هـ من الجزء الأول إلى الحادي عشر 2003 ـ 2005 بطلب من مجمع الفقه الإسلامي بجدة ـ لإعداد معلمة القواعد الفقهية التي تريد إنجازها ـ مخطوط.

9 ـ جمع القواعد والضوابط الفقهية والأصولية مع شرحها من كتاب «البيان والتحصيل» لأبي الوليد محمد بن رشد القرطبي المتوفى سنة 520 المتألف من 20 جزءاً بطلب كذلك من مجمع الفقه الإسلامي سنة 1998 ـ مخطوط.

10 ـ بحوث ومقالات ومحاضرات في الفقه والأصول والتفسير والحديث عديدة ـ مخطوطة.

11 ـ خطب منبرية حوالى 166 ـ مخطوطة.

12 ـ تحقيق وشرح كتاب «الموبقات والمنجيات في الدعوات» لا يزال العمل به متواصلاً تأليف أحمد بن إدريس القرافي الصنهاجي.

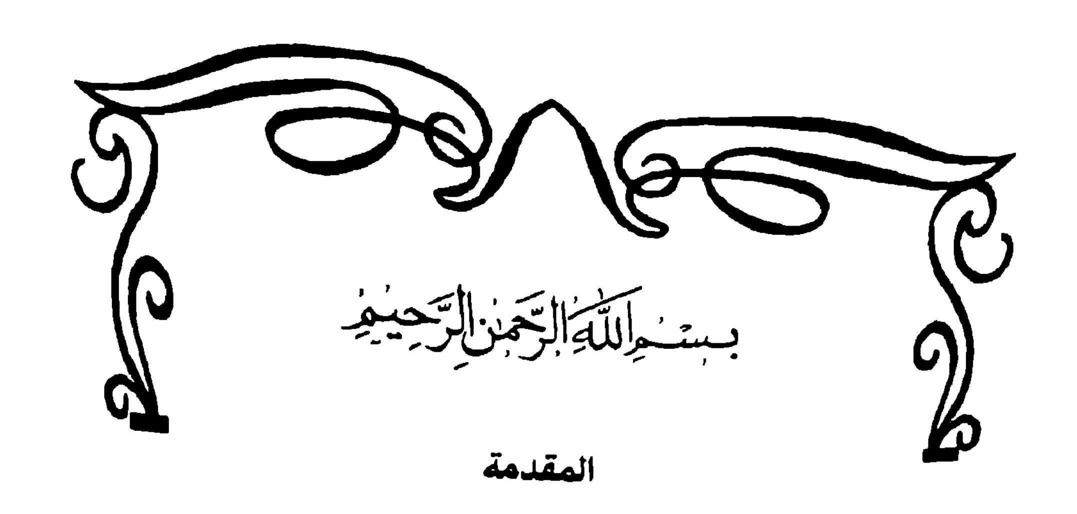
وهذا من فضل الله وهو ذو الفضل العظيم

تحريراً بتونس

في 2 رمضان 1431هـ 2010/8/12

د. محمد السويسي

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المقدمة

الحمد لله الرحمٰن الرحيم مجيب الدعوات كاشف الضر عن عباده في المحن والشدائد والنائبات. أمرنا بالضراعة إليه، ومد الأيدي في جميع ما يصلح أمرنا، ويحقق لنا السعادات، وما يعتور حياتنا من أنكاد وصعوبات. نشكره ونثني عليه الخير في كل الأوقات والحالات، تعبدنا بالدعاء وجعله الركن الأساسي لجميع العبادات، لنرتبط بقربه بأوثق الصلات، ونحتمي بجنابه العالي من المكدرات والمنغصات. ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ونبيه المبعوث بأقدس الرسالات، أرشدنا بسنته إلى أفضل الأدعية والتضرعات الجامعة لمقاصد الدين والدنيا، أو الخاصة بالمغفرة والاستعاذات.

اللَّهمَّ صل وسلم عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الأتقياء الثقات، ما تجافت جنوب عبّادك عن المضاجع مشتغلين بذكرك والدعاء والمناجاة، وكل من تبعهم بإحسان وصدق الأقوال وإخلاص النيات إلى أن تحيي العظام وهي رفاة.

وبعد، فقد اقتضت حكمة الله تعالى في خلقه للإنسان أن أبدعه ضعيفاً عاجزاً، مفتقراً إليه في جميع شؤونه، وكل حركاته وسكناته، وأنه لا حول له ولا قوة إلّا بقدرة ربه، وفضله وإحسانه.

ومن رحمته ﷻ بعبيده الضعفاء أن شرع لهم سؤاله والضراعة إليه لمدهم بالعون والقوة واللطف والرفق، والحماية من الشرور وكشف الأضرار، وكل ما هم في حاجة إليه، جلباً للخير، أو مصلحة، أو دفعاً لشر أو مفسدة.

ولهذا جاء الأمر الرباني إلى المخلوق بالدعاء، والحث عليه، وبيان فضله في العديد من الآيات القرآنية الكريمة، وعلى لسان نبينا محمد ﷺ في جملة من أحاديثه الشريفة.

فمن الآيات الكريمة العزيزة قوله تعالى:

1 ـ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[1]، أي: صاغرين أذلاء.

والدعاء المطلوب في هذه الآية المراد به العبادة عند جمهور العلماء بدليل قوله تعالى بعد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين أذلاء.

والدعاء من أعظم العبادات؛ لأنه ركنها الأعظم، وقد دل على ذلك ما أخرجه الترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه (ت65هـ/648م) عن الرسول ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**»[2].

فالدعاء وإن كان بمعنى العبادة إلا أنه أخص منها، إذ هو نوع من أنواعها؛ لأن حقيقته طلب العبد الضعيف حاجته العاجز عن تحصيلها من فضل ربه الكريم الذي يسمع دعاءه ويعلم حاجته، وهو وحده القادر على تحقيق سؤاله، وأنه الرحيم، الذي تقتضي رحمته إجابة ضراعة عبيده ونيل مآربهم.

وهذه الاستجابة الموعود بها في الآية الكريمة بقوله جل شأنه:

---

(1) سورة غافر، الآية: 60.

(2) سنن الترمذي ـ كتاب الدعوات ـ رقم: 2969.

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ متوقفة على وجود ركن الدعاء، وهو الخضوع الكامل والتذلل لله تعالى، والاعتقاد الجازم بالاحتياج إلى فضله، مع ما يتطلبه الدعاء من الشرائط، وتجنب الأدعية المنهي عنها التي أوضحها الشهاب القرافي في الباب الثالث: قسم الأدعية الممنوعة في كتابه هذا الذي نقوم بتحقيقه «المنجيات والموبقات في الأدعية»[1].

أما الوعيد المصرح به في الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فهو في حق من ترك الدعاء استكباراً واستعلاء واستغناء، اعتماداً على ما انساق إليه من مال أو جاه أو سلطان أو غيره، لا من تركه لسبب آخر: غفلة أو نسياناً، أو استسلاماً لقضاء الله وقدره أو نحو ذلك.

2 ـ قول جل شأنه في بيان ما يتوقف عليه قبول الدعاء والإثابة عليه بعد الأمر به: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿55﴾﴾[2].

في هذه الآية جاء الأمر بالدعاء مقترناً بصفتين يلتزم الداعي بهما رجاء الإجابة: التضرع والإخفاء.

أ ـ التضرع: وهو التذلل والتخشع والاستكانة لله تعالى، وإظهار حالة الفقر والحاجة إلى فضله رجاء استجابته ﷻ لتحقيق ما نحتاج إليه من خير أو دفع ما يسوؤنا.

ب ـ الإخفاء: هو أن يكون الدعاء سراً. ليبعد الداعي عن الرياء المحبط للإخلاص، ولذلك أثنى تعالى على نبيه زكرياء عليه السلام حين تضرع إليه سراً في قوله جل ذكره: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿3﴾﴾[3].

فالجهر بالدعاء والصياح به منهي وهو من باب الاعتداء الذي نطقت به الآية الكريمة إلا إذا كان مأموراً به كجهر الأئمة به في خطب الجمعة

---

(1) المنجيات: 8أ.

(2) سورة الأعراف، الآية: 55.

(3) سورة مريم، الآية: 3.

أو العيدين أو الاستسقاء أو التأمين في الصلاة الجهرية عند غير الحنفية والمالكية[1]، أما إذا لم يكن مأموراً بالجهر به كالدعاء في السجود للصلاة أو عقب التشهد الأخير قبل الإسلام، فهو من باب الاعتداء.

والاعتداء ـ الذي هو التجاوز للحدود الشرعية ـ وإن كان لفظه عاماً في كل دعاء إلا أن بعضه أكثر إثماً من بعض، حسب نوع الاعتداء[2].

فمنه: المحرم كطلب المستحيل، وسؤال المعاصي وغيرهما، ومنه: المكروه كالدعاء في مواضع القاذورات والكنائس، وهو ما سيفيدنا به الشهاب القرافي في الباب الثالث بكتابه السالف الذكر.

وعدم محبة الله للمعتدين في الدعاء معناها الحرمان من الثواب، أو سخطه وعقابه.

3 ـ قوله جل شأنه مشترطاً الإخلاص في التوجه إليه بالدعاء: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[3].

والإخلاص هو الخضوع الكامل والخشوع والتذلل مع الاعتقاد الجازم بأنه تعالى هو الواحد الأحد الغني القادر السميع، المتفرد بإجابة الدعوات، وكشف المكروهات.

4 ـ قوله تعالى مبيناً لنا منافع الدعاء: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4].

إن المعنى الظاهري في الآية هو أن الدعاء فائدته الخوف من العقاب والطمع في الثواب، وهو دعاء الأنبياء عليهم السلام في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[5].

---

(1) بدائع الصنائع: 207/1، الشرح الصغير: 248/1.
(2) الجامع لأحكام القرآن: 226/7.
(3) سورة غافر، الآية: 65.
(4) سورة الأعراف، الآية: 56.
(5) سورة الأنبياء، الآية: 90.

ورأى بعض العلماء أن المراد من قوله تعالى: ﴿خَوْفًا﴾ أي: مع الخوف من وقوع الإخلال في بعض الشرائط المعتبرة في قبول الدعاء، وقوله تعالى: ﴿وَطَمَعًا﴾ أي: مع الطمع في حصول تلك الشرائط بأسرها رجاء الإجابة[1].

أما الأحاديث الشريفة الوارد فيها الأمر بالدعاء؛ فمنها:

أ ـ قوله ﷺ: «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل»[2].

ب ـ قوله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يجيب دعاء من قلب غافل»[3].

والتيقن بالإجابة لا يتوقع إلا إذا كان الداعي مستوفياً لما هو مطلوب منه في الدعاء.

فالله تعالى لم يقتصر على أمر عباده بالدعاء، وبيان فضله، بل بين أنه إذا لم يسأل يغضب، فقال إخباراً عن أمة من الكفار غضب الله عليهم لم يتضرعوا إليه حين أصابهم سخطه، فسلط عليهم عذابه: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿43﴾﴾[4].

وقال رسول الله ﷺ: **«من لم يسأل الله يغضب عليه»[5].**

وغضب الله عقابه الشديد على كل من استكبر عن عبادته، دعاء أو غيره كما سبق بيانه قبل قليل.

---

(1) التفسير الكبير: 4/239.

(2) أخرجه الترمذي في سننه عن عبدالله بن مسعود ﷺ (32/557) في كتاب الدعوات رقم: 3571.

(3) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة ﷺ (ت57/676) في كتاب الدعوات رقم: 3479.

(4) سورة الأنعام، الآية: 43.

(5) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة ﷺ في كتاب الدعوات رقم: 3373.

وعبادة الدعاء شأنها شأن أي عبادة من عباداته تعالى لها قواعدها وضوابطها وأحكامها، التي تعرف بفقه الدعاء المتعين معرفته ليسلم التضرع إلى الباري تعالى وسؤاله من أي خلل يعوق الاستجابة.

ومعرفة هذا الفقه ضرورية حتمية لأهمية الدعاء في حياة الإنسان الذي لا غنى عنه في استجداء فضل خالقه، وتصرفاته، وسد خلته، وتيسير أموره، وهديه إلى السير في سبيل الإصلاح، والمن عليه بما يفتقر إليه من صحة وشفاء ودفع ما يصاب به من كروب وبلاء.

ولكن فقه الدعاء هذا ظل مستوراً مشتتاً في بطون دواوين تفسير القرآن الكريم مرتبطاً بتحليل الآيات الكريمة الواردة في موضوعات الدعاء، أو بقي متناثراً بين صفحات مصنفات الحديث الشريف، وشروح العلماء لما صدر عن رسول الله ﷺ في أدعيته. الأمر الذي يعسر على المطالع والقارىء استقراء أحكام هذا الفقه والإحاطة بمسائله وجزئياته.

وظل ـ كذلك ـ مبثوثاً غير مجموع إلى القرن السابع هجري ـ على ما أعلم ـ حتى يسر الله تعالى له من جمعه، وكان على يدي العالم النحرير والفقيه الكبير، والأصولي القدير، والمحقق الشهير شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي. الذي بذل جهداً كبيراً في بحثه واستقصاء أحكامه، وتتبع مظانّه في مصادرها المختلفة المتنوعة، وأودعها في كتابه هذا الذي بين أيدينا. وقد سماه: المنجيات والموبقات في الأدعية ـ أو فقه الدعاء ـ.

وهذا ما صرح به المؤلف عند تبيانه لأقسام الأدعية في الباب الثالث من كتابه هذا حيث قال: «وهذه الأقسام قلّ أن توجد في الكتب، بل كلمات يسيرة توجد في بعضها مشيرة إليها. أما التصريح بها على هذا الوجه، فقليل أو معدوم»[1].

ولا يقلل من قيمة هذا الكتاب العلمية أن الناسخ له أو غيره اعتدى

---

(1) المنجيات: 8أ.

على مؤلفه، والقارىء له، والأمانة العلمية في الباب الثامن والتاسع له، ففي الباب الثامن كتب القرافي عشرة أحاديث من أدعية الرسول ﷺ ولكن لا يوجد منها إلا واحد.

وفي الباب التاسع حرر فيه القرافي عدداً من أدعية السلف الصالح تركت كلها.

وسداً لهذا النقص، وحفاظاً على وحدة الكتاب انتقيت تسعة أحاديث من الصحاح كملت بها الباب الثامن، وأربعة أحاديث كملت بها الباب التاسع والجميع بالهامش مشروحة، وسيأتي بيان هذا مفصلاً عند الحديث عن موضوع الكتاب.

وتبعاً لأهمية هذا الكتاب العالية رغم صغر حجمه، فإنه ذو قيمة علمية فائقة، لما انطوى عليه من فوائد قرّبها ويسّر معرفتها لطالب العلم، ولا سيما أنها تنير درب الداعي الضارع إلى ربه تعالى عند التوجه إليه طالباً فضله العظيم، وخيره العميم، فتبعاً لذلك توجهت همتي إلى تحقيق هذا الكتاب راجياً من ربي تعالى مجيب الداعين التوفيق والفتح عليّ في إنجازه على أحسن ما يرام.

وقد اقتضى العمل لهذا التحقيق توزيعه إلى قسمين:

1 ـ **القسم الأول**: دراسة تمهيدية للتعريف بحياة القرافي وعصره وكتابه الذي نشتغل به.

2 ـ **والقسم الثاني**: تحقيق نص كتابه «المنجيات والموبقات في الأدعية».

* القسم الأول: الدراسة التمهيدية

تناول الحديث في هذه الدراسة ثلاثة فصول:

الفصل الأول: عصر القرافي وأثره فيه: ركزت البيان فيه على أربعة مباحث:

1 ـ السلاطين المعاصرون للقرافي.

2 ـ الصراعات الداخلية والخارجية بهذا العصر، وأثر القرافي فيها.

3 ـ تذمر القرافي وتألمه من فساد الأخلاق في هذا العصر.

4 ـ الحركة العلمية وأثره فيها.

الفصل الثاني: خصصته للتعريف بالمؤلف، وتحدثت فيه عن الجوانب التالية من حياته:

1 ـ الاسم والمولد والنشأة.

2 ـ طلبه للعلم وشيوخه.

3 ـ اشتغاله بالتدريس وتلاميذه.

4 ـ مؤلفاته.

5 ـ إسهامه في المجال الصناعي.

6 ـ اجتهاداته.

7 ـ وفاته.

الفصل الثالث: أفردته لدراسة كتابه الذي بين أيدينا «المنجيات والموبقات في الأدعية» في النواحي التالية:

1 ـ اسم الكتاب الحقيقي.

2 ـ موضوعه.

3 ـ أبوابه، ومناقشة العلماء له في تقرير العديد من مسائله.

* القسم الثاني: تحقيق الكتاب

تناول هذا القسم:

1 ـ **مقدمة التحقيق:** تضمنت أموراً ثلاثة:

أ ـ وصف المخطوطة.

ب ـ الهوامش.

ج ـ الرموز والإشارات.

2 ـ تحقيق نص الكتاب: المنجيات والموبقات في الأدعية.

لقد بذلت أقصى ما عندي من وسع لتحقيق نص هذا الكتاب القيم الجليل وشفعته بكل ما هو مطلوب من كل باحث: إثراء النص بالتعاليق التي تكسبه سعة فيما اشتمل عليه من المعارف، وتزيده جلاء ووضوحاً في إنارة منهج المؤمنين في الضراعة إلى الله تعالى وسؤاله من خيره العميم، وعبادته بالدعاء الذي هو مخ العبادة: وأرجو أن يكون هذا الجهد وافياً بالغرض المقصود، فللّه المنة والفضل وأسأله جل وعلا أن ينفع به ويبارك فيه.

وما توفيقي إلا بالله العليّ العظيم، والحمد لله رب العالمين.

□ □ □ □ □ □

القسم الأول
الدراسة التمهيدية
وبها ثلاثة فصول



الفصل الأول

عصر القرافي وأثره فيه

سأتناول بالبحث في هذا الفصل أربعة عناصر لها مساس بحياة القرافي وأثره في عصره[1]، وتأثيره فيه، وهي:

1 ـ السلاطين الذين عاصرهم القرافي.

2 ـ الصراعات الداخلية والخارجية بهذا العصر وأثر القرافي فيه.

3 ـ تذمر القرافي وتألمه من فساد الأخلاق.

4 ـ الحركة العلمية وأثره فيها.

* * *

1 ـ السلاطين الذين عاصرهم القرافي

عاش القرافي في مصر، موطنه ومسقط رأسه في ظل دولتين: الأيوبية[2] التي قضى بها جزءاً من شبابه ودولة المماليك

---

(1) أوجزت الحديث عن العصر هنا وأطنبته في كتابنا «مجال النية في الفقه الإسلامي» متبوعاً بتحقيق كتاب «الأمنية في إدراك النية» للقرافي.

(2) تنسب هذه الدولة لمؤسسها صلاح الدين بن يوسف بن أيوب (ت532هـ/1137م ـ 589هـ/1193م) الكردي الأصل، بطل الحروب الصليبية، وقاهر الصليبيين/ الكامل: 9/ 101، 226 ـ 227.

البحرية[1] التي قضى بها الجزء الثاني من حياته.

والأيوبيون أصلهم أكراد[2]، والمماليك طوائف مختلفة الأجناس أغلبهم أتراك[3]، والحكم في نظام هاتين الدولتين يحصل بالتوارث اتباعاً للبدعة التي ابتدعها معاوية بن أبي سفيان (ت60هـ/680م) ﷺ في توريث الحكم لابنه يزيد (ت91هـ/683م).

وقد نجم عن هذا النظام التطاحن على السلطة، والتنافس على الحكم حتى بين الإخوة أنفسهم، فالملك الصالح نجم الدين أيوب ـ مثلاً ـ يخلع أخاه الملك العادل ويستبد بالسلطة دونه، وكانت فترة حكمه مليئة بالاضطرابات والفتن بينه وبين أخيه[4].

وتوران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب انقلب عليه مماليك أبيه وقتلوه أشنع قتلة، وأنهوا بذلك دولة الأيوبيين لتحل محلها دولتهم دولة المماليك[5] بدءاً بعز الدين أيبك الملقب بالملك المعز ومبايعته من زملائه المماليك[6].

وسيف الدين قطز، الملك المظفر السلطان الثالث من المماليك يغدر به ركن الدين بيبرس ويقتله.

أما سيف الدين قلاوون الذي انتهى به حكم المماليك فقد انقلب

---

(1) المماليك أصلهم العبيد الذين اشتراهم السلطان الأيوبي نجم الدين أيوب (ت647هـ/1247م) ليكونوا حماة لنظامه، ودعماً لسلطانه، وسموا بالمماليك البحرية، لأن نجم الدين لما اشتراهم أسكنهم جزيرة الروضة، فنسبوا إلى بحر النيل، وكانوا يدعون أيضاً بالمماليك الصالحية نسبة لسيدهم/ بدائع الزهور: 1/83، والسلوك: 1ق 2/361 ـ 362.

(2) الكامل: 9/101.

(3) العبر: 5/806.

(4) بدائع الزهور: 1/83.

(5) النجوم الزاهرة: 6/362.

(6) البداية والنهاية: 13/198 ـ 199.

على أبناء بيبرس واستقل بالحكم[1].

ولما كان هؤلاء السلاطين قابضين على جميع المناصب الهامة في الدولة صاروا هم أصحاب الحل والعقد فيها، ولا يوجد من يحول بينهم وبين خزائنها، فأثروا ثراء فاحشاً، وانغمسوا في البذخ والترف، بما يتوفر للدولة من مكوس وأداءات وضرائب مرهقة جدًّا متنوعة المصادر، وما يجبى من زكاة، وما احتكروه من أراض شاسعة[2].

ومن أجل هذا فإن الشيخ عز الدين بن عبدالسلام الفقيه الشافعي شيخ القرافي لما استفتي في جمع الأموال من المصريين غداة الاستعداد لحرب التتار[3]، أفتى بأن لا يتم ذلك إلا بعد نفاذ ما في بيت المال، ودفع الأمراء والأجناد ما عندهم من أموال وما يملكونه من الذهب والأثاث النفيس والأمتعة الفاخرة[4].

وإضافة إلى ما تميز به سلاطين المماليك عن أفراد المجتمع، فإن سلوكهم كان فظيعاً مشيناً مثيراً للنقمة عليهم. فهم - مثلاً - في سنة (648هـ/1250م) أثناء حكم «أيبك» كثر ضررهم بمصر، وقتلوا الأبرياء، استباحوا الأموال والحريم، وارتكبوا مفاسد يأنف «الفرنج» من فعلها لو كانوا مالكين للبلاد[5].

وفي عام (652هـ/1254م) اعتدوا على أموال الناس وحريمهم وأولادهم، ولم يجسر أحد على منعهم، فكانوا يدخلون الحمامات

---

(1) السلوك: ق 969/1، 1ق 2/ 361 - 362.

(2) الخطط 3: 198/1 - 202، وبدائع الزهور: 1/ 137.

(3) التتار: نوع كثير العدد من الترك متوحشون، مجرمون، لم يشهد التاريخ مثل جرائمهم، خرجوا من أطراف الصين وهم في مسيرهم لا يحتاجون إلى زاد، لأنهم يأكلون ما يجدونه في طريقهم.
وكان أول ظهور لهم ببلاد الإسلام سنة (617هـ/1230م) لما خرجوا إلى تركستان/ الكامل: 9/ 329 - 330.

(4) النجوم الزاهرة: 7/ 72 - 73.

(5) السلوك: 1ق 2/ 380 - 384.

ويأخذون النساء قسراً[1].

فهذه الصفات الدنيئة والأفعال القبيحة المنافية لتعاليم الدين الحنيف التي انفرد بها المماليك جعلت أهل البلاد يكرهونهم، ويحقدون عليهم، وينفرون منهم، ويثورون عليهم متى سنحت الفرصة بذلك.

ولا أدل على هذا من ثورة العربان ببلاد الصعيد وغيرها أيام حكم «أيبك» وإعلانهم بأنهم أصحاب البلاد، وأن الأمر يجب أن يكون لهم لا للأتراك الذين يعتبرونهم عبيداً لهم وخوارج خرجوا عليهم واستبدوا بالحكم دونهم، بل كان المصريون يجاهرون «أيبك» بذلك عند مروره بالطرقات قائلين: لا نريد إلا سلطاناً مولوداً على الفطرة[2].

* * *

2 ـ الصراعات الداخلية والخارجية بهذا العصر وأثر القرافي فيها[3]

تميز عصر القرافي بصراع عنيف مع الأعداء، وبرز في شكلين: داخلي وخارجي:

أ ـ الصراع الداخلي: كان ضد أهل الذمة وخاصة الأقباط منهم الذين قد يكونون شعروا بالقوة بسبب وجود القوات الصليبية المغيرة على المشرق، والتي كانوا يشاطرونها أحقادها على المسلمين والانقضاض عليهم، ولذلك كانوا ينتهزون الفرص لإثارة حرب عقدية ضد الإسلام بما يثيرونه من شكوك في المعتقدات، وما يفعلونه من شبهات حول القرآن الكريم، وبعثة الرسول ﷺ.

---

(1) المصدر السابق: ق 2/380 ـ 384.

(2) المصدر السابق: ق2/386 ـ 390، والنجوم الزاهرة: 7/13.

(3) هذا العنصر منقول حرفياً من كتابنا «مجال النية في الفقه الإسلامي» متبوعاً بتحقيق كتاب «الأمنية في إدراك النية» للشهاب القرافي: 223 ـ 228.

وهكذا وجد المسلمون أنفسهم إزاء عدو داخلي يتربص الدوائر بدينهم، فانبرى علماؤهم لمجابهة هذا الخطر الداخلي المبطن بالنفاق والرياء والمكر والخديعة، الذي لا يقل عنفاً عن الخطر الخارجي. انبرى علماء المسلمين يدافعون عن الإسلام، ويفندون الأكاذيب والأباطيل بالحجج القاطعة والبراهين الصادقة معتمدين قول الحق ﷻ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1].

وقد كان من بين العلماء الذين وقفوا سداً في وجو الأعداء المقنعين، وتفانوا في دفعهم وجهادهم الشهاب القرافي الذي ألف كتاباً سماه «الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة»[2]، بيّن القرافي السبب الذي دفعه إلى تأليف هذا الكتاب قائلاً: «إن بعض النصارى أنشأ رسالة ـ على لسان النصارى مشيراً إلى أن غيره هو القائل والسائل ـ مشتملة على الاحتجاج بالقرآن الكريم على صحة منهج النصرانية»[3].

بدأ القرافي رسالته هذه بمقدمة وضح فيها انبناء عقيدة النصارى على الخيال والأوهام وأنهم ليسوا من أهل الأنظار العقلية، مستشهداً على ذلك بقوله: لقد اجتمع ـ أي: السائل ـ في بعض أعيانهم، المبرز في حلبة سباقهم ليتحدث في أمر دين النصارى، فقلت بحضرة جماعة من العدول: «أنا لا أكلف النصارى إقامة دليل على صحة دينهم، بل أطلبهم كلهم بأن يصوروا دينهم تصويراً يقبله العقل»، فعجز عن ذلك وقال: «ما كلفنا بالتصوير، بل كلفنا المسيح بالاعتقاد، فلا نلتزم بما لا يلزمنا وليس من ديننا»[4].

فما أروع هذا المشهد، وما أجله، وما أعظمه! فهو ينطق بمدى ما

---

(1) سورة النحل، الآية: 125.

(2) هذا الكتاب مطبوع بهامش كتاب «الفارق بين المخلوق والخالق» لعبدالرحمٰن باجه جي.

(3) الأجوبة الفاخرة: 2.

(4) الأجوبة الفاخرة: 9 ـ 10.

يعتمده علماء المسلمين في حجاجهم لغيرهم من وسائل الإقناع، مع إحضار شهود عدول ينصفون المحق من الجانبين، كما يصور لنا مجالس الجدل والمناظرة التي تعقد بين الطرفين.

ويبدو من خلال ما ذكر آنفاً أن هذا الكتاب خاص بالرد على النصارى، وليس الأمر كذلك بل هو يتناول اليهود أيضاً. وذلك أن القرافي جعل كتابه أربعة أقسام.

خصص القسم الأول والثاني ـ وهما يساويان نصف الكتاب تقريباً ـ لجمع ما أورده اليهود والنصارى من أسئلة فاجرة تحمل على التشكيك في صدق القرآن الكريم، وعموم الرسالة المحمدية، والإدعاء بصحة معتقدات أهل الكتاب.

وقد تتبع القرافي كل ذلك شارحاً ضعف حججهم، مدعماً أجوبته بشواهد تاريخية، ونصوص من الكتب المقدسة، لا يسع العقال إلا قبولها، والتسليم بها.

أما الباب الثالث، فقد وضع فيه المؤلف مئة سؤال معارضة لأسئلتهم دامغة لأدلتهم، وملتهم.

وفي الباب الرابع، يستدل على صحة الدين الإسلامي، وصدق النبوة المحمدية، بما نص عليه الأنبياء عليهم السلام، من ذكر اسم محمد ﷺ ونعته وأرضه ووطنه وبلده، وبعد ذلك يعدد القرافي خمسين بشارة دالة على التصديق بما ذكر، مستمدة من كتب أهل الكتاب المعتمدة عندهم، ومن أقوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

فهذا الكتاب يكشف عن عدوان أهل الكتاب وأباطيلهم تجاه الدين الإسلامي في عصر القرافي، ويزود المسلم بعدة تحميه من الوقوع في شباكهم، بل تمكنه من مقاومة ادعاءاتهم بالأدلة الصحيحة، وبهذا خدم القرافي جيله والأجيال اللاحقة التي لا تستغني عن قراءة هذا الكتاب القيم الجليل ليكونوا الدرع الواقي بما قد يوجه إلى الدين الإسلامي من شبه ومكائد، وترهات وأباطيل.

ب ـ الصراع الخارجي: هذا الصراع الذي طغى على الأحداث أحياناً كان ضد قوى الشر والطغيان المتألبة على الإسلام وذويه من الصليبيين وغيرهم، وقد استمات فيه المسلمون، وصابروا ورابطوا، وبذلوا الغالي والنفيس إلى أن كلل الله تعالى جهادهم بأروع الانتصارات في معارك قاسية مريرة.

فقد انتصرت جيوش المسلمين على الصليبيين في الشام، وحرروا بيت المقدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي.

ثم تواصل الكفاح وتوالت هزائم الفرنجة إلى أن تم تطهير آخر أجزاء الشام من نفوذهم سنة (792هـ/1293م)[1].

وبذلك انتهت الحروب الصليبية بشكلها المعروف آنذاك التي استمرت زهاء قرنين من الزمن.

وانتصر المسلمون ـ كذلك ـ في معركة «المنصورة» الكبرى ضد جحافل الصليبيين الفرنسيين الذين هاجموا مصر واستولوا على «دمياط» سنة (647هـ/1249م)[2] فقد تصدى لهم المسلمون بمختلف طبقاتهم بقيادة الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم ابنه السلطان توران شاه، ثم شجرة الدر[3].

وقد صمد الجيش الإسلامي وشدد الخناق على الفرنسيين حتى أوقعوا بهم هزيمة فظيعة سنة (648هـ/1250م)[4]، وكانت لهم درساً بليغاً قضى على أطماع الصليبيين في المشرق.

---

(1) السلوك: 1ق 2/532 ـ 534.

(2) النجوم الزاهرة: 6/362.

(3) شجرة الدر أو شجر الدر: جارية الملك الصالح، وقد ولدت له ابناً دعي خليل، بعد مقتل الصالح في معركة المنصورة في حربه مع «الوبس» ملك فرنسا فسميت أم خليل: عصمة الدين والدنيا وملكة المسلمين، وهي المرأة الوحيدة التي جلست على عرش الخلفاء في مصر وقتلت سنة (654هـ/1259م)/ البداية والنهاية: 3/198، 199.

(4) أبو شامة الذيل على الروضتين: 146.

وانتصر المسلمون أيضاً في أشرف معركة خاضوها برئاسة سيف الدين قطز ضد المغول[1] الذين وصلوا إلى البلاد الشامية، وصار خطرهم يهدد مصر، وتراءت أشباحهم المخيفة منذرة بالسوء من خلال ما تناقله الناس عن أخبارهم المزعجة: بربرية، وتدمير، ووحشية مرعبة... فامتلأت القلوب خوفاً، والنفوس رهبة، والعقول حيرة وارتباكاً. لكن قيادة قطز للجيش الإسلامي سفهت أحلام هؤلاء الطامعين في مصر، فسجل المسلمون أروع انتصار للإسلام، وحققوا أكبر هزيمة للمتوحشين الذين سبق لهم أن انقضوا على بغداد وسحقوا حضارة الإسلام بها، وعاثوا فيها فساداً[2]، ولما أرادوا التمادي في بربريتهم وصلفهم تصدى لهم الجيش الإسلامي وسحقهم في موقعة «عين جالوت»[3] سنة (658هـ/1259م) وشرد جموعهم وأنزل الله في قلوبهم الرعب فانكسرت شوكتهم، وتحطمت قوتهم، وخاب أملهم في هذه المعركة الحاسمة[4] التي صدت خطر أولئك الهمج عن بلاد المسلمين.

لقد بقي المسلمون لهؤلاء بالمرصاد فطاردهم بعد ذلك الملك الظاهر بيبرس في تلك السنة نفسها[5] وهزمهم الملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة (680هـ/1281م)[6].

---

(1) المغول والتتار: نوع كثير العدد متوحشون برابرة مجرمون سكان «منغوليا» لم يشهد التاريخ مثل جرائمهم وتخريبهم، اجتاحوا آسيا من مشرقها إلى مغربها، أسس إمبراطوريتهم «جنكيز خان» (632هـ/1227م) وثبت أركانها «تيمورلنك» (791هـ/1405م) واستمرت إلى أن اضمحلت سنة (1220هـ/1806م) كان أول ظهورهم ببلاد الإسلام سنة (617هـ/1230م) بتركستان/ الكامل: 9/329.

(2) البداية والنهاية: 13/200 ـ 204.

(3) عين جالوت: اسم أعجمي، بلدة بين «بيسان» و«نابلس» من أعمال فلسطين كان الروم قد استولوا عليها، ثم استرجعها صلاح الدين الأيوبي سنة (579هـ/1103م)/ معجم البلدان: 6/254.

(4) البداية والنهاية: 13/200 ـ 204.

(5) النجوم الزاهرة: 7/168.

(6) هو: الملك المنصور سيف الدين قلاوون آخر حكام المماليك البحرية التي سقطت سنة (787هـ/1385م)/ بدائع الزهور: 1/245 ـ 257.

إن هذه الأحداث الكبرى الجسام التي تخللت عصر القرافي لا يستطيع أي مسلم إلا أن ينفعل بها ولو تناءت به الديار، وخاصة عظماء الإسلام والعلماء الذين يجب أن يكونوا في مقدمة المتصدين لجحافل الأعداء التي تريد القضاء على الدين الإسلامي بالاستيلاء على معاقله، ومراكز القوة فيه بلداً إثر بلد.

والشهاب القرافي كان من ضمن هؤلاء الغيورين المتأثرين بهذه الأحداث فألف كتاباً سماه: «البارز للكفاح في الميدان»[1].

هذا الكتاب مفقود، ولا نعلم شيئاً من محتواه إلا أن عنوانه يفصح على أن موضوعه: المجاهدون الأبطال، وشرف الجهاد وساحات الجهاد لإعلاء راية الإسلام ورد كيد أعدائه وكسر شوكتهم.

ومن الممكن أن يشتمل على وصايا قيمة، ونصائح سامية وتوجيهات بليغة لبعث الحمية، والشجاعة في الجنود، وزرع الثقة في نفوسهم حتى ينطلقوا إلى الكفاح بقلوب مطمئنة، وعزيمة قوية، وإرادة صماء على الاستماتة حتى النصر.

وقد يكون هذا الكتاب يشتمل على خطط في فن القتال، وكيفية استعمال السلاح والكر والفر وغير ذلك مما يجب على الجندي معرفته معرفة ضرورية. وهذا يقضي أن يكون المؤلف من صنف الذين مارسوا المعارك، وحصلت لهم تجارب وخبرات بساحات الوغى، غير أنه ليس لدينا ما يؤكد خروج الشيخ القرافي إلى المعارك في تلك الظروف العصيبة على المسلمين، وخاصة في معركة المنصورة الفاصلة التي تفرض على عموم المسلمين مجابهة عدوهم بكل ما أوتوا من قوة. هذه المعركة التي خرج فيها العلماء، ومن بينهم: عز الدين بن عبدالسلام أستاذ القرافي موجهاً مرشداً، منادياً الريح بأن تهب لصالح المسلمين فاستجاب الله دعاءه، وانهزم الأعداء، وتحطمت مراكبهم وغرق أكثرهم، وفاز المسلمون

---

(1) الديباج: 65.

بنصر مبين[1].

فإذا كان العز بن عبدالسلام ـ وهو شيخ القرافي ـ قد صاحب الجيش للمعركة فهل يعقل أن يتخلى الشباب من طلبته ـ كالقرافي ـ عن هذا الواجب المقدس؟ ألا يخجل هؤلاء من أستاذهم إن لم يقوموا بواجب الدفاع عن بلاد الإسلام، وهم على حال من الفتوة والقوة، بحيث يجب أن يكونوا في الصفوف الأمامية؟

هذه النقطة غامضة، وستبقى ـ كذلك ـ إلى أن نتمكن من العثور على هذا الكتاب أو مصدر آخر يجيب عن تساؤلنا؟ ولكن المحقق هو مشاركة القرافي الفعلية في معالجة هذه المصاعب، والذود عن الدين بقلمه وعلمه، أو بعدته الحربية.

* * *

3 ـ تذمر القرافي وتألمه من فساد الأخلاق في عصره

نشأ عن فساد أولئك السلاطين السالف الذكر وفجورهم تدهور في الأخلاق، واستهتار بالقيم العليا، وإخلال بموازين العدالة، صور لنا الشاعر البوصيري[2] رحمه الله تعالى شيئاً منه في نونيته الطويلة. واصفاً فيها انحراف سلوك الناس. واقتراف المنكرات وخاصة ممن اعتمدتهم الدولة كأمناء للقيام بمصالح الأمة. وهم الموظفون الذين كان الشاعر واحداً منهم، وشاهد عن كثب فسقهم وفحشهم، وظلمهم، وابتزازهم للأموال بالرشوة والسرقة، فحديثه عنهم حديث شاهد عيان، فقال: [الوافر]:

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى: 84/5.

(2) البوصيري: محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري (ت608هـ/1212م ـ 696هـ/1376م)، وهو صاحب قصيدة «البردة» الشهيرة في مدح الرسول ﷺ/ فوات الوفيات: 362/3 ـ 363.

ثكلت طوائف المستخدمين فلم أر فيهم رجلاً أمينا
فخذ أخبارهم مني شفاهاً وانظرني لأخبرك اليقين

ثم قال:

وكيف نلوم فساق النصارى إذا خانت عدول المسلمين
ولولا ذاك ما لبسوا حريراً ولا شربوا خمور الأندرينا
ولا ربّوا من المردان قوماً كأغصان يقمن وينثنينا[1]

ويواصل البوصيري نشر فضائح هؤلاء الناس ومثالبهم ما لا يتسع المقام لذكره، ثم يندد بالفقهاء حملة الشريعة قضاة وأمثالهم. الذين كان من الواجب أن يكونوا أسوة للأمة في الصلاح والتقوى لا في الظلم والجور والفساد، فيقول واصفاً لهم:

تحيلت القضاة فخان كل أمانته وسموه الأمينا
وكم جعل الفقيه العدل ظلماً وصير باطلاً حقاً مبينا
وما أخشى على أموال مصر سوى من معشر يتأولونا[2]

فمن خلال هذا الوصف السيئ للانحراف يتجلى ضعف هيبة الدين، ووهن وازعه في النفوس حتى فشت أخبار المجون والاستهتار، وتجاوزت حدود البلاد المصرية، ولذلك رأينا ملك تونس المستنصر بالله الحفصي[3] لما بعث بهديته للملك الظاهر «بيبرس» ينحى عليه باللائمة لسكوته عن الفساد المنتشر في مصر، منكراً عليه ما يجري في مملكته من المنكرات والتظاهر بها[4] وإن كان «بيبرس» قد سجل له التاريخ قبل هذه المراسلة

---

(1) ديوان البوصيري: 218.
(2) المصدر السابق.
(3) هو: أبو عبدالله بن أبي زكرياء بن عبدالواحد الحفصي (675هـ/1276م). بويع بالحكم في تونس سنة (647هـ/1249م)، ولقب بأمير المؤمنين والمستنصر بالله/ المؤنس في أخبار أفريقيا تونس: 125 ـ 128.
(4) السلوك: 1ق 2/ 601.

مواقف صارمة ضد الانحلال الخلقي، حيث أصدر قوانين رادعة ضد العابثين المفسدين[1].

ومن أفظع مواطن الفساد، وسقوط الدول إسناد المناصب والوظائف في الدولة إلى غير الأكفاء والجهلة بالرشوة، والمحسوبية، أو الملق والنفاق.

وهذا وغيره قد أثر على الشهاب القرافي وجعله يتألم منه، فقد كان يكثر من ترديد بيتين للشاعر حافي رأسه[2] متألماً [طويل]:

عتبت على الدنيا لتقديم جاهل   وتأخير ذي علم فقالت: خذ العذرا
بنو الجهل أبنائي، وكل فضيلة   فأبناؤها أبناء ضرتي الأخرى[3]

* * *

4 ـ الحركة العلمية وأثر القرافي فيها[4]

بالرغم من الصراع العنيف الذي عرفه المجتمع في هذا العصر، فإن الحياة العلمية قد شهدت انتشاراً، وتقدماً ملموساً، ورقياً ثقافياً، وحركة فكرية دائبة، تنوعت اتجاهاتها وأغراضها، رفع مشعلها عباقرة أعلام كانوا، ولا يزالون منارات هادية إلى سبل الخير والحق والصلاح بما تركوه من آثار جليلة قيمة.

لقد تضافرت عدة أسباب في ازدهار هذه الحركة العلمية. إلا أني سأقتصر على ذكر اثنين منها، قد يكون لهما تأثير أكثر من غيرهما: عناية بعض الملوك والسلاطين بالعلوم، ثم توفر المؤسسات العلمية.

---

(1) المصدر السابق.
(2) أبو عبدالله محمد بن عبدالعزيز المازوني التلمساني (606هـ/1209 ـ 680هـ/1281م) شاعر وفقيه مالكي/ مخلوف، شجرة النور الزكية: 201.
(3) ابن فرحون: الديباج: 68.
(4) هذا العنصر منقول حرفياً من كتابنا «مجال النية في الفقه الإسلامي»: 228 ـ 233.

أ ـ عناية بعض الملوك والسلاطين بالعلوم ورجالها:

إذا كان السلاطين وأمراؤهم يجودون بأنفسهم في ساحات القتال نصرة للدين، ويتعرضون للاستشهاد دفاعاً عن حوزته وأهله ومعاقله، فإن من يساعد على ترقية العلوم الإسلامية والاشتغال بها سوف لا يقل أهمية عن ذلك؛ لأن نصرة الإسلام لا تقتصر على هزيمة أعدائه في ميدان المعارك، بل نصرته في مختلف الجبهات التي من أهمها:

نشر مبادئه وتعاليمه، وتركيز ثقافته ومعارفه، والعمل على إشاعتها وتقريبها من الناس، وهو من أوكد الواجبات. ولهذا اهتم الأيوبيون والمماليك اهتماماً خاصاً بهذه الناحية الدينية، يتجلى في سيرة حكامهم ومدى عنايتهم بالثقافة الإسلامية على اختلافها.

وقد ظهرت هذه العناية في تأسيس المدارس، وحب العلم ورجاله، وإكرام ذويه وإغرائهم بالمناصب العالية، ويعتبر صلاح الدين الأيوبي المثل الأعلى في هذا[1]، ثم اقتدى به من بعده.

وهذا ـ مثلاً ـ الملك الكامل، كان حريصاً على قضاء سمره في البحث العلمي والنقاش والمناظرة رفقة عدد من العلماء، فكان يهيىء لهم الفراش الوثير ليبيتوا بجانبه حباً فيهم، ورغبة في الأخذ عنهم.

وقد انتشرت العلوم والآداب في زمانه، ولقيت رواجاً منقطع النظير[2] إضافة إلى المدرسة التي أسسها ونسبها إليه ـ الكاملية ـ وجعلها خاصة بالحديث والفقه الشافعي[3].

والملك الكامل هو الذي أحسن إلى ابن عبدالمعطي[4] الذي استقر

---

(1) طبقات الشافعية: 4/330.

(2) السلوك: 1ق 1/259.

(3) الخطط: 3/335.

(4) هو: زين الدين يحيى بن المعطي الزواوي المغربي النحوي (564هـ/1168م ـ 628هـ/1230م)/ وفيات الأعيان: 6/147.

بدمشق مدرساً، فرغبه الكامل في الانتقال إلى مصر لتدريس الآداب بجامع «عمرو بن العاص» وخصص له مرتباً شهرياً مغرياً[1].

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب يجري المعاليم والمرتبات والأرزاق للعلماء[2] وهو الذي بنى المدرسة الصالحية التي تعتبر من كبريات المدارس، وخصصها لتدريس فقه المذاهب الأربعة السنية[3]، وانتدب لها شيوخاً أكفاء من أمثال عز الدين بن عبدالسلام الذي كان محل تقدير ورعاية من قبل هذا الملك. ثم الملك الظاهر «بيبرس» الذي كان لا يتخطى آراءه وأقواله[4].

وقد عرف «بيبرس» ـ أيضاً ـ بحبه للعلماء، وجلبه للنبهاء والعارفين في شتى أنواع الفنون والمعارف وخاصة المؤرخين منهم، حيث كان كثير الميل إليهم يطلب منهم أن يسردوا على مسامعه أخبار الدول الماضية وأخبار أهلها، ونظمهم وأحداثهم للاتعاظ والاعتبار، اعتقاداً منه أن سماع ذلك أبلغ من التجارب[5].

وأنشأ الملك «سيف الدين قلاوون» المدرسة المنصورية الكبرى النادرة آنذاك، ورتب بها العلماء في مختلف الاختصاصات لتدريس علم القراءات والتفسير، وفقه المذاهب الأربعة، وتحفيظ القرآن الكريم[6].

ولعل في هذه الأمثلة دلالة على عناية الحكام بالعلم وذويه، وإشارة إلى أن حب العلماء وتكريمهم على هذا النحو يبعث على طلب المعرفة، ويحث على تحصيلها، زيادة عما كان يصل إليه العلماء من مناصب سامية في الدولة كالوزارة والقضاء وغيرهما من الوظائف التي كانت مطمح أنظار

---

(1) المصدر السابق.
(2) السلوك: ق1 2/ 341.
(3) الخطط: 3/333 ـ 334.
(4) طبقات الشافعية: 5/ 101 ـ 102.
(5) النجوم الزاهرة: 7/ 182.
(6) السلوك: ق1 3/ 1001.

الكثيرين مهم، ومثاراً للتنافس، ومدعاة إلى تحريك الهمم، وشحذ العزائم للإقبال على الدروس وتحصيل المعارف.

ب ـ المؤسسات العلمية:

تنوعت وسائل الإشعاع العلمي في هذا العصر، واختلفت درجاتها من حيث الأهمية والتنظيم، وكان أبرزها الجوامع والزوايا والمدارس، فالجوامع كانت مراكز هامة لنشر العلوم الدينية واللغوية والثقافية منذ عهود الإسلام الأولى، واستمرت ـ كذلك ـ تقوم بهذه الوظيفة.

وقد اشتهر منها جامع «عمرو بن العاص» الذي كان محل رعاية من طرف الحكام، وأهل البر آنذاك، حيث تسابق العديد منهم إلى إنشاء ثماني زوايا به، لتدريس العلوم الإسلامية، وأوقفوا عليها الأوقاف، ورصدوا لها الأرزاق لتؤدي واجباتها الثقافية على أحسن الوجوه[1].

وقد تشرف الشهاب القرافي بأن كان أحد مدرسي هذا الجامع العتيق والحاملين لمشعل المعارف فيه[2].

وكانت بعض الزوايا تسهم بقسط وافر في النشاط العلمي، كزاوية ابن منظور[3] التي كان يعقد فيها حلقات دروس في الفقه والحديث على أتباعه ومريديه[4].

أما المدارس، فهي أكثر تنظيماً وجدوى، وقد تعددت وانتشرت بفضل تأسيس الملوك لها، واقتداء الكثيرين بهم كالوزراء، والأمراء، وذوي البر والإحسان الذين سارعوا إلى تشييدها ابتغاء لوجه الله تعالى، أو

---

(1) الخطط: 449/3.

(2) تاريخ الإسلام: 33 ـ 34ب.

(3) القاضي جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (630هـ/1232م ـ 771هـ/1311) صاحب «لسان العرب» الموسوعة اللغوية الشهيرة. الدرر الكامنة: 262/4 ـ 264، والخطط: 449/3.

(4) الخطط: 449/3.

حباً في الذكر والشهرة كالمدرسة «الصاحبية»[1] التي تعلم بها القرافي[2] وغيرها من عشرات المدارس التي يضيق المقام عن ذكرها[3]، وكانت على غاية من الدقة والانضباط، من حيث ترتيب المدرسين حسب اختصاصاتهم، والطلبة، والموظفين القائمين بشؤونها ومرتباتهم[4].

أما نوع التعليم الذي يتلقاه الطلبة في هذه المدارس فيبدو أنه يشمل المرحلة الثانوية والعالية طبقاً لما جاء عن السبكي[5] في حديثه عن المدارس، والطريقة التي ينبغي انتهاجها في التعليم، فقد قال موصياً المدرس: «وحق عليه أن يحسن إلقاء الدرس، وتفهيمه للحاضرين، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي إليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدربهم، ويأخذهم بالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق».

«وإن كانوا منتهين فلا يلقي إليهم الواضحات، بل يدخل بهم في مشكلات الفقه ويخوض بهم في عبابه الزاخر»[6].

وبالنسبة للأطفال فهم يوجهون في البلدان المشرقية كلها إلى حفظ القرآن الكريم بواسطة التلقين والتدريب على الخط[7] في مكاتب أعدت لهم في الجوامع والمدارس أو على حافة الشوارع، أو أطراف الأسواق، ويغرس فيهم الفقيه[8] ـ زيادة على ذلك ـ الأخلاق الفاضلة، وينفرهم من الأفعال القبيحة ويعلمهم العقائد وأصول الحساب، وكيفية تحرير

---

(1) أسسها الصاحب صفي الدين علي بن شكر (622هـ/1225م) كان وزيراً للملك العادل وأوقفها على المالكية/ الخطط: 3/328 ـ 331.

(2) تاريخ الإسلام: 3433ب.

(3) يراجع في هذا الموضوع ـ مثلاً ـ الخطط 3.

(4) انظر ـ مثلاً ـ السلوك 1ق 3/ 1001 في تنظيم المدرسة.

(5) تاج الدين عبدالوهاب بن علي السبكي (727هـ/1326 ـ 771هـ/1369). الدرر الكامنة: 2/425 ـ 428.

(6) معيد النعم: 147.

(7) نهاية الرتبة في طلب الحسبة: 162 ـ 163.

(8) الفقيه: معلم القرآن، ويدعى أيضاً: المؤدب.

المراسلات ويحفظهم شيئاً من الأشعار الرصينة الحافزة على التهذيب[1].

لقد أقبل الطلبة على تلك المدارس يكرعون من مناهلها الصافية، ويأخذون المعارف عن أفاضل العلماء فشاع أمر هذه الدارس في البلدان الإسلامية ووفد إليها العديد من العلماء والطلاب الذين كانوا لا يكتفون بما يتلقونه في بلدانهم، فيرحلون في طلب المزيد، والاطلاع على ما جد واستحدث وابتكر من طرق ووسائل، ومناهج وفنون، ولا يبالون بما يقطعون من مسافات وما يلاقونه من صعوبات وأخطار في سبيل تحصيل العلم. وخاصة من أقطار المغرب العربي، وسواء أكانت هذه الرحلات علمية بحتة، أو كان الغرض منها التوجه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، ثم تلقي العلوم.

ففي تونس - مثلاً - رأينا قاضي الجماعة، أبا القاسم ابن علي التنوخي المهدوي (580هـ/1184 - 677هـ/1278م) الذي انتهت إليه رئاسة العلم في وقته يرتحل إلى المشرق لتنمية معارفه وتلوين مصادر ثقافته، والأخذ عن علماء القاهرة والإسكندرية[2].

وهذا القاضي أبو محمد عبدالحميد الصدفي الطرابلسي (606هـ/1209 - 684هـ/1285م) قد سافر إلى المشرق مرتين وأخذ عن عدة شيوخ منهم: عز الدين بن عبدالسلام[3].

وذاك قاضي الجماعة ابن زيتون، أبو محمد ابن أبي بكر (621هـ/1224 - 691هـ/ 1291م) مفتي إفريقية، وقطب أصولها وفروعها، والمرجع في أحكامها رحل إلى المشرق مرتين أيضاً وقد أكب في الأخيرة على طلب العلم في المدرسة الفاضلية[4]، ومدرسة الصاحب ابن شكر[5]

---

(1) نهاية الرتبة في طلب الحسبة.

(2) شجرة النور الزكية: 191.

(3) المصدر السابق: 192.

(4) أسست هذه المدرسة سنة (580هـ/1184)، ونسبت لصاحبها القاضي الفاضل: عبدالرحيم البيساني (598هـ/1199م)/ الخطط: 3/319 - 321.

(5) الديباج: 99 - 100.

ثم عاد إلى تونس بعلم غزير، وأساليب جديدة في العقليات كانت مصدر إشعاع في هذا الميدان[1].

وبالجملة فقد أدت هذه المدارس رسالتها العلمية، وكانت سبباً من أسباب ازدهار الثقافة، ولكنها ما كانت لتنهض بهذه الرسالة لولا رعايتها من طرف مؤسسيها، وذلك برصد الأوقاف التي تفي بحاجياتها، ولولا العلماء المباشرون للتدريس فيها.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(1) المقدمة: 772.



الفصل الثاني

حياة القرافي

سأتحدث في هذا الفصل[1] عن الجوانب التالية من حياته: الاسم والمولد والنشأة ـ طلبه للعلم وشيوخه ـ اشتغاله بالتدريس وتلاميذه ـ مؤلفاته ـ إسهامه في المجال الصناعي ـ اجتهاداته ـ وفاته.

1 ـ الاسم والمولد والنشأة:

اسمه أحمد وهو الذي ذكره بنفسه في مؤلفاته والمعروف به في الكتب المترجمة له، ويكنى بأبي العباس، ولا يعرف هل أنجب ولداً حقاً أو ذلك تيامن بالإنجاب طبقاً للتقاليد التي دأب عليها العرب في مسمياتهم، لما لها في أعرافهم من المقام الرفيع والتشريف؟ إنها تعرف الشخص بأعز الأسماء عنده، وأحبها لديه، وألصقها بنفسه بصرف النظر عن البنوة الحقيقية أو المرجوة.

وقد لقب بشهاب الدين تبعاً لما كان معهوداً عند المشارقة، من إطلاق مثل هذه الألقاب على مشاهير العلماء والعظماء، والسلاطين والأمراء، حسب إسهام كل من أولئك في إعلاء شأن الدين، وخدمة الإسلام وعلومه وثقافته.

---

(1) اختصرت الحديث في هذا الفصل مما أطنبته عنه، وفصلته في كتابنا «مجال النية في الفقه الإسلامي» متبوعاً بتحقيق كتاب «الأمنية في إدراك النية» للقرافي.

فنجد ـ مثلاً ـ صلاح الدين الأيوبي، وجمال الدين عثمان ابن الحاجب الفقيه المالكي، وعز الدين بن عبدالسلام، وركن الدين «بيبرس».

ولعل إطلاق لقب شهاب الدين على القرافي لما امتاز به من النظر البعيد، وشدة عارضته في الحجاج، وقوة أدلته وبراهينه في مجادلة الخصوم، ومناظرتهم، ودحض شبه الأعداء والمناوئين للإسلام، كما سيتضح لنا ذلك في البعض من مؤلفاته.

أما نسبه فهو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن العلاء إدريس بن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن يلين[1].

وقد تعددت نسب القرافي، فهو المصري المالكي، القرافي الصنهاجي، فالمصري والمالكي معروفان[2].

أما تسميته بالقرافي والصنهاجي فتكفل هو نفسه ببيان سبب تسميته بذلك عندما تحدث في كتابه «العقد المنظوم في الخصوص والعموم عن صيغ العموم» المستفادة من النقل العرفي دون الوضع اللغوي، حيث قال:

«وهذا الباب يكون العموم فيه مستفاداً من النقل خاصة، وذلك هو أسماء القبائل التي كان أصل تلك الأسماء لأشخاص معينة من الآدميين كتميم وهاشم، أو لامرأة كالقرافة، فإنه اسم لجدة القبيلة المسماة بالقرافة، ونزلت هذه القبيلة بصقع من أصقاع مصر لما اختطها عمرو بن العاص[3] ومن معه من الصحابة رضوان الله عليهم فعرف ذلك الصقع بالقرافة وهو الكائن بين مصر وبركة الأشراف المسمى بالقرافة الكبيرة»[4].

---

(1) الديباج: 63.

(2) المصدر السابق.

(3) عمرو بن العاص القرشي السهمي، أحد القواد المشهورين في عهد الرسول ﷺ وبعده، ولّاه عليه الصلاة والسلام «عمان» وحضر فتوح الشام، وهو الذي فتح مصر والإسكندرية. مات بمصر سنة نيف وأربعين للهجرة. الإصابة: 650/4.

(4) القرافة: خطة بالفسطاط من مصر كانت لبني غصن بن سيف بن وائل من المعافر، وقرافة بطن من المعافر نزلوها فسميت بهم، وهي اليوم مقبرة أهل مصر. معجم البلدان: 43/7 ـ 44.

«واشتهاري بالقرافي ليس لأني من سلالة هذه القبيلة، بل للسكنى بالبقعة الخاصة مدة يسيرة، فاتفق الاشتهار بذلك. وإنما أنا من صنهاجة الكائنة من قطر مراكش بأرض المغرب»[1].

أما مولده ونشأته فقد أخبر عنهما بنفسه ـ كذلك ـ في «العقد المنظوم في الخصوص والعموم» حين قال:

«ونشأتي ومولدي بمصر سنة (262هـ)[2] الموافق لسنة 1228 ميلادي.

2 ـ طلبه للعلم وشيوخه:

إن ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أن تعلم القرافي قد لا يختلف عما تلقاه معاصروه من ضروب المعارف، وشتى أنواع العلوم في مراكز التعليم المختلفة، التي سبق الحديث عنها في الفصل السابق، ولكن المطلوب معرفته هنا هو معرفة تكوينه تكويناً علمياً صحيحاً، ومعرفة شيوخه الذين كان لهم النصيب الأكبر في توجيهه الحكيم، وتربية وجدانه، وتهذيب مداركه، وصقل عقله وشحذ عزائمه ليقبل على المعارف مغرماً بها، محصلاً لها، حتى امتلأ وطابه، وصار إمام عصره في ميادين اختصاصه.

وهؤلاء الشيوخ نصت المصادر التاريخية على أربعة منهم خلال الترجمة الشخصية للقرافي أو الترجمة الشخصية لكل منهم.

وسوف نتحدث عنهم بإيجاز لندرك مدى تأثير كل منهم في إعداد شخصية القرافي العلمية، وما استفاد به منهم، ونعرف ـ كذلك ـ مبلغ فضل هؤلاء الشيوخ الأجلاء ورفعة شأنهم، وسمو جميلهم، وعظيم قدرهم، وما بذلوه في سبيل نشر العلم وتسليم المشعل لغيرهم من طلابهم، والأجيال اللاحقة.

---

(1) العقد المنظوم للقرافي: 59أ ـ 59ب.

(2) المصدر السابق.

هؤلاء الشيوخ هم مالكيان: ابن الحاجب، والشريف الكركي، وشافعيان هما: عبدالعزيز بن عبدالسلام، والخسروشاهي[1].

أ ـ ابن الحاجب[2]: هو أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر المصري[3] الدمشقي[4] ثم الإسكندري[5].

ترك ابن الحاجب آثاراً علمية جليلة لا تزال شاهدة له برسوخ قدمه في العلوم نذكر منها على سبيل المثال: «الجامع بين الأمهات» في الفقه، و«الشافية» في الصرف و«الكافية» في النحو، وكلاهما متن موجز.

أما في أصول الفقه فله كتاب «منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل»، وكان من أشهر تلاميذه شهاب الدين القرافي، ولكن المصادر لم تبين لنا ما تلقاه القرافي من شيخه، ولا أين أخذ منه؟

والذي يظهر أنه جلس للتعلم عن شيخه ابن الحاجب بعد عودته من دمشق، وانتصابه للتدريس بالمدرسة الفاضلية.

---

(1) الديباج: 62 ـ 67.

(2) الديباج: 63، 189 ـ 190، ووفيات الأعيان 248/3 ـ 249، والطالع السعيد: 188 ـ 189، والبداية: 155/13، وشجرة النور: 166.

(3) هو مصري لأنه ولد بها، وباشر تعلمه بالقاهرة التي حفظ بها القرآن الكريم وبدأ بدراسة علم القراءات والحديث الشريف والفقه المالكي.

(4) وهو الدمشقي لأنه انتقل إلى دمشق، وواصل فيها السعي إلى طلب العلم والتفرغ له إلى أن شهد له شيوخه بالتفوق وأجازوه بالتربع للتدريس، فانتدب للتعليم بالجامع الأموي بالزاوية المالكية.

فكان المدرس البارع الناجح إلى أن حدث إمضاء الملك الصالح «إسماعيل» صلحاً من الصليبيين، فثارت ثائرة المسلمين بقيادة ابن الحاجب وعبدالعزيز بن عبدالسلام، فأخرجهما السلطان من دمشق سنة (638هـ/1240م)، فاتجها إلى مصر واستقرا بها، وهناك في مصر اختير ابن الحاجب للتدريس بالمدرسة الفاضلية.

(5) أما الإسكندري فلأنه بعد قضاء عدة سنوات في عطائه العلمي بالمدرسة الفاضلة كره البقاء بمصر فغادرها إلى الإسكندرية التي لم يستقر بها طويلاً حتى عالجته منيته فيها سنة (646هـ/1248م).

ومن المفروض أن يكون القرافي قد تلقى من أستاذه ما اختص به من العلوم التي برع فيها كعلم القراءات، وعلوم العربية، وأصول الفقه، وما يتصل بهذه المادة من فنون المناظرة والجدل والفقه، حيث كان للقرافي في ذلك باع طويل تدريساً وتأليفاً.

ب ـ **الشريف الكركي**[1]: أبو عبدالله محمد بن عمران بن موسى الشريف الحسيني المغربي، الذي ولد ونشأ بمدينة فاس، وبها تعلم ودرس الفقه المالكي.

ولكن حبه للعلم دفعه إلى الارتحال للمشرق، وهناك لازم الشيخ عز الدين بن عبدالسلام للأخذ عنه ملازمة مكنته من الفقه الشافعي، وصار العالم الذي يشار إليه بالبنان وشيخاً للمالكية والشافعية بمصر والشام في زمانه، توفي سنة (688هـ/1289م أو 689هـ/1290م)[2].

ومن أشهر طلبته القرافي الذي كان يثني عليه، ويشيد بمكانته العلمية فمن ذلك قوله واصفاً إياه: «إنه تفرد بمعرفة ثلاثين علماً وحده، وشارك الناس في علومهم»[3] وكفى بهذه الشهادة صدقاً على قيمة الرجل المعرفية.

أما ما أخذ عنه القرافي من علوم، فمن المرجح أن يكون الفقه في مقدمة تلك العلوم لتبحر الكركي فيه.

ج ـ **عبدالعزيز بن عبدالسلام**[4]: أبو محمد عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمي شيخ الإسلام المقدسي، ثم الدمشقي، ثم المصري الملقب بسلطان العلماء.

ولد بدمشق خلال سنة (577هـ/1171م) أو سنة (578هـ/1172م)،

---

(1) الديباج: 332.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

(4) طبقات الشافعية: 5/80 ـ 81، والبداية: 13/236، والديباج: 63، وكشف الظنون: 2/1359 ـ 1360، والنجوم الزاهرة: 7/208.

وبها نشأ وتربى وتعلم على نخبة من العلماء، فظهر نبوغه، وشرع في العطاء العلمي، ثم أسندت إليه خطابة الجامع الأموي بدمشق إلى أن خرج صحبة ابن الحاجب ـ كما أسلفنا ـ من بلده، وتوجه إلى مصر، وبها استقر وقد أسندت إليه خطة قاضي القضاة، وخطابة جامع «عمرو بن العاص» ولكنه عزف عن ذلك، وتفرد لنشر العلم في المدرسة الصالحية التي كان من أكبر مدرسيها[1].

وقد ظهر تفوق العز خاصة في التفسير وأصول الدين وأصول الفقه، ونبغ في الفقه نبوغاً بوأه منصب الاجتهاد.

ومن المؤكد أن القرافي جلس لتلقي العلم عن شيخه في «المدرسة الصالحية» أين كان يلاقي طلبته، ويخصهم بمحاضراته القيمة، التي كانت محل إكبار وإجلال وإعجاب.

ومن بين المعجبين بهذا الشيخ العالم الوقور تلميذه القرافي الذي كان يعجب بقوة شخصيته وموهبته وذكائه وغزارة علمه والإشادة بمواقفه وسرد مآثره.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في وصفه له في كتاب «الفروق» في الفرق «الخامس والتسعين بين قاعدة استقبال الجهة في الصلاة وقاعدة استقبال سمت الكعبة ودفع ما يرد عليها من إشكالات» قال:

«ولم أر أحداً حرره هذا التحرير إلا الشيخ عز الدين بن عبدالسلام رحمه الله وقدس روحه، فلقد كان شديد التحري لمواضع كثيرة في الشريعة معقولها ومنقولها وكان يفتح عليه بأشياء لا توجد لغيره»[2].

أخذ القرافي عن شيخه كثيراً من المعارف، لعل أبرزها أصول الدين وأصول الفقه والفقه، ولا سيما القواعد الفقهية التي تستدعي جودة الذهن، ودقة الملاحظة والصبر على الاستقراء وتقصي الجزئيات، فقد وجدت من

---

(1) البداية: 236/13.

(2) الفروق: 157/2.

شيخ القرافي اهتماماً بالغاً، وصنف فيها كتاب «القواعد الكبرى» و«القواعد الصغرى» و«قواعد الأحكام في مصالح الأنام».

كما عرفت عن الطالب شدة تأثره به في هذا الفن ولعله كان الباعث القوي في انتهاج مسلك التقعيد في جل مؤلفاته، وكتابه «الفروق» أكبر دليل على ذلك فقد اشتمل على سبعين ومئتي فرق بين كل قاعدتين، وبذلك تكون جملة قواعده أربعين وخمسمئة.

د ـ **الخسروشاهي**[1]: من شيوخ القرافي البارزين عبدالحميد بن عيسى بن عمويه الشافعي المولود بقرية «خسروشاه» بلدة صغيرة بينها وبين «تبريز» ستة فراسخ ذات سوق وعمارة.

علا نجمه في العلوم الشرعية العقلية، والأصول الطبية بالبلاد الشامية، واستقر بدمشق مدرساً ومؤلفاً حتى أدركته منيته سنة (652هـ/1254م).

ولما كان مجال إشعاعه العلمي في الشام، فإنه من الممكن أن يكون ذهب إلى مصر وفيها لقي القرافي، وسمع منه، كما يرى ذلك شيخ تونس الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور[2] في كتابه «حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب التنقيح»[3].

أعجب القرافي بشيخه وسعة علمه فأحبه، وكان كثيراً ما يستشهد بأقواله فمن ذلك ثناؤه على سعة مداركه وجودة عقله، وقدرته العجيبة في

---

(1) الديباج: 73، ومعجم البلدان: 2/ 371، وعيون الأنباء: 2/173، وابن عاشور، حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب التنقيح: 1/10، وطبقات الشافعية: 5/ 60.

(2) محمد الطاهر بن محمد الطاهر ابن عاشور (1296هـ/1870م ـ 1325هـ/1907) وهو الأستاذ الإمام علامة عصره، وخاتمة المجتهدين المحققين، لم تعرف تونس في عصره رجلاً عالماً مصلحاً مؤلفاً أوفر إنتاجاً وأغزر فائدة للمجتمع منه في مجال الثقافة، بدلالة آثاره العلمية على ذلك/ السويسي ـ الفتاوى التونسية: 1/ 111 ـ 115.

(3) حاشية التوضيح: 1/10.

حل المشاكل العويصة، فقد قال في كتابه «شرح التنقيح» في مبحث «أسماء الألفاظ» عند تحرير «الفرق بين علم الجنس، وعلم الشخص، واسم الجنس[1]» قال:

«إن ذلك المبحث من أنفس المباحث، ومشكلات المطالب، وكان الخسروشاهي يقرره، ولم أسمعه من أحد إلا منه».

وكان يقول: «ما في البلاد المصرية من يفرقه، وهو أن الوضع فرع التصور»[2].

3 ـ اشتغال القرافي بالتدريس وتلاميذه:

تخرج القرافي على أيدي علماء عباقرة شهدوا له بالتفوق المعرفي، وأجمعوا على تفضيله حسبما جاء ذلك على لسان قاضي القضاة نفيس الدين بن شكر[3] أحد علماء المالكية المعاصرين له قائلاً في تفضيله: «أجمع الشافعية والمالكية على أن أفضل عصرنا بالديار المصرية ثلاثة: القرافي بمصر القديمة، والشيخ ناصر الدين بن المنير[4] بالإسكندرية، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد[5] بالقاهرة المعزية»[6].

---

(1) اسم الجنس هو جزء من الشيء كالإبل هي جنس من البهائم، والحمام هو جزء من الطيور وعلم الشخص ـ مثل علي ـ يدل على ذات معينة ونحو ذلك من أسماء الأعلام. أما علم الجنس فهو مثل تسمية الأسد بـ«أسامة» والثعلب بـ«ثعالة» فالأسد وثعالة كل منهما اسم جنس من البهائم فكل أسامة أسد، وكل ثعالة ثعلب. حاشية الخضري على ابن عقيل في شرح ألفية ابن مالك: 66/1.

(2) الوضع فرع التصور: الاسم لا يوضع ويطلق على مسماه، إلا إذا عرف المسمى وتجلت صورته كاملة، فالقلم ـ مثلاً ـ هو اسم وضع لغة ليدل على حقيقته المعروفة بأنه أداة الكتابة، لأن التصور للمسمى يسبق الوضع اللغوي له.

(3) نفيس الدين محمد بن عبدالله بن أحمد بن شكر (ت680هـ/1281م). السلوك: 1ق 657/2، وحسن المحاضرة: 145/2.

(4) أحمد بن محمد بن منصور الجذامي (ت683هـ/1284م). الديباج: 70 ـ 71.

(5) محمد بن علي بن وهب (625هـ/1228 ـ 702هـ/1302م). الديباج: 324 ـ 325.

(6) الديباج: 65.

وتتبلور عظمة القرافي العلمية في أزهى صورها في تفرده للإجابة على مئات المسائل التي كانت تبحث وتناقش في الأوساط العلمية، وتظل مشكلة معلقة، لا تجد من العلماء إلا مواقف سلبية، وحيرة ترتسم على الشفاه والوجوه، وتوقفاً مخيماً على الأفئدة.

وهذا ما يلاحظ عند مطالعة كتبه التي تكشف بحق عن دوره " في الحياة العلمية ولعل كتاب «الأمنية في إدراك النية» الذي حقَّ دليل على هذا، حيث ذكر أن سبب تأليفه مباحث خفيت فحللها[1]، والشواهد على هذا كثيرة.

هذه المكانة العلمية المرموقة أهَّلت القرافي للاشتغال وهي الخطة الثانية بعد منصب القضاء، التي كانت تستند إلى رجال الشريعة وهي أشرف وظيفة، وأبعدها عن حوك الدسائس و. تجعل الكفء المخلص محترماً عزيزاً محبوباً.

كرس القرافي لوظيفة التدريس حياته كلها، وبذل نفسه في سبيل الإفادة، ونشر العلم، وخدمة الدين، وتربية العقول، وتهذيب المدارك، وترقية الأحاسيس والمشاعر ـ فكان كما وصفه تلميذه ابن راشد ـ عاكفاً على تعليمهم باستمرار[2] في المؤسسات العلمية التي انتخب للتدريس فيها، وهي: جامع عمرو بن العاص، والمدرسة الصالحية، ومدرسة طيبرس[3].

ففي هذه المراكز العلمية الثلاثة انطلق عطاء القرافي العلمي، وإنتاجه المعرفي[4] وعلو كعبه في فنون اختصاصه: فقهاً وأصولاً، وعقائد ومنطقاً

---

(1) مجال النية في الفقه الإسلامي متبوعاً بتحقيق كتاب «الأمنية في إدراك النية»: 325.

(2) الفائق في الأحكام: 1: 1أ.

(3) أضيفت لمؤسسها علاء الدين طيبرس الخزنداري (719هـ/1313م). الخطط: 348/3.

(4) تاريخ الإسلام: 34/3ب، والوافي: 233/6.

وجدلاً ومناظرة، إضافة إلى ما منحه الله إياه من جمال الخلقة، وما تحلى به من الآداب والفضائل السامية[1] التي تجلب الطلاب إلى حلقاته، وتغريهم بالأخذ عنه، وتحبب إليهم دروسه الشيقة لما تشتمل عليه من براعة، وخبرة بأساليب التعليم، فهو ـ كما وصف ـ: «الإمام الحافظ والبحر اللافظ، المفوه المنطيق[2] والآخذ بأنواع التصريف والتطبيق»[3].

«كان أحسن من ألقى الدروس، وحلى من بديع كلامه نحور الطروس[4] إن عرضت حادثة فبحسن توضيحه تزول، وبعزيمته تحول»[5].

أما تلميذه ابن راشد القفصي الذي عرفه عن كثب، ولمس معارفه عن خبرة وتجربة وتعلم فقد وصفه بقوله: «كان مبرزاً عن النظار من أقرانه، محرزاً قصب السبق، جامعاً للفنون»[6].

فبهذه الصفات العالية كان القرافي مدرساً ناجحاً ومربي العصر وقدوة حسنة في التحصيل والفهم والتحقيق والشمول، وصار ـ أيضاً ـ الأستاذ المنتهي الكبير العلامة مانح الإجازات والشهادات لطلابه[7].

وهكذا اشتهر أمر الأستاذ العبقري وانجذبت إليه أنظار الطلاب، وهفوا إلى تلقي محاضراته، وقصدوه من المشرق الإسلامي، وأقاصي بلاد الأندلس والمغرب والجزائر وإفريقيا متعلمين، أو سائلين مستفسرين عما غمض لديهم من عويص المسائل، وما خفي عن أنظارهم من دقائق العلوم

---

(1) الوافي: 234/6.

(2) الفصيح اللسان، البليغ في أقواله نطقاً وتحريراً. القاموس: 286/3.

(3) البارع في أساليب الكلام من حيث اختيار العبارات، وتنظيم الأفكار، وتنسيق المعاني، وترتيب المباحث والعناصر والفصول والأبواب.

(4) الطروس جمع طرس: الصحيفة، ويقال: هي التي محيت ثم كتبت. الصحاح: 940/2، ولسان العرب: 581/2.

(5) الديباج: 63.

(6) الفائق في الأحكام: 1: 1أ.

(7) نيل الابتهاج: 235.

وجزئياتها فاستفاد منه الجم الغفير، وتخرج على يديه الكثير من العلماء، ومن أشهر هؤلاء الطلبة: الباقوري - شهاب الدين المقدسي - الفاكهاني - ابن راشد.

أ - **الباقوري**: أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الباقوري الأندلسي، أخذ عن القرافي عند مروره بمصر قاصداً البقاع المقدسة، وعند عودته من المشرق أدركه الأجل بمراكش سنة (707هـ/1311م)[1].

ب - **شهاب الدين المقدسي**: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدالمولى الشامي الذي نشأ بها، وتعلم، ولكن نازعته نفسه إلى المزيد من المعرفة فارتحل إلى مصر، ودرس على القرافي مادة أصول الفقه ونبغ فيها، إضافة إلى تفوقه في القراءات والعربية والفقه الحنبلي مع عفة وصلاح وفضل كبير.

استقر به المقام في بيت المقدس ليصبح فقيهها المعتبر، وشيخها المشار إليه بالبنان، وهناك واصل عطاءه العلمي تدريساً وتأليفاً إلى أن توفي فجأة بالقدس سنة (728هـ/1327م)[2].

ج - **الفاكهاني**: تاج الدين أبو حفص عمر بن علي بن سالم الإسكندري كانت ولادته سنة (654هـ/1256م) كان من ألمع أساتذته: القرافي، وقد أخذ عنه مادة الشرعيات فقهاً وأصولاً، اللذين اشتهر بهما الفاكهاني تأثراً بشيخه. وكان مركز إشعاعه الإسكندرية إلى أن أدركته منيته بها سنة (734هـ/1333م)[3].

د - **ابن راشد القفصي**: هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن راشد البكري القفصي مولداً ونشأة وتعلماً.

ولما كانت تونس العاصمة أكبر مركز ثقافي، ومحط رحال الطلاب

---

(1) الديباج: 325.

(2) الدرر الكامنة: 259/1 - 260، والشذرات: 86/6 - 87.

(3) البداية: 168/14، والديباج: 187.

لاحتضانها عدداً من كبار العلماء، ذهب إليها لينهل من معين شيوخها فأقام بها باحثاً دارساً منجذباً إلى الفقه وأصوله معاً. إلا أن نفسه الطموحة إلى المزيد والتعمق حفزته للتوجه إلى مصر.

«وفي القاهرة وجد شيخ المالكية في وقته، وإمام عصره، وفريد جيله الإمام القرافي، ذا العقل الوافي، والذهن الصافي عديم الأمثال والنظراء»[1].

لقي ابن راشد لدى هذا الشيخ الجليل حظوة وحباً وتقديراً وعطفاً، وإكراماً، وكان له بمثابة السواد للعين، والروح للجسد، فلازمه، ودرس عليه أصول الفقه.

وعندما أدرك الأستاذ ما أصبح عليه تلميذه من التمكن في هذه المادة منحه إجازة تشهد له بالتفوق والتربع للتدريس[2].

واصل ابن راشد الجلوس إلى عدد آخر من كبار علماء مصر، ثم استأنف رحلته إلى الأراضي المقدسة فأدى فريضة الحج، وعاد إلى قفصة مكتنزاً بثقافة علمية راسخة، وقدرات فكرية مختلفة الطرق والمناهج، وهناك أكب على التدريس والتأليف باهراً علماء عصره بمصنفاته[3].

4 ـ مؤلفات القرافي:

الشيخ القرافي هو أحد أولئك العلماء المخلصين، الذين سخروا أوقاتهم خدمة للعلوم الإسلامية، وجندوا لها قواهم، وأوقفوا عليها حياتهم تدريساً وتصنيفاً، فقد كان ـ كما وصفه تلميذه ابن راشد ـ «معتكفاً على العلم صيفاً وخريفاً، ربيعاً وشتاء»[4].

---

(1) نيل الابتهاج: 235.

(2) المصدر السابق.

(3) الديباج: 335، وشجرة النور: 208.

(4) الفائق في الأحكام: 1: 1أ.

وهذا ما سمح له بذلك الإنتاج العلمي الراقي الضخم، الذي ستتعرف عليه بعد قليل.

فهذه الآثار الباقية من تصنيفاته تكشف عن قيمة محتواها، وتجعل صاحبها جديراً بالأسبقية، والفضل والأولوية والإمامة بشهادة من أرخوا له، ووصفوه بالقول: «كان إماماً في أصول الفقه وأصول الدين، عالماً بمذهب مالك وبالتفسير، مشاركاً في علوم أخرى»[1].

فقد ألف حوالى سبعة وعشرين بين كتاب مستقل، أو شرح لمختصر، أو تعليق على كتاب، أو تحليل لقضية ما، ويدور أغلب ذلك حول الفقه وأصول الدين وأصول الفقه.

ولكن عند تعداد مؤلفات القرافي لا نجد من بينها كتاباً مستقلاً في التفسير مع أن المؤرخين أثنوا عليه من ذلك ووصفوه بالإمامة في هذه المادة الجميلة، فمن أين عرفوا ذلك واتفقوا عليه؟

الذي يظهر أنهم اعتمدوا في ذلك ما يلاحظ في مؤلفات القرافي من البراعة والتدقيق والتحليل الجيد للآيات الكريمة عند الاستدلال بها.

ولما كانت مؤلفات القرافي متنوعة المواضيع مختلفة الاختصاصات فسوف يقع ذكرها مرتبة حسب موادها، ثم ما يندرج تحت كل مادة من تصنيف، وهي كالآتي:

أ ـ أصول الدين:

كان حظ العقائد فيها الكتب الأربعة التالية:

الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة: وقد سبق الحديث عنه من خلال طرق عنصر الصراع مع الأعداء في الداخل عند الكلام عن العصر.

أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية[2].

---

(1) تاريخ الإسلام: 33 ـ 34ب، والوافي: 233/6، والديباج: 63.

(2) ذكر هذا الكتاب في ترجمة القرافي بكتابه «الذخيرة» الجزء المطبوع 23/1، وفي ترجمته بكتاب «الإحكام»: 16.

الانتقاد في الاعتقاد[1].

شرح الأربعين في أصول الدين[2]: هذا الكتاب المشروح هو لفخر الدين الرازي[3] صنفه لولده محمد بن عمر الرازي، ورتبه على أربعين مسألة من مسائل الكلام[4].

ب ـ أصول الفقه:

بلغت مؤلفاته في هذه المادة ستة:

1 ـ **التعليق على المنتخب**[5]: والمنتخب هو أحد مختصرات كتاب «المحصول» لفخر الدين الرازي، اختصره ضياء الدين حسين[6].

2 ـ **تنقيح الفصول في علم الأصول**: هذا الكتاب جعله القرافي مقدمة لمصنفه «الذخيرة» وهو خاص بالفقيه الذي يجب أن يكون على علم بأصول الفقه، وقواعد الشرع، واصطلاحات العلماء في هذا الموضوع ليتسنى له تخريج الفروع الفقهية طبقاً لقواعدها الأصولية.

3 ـ **شرح كتاب التنقيح**: وضعه القرافي لتحليل ما تعقد من المسائل في كتابه «التنقيح» وأضاف لذلك قواعد أصولية وفوائد جمة تنمي القدرة على الاستدلال والاستنباط[7].

---

(1) الديباج: 65.
(2) الفروق 3/ 27.
(3) أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري (ت606هـ/1210م) فخر الدين الإمام الرازي، ذو الشهرة الذائعة، والتصانيف البارعة، المفسر الكبير، والأصولي الفقيه الطبيب الحكيم. طبقات الشافعية: 5/35.
(4) كشف الظنون: 1/ 61، وقد ذكره القرافي في كتابه «الفروق» 3/ 27.
(5) تاريخ الإسلام: 33 ـ 34ب، والوافي: 6/233، والديباج: 64.
(6) ذكره القرافي في كتابه نفائس الأصول 2أ.
(7) شرح التنقيح بهامش حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب «التنقيح» لابن عاشور: 1/ 3.

أن هذا الشرح ظل مع ذلك في حاجة أكيدة إلى المزيد من البسط والكشف عن عويص عبارته، ولذلك عكف على شرحه، وتيسير فهمه للطلاب ثلاثة من جهابذة علماء تونس: ابن حلولو[1]، ومحمد جعيط[2]، ومحمد الطاهر ابن عاشور[3].

4 ـ **العقد المنظوم في الخصوص والعموم**: هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً، أوله: الحمد لله الذي أسبغ نعمه على الخلائق عموماً وخصوصاً. . .[4].

5 ـ **العموم ورفعه**: لم أتمكن من معرفة هذا الكتاب الذي ذكره ابن فرحون[5] وعنوانه يدل على أنه في مادة أصول الفقه، وبابه: العموم في الألفاظ[6] وأدواته ثم ما يرفع عموم اللفظ ويزيله مثل نسخ الأحكام[7]، أو المخصصات للألفاظ العامة متصلة[8] أو منفصلة عن اللفظ[9].

---

(1) هو: أبو العباس أحمد بن عبدالرحمٰن بن حلولو القيرواني (ت895هـ/1489م) وكتابه مطبوع واسمه «التوضيح في شرح التنقيح». انظر ترجمته في: الضوء اللامع للسخاوي 2/260 ـ 261.

(2) كتابه مطبوع واسمه «حاشية منهج التحقيق والتوضيح لحل غوامض التنقيح».

(3) الكتاب مطبوع واسمه «حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب التنقيح».

(4) توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية في تونس رقمها 14266 بها 174 ورقة.

(5) الديباج: 65.

(6) العام هو اللفظ الدال على شيئين فأكثر، وأدواته كثيرة، منها: «كل» مثل قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [الأنبياء: 35].

(7) نسخ الحكم هو ترك العمل به، واستبداله بحكم آخر بدله، مثل: نسخ حكم التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس الثابت بالسنة الذي وقع نسخه بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ [البقرة: 149].

(8) المخصص المتصل باللفظ متعدد، ومنه: التخصيص بالغاية مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ﴾ [البقرة: 187] فإن إلى دالة على أن الليل غير داخل في الصوم.

(9) المخصص المنفصل غير المتصل باللفظ، مثل التخصيص بالعقل في قوله تعالى واصفاً الريح التي عاقب بها قوم عاد عليه السلام: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ =

6 ـ **نفائس الأصول في شرح المحصول**: وهو شرح لكتاب «المحصول» لفخر الدين الرازي، لا يزال مخطوطاً أوله: «الحمد لله الذي تفرد في كامل ألوهيته بعظم المجد والعلى، وتوحد في كامل صمديته بغايات شرف الصفات...»[1].

إن مصنف القرافي هذا أهم أثر له في هذه المادة، وهو من أقوى الأدلة الناطقة بخبرته الأصولية العميقة، وهو أيضاً من أبرز الشواهد على سعة اطلاعه عما حرره علماء الأصول السابقون في هذا الميدان، إذ هو ينطوي على زبدة الفكر الإسلامي الأصولي، ويعتبر بحق معلمة تزخر بنفائس علم الأصول.

ج ـ الفقه:

أخذ الفقه من حياة القرافي جلها واستنفد معظم طاقاته وجهوده بحثاً وتأليفاً، إذا صنف فيه قرابة أحد عشر كتاباً وهي التالية:

1 ـ **الاستغناء في أحكام الاستثناء**: موضوعه الاستثناءات المقبولة في المذهب المالكي أوله: «الحمد لله الذي انفرد بالإلوهية والبقاء...»[2].

2 ـ **الأجوبة الواردة على «خطب ابن نباتة الكبير»**[3]: حسبما جاء على لسان ابن فرحون[4].

= [الأحقاف: 25]، فإن العقل أثبت أنها لم تدمر البناءات وأمثالها/ إرشاد الفحول: 142، 183.

(1) توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بتونس رقمها: 6544 ذات مجلد ضخم يشتمل على 288 ورقة من الحجم الكبير.

(2) هذا الكتاب مخطوط بـ«الأسكوريال» رقمه 620 به 165 ورقة، وبكل صفحة 29 سطراً. فهرس المخطوطات العربية: 1/429 ـ 430.

(3) ابن نباتة هو عبدالرحيم بن محمد الخطيب (ت374هـ/984م)/ وفيات الأعيان: 3/156 ـ 158.

(4) الديباج: 65.

3 ـ **الأمنية في إدراك النية**: وهو الكتاب الذي حققناه تبعاً لمجال النية في الفقه الإسلامي وتم طبعه، ونشره بـ«دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس».

4 ـ **الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام**[1].

5 ـ **البيان فيما أشكل من التعاليق والأيمان**: أوله: «الحمد لله الذي وسع كل شيء علماً»[2].

6 ـ **الذخيرة**[3]: هذا الكتاب أفضل عمل فقهي أنتجه القرافي، نال إعجاب العلماء وثناءهم وتقديرهم، واعترافهم بقيمته الفائقة. فقد وصفه ابن فرحون بقوله: «كتاب الذخيرة» في الفقه من أجلّ كتب المالكية[4].

وقد كان صادقاً حقاً في وصفه؛ لأنه احتوى على ما تضمنته دواوين الفقه المالكي، واشتمل ـ كذلك ـ على الكثير من فقه الصحابة والتابعين والمجتهدين، وهو لهذا صار مرجعاً هاماً للفقه المالكي، وموسوعة للتشريع الإسلامي عموماً، إنه ذخيرة حقاً، وكنز نفيس لما تضمنه من آلاف المزايا.

7 ـ **القواعد**: في هذا الكتاب الجيد الذي يلي كتاب «الذخيرة» من حيث الأهمية سماه مؤلفه «أنوار البروق في أنواء الفروق» كما أنه ترك للباحث حرية التسمية إن لم ترضه الأولى إذ يمكنه أن يدعوه «الأنوار

---

(1) طبع هذا الكتاب سنة (1387هـ/1967م) بتحقيق الأستاذ عبدالفتاح أبي غدة.

(2) هذا الكتاب مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية عدد 8688، ويوجد مع كتاب «اليواقيت في أحكام المواقيت». وسيأتي ذكر كتاب «اليواقيت...».

(3) طبع الجزء الأول منه بعناية كلية الشريعة «بالأزهر» وقد احتوى على 535 صفحة وانتهى في لواحق شروط الصلاة.
ويوجد من مخطوطة هذا الكتاب بالمكتبة الوطنية التونسية الجزء الأول منه ورقمه 5360، والجزء الأخير رقمه 7223.

(4) الديباج: 64.

والقواعد السنية في الأسرار الفقهية» أو «الأنوار والأنواء» أو غير ذلك من المسميات التي تنطبق على موضوعه[1].

إن قيمة هذا الكتاب تبرز نفسها بنفسها لكل منصف عالم يطالعه، وقد نال شهرة فائقة، وعكف فقهاء المذهب على دراسته، والاستفادة منه، ونقده، وشرحه، وتنظيمه، وسأذكر منهم أربعة:

فقد هذبه ورتبه تلميذ القرافي الباقوري، وقد أسلفنا الحديث عنه في مبحث تلاميذ القرافي كما تعقب هذا الكتاب ابن الشاط[2] في الكتاب الذي سماه: «إدارر الشروق على أنواء الفروق».

فناقش القرافي، وصوب بعض آرائه الفقهية، وهذب ما يستحق التهذيب حتى قال أحمد بابا التنبكتي[3]: «عليك بفروق القرافي، ولا تقبل منها إلا ما قبله ابن الشاط»[4].

لكن ابن الشاط ـ كما لاحظ الفقهاء ـ يعتريه السهو والخطأ والنسيان وعدم الاطلاع أحياناً ولذلك تتبعوا أقواله، وفندوا بعضها، وصوّبوا قول القرافي في البعض الآخر[5].

الفقيه الثالث الذي اعتنى بدراسة كتاب القرافي، وترتيبه وتنظيمه حسب الأبواب الفقهية: المقري[6]، وسمى تأليفه «ترتيب الفروق»[7].

الفقيه الرابع الدارس لكتاب «الفروق» وقام بتلخيصه وتهذيبه وترتيبه

---

(1) الفروق: 4/1.

(2) هو قاسم بن عبدالله بن محمد الشاط (ت723هـ/1323م)/ الديباج: 226.

(3) هو: أحمد بن أحمد السوداني الصنهاجي (ت1032هـ/1623م)/ خلاصة الأثر: 170/1 ـ 172.

(4) المصدر السابق.

(5) انظر ـ مثلاً ـ: مواهب الجليل: 135/1.

(6) أبو عبدالله محمد بن محمد التلمساني المقري (ت756هـ/1355م)/ البستان: 154 ـ 164.

(7) مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية رقم: 12298.

وتوضيحه في كتاب سماه «القواعد السنية في الأسرار الفقهية»: الشيخ الإمام محمد علي بن حسين المالكي، كما صرح بذلك في مقدمة كتابه[1].

8 ـ شرح كتاب التفريع: والتفريع هو لأبي القاسم عبيدالله بن الجلاب[2]، وقد ورد هذا الشرح ضمن قائمة مؤلفات القرافي عند ابن فرحون[3].

9 ـ شرح تهذيب المدونة: وتهذيب المدونة ألفه أبو سعيد البراذعي، وقد ذكره ابن فرحون كذلك[4].

10 ـ اليواقيت في أحكام المواقيت: هو كما يفصح عنه عنوانه فيه تحديد وتدقيق لأحكام الأزمنة والعبادات الشرعية[5].

11 ـ المنجيات والموبقات في الأدعية: هو الكتاب الذي نشتغل بتحقيقه والتعريف به، ونشره، إن شاء الله تعالى راجين من فضله العون والتوفيق والسداد.

د ـ الجدل والمناظرة:

1 ـ ألف القرافي في هذا الفن كتاب «الاستبصار فيما تدركه الأبصار» أوله: «الحمد لله العليم بخفيات البصائر والأبصار...»[6].

قال صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت681هـ/1362م) قال

---

(1) تهذيب الفروق والقواعد السنية بهامش الفروق: 1/3.

(2) أبو القاسم عبيدالله بن الحسن بن الجلاب (378هـ/988م)/ الديباج: 146.

(3) المصدر السابق.

(4) أبو سعيد خلف بن أبي القاسم البراذعي كان حياً سنة (430هـ/1039م)/ الديباج: 112 ـ 113.

(5) الكتاب مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية مع كتاب «البيان فيما أشكل من التعاليق والأيمان» عدد 8688، وقد مر ذكره.

(6) هذا الكتاب مخطوط توجد منه نسخة في دار الكتب المصرية رقمها 9511. فهرست الكتب العربية المحفوظة بـ«الكتبخانة الخديوية» 6/86.

متحدثاً عن هذا الكتاب: «هو خمسون مسألة في مذهب المناظر كتبته بخطي»[1].

غير أن النسخة الموجودة بدار الكتب المصرية في مادة «علم الحكمة والفلسفة» أفادت أن القرافي رتب كتابه هذا على بحثين؛ الأول: في ست مقدمات، والثاني: في خمسين مسألة، ويليه ورقتان في قوة النبات، ومقارعته للحيوان[2].

وحينئذٍ تكون النسخة التي اشتغل بها الصفدي ناقصة، كما أنه أخطأ قليلاً في تسمية هذا الكتاب حيث قال: «الاستبصار فيما يدركه الأبصار»[3].

أما الخطأ الفادح فهو الذي وقع فيه «بروكلمان»[4] حيث ذكر أن هذا الكتاب أجاب فيه القرافي عن سبعة وثمانين سؤالاً وجهها «فريدريك الثاني»[5] إلى الملك الكامل[6] الذي مات وعمر القرافي لا يتجاوز عشر سنوات.

إن كتاب الاستبصار هذا يدل بوضوح على معرفة الشاب القرافي بأصول المناظرة وقوانين الحوار والجدل، وقواعد آداب البحث مع موهبة المؤهلات العلمية والشخصية، فقد كان من الأبطال البارزين في هذا الميدان، ولكن مع العلماء الصلحاء، لا مع الجهلة وأصحاب الطوايا

---

(1) وتوجد منه نسخة أخرى بـ«الأسكوريال» رقم: 707 فهرس المخطوطات العربية: 1/511.

(2) فهرست الكتب العربية المحفوظة بـ«الكتبخانة الخديوية»: 6/88.

(3) الوافي: 6/233.

(4) بروكلمان: مستشرق ألماني (ت1244هـ/1956م) وكتابه: «تاريخ الآداب العربية» في ثلاثة مجلدات ضخمة.

(5) فريدريك الثاني (ت1200هـ/1786م) ملك بروسيا من كبار القواد وأقطاب السياسة، أحب العلماء وقربهم إليه/ المنجد في الأدب والعلوم: 384.

(6) تاريخ الأدب العربي الملحق: 1/665.

السيئة، وهو ما نلمسه من خلال تمثله الكثير بهذين البيتين المتضمنين نصيحة غالية [الكامل]:

وإذا جلست إلى الرجال وأشرقت   في جو باطنك العلوم الشرد
فاحذر مناظرة الحسود فإنما   تغتاظ أنت ويستفيد ويجحد[1]

2 ـ **المناظر**[2]: ذكر هذا الكتاب الأستاذ عبدالفتاح أبو غدة في مقدمة تحقيقه لكتاب القرافي «الإحكام» واسمه ناطق بأنه في مجال الجدل والمناظرة.

3 ـ **وللقرافي** ـ أيضاً ـ كتاب الاحتمالات المرجوحة[3] ولا يعرف إلى أي مادة، ولا موضوع ينتمي.

ولكن الظاهر من العنوان أنه يتناول الاستدلال، وما يتطرق إلى الدليل من احتمال مرجوح لا يقوى على الثبات تجاه مقابله، فيكون ذلك سبباً في ترك اعتماده وبالتالي سقوطه، حسب القاعدة المطردة: أن الدليل إذا طرقه الاحتمال يسقط به الاستدلال.

وبناءً على هذا الاستنتاج يكون موضوع الكتاب: الجدل والمناظرة.

هـ ـ العربية:

صنف القرافي في هذه المادة كتاباً دعاه: «القواعد الثلاثون في علم العربية» أوله: «الحمد لله ذي الجلال، والمرشد في الأقوال والأفعال... أما بعد، فأنا أذكر ثلاثين قاعدة سنية في أسرار العربية...»[4].

---

(1) الديباج: 65.

(2) الإحكام: 16.

(3) الديباج: 66.

(4) توجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة الوطنية الباريسية رقمها: 1013 منشورات المكتبة الوطنية بباريس: 622 ـ 623.

و ـ الجغرافيا:

له في هذه المادة كتاب «المهاد الموضوع والسقف المرفوع» عرفه المؤلف بقوله: «وهو جغرافيا وضعتها وصورت فيها أحوال الأرض وأصقاعها، وبحارها وأوضاعها، وأحوال السماوات وأسرارها»[1].

ز ـ الميدان العسكري:

وضع فيه كتاب «البارز للكفاح في الميدان»[2] وقد مر الحديث عنه في مبحث «عصر القرافي» عند الكلام عن الصراع مع الأعداء.

تلك هي مؤلفات الشهاب القرافي التي استطعنا معرفتها ومن المؤكد أن يكون له غيرها اعتماداً على قول ابن فرحون ـ بعد تعداد مؤلفاته ـ قال: «وغير ذلك»[3].

إنها كتب قيمة شادت لصاحبها صرحاً من المجد، لا تنال منه الأحداث والتقلبات المختلفة، وكسته جلباباً من السؤود والعظمة لا تبليه القرون، تجعل المطالع لها ـ المتخصص ـ يتأكد من أن منشئها إمام عالم، فذ بعيد الغور، وتدل على أنه وهب لها حياته المشحونة بالجد والاجتهاد، والعمل الدائب خدمة للعلوم الإسلامية وإعلاء شأنها بنية خالصة لله تعالى.

وقد وقع الإجماع على أن مؤلفات الشهاب القرافي ذات جدوى عظيمة بجوهرها وأسلوبها، وطريقة تناولها للطلبة والباحثين، جعلته في مستوى تفوق به على أقرانه جنساً ونوعاً[4].

ولذلك وجدت عناية كبيرة من الدارسين، وحظيت بشهرة واسعة،

---

(1) اليواقيت في إحكام المواقيت: 45أ.

(2) الديباج: 65.

(3) المصدر السابق.

(4) الديباج: 63.

وصفها ابن فرحون بقوله: سارت مصنفاته مسير الشمس، ورزق فيها الحظ السامي عن اللمس، مباحثه كالرياض المونقة[1] والحدائق المعرقة[2] تتنزه فيها الأسماع دون الأبصار، ويجني الفكر ما بها من أزهار وأثمار...[3].

فابن فرحون لم يكن مغالياً في وصف كتب المترجم له؛ لأنها حازت رضى أهل الذكر، ونالت إعجابهم، والشهادة لها بأنها غزيرة الفوائد، عظيمة القدر، فتلقفتها أيدي العلماء والطلاب مشرقاً ومغرباً، وأكبوا على دراستها، وتدريسها واحداً عن واحد جيلاً بعد جيل.

5 ـ إسهام القرافي في المجال الصناعي:

أن الشهاب القرافي بذكائه الحاد، وموهبته الفكرية، وعقله الحصيف النافذ لم تقتصر طاقة عطائه المعرفى على العلوم الشرعية وحدها، بل تجاوز ذلك إلى مشاركته في علوم أخرى لها مساس بالدين، ووسائل له، مثل: العربية، والجغرافيا، والميدان العسكري، كما رأينا ذلك، وحتى في علم النبات[4] وفي المجال الصناعي أيضاً. حسبما أفادنا بذلك.

فقد أخبرنا بنفسه أنه كان يتعاطى صنع بعض التماثيل المتحركة، ويتقن مهارتها كما جاء ذلك في كتابه «نفائس الأصول في شرح المحصول» قال:

«بلغني أن الملك الكامل وضع له «شمعدان»[5]، كلما مضى من الليل ساعة انفتح باب منه وخرج منه شخص يقف في خدمة الملك فإذا

---

(1) الرياض المونقة: الحدائق والبساتين المزدانة بالثمار والأزهار/ القاموس: 3/286.
(2) المعرقة: ذات الأشجار الأصيلة الكريمة ـ يقال: أعرق الرجل، صار عريقاً في الشرف/ الصحاح: 4/1523 ـ 1524.
(3) الديباج: 54.
(4) كتاب الاستبصار ـ فهرس الكتب العربية بـ«الكتبخانة الخديوية»: 6/88.
(5) الشمعدان: المنارة يرتكز عليها السراج، وهي كلمة فارسية، ومعناه: المنارة/ المنجد: 414.

انقضت عشر ساعات طلع الشخص على أعلى الشمعدان، وقال: صبح الله السلطان بالسعادة فيعلم أن الفجر قد طلع»[1].

ثم قال: «وعملت أنا هذا الشمعدان، وزدت فيه: أن الشمعة يتغير لونها في كل ساعة، وفيه أسد تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد، ثم إلى الحمرة الشديدة، وفي كل ساعة لهما لون ويضرب في ساعة، فيسقط حصانين من طائرين، ويدخل شخص ويخرج شخص، ويغلق باب ويفتح باب وإذا طلع الفجر طلع شخص على أعلى الشمعدان، وإصبعه في أذنه يشير إلى الأذان، غير أني عجزت عن صنعة الكلام»[2].

أن من يقرأ هذا النص لا يتخيل صناعة هذا الشمعدان كانت في القرن السابع الهجري، لتوقف هذه الصناعة على التقنيات من وجود الكهرباء، والآلات المحركة واختيار الألوان، وتجسيم الحيوان والأشخاص وغير ذلك مما هو متعارف في زماننا.

إنها براعة فائقة، وابتكار نادر في صناعة هذا الشمعدان يقف العقل مبهوتاً أمامها يكاد لا يصدق لو كان الحاكي غير القرافي، أما هو فبفضل ما تحلى به من الأخلاق الحسنة والفضائل السامية والآداب العالية[3] فإنه لا يخالجنا شك في صدقه، ولعل صناعة هذه التماثيل كما وصفها تختلف عما هو عندنا في زمننا.

6 ـ اجتهاداته:

اعتبر جلال الدين السيوطي[4] القرافي مجتهداً[5]، وترجم له في طبقة

---

(1) نفائس الأصول: 41أ ـ 41ب.

(2) المصدر السابق.

(3) الوافي: 6/234.

(4) هو: أبو زيد عبدالرحمٰن بن أبي بكر السيوطي جلال الدين المصري الفقيه الحافظ المحدث ذو الباع الطويل في العلوم لا سيما العربية، وصاحب التآليف الكثيرة التي بلغت نحو ستمائة بين مطول في أجزاء، ومختصر في ورقتين وهو الأكثر، ادعى رتبة الاجتهاد، وكان أحق بها بشهادة العلماء المحققين البارزين وقد ولد سنة (849هـ/1323م) وتوفي سنة (911هـ/1464م)/ البدر الطالع: 1/328.

(5) حسن المحاضرة: 1/173.

المجتهدين بعنوان: «من كان بمصر من الأئمة المجتهدين»[1] فماذا يعني السيوطي بهذا مع العلم بأن الاجتهاد المطلق كان خاصاً بمنشئي المذاهب وأن وجد مجتهد بعد ذلك فهو مقيد بمذهب معين؟

الظاهر أن المقصود بالاجتهاد المراد هنا هو ما كان متعارفاً خلال الأطوار التشريعية التالية لطور تأسيس المذاهب وتلاميذهم والمتمثل خاصة في استنباط حكم من نص شرعي، أو الجمع بين دليلين متعارضين، أو ترجيح أحدهما على الآخر، أو تصويب قول لأحد الفقهاء، أو ترجيحه على غيره، أو نحو ذلك من كل مسألة بذل فيها جهد فكري علمي في استنباط حكم شرعي إثر النظر في أقوال العلماء وأدلتهم ومناقشتها بالاعتماد على الحجج الصحيحة، والبراهين الثابتة.

فإذا كان هذا هو المراد بالاجتهاد فإن القرافي معدود من الفقهاء المجتهدين في نطاق مذهب مالك بما أنتجته قريحته من أراء فقهية اعتمد فيها على أصول وقواعد إمامه بعد التحري والتأمل والتدقيق في الأدلة وأقوال العلماء، فكان له انفراد بالرأي حيناً أو التصويب أو الاختيار، أو الترجيح أو ما شاكله حيناً آخر وكتابه «الذخيرة» و«الفروق» وغيرهما من مؤلفاته تشهد بذلك.

وإننا قبل تفصيل القول في ذكر بعض المسائل التي كانت محل اجتهاد القرافي في الكتاب الذي بين أيدينا يحسن بنا التذكير بمعنى الاجتهاد. والشروط التي يجب توفرها في المجتهد، ثم مجال المجتهد.

أ ـ معنى الاجتهاد:

الاجتهاد لغةً: مأخوذ من الجهد وهو المشقة والطاقة، ومختص بكل ما فيه عناء ومشقة، ولذلك يقال: استفرغ فلان وسعه وطاقته في حمل شيء ثقيل، ولا يقال: استفرغ جهده في حمل ورقة.

---

(1) المصدر السابق: 161.

أما الاجتهاد في عرف علماء أصول الفقه فقد وقع تحديده بتعاريف متقاربة، منها: تعريف الآمدي[1] له بقوله: «هو بذل الوسع في نيل حكم شرعي عملي بطريقة الاستنباط»[2].

ومعنى هذا التعريف بإجمال: أن المجتهد يبذل وسعه ويجمع كل طاقته وقوته على وجه يحس من نفسه العجز عن المزيد لاستخراج حكم من النص الشرعي الذي يبحثه ويدقق النظر فيه.

حكم عملي: أي متعلقاً بالعمل القلبي كالنية في العبادات والإيمان، أو العمل بالجوارح كالقراءة، والركوع والسجود في الصلاة أو القيام بالمناسك في الحج والعمرة، أو غير ذلك.

ب ـ شروط المجتهد:

أجمع العلماء على أنه لن يصل عالم إلى درجة الاجتهاد إلا إذا توفرت فيه الشروط الخمسة التالية:

1 ـ أن يكون عالماً بنصوص الكتاب والسُّنَّة: وليس بجميعهما، بل بما يتعلق منها بالأحكام: آيات الأحكام وأحاديث الأحكام، وهذا الشرط حاصل عند القرافي ومؤلفاته مثل: «الذخيرة» و«الفروق» شاهد إثبات على ذلك.

2 ـ العلم بمسائل الإجماع: حتى لا تقع فتواه بخلاف ما وقع الإجماع عليه، وهذا القيد لا يمكن أن يخفى على مؤلف راسخ الأقدام في الفقه مثل القرافي.

3 ـ العلم بلسان العرب: بحيث يمكنه تفسير ما ورد في القرآن

---

(1) الآمدي: هو سيف الدين، أبو الحسن علي أحمد الآمدي الفقيه الأصولي الذي تميز ببراعته في علم الخلاف والجدل والمنطق والفلسفة سنة (631هـ/1233م)/ وفيات الأعيان: 3/93.

(2) الإحكام: 4/218 ـ 219، والمستصفى: 2/350، وإرشاد الفحول: 250.

الكريم والسُّنَّة النبوية، ومؤلفات القرافي كلها تدل على معرفته العميقة باللغة العربية.

4 ـ العلم بأصول الفقه: الذي هو أساس الاجتهاد والقرافي متمكن في هذا العلم وكتابه «نفائس الأصول في شرح الحصول» وغيره من مؤلفاته الأصولية ناطقة بتبحره في هذا العلم، وتطبيق قواعده في الاستدلال والفتوى، وكتابه الذي بين أيدينا مفصح عن ذلك ابتداء من تعريف الدعاء شرعاً.

5 ـ العلم والمعرفة بالناسخ والمنسوخ من الأحكام: بحيث لا يخفى على المجتهد شيء من ذلك مخافة أن يقع في الحكم بالمنسوخ، وهذا لا يمكن أن يخفى على مؤلف كالقرافي[1].

ج ـ المجتهد فيه:

هو كل حكم شرعي عملي ليس فيه دليل قاطع[2] أي: ليس حكماً لغوياً ككون الفاعل مرفوعاً، ولا عقلياً مثل الخمسة نصف العشرة، ولا حسياً كالحكم بأن شدة البرودة تجمد الماء، ولا علمياً كقانون الجاذبية، فإن الاجتهاد في هذا أو أمثاله لا يسمى اجتهاداً شرعياً.

مسائل من اجتهاد القرافي في كتابه «المنجيات والموبقات في الأدعية»:

إذن فهذه الشروط الخمسة متوفرة لدى الشهاب القرافي، وهي التي أهلته للاجتهاد، ولكن، أين نلمس اجتهاداته في الكتاب الذي بين أيدينا؟

لقد تعددت اجتهاداته هنا، وسوف أقتصر على ذكر أمثلة أربعة، منها:

---

(1) الإحكام: 4/219 ـ 221، والمستصفى: 2/350، وإرشاد الفحول: 250 ـ 252.

(2) المصادر السابقة.

المثال الأول:

ذكر القرافي فيه أن من دعا بنفي وعدم وجود ما دل السمع القاطع القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة على ثبوته حقاً وقطعاً، مثل إن يقول الداعي: اللَّهمَّ لا تعذب من كفر بك واغفر له، فإن هذا الداعي يكون بدعائه طالباً تكذيب خبر الله تعالى فيما أخبر به قطعاً. وهو تعذيبه لكل كافر وعدم المغفرة له.

يقول القرافي: بهذا الدعاء وأمثاله يكون الداعي كافراً لاستلزام هذا الطلب التكذيب لخبر الله تعالى.

فقد اجتهد القرافي وحكم بالكفر لكل من دعا بمثل ذلك، وهو ليس كفراً صريحاً، ولكن لما كان هذا الدعاء مستلزماً ومرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالتكذيب بخبر الله تعالى كان الداعي كافراً. فالكفر انجر من استلزام الدعاء للتكذيب بخبره تعالى[1].

وقد دعم القرافي اجتهاده هذا بمقولتين للإمام أبي الحسن الأشعري[2]:

الأولى: «أن بناء الكنائس كفر، وإذا بناها مسلم يكون ردة في حقه لاستلزامه الكفر».

والثانية: أنه أفتى «بأن المسلم إذا قتل نبياً مرسلاً كان كافراً، وإن كان مؤمناً بما جاء به، لاستلزامه إرادة إماتة شريعته، وإماتة الشرائع كفر»[3].

وقد ناقش القرافي ـ كما مر ـ قاسم ابن الشاط في قوله بتكفير

---

(1) المنجيات: 2أ.

(2) الأشعري أبو الحسن علي (ت330هـ/935م) فقيه، مؤسس علم الكلام ورئيس المذهب الذي ينسب إليه «الأشاعرة» وهو ناصر أهل السُّنَّة على المعتزلة، ومصفي العقيدة من أباطيلهم/ النظم الإسلامية: 172.

(3) المنجيات: 3أ.

الداعي بمثل ذلك الدعاء، وقال: إن ذلك ليس كفراً، وإنما هو من باب التكفير بالمآل، والقرافي نفسه يقول به[1].

المثال الثاني:

قول القرافي في الفصل الخامس من الدعاء المحرم الذي ليس بكفر: إن الداعي بطلب ما دل السمع الوارد بطريق الآحاد ـ أي: الحديث النبوي ـ على ثبوته بأن يقول: اللَّهمَّ اغفر للمسلمين جميع ذنوبهم، وقد دلت السُّنَّة الصحيحة على دخول طائفة من المسلمين النار، وخروجهم منها بالشفاعة، وكان دخولهم للنار مؤاخذة لهم ببعض ذنوبهم أو كلها.

فهذا الدعاء مستلزم لتكذيب رسول الله ﷺ، وهو معصية فيكون حراماً، ولكونه وارداً بطريق الآحاد. لا يكفر به[2]، فحكمه بالتحريم اجتهاد منه لاستلزامه التكذيب بما أخبر به رسول الله ﷺ.

المثال الثالث:

قوله متحدثاً عن جواب العاطس لمن شمته: إنه إذا قيل له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم. كما يرى الإمام الشافعي ﷺ، وقال الحنفية: يرد العاطس بالقول: يغفر الله لنا ولكم[3].

قال القرافي: والصحيح قول الشافعي لعموم الحاجة إلى الهداية وتوقف المغفرة على تخفيف الذنوب[4].

---

(1) ابن حسين محمد علي، تهذيب الفروق: 260/4.

(2) المنجيات: 5ب.

(3) عمدة الكوفيين في هذا حديث عبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر ﷺ الذي أخرجه الطبري عن النبي ﷺ قال: «إذا عطس أحدكم فليحمد الله وليقل له من عنده: يرحمك الله، وليرد عليه بيغفر الله لنا ولكم»/ المنتقى: 286/7، وفتح الباري: 609/10.

(4) المنجيات: 10ب.

فتصحيح القرافي لقول الشافعي الذي هو مذهب الجمهور وترجيحه على مذهب الكوفيين، حجته في ذلك حديث البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم ويصلح بالكم**»[1].

ورأى مالك: أنه لا بأس أن يقول العاطس لمن يشمته: يهديكم الله ويصلح بالكم، أو يغفر الله لنا ولكم[2].

المثال الرابع:

قول القرافي عند الحديث عن العارض الثالث من عوارض الدعاء.
قال: إنه إذا وجد الإنسان عنده داعية الدعاء لنفسه وغيره، ويريد الجمع بينهما عند من يرى ذلك.

قال: والصواب أن يتأدب بأدب القران، فيقدم نفسه كما فعل نوح صلى الله على نبينا وعليه قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾[3].

فقد بدأ بنفسه، وثنى بوالديه، لأنهما أحق أقاربه بعده، وثلث بالمختص به من المؤمنين والمؤمنات، ليكون له بكل واحد منهم عمل صالح.

والقاعدة الشرعية المقررة التي لا يتخالف الناس فيها: أن القرب لا يدخلها الإيثار ولا يحسن فيها التأخير، ولا يليق بالإنسان أن يؤثر غيره على نفسه بقربه من الرب، لما في ذلك من قلة الأدب[4].

---

(1) صحيح البخاري بفتح الباري: 10/609.
(2) المنتقى: 7/286.
(3) سورة نوح، الآية: 28.
(4) المنجيات: 16أ.

فقد دعم المؤلف رأيه التصويبي بالآية الكريمة، وبالقاعدة الفقهية.

وليست هذه هي القاعدة الوحيدة الموجودة في الكتاب الذي بين أيدينا، ولكنه اشتمل على الكثير من القواعد الأصولية والفقهية للاحتجاج ودعم أقواله[1] وهو من أساطين التقعيد، وكتابه الفروق الذي اشتمل على حوالى ثمان وأربعين وخمسمئة قاعدة دليل على ذلك.

7 ـ وفاته:

أرخ الذهبي محمد بن عثمان (ت748هـ/1348م) في كتابه «تاريخ الإسلام» أن الأجل المحتوم وافى القرافي بـ«دير الطين»[2] يوم الأحد آخر جمادى الآخرة سنة (أربع وثمانين وستمئة) وقد ووري جثمانه التراب بـ«القرافة» يوم الإثنين مستهل رجب عن عمر يناهز التاسعة والخمسين[3] خلافاً لمن أرخ للوفاة بأنها كانت سنة 682هـ[4].

والذي يترجح لدينا رواية الذهبي، وأنها أثبت لعدة أمور، منها:

أ ـ معاصرة الذهبي للقرافي حيث أنه ولد سنة (673هـ/1274م)، وبالرغم من أنه نشأ ودرس بـ«دمشق» فإن وفاة عالم ذائع الصيت كالقرافي سيترامى نبأ موته إلى سمعه، وأسماع أبناء الأمة الإسلامية آنذاك.

ب ـ أن الذهبي حدد عمر القرافي بأنه يقارب التاسعة والخمسين، وهذا يتطابق مع تاريخ مولده الذي نص عليه القرافي بنفسه وهو (626)، مطروحاً من تاريخ الوفاة كما جاء عن الذهبي أي: 684 ـ 626 = 58، والثامنة والخمسون هي المقاربة للتاسعة والخمسين.

---

(1) انظر مثلاً: المنجيات في الصفحات التالية: 6أ، 6ب، 11ب، 12أ، 18أ.

(2) دير الطين بأرض مصر على شاطىء نيلها في طريق الصعيد قرب الفسطاط/ معجم البلدان: 4/153.

(3) تاريخ الإسلام: 33 ـ 35أ.

(4) الوافي: 6/234.

رحم الله هذا العالم الجليل العلامة، الذي وهب عمره لخدمة علوم الشريعة، فكانت حياته زاخرة بنشرها وتدريسها وتثبيتها أو بالإنتاج العلمي الجيد.

ولعل هذه اللمحة الموجزة المترجمة لعلم من أعلام الفقه الإسلامي تكون حافزة على الاهتمام بشخصيته الكبيرة، ودراستها دراسة مستفيضة أكثر من هذا.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الفصل الثالث

كتاب المنجيات والموبقات في الأدعية



كتاب الموبقات والمنجيات من الشهوات
للامام احمد بن ادريس القرافي
رحمه الله تعالى
امين

فجمع الولي ابي ما الدر الجنتغي فيه مسالة سوالا كثيرا
وابا الا الضر فقال الشيخ لتلميذه لو كنت تعلم اسم
الله الاعظم ما كنت تفعل به فقال كنت ادعوا
الله عليه فيهلك فقال يا بني ان السلطان هذا الشقي
فهو شيخ في اسم الله الاعظم تنفر الكفار والحمد لله
رب العالمين وصلى الله على سيدنا
ومولانا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم تسليما كثيرا
دائما الى يوم الدين ولا حول
ولا قوة الا بالله العلي
العظيم وسلام
على المرسلين
والحمد لله رب
العالمين

[1 - ب]

وعلى آله وصحبه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد

الحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على
محمد سيد المرسلين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى آله
الطاهرين. أما بعد فهذا كتاب الموبقات والمنجيات
من الدعوات للإمام أحمد بن إدريس القرافي رحمه الله
تعالى وهو يشتمل على عشرة أبواب الباب الأول
في بيان حقيقة الدعاء وهو من الألفاظ المشتركة
عند العرب يراد به تارة النداء فيقولون دعوت زيدا
[illegible] إذا ناديته وفيه إن أبي يدعوك أي يناديك وتارة
يراد به الطلب ومنه ويدعوننا رغبا ورهبا أي
رغبة في إحساننا وخوفا من عقابنا وتقول العرب
الدعوة مثلثة الدال بالفتح يراد به الوليمة والضم
يراد به النداء إلى الطعام [illegible] والكسر يراد
به الانتساب إلى الآباء ويطلقون المفتوحة أيضا ويراد
بها الدعاء الذي هو الطلب ومنه الحديث لكل نبي
دعوة مستجابة الباب الثاني في بيان
حقيقته وحقيقة الطلب يحررها العاقل قبل تقسيم
عند ضروراته وهو قسم من أقسام الكلام يعبر به عن
اقتضاء الفعل إما مع المنع من الإخلال أو لا ثم هذا
الاقتضاء تارة يقع بين متساويين وبين الرتبة وتارة يقع بين

مختلعي

هذا الفصل سنتصفح فيه كتاب «المنجيات والموبقات في الأدعية» لنتعرف على مجمل محتواه وما قد ينكشف لنا خلال ذلك من جوانب تبرز قيمته العلمية، وعبقرية مؤلفه وما أبدع فيه وأجاد، أو ما نوقش فيه من مسائل، أما ما غفل عن تحقيق القليل القليل منها.

ولذلك جعلت هذا الفصل يتألف من عنصرين: اسم الكتاب، ثم موضوعه الذي ارتكز البحث فيه على عشرة أبواب.

1 ـ اسم الكتاب:

اسم الكتاب هو المنجيات[1] والموبقات[2] في الأدعية الذي ذكره الشهاب القرافي بنفسه عرضاً عند حديثه عن الدعاء المحرم في كتاب «الجنائز» بمصنفه «الذخيرة» حيث قال: «وقد أوضحت ذلك في كتاب «المنجيات والموبقات في الأدعية» وذكرت فيه ستة عشر نوعاً من الأدعية محرمة، وفقه الدعاء وآدابه»[3].

ولذلك فإن العنوان الكبير المكتوب على صدر غلافه بالورقة الأولى

---

(1) المنجيات: المخلصات من الشدائد والكروب والأمراض والذنوب عموماً، ومنها: الأدعية، فإن المنجي بها هو الله تعالى الذي خاطب الرسول ﷺ بأن يقول لأهل مكة: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝﴾ [الأنعام: 63 ـ 64].

فلفظ الآية يدل أنه عند الشدائد أن لا يغفل المؤمن عن أربعة أمور: الدعاء والتضرع والإخلاص وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾، ورابعها الاشتغال بالشكر، وهو المعني به في قوله عز ذكره: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝﴾ ولكنهم لم يصغوا لذلك ولم يمتثلوا ـ التفسير الكبير: 4/ 61.

(2) الموبقات: المهلكات، المعاصي، قال تعالى مخبراً عن ابتلاء المسافرين على السفن: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ [الشورى: 32 ـ 34]، أي: يهلكن بما كسبوا من المعاصي/ التفسير الكبير: 7/ 397 ـ 398.

(3) الذخيرة: 137ب.

«الموبقات والمنجيات من الدعوات» تحريف من الناسخ أو غيره. فهو تجاوز غير مقبول، وغير لائق، إذ لا يجوز تغيير عنوان كتاب وضعه مؤلفه ودقق في معانيه، ومراميه، ومقاصده، ومدلولاته. إنه اعتداء على إرادة المؤلف ومعرفته بمضمون كتابه، وإخلال بالأمانة العلمية، الواجب حفظها لا التلاعب بها، أو التصرف فيها.

ولو تأملنا ما أدى إليه تغيير العنوان - الذي يظهر للوهلة الأولى، أنه يفيد نفس المعنى الذي وضعه الشهاب القرافي - لأدركنا الفروق الشاسعة بين مدلول التسميتين: الأصلية والمحرفة، ويظهر ذلك في ثلاثة أمور:

أ - بدأ القرافي بتسمية عنوان كتابه بقوله: «المنجيات» ثم عطف عليها «الموبقات» وذلك لأن كل ذي عقل سليم يعتقد أن الشارع الحكيم يأمرنا أولاً بالأعمال الصالحة ثم يرتب على عدم الامتثال بها ومخالفتها الهلاك والإباق، فاقتضى هذا أن يقع ذكر المنجيات قبل المهلكات، عكس تقديم «الموبقات» على «المنجيات».

ب - كلمة «في» عند القرافي «في الأدعية» الظرفية، تفيد أن «المنجيات» و«الموبقات» داخلة في موضوع الأدعية، في حين أن كلمة «من» التي هي للتبعيض تدل على أن هذه «المنجيات والموبقات» هي جزء وبعض من الأدعية[1].

بينما موضوع الكتاب هو الدعاء لا «الدعوات»، والدعاء اسم مفرد يجمع على أدعية، وهو جمع تكسير من جموع الكثرة، يدل على ما فوق العشرة إلى ما لا نهاية له[2].

والقرافي في مؤلفه هذا استوعب بيان جميع أقسام الأدعية وأحكامها، وهو عمل لم يقم به أحد من قبله حسب علمي.

---

(1) حاشية الخضري على ابن عقيل: 228/1 - 229.

(2) ابن عقيل على ألفية ابن مالك بهامش حاشية الخضري على الشرح المذكور: 228/1 - 229.

ولذلك فإنه لما رأى توزع مسائل الأدعية بين التفاسير، ومصنفات شراح الأحاديث، ومختلف المدونات الفقهية كان له الحافز الأكبر الأهم الدافع إلى ضبط وحصر وجمع أحكام الأدعية ومسائلها بعد التنقيب عنها، واستقراء مصادرها المتنوعة بحثاً عنها، وتسجيلاً لها في كتابه هذا.

وهذا الكتاب، وإن وقعت الغفلة عن تاريخ الانتهاء منه، فإنه كان سابقاً لموسعته الفقهية «الذخيرة» كما صرح بذلك وكان سابقاً ـ كذلك ـ لكتابه الجليل «الفروق» كما أخبر عن ذلك[1].

2 ـ موضوع الكتاب:

أفصح القرافي عن موضوع الكتاب في كتابه «الذخيرة» ـ كما سلف بيانه ـ إذ قال عند حديثه عن الدعاء المحرم في كتابه «الجنائز»: «وقد أوضحت ذلك في كتاب المنجيات والموبقات في الأدعية، وذكرت فيه ستة عشر نوعاً من الأدعية المحرمة وفقه الدعاء وآدابه[2]»[3].

فموضوع الكتاب الذي بين أيدينا هو الفقه فقه الدعاء ـ كما صرح به المؤلف ـ بأحكامه المختلفة في جميع أبوابه ما عدا الباب العاشر الذي خصص كله للتحقيق في تحديد حقيقة اسم الله الأعظم، وبيان مذاهب العلماء في ذلك.

فالفقه أهم شيء بحثه المؤلف، وأطنب في تحرير مسائله وتدوينه، فظهر نبوغه واجتهاداته فيه وانتهت رئاسته إليه في زمانه، وأصبح الإمام الفذ والمؤلف القدير فيه بدون منازع[4].

---

(1) الفروق: 1/3.

(2) الذخيرة: 137ب.

(3) لو اقتصر القرافي على تسمية كتاب بـ«فقه الدعاء» لكان أفضل لأن كلًا من الأدعية المحرمة وآداب الدعاء داخلة في فقه الدعاء.

(4) الديباج: 63، والصفدي الوافي: 6/233.

وقد دل على ذلك تصانيفه التي أسلفنا الحديث عنها، وقد بلغت عشرة كتب، وكتابه «المنجيات والموبقات في الأدعية» يتناول بالبحث باباً صغيراً من أبواب الفقه، وهي السمة البارزة التي لوحظت في عصر القرافي.

ولقد طرأت بعد استكمال العلماء البحث في المسائل العلمية، أو الفراغ من تعمق درسها وتحليلها، وبعد المدونات والموسوعات، والشروح المطولة للمختصرات، ولم يبق للعلماء المؤلفين بعد ذلك إلا بعض المجالات التي تتناول مسألة جزئية فرعية[1] تناثرت وتباعدت في عدد الأبواب الفقهية. استدعت مزيداً من البسط والتحليل وجمعاً لشتاتها في تأليف مستقل، وبذلك ظهرت كتب عديدة، ورسائل صغيرة.

كان الشهاب القرافي من أبرز العلماء السائرين على هذا النسق بما أثرى به المكتبة الإسلامية من مؤلفاته، كالكتاب الذي بين أيدينا، وكتاب «الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، وتصرفات القاضي والإمام» أو كتاب «البيان فيما أشكل من التعاليق والأيمان» أو «اليواقيت في أحكام المواقيت» أو «العقد المنظوم في الخصوص والعموم» أو «الأمنية في إدراك النية» الذي حققناه، ونشرته دار سحنون بتونس.

وقد اشتمل موضوع هذا الكتاب على عشرة أبواب، حذف منها الناسخ أو غيره الباب الثامن الذي ذكر فيه القرافي عشرة أدعية للرسول ﷺ انتقاها من الصحاح، ولم يذكر الناسخ منها إلا الحديث الأول ولم يكمله.

كما اعتدى الناسخ على المؤلف والقارىء والأمانة العلمية في الباب التاسع الذي ضمنه القرافي عدداً من أدعية السلف الصالح.

وقد تداركت هذه النقص في البابين باختيار تسعة أحاديث من الصحاح للباب الثامن عوضاً عن المحذوفة وجعلتها بالهامش بشروحها التي اعتمدت فيها على أهل الذكر.

---

(1) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية: 156 ـ 157.

وفي الباب التاسع ملأت الفراغ بأربعة أحاديث من أدعية السلف الصالح بشروحها وضعتها في الهامش كذلك.

الباب الأول:

تناول فيه القرافي بيان حقيقة الدعاء في اللغة من خلال ذكره للدعاء كاسم، قال: والدعوة مفردة، وجمع المؤنث: الدعوات، فبالنسبة للدعاء كاسم، قال: إنه من الألفاظ المشتركة عند العرب، ومثل له بنوعين منها فقط: النداء والطلب.

وأما بالنسبة للدعوة مفردة الجمع المؤنث السالم فأوضح أنها مثلثة الدال عند العرب، فتضم دالها، وتفتح وتكسر، وكل منها، تجمع على الدعوات.

ومن معانيها إذا كانت مفتوحة الدال: الدعاء الذي هو الطلب.

وقد كان المؤلف في تحليله للمدلول اللغوي لكل من لفظتي: الدعاء والدعوة، منطلقاً من القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة.

ومما تجدر ملاحظته هنا هو أن إطلاق اسم الباب على بيان المعنى اللغوي لكل من هذين اللفظين قد لا ينطبق عليه معنى الباب إذ الباب في منهاج الباحثين والمؤلفين عبارة عن مدخل لعدد من العناوين أو العناصر أو الفصول أو ما أشبه ذلك كما هو معلوم وصار من المتعارف المألوف عند علمائنا من المؤلفين أن شرح الأسماء الشرعية في القرآن العزيز أو السُّنَّة النبوية أو الفقه ينطلق عندهم ابتداء من المعنى اللغوي ثم إلى الشرعي، ولا يقع الفصل بينهما بجعل كل منهما في باب، ولهذا كان من الأولى إضافة هذا المبحث إلى الذي بعده ولو أن القرافي أضاف إلى ما سماه الباب الأول والمعاني التسعة للدعاء الواردة في القرآن الكريم[1]، وتوسع في تحليلها لصار من الممكن اعتباره الباب الأول باباً تجوزاً.

---

(1) ابن حجر ـ فتح الباري: 94/11.

الباب الثاني:

في حقيقة الدعاء عند الأصوليين، وهي الطلب الذي هو قسم من أقسام الكلام ينحصر في اقتضاء[1] الفعل، وهذا الطلب أما للإتيان بالفعل وهو الأمر بإيجاده، أو المنع من الفعل وتركه وهو النهي عنه.

ثم بين المؤلف أن طلب الإتيان بالفعل، أو طلب تركه إما أن يقع بين متساويين في الرتبة والمنزلة والدرجة أو مختلفين في الرتبة؛ أي: أن الطالب يكون أعلى درجة من المطلوب منه الفعل.

فإن وقع الطلب بين المتساويين في الرتبة والمنزلة، سمى هذا الطلب التماساً، وإن وقع بين مختلفين في الرتبة، فإن كان الطلب صادراً من الأعلى إلى الأدنى فهو قسمان:

1 ـ طلب إيجاد الفعل، ويسمى الأمر، فإن كان على وجه الإلزام فهو الواجب، وإلا فهو المندوب.

2 ـ طلب الفعل المسمى بالنهي فإن كان على سبيل الحتم والإلزام فهو الحرام، وإلا فهو المكروه.

وإذا كان طلب الإتيان بالفعل، أو طلب تركه صادراً من الأدنى إلى الأعلى فهو الدعاء.

وأحسن ما أفصح عنه القرافي بعد هذا التقرير قوله: يحسن أن يقال: دعونا ربنا إذا كان في الطلب نفع وخير. ولا يصح أن يقال: أمرنا ربنا.

وكذلك يحسن أن يقال: دعونا ربنا إذا كان الطلب فيه منعاً لمضرة وفساد، ولا يصح أن يقال: نهينا؛ لأن لفظ الدعاء اختص بالله تعالى، ولذلك فلا يقال لكل طلب من أدنى إلى أعلى دعاء.

---

(1) الاقتضاء هو الطلب، وهو ينقسم إلى طلب فعل، وطلب ترك الفعل/ الأسنوي، نهاية السؤل: 1/57.

وقد مهد القرافي بهذا الباب لبيان أقسام الدعاء التي سيبحثها في أبواب الكتاب الآتية، واستنباط أحكامها.

الباب الثالث:

خصصه المؤلف لأقسام الأدعية التي حصرها في خمسة:

الدعاء المحرم ـ الدعاء الواجب ـ الدعاء المكروه ـ الدعاء المندوب ـ الدعاء المختلف فيه.

القسم الأول: الدعاء المحرم:

في هذا القسم من الدعاء أبدع المؤلف وأجاد سواء في تتبع النصوص الشرعية واستقرائها، أو بحثها، والتعمق في إبراز معانيها ومراميها بعقل سديد، ونظر بعيد، أو في اجتهاد واستنباط الأحكام منها بملكة أصولية، ومعرفة فقهية عميقة، وعقيدة صحيحة. إنه جهد كبير مشكور، وعمل مبتكر لم يتيسر حسب اطلاعي لأحد من العلماء إخراجه بهذا الأسلوب، وبهذه الطريقة: مبنى ومعنى ودقة واستنتاجاً. فجل ما كان يذكر ولا يزال عند الحديث عن الدعاء الذي وصفه القرآن الكريم والحديث الشريف بالاعتداء في الدعاء من أقوال المفسرين للآية الكريمة رقم 55 من سورة الأعراف: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾[1] أو أقوال العلماء شراح حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه[2] (ت55هـ/539م) عند أبي داود أن النبي ﷺ قال: **«سيكون قوم يعتدون في الدعاء»**[3] أو في شرح حديث أبي هريرة[4] ﷺ

---

(1) الرازي. التفسير الكبير 238/4 ـ 239، وتفسير ابن كثير: 221/2، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 226/7.

(2) ابن حجر ـ الإصابة: 88/3.

(3) سنن أبي داود رقم: 1480.

(4) أبو هريرة عبدالرحمن بن صخر من أعلام الصحابة الذين حفظوا سُنَّة رسول الله ﷺ وشريعة الإسلام، فهو أكثر الصحابة رواية للحديث، حيث جمع له ثلاثمائة وأربعة=

عند البخاري عن النبي ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: اللَّهمَّ اغفر لي إن شئت»[1] لأن فيه استكباراً[2].

فجل ما ذكره هؤلاء العلماء: إن الاعتداء في الدعاء من المحرمات؛ ويأتون لذلك بقليل من الأمثلة، كسؤال المعصية، أو طلب المحال، أو شبه ذلك.

وهذا ما صرح به القرافي عند ختام حديثه عن الدعاء المحرم في كتابه «الفروق»: «وهذه الأقسام قل أن توجد في الكتب، بل كلمات يسيرة توجد في بعضها، مشيرة إليها. أما التصريح بها على هذا الوجه فقليل أو معدوم»[3].

ولكن كيف فصل القرافي القول في هذا الدعاء المحرم؟

لقد حصره في نوعين: نوع مؤد إلى الكفر، ونوع ليس كذلك، ونوقش القرافي في كل منهما.

النوع الأول: الدعاء المحرم المؤدي إلى الكفر أو ينتهي إليه:

حصره القرافي في أربعة أقسام، ومثل لكل قسم بعدة أمثلة، وسنقتصر على مثال واحد لكل من تلك الأقسام، لعله يكون كافياً لتوضيحه.

1 ـ أن يطلب الداعي نفي ما دل عليه السمع القاطع من الكتاب العزيز على ثبوته كان يقول الداعي: اللَّهمَّ لا تعذب من كفر بك، واغفر له، وقد دلت الآيات القرآنية الكريمة على تعذيب كل من مات على الكفر.

= وسبعون حديثاً، ونقل عنه أحكام وفتاوى مذكورة في كتب الحديث والسير، ولذلك كان معدوداً من المفتين والفقهاء، وتوفي سنة تسع وخمسين عن ثمان وسبعين سنة/ الإصابة: 4/316.

(1) صحيح البخاري بفتح الباري: 11/139.

(2) المصدر السابق.

(3) القرافي: الفروق 4/297.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾[1] وغير ذلك من النصوص، فيكون ذلك كفراً؛ لأنه طلب لتكذيب خبر الله تعالى فيما أخبر به، وطلب ذلك كفر فهذا الدعاء كفر[2].

2 ـ في هذا القسم الثاني أن يطلب الداعي من الله تعالى ثبوت ما دل القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية على نفيه، ومن أمثلة القرافي له: أن يقول الداعي: اللَّهمَّ خلد فلاناً في النار، ولم يرد به سوء الخاتمة، وقد أخبر القرآن الكريم إخباراً قاطعاً بأن كل مؤمن لا يخلد في النار، ولا بد له من الجنة، فقال جل شأنه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴿١١﴾﴾[3].

فيكون هذا الدعاء مستلزماً لتكذيب خبر الله تعالى فيكون كفراً[4].

3 ـ في هذا القسم أن يطلب الداعي نفي ما دل الدليل العقلي القاطع على ثبوته ما يخل بإجلال الربوبية.

ومن أمثلته عند القرافي: سؤال الداعي من الله تعالى سلب علمه القديم حتى يستتر العبد في قبائحه، ويستريح من اطلاع ربه على فضائحه، وقد دل القاطع العقلي على وجوب ثبوت العلم لله تعالى أزلاً وأبداً، فيكون هذا الداعي طالباً لقيام الجهل بذات الله، وهو كفر[5].

4 ـ أن يطلب الداعي ـ في هذا القسم ـ من الله تعالى ثبوت ما دل القاطع العقلي على نفيه مما يخل بإجلال الربوبية.

ومن أمثلة هذا القسم: أن تعظم حماقة الداعي، فيسأل إلٰهه تعالى

---

(1) سورة النساء، الآية: 48.
(2) المنجيات: 2أ.
(3) سورة الطلاق، الآية: 11.
(4) المنجيات: 2أ ـ ب.
(5) المنجيات: 2ب.

أن يفوض إليه من أمور العالم مما هو مختص بالقدرة الإلٰهية والإرادة الربانية من الإيجاد والإعدام والقضاء والقدر النافذ المحتم. وقد دل القاطع العقلي على استحالة ثبوت ذلك لغير الله تعالى، فيكون ذلك طلباً للشركة مع الله تعالى في ملكه، وهو كفر[1].

وبعد أن بسط القرافي القول في أقسام هذه الأدعية المحرمة المؤدية إلى الكفر حذر السائلين منها لما يترتب عليها من المفاسد، فقال في كتابه «الفروق»: «فينبغي للسائل أن يحذر هذه الأدعية، وما يجري مجراها حذراً شديداً لما تؤدي إليه من سخط الديان، والخلود في النيران، وحبوط الأعمال، وانفساخ الأنكحة، واستباحة الأرواح والأموال».

«وهذا فساد كله يتحصل بدعاء واحد من هذه الأدعية ولا يرجع إلى الإسلام ولا ترتفع أكثر هذه المفاسد إلا بتجديد الإسلام والنطق بالشهادتين، فإن مات على ذلك كان أمره كما ذكرنا»[2]، وهذا تأكيد للحكم بالكفر لكل من دعا بنوع من هذه الأدعية.

وقد نوقش القرافي في وجهة نظره هذه واجتهاده: بأن هذه الأدعية وأمثالها كفر، ناقشه «قاسم ابن الشاط في القول بتكفير من ذكروا في الأقسام الأربعة في كتابه «إدرار الشروق على أنواء الفروق»»[3].

فبالنسبة للقسم الأول والثاني اللذين قال فيهما القرافي: إن طلب الداعي نفي ما دل القرآن الكريم على ثبوته، أو طلب ثبوت ما دل القرآن على نفيه، قال ابن الشاط: إن ذلك ليس بكفر لأن طلب التكذيب ليس بتكذيب، بل هو مستلزم لتجويز التكذيب عند من يجوزه، ويكون هذا من

---

(1) المنجيات: 2ب، 3أ.

(2) الفروق: 265/4.

(3) قاسم بن عبدالله ابن الشاط الأنصاري السبتي، اشتهر بأصالة الرأي ونفوذ الفكر وجودة القريحة، وتسديد الفهم، وفي تعليقه على فروق القرافي قال العلماء: لا تقبل منها إلا ما قبله ابن الشاط خلافاً لمن تتبع هذه الفروق، وقبل منها البعض ولم يقبل البعض ـ ابن فرحون/ الديباج: 226.

باب التكفير بالمآل، أي: أن مآل هذا الدعاء مؤد إلى تكذيب خبر الله تعالى بكفر من نطق بتكذيبه.

وأما بالنسبة للقسم الثالث وهو طلب نفي علم الله تعالى القديم فقال ابن الشاط: إن طلب نفي العلم ليس طلباً لضده وهو الجهل، وإنما يكون ذلك تكفيراً بالمآل كما سبق.

ومثل هذا يقال في القسم الرابع، بأن طلب تفويض الله للداعي مما هو مختص بالقدرة الإلٰهية أن ذلك ليس طلباً للشركة مع الله تعالى، وهو ـ أيضاً ـ من باب التكفير بالمآل(1).

ثم قال ابن الشاط: والتكفير بالمآل وقع الخلاف فيه بين العلماء، واختار القرافي عدم التكفير بالمآل، ولذلك فجزمه بالتفكير في هذه الأقسام الأربعة ليس بصحيح إلا على رأي من يكفر بالمآل، وذلك لأن الأصل في الدعاء الندب؛ لأنه من حيث ذاته طلب من الله تعالى، وكل ما هو طلب منه مشتمل على خضوع العبد لربه، وإظهار ذلته، وافتقاره إلى مولاه، وكل مشتمل على ذلك مأمور به أمر ندب، وقد يعرض له من متعلقاته ما يوجبه أو يحرمه.

والتحريم قد ينتهي إلى الكفر، وقد لا ينتهي.

وما ينتهي منه لم تقم حجة على أنه بعينه كفر، وإنما هو من باب التكفير، بالمآل عند من يقول به، والقرافي لا يقول بذلك(2).

ولكن من أين أثبت ابن الشاط أن القرافي من القائلين بعدم التفكير به صراحة؟

ولعل هذا ذكره القرافي في كتاب من كتبه الأربعة في أصول الدين: الأجوبة الفاخرة ـ أدلة الوحدانية ـ الانتقاد في الاعتقاد ـ شرح الأربعين في أصول الدين لفخر الدين الرازي؟

---

(1) إدرار الشروق بأسفل الفروق: 4/260.

(2) علي بن حسين، تهذيب الفروق بهامش الفروق: 4/260.

أما النوع الثاني من الدعاء المحرم الذي ليس بكفر فحدده المؤلف في اثني عشر قسماً:

توصل إليها بعد البحث الدقيق، واستقراء الأدلة الشرعية.

بدأها بالدعاء بطلب المستحيلات العقلية كسؤال الداعي دوام صحته وسلامته من الخطأ أبد الدهر، أو سؤال المستحيلات العادية، مثل طلب الولد من غير جماع، أو الدعاء بالألفاظ العجمية، أو الدعاء على غير الظالم...

وقد تناول القرافي أقسام هذا النوع من الدعاء المحرم الذي ليس بكفر في كتابه «الفروق» 4: من صفحة 285 إلى صفحة 297 في الفرق 273 بين قاعدة: ما هو محرم من الدعاء، وبين قاعدة: ليس محرماً.

وكان تناوله لأقسام هذا النوع ومباحثه في «الفروق» مبسطاً مشروحاً شرحاً مستفيضاً بالتمثيل والاستشهاد، بينما تناوله له في الكتاب الذي بين أيدينا جاء مقتضباً، ولعل سبب ذلك أسبقيته للتأليف كما سبق ذكر ذلك.

وإفادة للقارىء أضفت ما زيد في كتاب «الفروق» إلى كتابه «المنجيات...» بين معقفين مثلما فعلت في النوع الأول.

وهذه الأقسام الاثني عشر من الأدعية التي رأى القرافي أنها محرمة ناقشه في مسائلها قاسم ابن الشاط. فسلم له القول في البعض منها وصحح اجتهاده، ولم يوافقه الرأي في عدد منها، ونكتفي بذكر مثالين لذلك في مناقشته للقرافي:

المثال الأول:

جاء في القسم السابع من الدعاء المحرم الذي ليس بكفر. وهو الدعاء المعلق على مشيئة الله تعالى: فلا يجوز أن يقول الداعي: اللَّهمَّ اغفر لي إن شئت، ولا: اللَّهمَّ اغفر لي إلا أن تشاء، أو ما أشبه ذلك لما

ورد في الصحيح: «**لا يقل أحدكم: اللَّهمَّ اغفر لي إن شئت، وليعزم المسألة**»[1].

والحكمة في ذلك: أن هذا الدعاء عري عن إظهار الحاجة إلى الله تعالى: ويشعر بغنى العبد عن الرب، وبطلب تحصيل الحاصل، وطلب تحصيل الحاصل محال، فإن ما شاء الله لا بد من وقوعه، وذلك كله مناقض لقواعد الشريعة والأدب مع الله تعالى[2].

قال ابن الشاط: منع القرافي هذا الدعاء لأنه من طلب تحصيل الحاصل وليس بصحيح، وقد دعا النبي ﷺ لنفسه الكريمة بالمغفرة[3]، وهي معلومة الحصول عنده وعندنا، وأمرنا أن ندعو له بإيتائه الوسيلة[4]

---

(1) هذا حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري: ولفظه: (أن رسول الله ﷺ قال: **لا يقولن أحدكم: اللَّهمَّ اغفر لي إن شئت اللَّهمَّ ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مستكره له**» فتح الباري: 11/139.

وقوله ﷺ: «**فإنه لا مستكره له**» وفي رواية: «**فإنه لا مكره له**» والمعنى واحد وهو: أن الذي يحتاج إلى التعليق بالمشيئة ما إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشيء، فيخفف الأمر عليه، ويعلم أنه لا يطلب ذلك الشيء إلا برضاه، وأما الله ﷻ فهو منزه عن ذلك. فليس للتعليق فائدة/ ابن حجر ـ فتح الباري: 11/140.

(2) الفروق: 4/285 ـ 286.

(3) الدعاء بالمغفرة ورد في عدد من الأحاديث، منها: الحديث الأول الذي ذكره القرافي في الباب الثامن وهو حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: «**رب اغفر لي خطيئتي، وإسرافي في أمري كله وما أنت أعلم به مني، اللَّهمَّ اغفر لي خطاياي، وعمدي وجهلي وجدي، وكل ذلك عندي، اللَّهمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير**»/ صحيح البخاري بفتح الباري: 11/196.

(4) الوسيلة: هي ما يتقرب به إلى الكبير، تقول: توسلت، أي: تقربت، وتطلق على المنزلة العلية، كما جاء ذلك في حديث عبدالله بن عمرو ﷺ عند مسلم بلفظ: «**فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 4/85.

والفضيلة[1] والدرجة الرفيعة، وإعطائه المقام المحمود الذي وعد به[2] وذلك كله معلوم الحصول عندنا وعنده[3].

المثال الثاني من مناقشة ابن الشاط للقرافي في قوله:

تقريراً للقسم الثامن من الدعاء المحرم الذي ليس بكفر: هو أن يقول الداعي: اللّهم افعل بي ما أنت له أهل في الدنيا والآخرة، وهو دعاء قبيح، لأن الله تعالى هو أهل لمغفرة الذنوب كما هو أهل للمؤاخذة عليها. فمن دعا بذلك فقد سأل من الله تعالى أن يفعل به إما الخير وإما الشر، لأن الدعاء بمثل هذا فيه إظهار الاستغناء، وعدم الافتقار إلى الله تعالى فيكون معصية[4].

---

(1) الفضيلة: المرتبة الزائدة على سائر الخلائق، ويحتمل أن تكون منزلة أخرى، أو تكون تفسير للوسيلة/ ابن حجر ـ فتح الباري: 2/95.

(2) المقام المحمود الذي وعدته: المقام الذي يحمد القائم فيه، وهو عام في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات.

ومعنى: وابعثه المقام المحمود: أقمه يوم القيامة مقاماً محموداً وابعثه: أعطه ـ المصدر السابق.

ومعنى: الذي وعدته هو قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: 79].

قال ابن حجر: ويحتمل أن يكون المراد بمقام المحمود الشفاعة، كما هو المشهور، وأن يكون الإجلاس هو المنزلة المعبر عنها بالوسيلة أو الفضيلة/ المصدر السابق.

ولفظ الحديث عند البخاري عن جابر بن عبدالله ﷺ: «أن رسول الله ﷺ قال: من قال حين يسمع النداء: اللّهمَّ رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي»/ صحيح البخاري بفتح الباري: 2/94.

الدعوة التامة: دعوة التوحيد التي لا يدخلها تغيير ولا تبديل فهي باقية إلى يوم القيامة، والشفاعة للمذنبين عامة؛ لأن للنبي ﷺ شفاعات أخرى، مثل: إدخال الجنة عدداً من أمته بغير حساب، وكرفع الدرجات، فيعطي كل واحد ما يناسبه/ فتح الباري: 2/96.

(3) إدرار الشروق بأسفل الفروق: 4/286.

(4) الفروق: 4/286 ـ 288.

وهذا الدعاء إنما يستقيم على مذهب المعتزلة[1] الذين يعتقدون أن الله تعالى يجب عليه رعاية المصالح، وأنه أهل للخير فقط، ولا ينسب لجلاله إلا ذلك[2].

ومذهب المعتزلة إما كفر، أو فسوق بإجماع أهل السُّنَّة، فلا خير في هذا الدعاء[3].

قال ابن الشاط مناقشاً القرافي في حكمه لمثل هذا الدعاء بأنه معصية فيه نظر؛ لأنه لا يخلو أن يكون الداعي ممن يعتقد مذهب الاعتزال أو لا؟

فإن كان الأول: فذلك ضلال، وهو مختلف فيه هل هو كفر، أو ضلال غير كفر؟[4] وإن كان الداعي لا يعتقد مذهب الاعتزال فقرينة الحال أن الداعي لا يريد لنفسه إلا الخير مع سلامته من عقيدة الاعتزال، فلا يكون هذا الدعاء لا كفراً ولا معصية[5].

---

(1) المعتزلة: هم أصحاب المذهب الفلسفي الذي ظهر وذاع أمره في القرن الثاني للهجرة، وفتح المجال للاجتهاد، والبحث النظري في تحكيم العقل ولو خالف النص الشرعي، وبذلك انعزلوا بآرائهم المتطرفة في عقائد الدين عن أهل السُّنَّة والجماعة.
وقد تأثر هذا المذهب بعوامل خارجية عن البيئة الإسلامية والعقائد الصحيحة السليمة كالمسيحية واليهودية والفلسفة اليونانية، وصارت تعاليمهم وآراؤهم مزيجاً مما ذكر، إساءة للإسلام والمسلمين/ صبحي الصالح. النظم الإسلامية: 155.

(2) ومن أقوالهم ـ كذلك: القرآن مخلوق حادث وليس قديماً، وإن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين.../ المصدر السابق: 154.

(3) من الباحثين من يرى أن هذا المذهب ضلال غير كفر، لأن أهم شيء عند أهل الاعتزال هو التوحيد حتى نسبوا إليه، فقيل فيهم: أهل التوحيد، وإن الكلام في التوحيد كان لهم دون سواهم، فكل من تكلم في التوحيد والعقائد ـ خارج كتبهم وتصانيفهم ـ كان ينظر إلى الموضوع نظرة سطحية.
أما المعتزلة فكانوا لتعمقهم في البحث يردون على الملحدين ويربطون بين النصوص القرآنية والآراء العقلية التي دعوا الناس إلى التفكير فيها/ المصدر السابق: 156 ـ 157.

(4) الفروق: 4/286 ـ 288.

(5) إدرار الشروق بأسفل الفروق: 4/288.

4 ـ الباب الرابع: آداب الدعاء الباطنة والظاهرة:

جمع المؤلف هذه الآداب في الفصول الثلاثة التالية:

أ ـ الآداب الباطنة، وعددها عشرة.

ب ـ الآداب الظاهرة، عشرة كذلك.

ج ـ هيئات الداعين، عشرة أيضاً.

هذا التنظيم لآداب الدعاء، وإحصاؤها في ثلاثين تفرد به المؤلف، إذ لم يأت به أحد ممن تناولوا هذه الآداب بالبحث والتفصيل.

فأبو حامد الغزالي ـ مثلاً ـ في كتابه «إحياء علوم الدين» ذكر أن جملتها عشرة، وهي متداخلة. منها: ما يرجع إلى الأدب الباطني، ومنها: ما يرجع إلى الظاهري[1].

والحافظ أحمد بن حجر العسقلاني في كتابه «فتح الباري» نص على أن هذه الآداب تسعة[2].

هذه الآداب بفصولها الثلاثة استخلصها القرافي بعد الاستقراء والتعمق في البحث، وتتبع النصوص الشرعية، كما يتجلى ذلك من خلال قراءتها والتدبر في معانيها.

وقد وفى بشرحها، والتمثيل لها. ولكنه في الأدب العاشر: هيئات الداعين خرج عن دائرة الشرع إلى العادات، وما كان متعارفاً آنذاك من أقوال الأطباء في ذلك العصر فقال: «على الداعي أن تكون أغذيته في تلك الأيام المتقدمة على الدعاء من النبات متجنباً الحيوان ولحومه، والأدهان المستخرجة منه، ويقتصر على دهن الزيتون فإنه الشجرة

---

(1) الإحياء: 1/304.

(2) فتح الباري: 11/141.

المباركة»[1].

«ويقال: للحم ضراوة كضراوة الخمر[2]، والعادة قد شهدت بأن اجتناب اللحوم والإقلال منها مما يوجب رقة القلب وإصلاحه، وهذا كله بشرط حفظ المزاج الذي يصون العقل، ويذكي القلب».

ثم تراجع القرافي وقال: «قلت: هذا الأدب العاشر لا أصل له في الشرع فلا يلتفت إليه والله أعلم»[3].

وكان على القرافي أن لا يذكر هذا أصلاً لمناقضته لأمر الله تعالى بأكل اللحوم لمنافعها الكثيرة للبدن ولو كان المراد منها منع المبالغة في أكل اللحوم حتى لا يصبح عادة يصعب تركها لمن ألفها كالإدمان على شرب المسكر.

بيد أن تشبيه ضرر الإكثار من تناول اللحوم بمضار الخمرة بالغت فيه هذه العادة مبالغة كبيرة، وذلك لأن المفاسد التي تحدثها الخمر من جراء تناولها عظيمة وكبيرة، بينما الإكثار من تناول اللحوم ضرره قليل على البدن والمال، وأيضاً فلا يصح قياس الطيب على الخبيث.

---

(1) وصفها بذلك القرآن الكريم في قوله جل وعلاه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: 35].

المشكاة: الطاقة غير النافذة، أي: الأنبوبة في قنديل.

(2) هذا القول رواه الإمام مالك عن عمر بن الخطاب ﷺ، قال: «إياكم واللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر» الموطأ بهامش المنتقى: 7/253.

قال أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت494هـ/770) في شرحه لهذا الأثر في كتابه «المنتقى»: أراد عمر منع التنعم بالمبالغة في أكل اللحم حتى لا يصبح عادة يصعب تركها لمن تعود عليها كالإدمان على الخمر.

فما يدعو إليه مالك هو الاقتصاد، والاقتصار على أيسر الأوقات، فإذا زاد على هذا القدر المندوب يكون إسرافاً مضراً، والإسراف محرم/ المنتقى: 7/253.

(3) المنجيات: 14أ.

ولكن إذا كانت العادة موجودة ونزل القرآن بإقرارها صارت شرعاً يتبع مثل رفع الأصوات بالدعاء في صلاة الاستسقاء، وإيقاعها في الفلوات اللذين كانا عادة وشعاراً لأهل الجاهلية إذا أجدبوا.

وقد استثني رفع الأصوات بالدعاء هنا من آداب الدعاء المطلوب فيه خفض الصوت، لأن رفعه يشعر بغيبة المطلوب، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

الباب الخامس: الأزمنة الفاضلة المختارة للدعاء:

حددها المؤلف في عشرة: ليالي رمضان ـ يوم عرفة ـ عاشوراء، ويلحق به تاسوعاء ـ ليلة الجمعة ويومها ـ عشر ذي الحجة ـ شعبان ـ الأشهر الحرام ـ أيام النحر ـ أيام رجب ـ الأسحار.

وقد مر على الأزمنة التسعة الأول مر الكرام بدون تحليل ولا استشهاد على غير ما عرفناه. أما في الزمن العاشر وهو الأسحار فقد أفاض في بحثه، لأنه كما قال: أفضل للترغيب والحث على الدعاء فيه بنص القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة، لأنه وقت الغفلة والالتذاذ بالنوم والأزواج، بينما القائم في ذلك الوقت مؤثر لربه على نفسه.

وقاس القرافي على التقرب إلى الله تعالى بالدعاء وطلب المغفرة في الأسحار. قاس عليه كل ذاكر لله تعالى من الغافلين، وكل قائم لحدود الله بما غفل عنه الناس[2].

الباب السادس: البقاع الفاضلة المختارة للدعاء:

أحصاها المؤلف في عشرة ولا نقاش في فضل وبركة الثمانية الأولى[3] ما عدا المكان التاسع وهو أرض اليمن، والمكان العاشر وهو أرض المغرب.

---

(1) سورة غافر، الآية: 20.

(2) المنجيات: 14أ.

(3) المصدر السابق: 14أب.

فبالنسبة لأرض اليمن فلحديث مسلم: «**جاء أهل اليمن. هم أرق أفئدة، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية**»[1].

فهذا الحديث دل ظاهره على فضل أهل اليمن وأهله، وهو اعتماد القرافي في تفضيله، ولكن المحدثين والعلماء أوَّلوا الحديث بتأويلات عدة أضعفت دلالته على ظاهره[2].

أما المكان العاشر، وهو أرض المغرب، فقد دعم المؤلف فضله، وفضل أهله بحديث: «**لا تزال طائفة...**» الحديث[3].

لم يكمل القرافي ذكر هذا الحديث بأكمله، ولفظه كما جاء عن ابن عربي[4] في كتابه «الفتوحات المكية»: «**لا تزال طائفة من أهل المغرب[5] ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة....**» الحديث[6][7].

ولكن ابن عربي لم يذكر لهذا الحديث إسناداً، ولا مصدراً موثوقاً به مما يثير الريبة في صحته.

وبناءً على اختلاف روايات الحديث في تعيين هذه الطائفة المسلمة

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي: 2/32 ـ 33.
(2) المصدر السابق.
(3) المنجيات: 14ب ـ 15أ.
(4) هو: محيي الدين أبو بكر ابن عربي الحاتمي الطائي الصوفي الكبير (ت638هـ/996م) الحكيم، الفقيه، المفسر المتكلم الشاعر، وقد اختلف العلماء فيه: فقائل بكفره، وقائل بغلوه وتطرفه، ولذلك وقع التحذير من الاشتغال بكتبه لمخالفتها ظاهر ما عليه الجمهور/ الحصكفي في الدر المختار: 3/303، والحجوي في الفكر السامي: 2/172 بالهامش.
(5) هذه الطائفة التي وقع تعينها بالمغرب الأقصى هنا اختلفت روايات الحديث في تحديد مكانها، ففي رواية: أنه بيت المقدس، وفي رواية: أنه الشام، وفي رواية: أنه المغرب/ ابن حجر، فتح الباري: 13/295.
(6) الفتوحات المكية ـ باب ختم الأولياء: 308.
(7) المنجيات: 14ب ـ 15أ.

الصالحة المجاهدة الصابرة، وبناءً على عدم توثيق الحديث، فإنه لا يمكن الجزم بأن هذه مكانها المغرب.

ولا يكفي ما ذكره القرافي دعماً لموطن هذه الطائفة بالمغرب الأقصى على ما يقال عنه آنذاك في عصر القرافي من «إقامة الدين وصحة العقائد حتى لا يكاد يوجد اليوم على وجه الأرض إقليم أصح منه عقيدة، ولا أجمع كلمة ولا أشد على الدين حمية، ولأنه في غاية البعد عن المشرق الذي ذمه الرسول ﷺ[1]»[2].

وكان على القرافي التثبت في مدى صحة رواية هذا الحديث أولاً قبل الجزم والتيقن في درجته: صحة أو حسناً، أو ضعفاً، لا أن يسترسل في دعمه بما يتناقل من الأخبار والاعتماد عليها، وهذا عيب مسيء إلى علمائنا أمثال مؤلفنا، لأن الدين لا يثبت بمثل هذا.

وعدم التحقق عن مدى صحة الحديث أوقعه بالاستشهاد بالحديثين الموضوعين التاليين:

الأول: استدل به القرافي على وجوب ارتباط العلم بالعمل وهو: (الناس كلهم هلكى إلا العالمون والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم)[3]. عند تقريره: أن الجهل بما تؤدي إليه الأدعية ليس عذراً للداعي[4].

الثاني: ذكر القرافي في الفصل الثالث من هيئات الداعين التوجه نحو الكعبة لمزيد فضله وقال: «فقد صح أفضل المجالس ما كان

---

(1) جاء هذا في حديث عبدالله بن عمر ﷺ عند البخاري عن النبي ﷺ: أنه قام إلى جانب المنبر فقال: «الفتنة هاهنا، الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان ـ أو قال: قرن الشمس ـ»/ فتح الباري: 13/45.

(2) المنجيات: 14ب ـ 15أ.

(3) موضوعات الصاغاني 38، والألباني في كتابه «سلسلة الأحاديث الموضوعة»: 76.

(4) المنجيات: 3أ.

مستقبلاً»[1].

لكن هذا لم يصح، ولم يثبت أنه حديث، وقد صح أنه قول مأثور للفقيه التابعي مكحول الدمشقي[2].

الباب السابع: عوارض الدعاء:

تسمية هذا الباب من اجتهادات القرافي، والعوارض جمع عارض، والمراد به هنا ما يعترض الدعاء من أمور، تكون سبباً في الإخلال بصحته وصدقه، والحيلولة دون استجابته.

وهذه العوارض استقل القرافي بذكرها، وجمعها في ثمانية، وعكف على بيانها، واستنباط أحكام لها، وسنتناول ستة منها بالبحث والتعليق.

1 ـ العارض الأول: سؤال الله تعالى والضراعة إليه بأحد المخلوقات المعظمة عنده كقول الداعي: اللَّهمَّ إني أسألك بنور عرشك أو ببيتك المحرم أو بنبينا إبراهيم عليه السلام، ونحو ذلك من المخلوقات التي عظمها الله تعالى.

فالدعاء بأي صيغة من تلك الصيغ أو مثلها بين القرافي أن الفقهاء لم يثبت عندهم تقرير حكم له بالجواز أو المنع.

ولذلك اجتهد في استنباط حكم الدعاء بنحو ذلك بقياسه على القسم على الله تعالى بمخلوقاته المعظمة وذلك بالرجوع إلى قاعدة وجوب تعظيمه تعالى على كافة المخلوقات، وتقسيم هذا التعظيم إلى أقسام ثلاثة:

قسم مجمع عليه، وهو أنه يحرم تعظيم غيره به كالوحدانية والربوبية وقسم ثان تجوز معاملة غيره به كاعتقاد الرحمة والإحسان، وقد نص القرافي على أنه محل إجماع لدى العلماء، بينما قال الحافظ أحمد بن حجر أن فيه تفصيلاً[3].

---

(1) المنجيات: 13أ.

(2) مصنف ابن أبي شيبة: 6/164.

(3) فتح الباري: 11/225.

أما القسم الثالث فقد اختلف فيه العلماء هل يختص التعظيم به تعالى أم لا:

فقائل بالتحريم، وقائل بالكراهة، ما عدا الحلف بالأصنام فالإجماع على تحريمه، ومن هذا القسم الحلف على الله تعالى ببعض مخلوقاته[1].

قال القرافي بعد بسطه لهذه الأقسام الثلاثة: فمتقضى هذه القاعدة: أن يجري الخلاف - كذلك - في سؤال الله تعالى ببعض مخلوقاته المعظمة، ويكون الحكم منع الدعاء بذلك.

ثم قال: وعلى فرض وقوع الخلاف فيه فينبغي للعاقل أن يتجنبه على كل تقدير، إما لتحريمه أو على سبيل الورع[2].

2 - التعارض بين الدعاء والثناء على الله تعالى: في هذا العارض الثاني تجلى اجتهاد القرافي في دفع إشكال التعارض بين الثناء على الله تعالى بذكره وتحميده وتكبيره، وبين الأمر بالدعاء في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ﴾[3]. وبين الأمر بذكره تعالى المشغل عن دعائه في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن الترمذي عن النبي ﷺ: **«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»**[4].

وقد توصل إلى اجتهاده في تفصيله القول في حالات ثلاث: حالة تعيين الدعاء ومشروعيته، وحالة تعيين الدعاء ولم يشرع فيها الثناء، وحالة لم يشرع فيها الدعاء ولا الثناء، وهي التي يحمل عليها حديث الخدري: **«من شغله...»**.

ففي هذه الحالة الأخيرة يرى القرافي تقديم الثناء على الدعاء لما فيه من إيثار الرب وإجلاله على مصالح العبد وشؤونه[5].

---

(1) المنجيات: 15أ - 15ب.
(2) المنجيات: 15ب.
(3) سورة غافر، الآية: 60.
(4) جامع الترمذي: 152/2.
(5) المنجيات: 15ب.

3 ـ التعارض بين دعاء الإنسان لنفسه ودعائه لغيره، فهل يجمع بينهما أو أيهما يقدم؟

رأى القرافي أن الصواب البدء بدعاء الإنسان لنفسه على غيره، ودعم اجتهاده أولاً: بما جاء في القرآن الكريم في دعاء سيدنا نوح عليه السلام، حيث بدأ بنفسه، فقال الله تعالى على لسانه: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[1].

وثانياً: استدل القرافي بالقاعدة الشرعية التي لا اختلاف فيها بين العلماء وهي: أن القرب لا يدخلها الإيثار.

ومن فروع هذه القاعدة: أنه لا يجوز أن يؤثر المسلم غيره على نفسه بالأذان أو بفرجة الصف الأول في صلاة الجماعة، أو غير ذلك من أنواع القرب[2].

4 ـ مسح اليدين بالوجه بعد رفعهما بالدعاء، وهو عند الخواص من العلماء بدعة يخل بمشروعية الدعاء في نظرهم[3].

والظاهر أن القرافي أتى بهذا العارض ليرد عليهم، فبين أن هذا ما يفعله كثير من الناس والمراد بهم الجمهور في مقابلة الخواص، والقرافي من الجمهور.

فالجمهور ينفون أن يكون مسح اليدين بالوجه بعد رفعهما في الدعاء بدعة. أو أنه مخالف للسُّنَّة لورود عدة أحاديث عن الرسول ﷺ في ذلك وقد ذكرنا ذلك عند الحديث عن هذا العارض في التحقيق.

5 ـ سؤال الدعاء من الغير: رأى القرافي أن على الإنسان أن يستوهب الدعاء من كل أحد، ولو كان من شر خلق الله، لأن فضل الله كثير لا يدخل تحت حصر، ولا ينقطع عن بر ولا فاجر[4].

---

(1) سورة نوح، الآية: 28.
(2) المنجيات: 15ب ـ 16أ.
(3) المنجيات: 16أ.
(4) المنجيات: 16ب.

لكن طلب الدعاء من الأشرار مناقض لما قرره القرافي نفسه عن العلماء في آداب الدعاء الباطنة، وهو اجتناب المحرمات[1].

وهو منقوض ـ أيضاً ـ بعمدة العلماء على ذلك بحديث مسلم عن النبي ﷺ: **«في الرجل الذي يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟»**.

6 ـ **طلب الإنسان الدعاء له من غيره**: ذكر القرافي أن هذا المطلوب منه الدعاء قد يمتنع بسبب تلبسه بالمعصية، أو الخوف من الرياء[2].

فهذا الامتناع عن تلبية طلب غيره الدعاء له وصفه القرافي بأنه انحراف عن الصواب. ولكن إذا كان امتناعه بسبب المعصية فكيف يسوغ له الدعاء لغيره، وقد سبق لنا قبل قليل: أن من آداب الدعاء الباطنة اجتناب المحرمات والمعاصي، بينما القرافي هنا يتجاوز عن ذلك، ويحث على الدعاء، ولو كان الداعي عاصياً، اعتماداً على فضل الله تعالى.

أما الامتناع عن الدعاء خوف الرياء، لأنه محبط للأعمال فإن القرافي رأى أن الدعاء هو عبادة وطاعة الله تعالى، والرياء مفسد للأعمال، ولذلك فإنه لا يجوز ترك الطاعات من أجل ما يفسدها، وإنما يحسن ذلك إذا كانت الطاعة ليست واجبة وبذل الإنسان جهده في ترك الرياء عن نفسه، فعجز عنه، وحينئذٍ يجب ترك المندوب للرياء المحرم[3].

والسؤال هنا: هل الاستجابة لطلب الدعاء للغير واجبة أو مندوبة؟

---

(1) المنجيات: 11ب.
(2) المنجيات: 16أ.
(3) المنجيات: 17أ.

والظاهر أنها مندوبة، ولهذا فالحكم يكون بترك الدعاء المطلوب المندوب للرياء المحرم.

وأما الباب الثامن الذي ذكر فيه القرافي عشرة أدعية للرسول ﷺ، وحذف المدون أو الناسخ تسعة منها ولم يبق منها إلا الحديث الأول مبتوراً، وقد سبق الحديث عن هذا.

ومثل ذلك **الباب التاسع**، الذي أورد فيه القرافي أدعية للسلف الصالح، وتم حذفها ولا أثر للمؤلف فيها، وقد مر الحديث عن ذلك أيضاً.

وبالنسبة **للباب العاشر** والأخير «اسم الله الأعظم» فالقرافي ركز فيه على القول بأن اسم الله الأعظم له حقيقة في نفسه، ثم بين مذاهب العلماء في تحديد معناه بياناً علمياً دقيقاً، بالشرح والتمثيل، ونأى بنفسه عن سرد أخبار قد تكون غير موثوق بها، منها:

يقال: أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان إذا أراد أن يحيي الموتى يدعو بهذا الدعاء: يا حي يا قيوم.

ويقال: إن آصف بن برخيا[1] لما أراد أن يأتي بعرش بلقيس لسليمان عليه السلام قال: يا حي يا قيوم.

ويقال: إن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام عن اسم الله الأعظم، فقال لهم: «أيا هيا شراهيا» يعني: يا حي يا قيوم[2].

وصفوة القول: فإن كتاب المنجيات والموبقات في الأدعية، للعالم الكبير الشيخ شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، رغم صغر حجمه، كتاب جليل طريف مبتكر في بابه، طيب المحتوى رفيع المستوى علماً

---

(1) آصف بن برخيا: اختلفت أقوال العلماء في تعيينه، ووصلت إلى حوالى سبعة، ولكن القول المشهور أن آصف كان وزيراً لسليمان عليه السلام وكان صديقاً يعلم اسم الله الأعظم، إذا دعا به أجيب/ التفسير الكبير: 6/409، وتفسير ابن كثير: 3/364.

(2) الجامع لأحكام القرآن: 3/ 271.

جماً، واستدلالاً مركزاً، وعمقاً في البحث، واستقراء، واستنباطاً وأسلوباً جلياً.

وكل ذلك دل على رجاحة عقل مؤلفه، وثقوب ذهنه، وتبحره فيما تناوله فيه: فقهاً بقواعده وأصولاً، وعقيدة، وأدباً رفيعاً.

ولن ينال من قيمته العليا ما اقتطعه الناسخ منه، ولا ندرة ما نوقش فيه سواء في بعض المسائل العلمية، أو المنهجية، أو الغفلة عما يجب التثبت منه، وإغفال ذلك لا يغتفر، فسبحان من لا يعزب عن عمله مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.



القسم الثاني
تحقيق كتاب المنجيات والموبقات في الأدعية



مقدمة التحقيق

سنتناول في هذه المقدمة ثلاثة أمور: وصف المخطوطة ـ الهوامش ـ الرموز والإشارات المتخللة في ثناياها.

أ ـ وصف المخطوطة:

اعتمدت في هذا التحقيق لكتاب الشهاب القرافي على نسخة خطية وحيدة منحني إياها شيخنا الكريم «الطيب بسيس» لما رآني منشغلاً بتحقيق كتاب القرافي «الأمنية في إدراك النية» وأكد علي ـ حفظه الله ـ إبراز هذا الكتاب المغمور النادر وجوده في المكتبات، والعمل على نشره لإفادة الأمة بما أنتجته قريحة القرافي في موضوع الدعاء.

وبهذا المخطوط عشرون ورقة أوله: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، الحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على محمد سيد المرسلين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وسائر الصالحين».

«أما بعد، فهذا كتاب «الموبقات والمنجيات من الدعوات[1]» للإمام أحمد بن إدريس القرافي رحمه الله تعالى...».

وجاء في آخر هذه النسخة: «تم الكتاب، والحمد لله رب العالمين،

---

(1) سبق قبل أن هذا العنوان محرف.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين»[1].

كان اعتمادي في التحقيق على هذه النسخة المخطوطة الوحيدة، لأني لم أتمكن من العثور على نسخة أخرى أولاً، ولوضوح الخط المكتوبة به ثانياً.

خطها تونسي مستحسن مقروء، مكتوبة بالحبر الأسود كلها، كثيرة الأخطاء الرسمية مقاسها 14 × 20، لا يوجد بها اسم الناسخ، ولا تاريخ النسخ أبرز فيها الناسخ الأبواب والفصول والعناوين بجر أحد حروفها بخط طويل، وقد يصنع دائرة تتوسطها نقطة، أو علامة عند نهاية كل عنوان، ولكن بقلة.

أما الترقيم للصفحات فاكتفى فيه الناسخ بكتابة الكلمة الأخيرة التي ينتهي بها ظهر الورقة «ب» كتابتها في أول سطر وجه الورقة الموالية «أ» وعلى هذا النمط القديم تسلسلت أوراق الكتاب بدءاً من أول ورقة إلى آخر ورقة دون ترقيم للأوراق أو الصفحات، الذي وضعته أنا بعد ذلك بين معقفين.

واعتمدت في تحقيقي ـ كذلك ـ في الباب الثالث من هذه النسخة على ما كتبه القرافي بنفسه في كتابه «الفروق» عند تبيانه لأقسام الأدعية[2] وهو أوضح وأبين، وكأنه رأى أن ما حرره في كتابه هذا «المنجيات والموبقات في الأدعية» موجز مختصر، يعتريه الغموض أحياناً، وصعوبة الفهم والإدراك أحياناً أخرى، فتلافى ذلك في كتابه «الفروق» وحلل ما

(1) لم يرد في آخر هذه المخطوطة لا اسم الناسخ لها، ولا تاريخ نسخها.

(2) أقسام الأدعية حللها القرافي في ثلاثة فروق من الفرق الرابع والسبعين والمئتين بين قاعدة ما هو كفر، وقاعدة ما ليس بكفر، والفرق الخامس والسبعين والمئتين بين قاعدة ما هو محرم من الدعاء وليس بكفر، وقاعدة ما ليس محرماً، والفرق السادس والسبعين والمئتين بين قاعدة ما هو مكروه من الدعاء، وقاعدة ما ليس مكروهاً/ الفروق: 4/286 ـ 304.

كان مستعصياً على الفهم، أو يقتضي زيادة شرح وتفسير، وقد علقت على جميع ذلك وأضفت في الهامش كل ما اقتضى التوضيح والبيان.

إن مخطوط الشهاب القرافي هذا بصورته وشكله ومحتواه القيم، علماً جماً، واطلاعاً واسعاً، وتحريراً جيداً، واستقراء دقيقاً، واجتهاداً رصيناً مركزاً، فإنه مع هذا المستوى الرفيع النادر تعرض إلى الإساءة بحذف بعض مما كتبه المؤلف، ودبجه، واستنتجه وقرره، وأفاد به العلماء والطلبة والدارسين.

هذا الحذف الذي لا يغيب عن كل مطالع، وخاصة مما نص عليه الطالب أو الناسخ للكتاب ظناً منه بمعرفته هو بذلك، أو لكونه معلوماً، أو للاختصار، أو ما شاكل ذلك، وحرمان المستفيد القارىء المطالع له منه.

وقد تجلى هذا الحذف في خمسة مواضع من الكتاب: المقدمة والباب السابع والثامن والتاسع والخاتمة.

1 ـ المقدمة:

افتتح الكتاب بالمقدمة التالية: بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

«الحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على محمد سيد المرسلين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وسائر الصالحين، أما بعد...».

هذه الافتتاحية وإن كانت موفية بما يجب على كل شارع في تصنيف كتاب أن يبدأ بأربعة أمور: البسملة، والحمدلة، والصلاة على النبي ﷺ، والتشهد.

ويسن له ثلاثة أمور: تسمية نفسه، وتسمية كتابه، والإتيان بما يدل على المقصود، وهذا ما يسمى ببراعة الاستهلال[1]، إلا أن هذه الافتتاحية

(1) سليمان الجمل على شرح المنهج: 1/5.

ليست على منهج المؤلف وغيره من العلماء، لأنها لم تكتس صبغة أدبية، ولا أسلوباً بديعاً، ولا رونقاً جميلاً أخاذاً، ولا عبارات منمقة مسجوعة مما يدل بوضوح على استبدال المقدمة الأصلية للكتاب بهذه المقدمة التي لم يراع فيها السير على منوال المؤلفين.

2 ـ الباب السابع:

في حديث القرافي عند تحليله للعارض الخامس من عوارض الدعاء: سؤاله من الغير قال: وهو باب عظيم النفع جليل القدر ينبغي لكل عاقل أن يستكثر منه ما استطاع [ثم ذكر حكاية الفرنج حين استسقوا، ثم حكاية فرعون والنيل، ثم قال: ينبغي للإنسان...][1].

فلم يذكر الناقل للكتاب لا حكاية الفرنجة، ولا حكاية فرعون والنيل، لأنه ربما هو يعرف عنهما كل ذلك، وهو نقص مخل بالمعرفة التاريخية في حق القارىء الذي قد لا يعلم شيئاً عنهما، ولا عذر له في أن تكون هاتان الحكايتان مشهورتين آنذاك.

3 ـ الباب الثامن:

ذكر القرافي فيه عشرة أدعية من كتاب الصحاح مروية عن النبي ﷺ قال الناقل للكتاب متحدثاً عن المؤلف في بيانها: [ذكر فيه عشرة أدعية من الصحاح المأثورة عن النبي ﷺ منها ما أخرجه مسلم...][2].

ولكن الناقل أو الناسخ لم يكتب منها إلا الدعاء الأول الذي أخرجه مسلم، ولم يكمله واقتصر على قوله:... الحديث.

أما الأدعية التسعة الأخرى فقد حذفها تماماً.

---

(1) المنجيات: 16ب.
(2) المنجيات: 17ب.

4 ـ الباب التاسع:

خصصه القرافي لرواية عدد من أدعية السلف الصالح، قال الناقل عن المؤلف طالباً أو ناسخاً، متحدثاً عنه: [ذكر فيها طرفاً يسيراً من أدعيتهم[1]. . .][2] ولكنه لم يذكر شيئاً منها.

فهذا الحذف لما يقارب الثلاثة عشر حديثاً مشروحة ما هو إلا إخلال بقيمة الكتاب العلمية، وهدر وإتلاف لأفكار هذا العالم الجليل، وطرح لمجهوده الكبير في استنطاق النصوص الشرعية لاستخراج أفضل وأدق ما انطوت عليه من المعاني واستنباط الأحكام منها، وتدوينها لإفادة عموم الأمة بها، من علماء وطلاب وغيرهم على امتداد القرون.

أما حذفها فهو خيانة للمؤلف واعتداء على الأمانة العلمية وقد ترددت أول الأمر في تحقيق هذا الكتاب بسبب النقص الذي اشتمل عليه في هذين البابين، ولكن نظراً لقيمة الكتاب العلمية في أبوابه الأخرى عقدت العزم على تحقيقه، وقررت سد هذا النقص في الباب الثامن باختيار تسعة أدعية من الصحاح، تكون في الهوامش مع عدم التعمق كثيراً في شرحها اعتماداً على ما جاء عن ألسنة أقطاب العلماء.

وفي الباب التاسع ملأت فراغه بانتقاء أربعة من أدعية السلف الصالح التي علمها الرسول ﷺ لبعض أصحابه متبوعة ـ كذلك ـ بشروح مرتكزة على ما اصطفاه شيوخنا الأعلام فيها من معان وأفكار وأحكام، وضعتها في الهوامش لا في صدر الصفحات للتفريق بينها وبين النص الأصلي.

ولعل قيامي بسد الثلمة في كلا البابين السابقين من هذا التأليف

---

(1) الطرف اليسير معناه: العدد القليل من أدعية السلف الصالح رضوان الله عليهم الذين سبقونا إلى الإسلام، ومن تبعهم بإحسان.

(2) المنجيات: 18أ.

الجيد بتوفيق من الله تعالى تلافياً له من الضياع والتلاشي أكون قد أسهمت بجهد يسير في حفظ قطعة من ثرواتنا الفقهية التي عليها مدار أحكام شريعتنا الغراء.

5 ـ الخاتمة:

جاءت الخاتمة لهذا الكتاب باللفظ التالي: «تم الكتاب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، دائماً إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين».

هذه الخاتمة إضافة إلى ما جاء فيها تنقصها بعض الآداب التي جرت عادة كثير من العلماء التخلق بها عند ختم تصانيفهم، كالثناء على الله تعالى لتوفيقهم وإعانتهم، وتكليل جهودهم بالنجاح، ثم الدعاء بالنفع لكل من يقرأ التأليف، أو يكتبه، أو يدرسه ويتأمله، أو يجمعه، أو ينشره مع عدم الغفلة عن تسجيل تاريخ الانتهاء منه، تحديداً للعصر، وعلمائه البارزين.

وكتابنا «المنجيات...» خلا من ذكر تاريخ انتهائه، فلا المؤلف أخبر به ولا الناسخ، وهذا غير معهود عند الشهاب القرافي، فلننظر مثلاً ما ختم به كتابه «الأمنية في إدراك النية»[1].

وهذا الكتاب وإن وقعت الغفلة عن تاريخ الانتهاء منه فإنه كان سابقاً لموسوعته الفقهية الرائعة «الذخيرة» كما صرح بذلك[2]، وسابقاً ـ كذلك ـ لكتابه الجليل «الفروق» الذي ألفه بعد «الذخيرة»[3].

---

(1) مجال النية في الفقه الإسلامي متبوعاً بتحقيق كتاب «الأمنية في إدراك النية»: 115 ـ 116.

(2) الذخيرة: 1/137ب.

(3) الفروق: 1/3.

ب ـ الهوامش:

استعملت الهوامش أولاً لتعويض الأحاديث المحذوفة من المخطوط في الباب الثامن والتاسع، كما سبق بيانه، ثم للتعاليق بالنص الأصلي على الأمور التالية:

- تخريج الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة.
- إرجاع الأقوال والنقول إلى مصادرها إن وجدت، وأمكن ذلك.
- تبيان الألفاظ اللغوية والاصطلاحية وشرحها.
- التعريف بالأعلام الواردة في النص بإيجاز مع الإحالة على مصادر الترجمة.
- البيان الموجز لبعض المسائل المقتضية لذلك.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن كل آية كريمة أو حديث شريف، أو علم من الأعلام أغفل التعليق عليه، فمن المؤكد أنه قد سبق بيانه.

ج ـ الرموز والإشارات:

يتخلل النص الأصلي أو الهوامش رموز وعلامات يدل كل واحد منها على وضع معين، وفيما يلي بيانها:

1 ـ أ ـ وجه الورقة من المخطوط.

2 ـ ب ـ ظهر الورقة من المخطوط.

3 ـ / الخط المائل للفصل بين الصفحات، والفصل بين التاريخ الهجري والتاريخ الميلادي، والفصل بين النص ومصدره الموثق به.

4 ـ ﴿ ﴾ للآيات الكريمة.

5 ـ أرقام صفحات المخطوط في الحاشية.

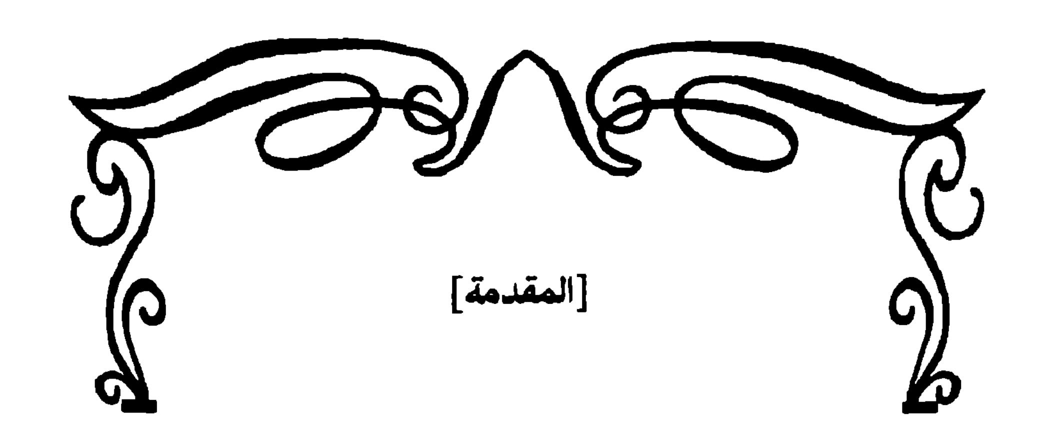
6 ـ ( ) الإشارة إلى أرقام التعاليق في الهامش.

7 ـ « » ـ الفاصلتان المزدوجتان: للاحاديث النبوية، ولحصر أسماء الأعلام، أو أقوال العلماء، أو أسماء الكتب، أو الأماكن، أو تاريخ وفيات الأعلام مع كتابة حرف «ت».

8 ـ [ ] المعقوفتان: لإضافة كلمة ناقصة أو لزيادة في المخطوطة.

9 ـ (1) قوسان بداخلهما رقم للتعاليق في الصلب.

□ □ □ □ □ □



[المقدمة]

[(1ب)] [بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحمد لله رب العالمين، وصلواته وسلامه على سيد المرسلين وسائر الصالحين.

أما بعد؛ فهذا الكتاب «المنجيات والموبقات في الأدعية»[1] للإمام أحمد بن إدريس القرافي رحمه الله، وهو يشتمل على عشرة أبواب[2]].

---

(1) هذه التسمية هي الصحيحة لعنوان الكتاب، كما جاءت على لسان مؤلفه وليست كما كتبت على غلاف المخطوط، وفي الصفحة الأولى منه «الموبقات والمنجيات من الدعوات» وهي محرفة، وقد أوضحنا هذا فيما مضى عند الحديث عن مقدمة الكتاب في: الفصل الثالث وتبيين اسمه، وموضوعه وأبوابه.

(2) هذه المقدمة المحصورة بين المعقفين ليست من تأليف القرافي وصياغته، وعبارتها ناطقة بذلك، بينما مقدمة المؤلف الأصلية ـ كما يبدو ـ وقع الاعتداء عليها، فحذفها الناسخ، أو غيره، واستبدلها بهذه الافتتاحية الهزيلة التي لا تتطابق مع ما عودنا عليه الشهاب القرافي، وغيره من علماء عصره المؤلفين، لخلوها من كثير مما ينبغي أن تشتمل عليه مقدمة أي كتاب، فمن ذلك:

أ ـ أن المقدمة تكون معانيها في الغالب. مستوحاة من موضوع الكتاب.

ب ـ أن تكون ذات صبغة أدبية وأسلوب بديع، ورونق أخاذ وعبارات منتقاة مسجوعة.

ج ـ ذكر الباعث على التأليف.

د ـ تبيان المقصود من التأليف بتوضيح موضوعه، وأبوابه بكيفية مجملة وهو الوجه الوضاء للكتاب ومضمونه بصفة عامة، الذي يعطي صورة مشرقة مختصرة عن محتواه، ومنهج مؤلفه فيه.

فالإتيان بما لا يدل على المقصود في أي تأليف ـ وهو ما يسمى ببراعة الاستهلال ـ=

= دل دلالة جازمة على أن هذه المقدمة ليست من صناعة القرافي وتأكيداً على صدق ما نقول نورد مقتطفات من مقدمة كتابه «الأمنية في إدراك النية».

يقول القرافي في مقدمة هذا الكتاب بعد البسملة والصلاة والسلام على رسول الله:

«الحمد لله المحيط بخفيات الغيوب، والمطلع على سرائر القلوب. . . ثم يقول:

أما بعد، فإن الباعث لي على تأليف هذا الكتاب مباحث وقعت للفضلاء، تشوقت النفس إلى الكشف عنها، وتحقيق الصواب فيها، منها: لِمَ قال ﷺ: «الأعمال بالنيات» ولم يقل: الأعمال بالإرادات، وما الفرق بين نوى وأراد.

ثم يقول: ولما اجتمعت عندي هذه الأسئلة تحركت داعيتي لوضع هذا الكتاب، أذكر فيه إن شاء الله عشرة أبواب، ثم ذكرها باباً باباً، وتحديد مباحث كل باب/ مجال النية في الفقه الإسلامي: 325 ـ 329.



الباب الأول
في حقيقة لفظه

وهو[1] من الألفاظ المشتركة[2] عند العرب، ويريدون به النداء. فيقولون: دعوته أدعوه إذا ناديته.

---

(1) هو اسم مضمر تقديره: الدعاء.
والأصل في التعريف ذكر الاسم الظاهر سيقع تعريفه أولاً. لا أن يفهم من المعنى أو السياق فيقال مثلاً: الدعاء هو.

(2) اللفظ العربي في دلالته على معناه، وضع ليدل على معنى واحد تارة، مثل: علم، فهم، كتب، وحيناً يدل على أكثر من معنى واحد وهو المشترك، كالدعاء وهذا الاشتراك يكون في الأسماء والأفعال والحروف.
والاشتراك في الأسماء، مثل: لفظ العين، فإنه وضع ليدل على العين الباصرة وعين الماء الجارية، وعين الذهب...
ومثل: لفظ الجون، فإنه وضع للون الأبيض، والأسود، ومثل: كلمة الولي، فإنه يطلق على المالك للشيء، والصاحب، والقريب، والجار، والحليف....
والاشتراك في الأفعال مثل: لفظ عسعس الذي يدل على أقبل، أو أدبر في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧﴾ [التكوير: 17] أي: أقبل أو أدبر أو مضى، ومثل: كلمة قضى، فإنه يأتي بمعنى حكم كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ۝٦٥﴾ [النساء: 65]، قضيت، أي: حكمت به.
ويأتي فعل قضى بمعنى أمر في قوله جل ذكره: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: 23]، قضى ربك: أمر وأوجب.
ويجيء فعل قضى بمعنى علم في قوله جل ذكره: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي=

وفيه: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾[1]، أي: يناديك.

وتارة يريدون به الطلب[2] ومنه: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا

= ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: 4] أي: أعلمناهم إعلاماً....

أما الاشتراك في الحروف، مثل: «من» فإنها تأتي لابتداء الغاية كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: 1]، أي: ابتداء غاية الإسراء تكون من المسجد الحرام.

وتأتي «من» للتبعيض كما في قول الحق جل وعلا: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، أي: حتى تنفقوا من بعض ما تحبون...

وهذا الاشتراك في الألفاظ كان سبباً كبيراً في اختلاف الفقهاء في كثير من الأحكام.

ومن أمثلة ذلك: لفظ القرء، فإنه يطلق على طهر المرأة ويطلق على حيضها قال تعالى مبيناً عدة المطلقة: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: 228].

فقال مالك والشافعي وأحمد: القرء هو الطهر، وقال الحنفية: الحيض/ بداية المجتهد: 2/67، والقاموس المحيط: 4/378، 251، والإحكام في أصول الأحكام: 1/23، وما بعدها، وإرشاد الفحول: 20/19.

(1) هذا الجزء من آية، والضمير في «وفيه» عائد على القرآن الكريم بدليل الآية التي هي إخبار عن حكاية ابنة شعيب عليه السلام، منادية سيدنا موسى عليه السلام بأمر من أبيها، لما سقى موسى لابنتي شعيب الماء في زحمة الواردين، قال تعالى على لسانها: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25].

(2) اقتصر القرافي في ذكر معاني الدعاء الواردة في القرآن الكريم على ذكر اثنين فقط النداء والطلب، ولكن الشيخ الصوفي المفسر الفقيه المحدث الأديب أبا القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري (ت465هـ/724م) قد ذكر أن لفظ الدعاء مشترك في أكثر من ذلك، ومثل له بما يلي:

أ ـ الدعاء بمعنى العبادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: 106]، أي: لا تعبد أحداً غير الله تعالى.

ب ـ الاستغاثة: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 23]، أي: يا مشركي مكة القائلين بأن القرآن كلام محمد استغيثوا بالأصنام التي تعبدونها لكي تصدق مدعاكم، بأن القرآن الكريم ليس كلام الله تعالى.

ج ـ السؤال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، أي: اسألوني أجب دعوتكم.

د ـ القول: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: 10].

هذا طلب أهل الجنة بعد قولهم: سبحانك اللّهمَّ، فإذا ما طلبوا ما يريدون وجدوه=

﴿وَرَهَبًا﴾[1]، أي: رغبة في إحساننا ورحمتنا وخوفاً من عقابنا.

وتقول العرب: الدعوة مثلثة الدال، بالضم يريدون به الوليمة، والفتح يريدون به النداء إلى الطعام أو لغيره، والكسر يراد الانتماء إلى الآباء.

ويطلقون المفتوحة ـ أيضاً ـ ويريدون بها الدعاء الذي هو الطلب[2] ومنه الحديث: «لكل نبي دعوة مستجابة»[3].

= بين أيديهم، وآخر قولهم: الحمد لله رب العالمين.

هـ ـ الثناء على الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: 110]، أي: إن كان اسم من أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ينادى به فيه ثناء وتعظيم لله تعالى/ فتح الباري: 96/11.

(1) سورة الأنبياء: الآية: 90. وهو جزء من آخر الآية فيه مدح الله لأنبيائه المذكورين في هذه السورة بدأه بقوله جل شأنه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

(2) القاموس المحيط: 327/4، 327.

(3) لفظ الحديث كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة»/ صحيح البخاري: 96/11.

والمراد بهذا الحديث: أن كل نبي دعا على أمته بالإهلاك إلا أنا فلم أدع، فأعطيت الشفاعة عوضاً عن ذلك للصبر على أذاهم، وهذا لا يمنع أنه ﷺ دعا على أناس من قريش بأسمائهم وغيرهم، ولكنه لم يرد إهلاكهم وإنما أراد ردعهم ليتوبوا/ فتح الباري: 96/11 ـ 97.



الباب الثاني
في حقيقته

وحقيقته الطلب[1]، يجدها العاقل من نفسه عند ضروراته[2].

---

(1) يبين القرافي هنا أن لفظ الدعاء، وإن كان مشتركاً - كما سبق - فإن أصل وضعه في اللغة الدلالة على طلب الحقيقة، ويدل على غيره مجازاً/ التحرير والتنوير: 1/325.

(2) هذه الضرورات، هي دوافع النفس الإنسانية الضعيفة التي لا حول لها ولا قوة إلا بتوجهها إلى بارئها الكريم، والالتجاء لحصنه المنيع ولفضله الكبير كلما أرادت خيراً، أو أحست بالشدة والوهن، أو المحنة والابتلاء، فهي تتجه إلى منشئها ذليلة خاضعة ضارعة، داعية إياه، مستغيثة به ليرحمها، ويكشف عنها ما ألمّ بها من كرب أو ضرر، ويمدها بما سألته من خير أو صحة، أو سلامة، أو أمن، أو فرج لأنه هو وحده المفرج للكروب، والواهب للخيرات، القائل وقوله الحق: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: 107].

وحتى عبدة الأوثان فإنهم لمّا تداهمهم الكروب والمصائب يهرعون إلى الواحد الأحد طالبين منه الخلاص والنجاة مما حل بهم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: 65].

وضرورات توجه المؤمن إلى ربه ﷻ بالدعاء في كل شأن من شؤونه هو مذهب جمهور العلماء امتثالاً لأمره تعالى عباده بالتوجه إليه بالضراعة في عدة آيات كريمة، وجملة من الأحاديث النبوية، سبق ذكر البعض منها في المقدمة.

ولكن، ومع هذا اليقين الجازم، والإيمان القاطع بما جاء في كتاب الله تعالى، وسُنَّة نبينا محمد ﷺ من أمر الخالق جل شأنه عبيده الضعفاء بدعائه، والحث عليه، ومع هذا فقد شذت طائفة وخرجت من دائرة الاعتقاد الصحيح قائلة: =

وهو قسم من أقسام الكلام[1]

= الأفضل ترك الدعاء، والاستسلام لقضاء الله تعالى وقدره، من أدلتهم التي اعتمدوها:
1 ـ إن الدعاء يشبه الأمر، وذلك من العبد في حق المولى ﷻ سوء أدب لا يليق بالداعي فعله.
والجواب عن هذه الشبهة: أن هؤلاء نسوا أن دعاء العبد كان بأمر من الله تعالى بدلالة ما ثبت لنا في القرآن العزيز والسُّنَّة الشريفة، وليس سوء أدب بل هو امتثال وخضوع لأمره وعبادته، ولأنه إذا كان المقصود من الدعاء إظهار الذلة والمسكنة، ثم الرضى بما قدره الله وقضاه فذلك من أعظم المقامات التي ينعم بها المرء.
2 ـ الأقدار سابقة، والأقضية متقدمة، والدعاء لا يزيد فيها، وتركه لا ينقص منها شيئاً، فأي فائدة من الدعاء؟
هذه الشبهة خطرت بعقول بعض الصحابة رضوان الله عليهم، فقد أخرج مسلم عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالساً وفي يده عود ينكت به، فرفع رأسه فقال: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار، قالوا: يا رسول الله، فلم نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 16/177.
فقد أخبر عليه السلام أن فائدة العمل هو القدر السابق المفروغ منه قبل وجود الإنسان، فقال: «كل ميسر لما خلق له» أي: أن العبد ميسر في أيام حياته للعمل الذي سبق له القدر قبل وجوده في الأصل، لا يزيده الطلب بالدعاء ـ مثلاً ـ ولا ينقصه الترك شيئاً.
وفائدة الدعاء تحصيل الثواب بامتثال الأمر، ثم لاحتمال أن يكون المطلوب موقوفاً على الدعاء، لأن الله تعالى خالق الأسباب والمسببات/ التفسير الكبير: 2/129، 130، وفتح الباري: 11/477.
وقال الإمام محمد بن عمر فخر الدين الرازي الفقيه المفسر المحدث الفيلسوف الطبيب (ت606هـ/1190م) قال بعد أن ناقش أدلة هذه الطائفة الشاذة. قال: من أنكر الدعاء فقد أبطل القرآن/ التفسير الكبير: 2/130.

(1) الطلب هو قسم من أقسام الكلام: وبيان ذلك: أن الكلام عند الأصوليين من جملة أقسامه: الخبر والإنشاء.
أ ـ فالخبر هو كل قول يحتمل التصديق والتكذيب ما عدا خبر الله في كتابه العزيز، وخبر النبي ﷺ في أحاديثه الشريفة أو ما أجمع عليه علماء المسلمين المجتهدون في أمر من الأمور لأن إجماعهم مرتكز على القرآن الكريم في قوله جل شأنه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: 115].
والتصديق للخبر أو التكذيب مثل قولنا لمن أخبرنا بأمر من الأمور، وتبين صدقه: =

ينحصر في اقتضاء الفعل[1] إما مع المنع أو لا[2]، ....

= صدقت إن صدقناه، أو كذبت إن كذبناه/ الفروق: 18/1، 19.

ب ـ الإنشاء: لغةً: يدل على الخلق والابتداء فمن دلالته على الخلق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98]، أي: خلقكم.

ودلالته على الابتداء، مثل قولنا: أنشأ فلان يفعل كذا، أي: ابتدأ/ القاموس المحيط: 30/1.

أما الإنشاء في اصطلاح الأصوليين فهو قول يوجب به مدلوله في نفس الأمر، كقولك: حلفت بالله، فإن مدلول القسم وموجبه يلزم الحالف إذا حث كفارة يمين/ الفروق: 26/1، 27.

فالفرق بين الخبر والإنشاء أن الخبر يوجد مدلوله في اعتقاد السامع يصدقه أو يكذبه، أما الإنشاء فهو إلزام بمدلوله، وهو أقسام: الطلب لفعل شيء أو تركه أي إلزام بالفعل أو الترك، مثلاً: اقرأ ـ لا تلعب/ المصدر السابق.

ومن أقسامه: المنادى، نحو: يا صالح، فهو إنشاء لطلب الحضور، وغير ذلك من أقسامه المتعددة/ الفروق: 27/1.

وما سبق هو معنى قول القرافي: الطلب قسم من أقسام الكلام، فهو قسيم الخبر وقسيم صيغ الإنشاء المتعددة/ المصدر السابق.

(1) اقتضاء الفعل: الاقتضاء لغةً: يدل على عدى معانٍ، منها:

الدلالة على الشيء كقولنا: اقتضى الأمر الوجوب، أي: دل عليه، ويطلق كذلك: على الاستحقاق للشيء، مثل قولنا: اقتضى الحال كذا: استحقه. ومن معانيه: الدلالة على مطلق الطلب، كقولك: افعل ما يقتضيه كرمك، أي: ما يطالبك به، ومنه: اقتضى فلان الدين من غيره: طلبه وأخذه منه/ لويس معلوف، المنجد: 673.

وفي هذا المعنى جاء حديث جابر بن عبدالله ﷺ (ت78هـ/678م) أن النبي ﷺ قال: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع أو اشترى، أو اقتضى»/ صحيح البخاري بشرح فتح الباري: 306/4، 307.

فقوله ﷺ: «وإذا اقتضى»، أي: طلب قضاء حقه بسهولة/ المصدر السابق.

(2) تفسير الاقتضاء بأنه طلب فعل أو المنع منه هو اصطلاح علماء أصول الفقه، ومعناه طلب الإتيان بفعل، أو طلب ترك الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: 103].

فقد طلب ربنا سبحانه منا وأمرنا بفعل، وهو الاتحاد وجمع الكلمة، لتحقيق عزتنا ونصرتنا، وأردف ذلك بطلب ترك فعل التفرق والتفكك الذي يضعف قوتنا، ويعرضنا للهوان والذلة.

وتعريف الطلب بالاقتضاء ـ ما عرفه المؤلف ـ ينطبق تماماً على الحكم الشرعي=

= التكليفي عند بعض الأصوليين حيث عرفوه بقولهم: «هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء»/ التنقيح للقرافي: 61.
فخرج بقولنا: خطاب الله كل خطاب ليس صادراً من رب العزة، لأنه لا حكم إلا له، كما أخبر جل شانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: 40].
وخرج بقولهم: «المتعلق بأفعال المكلفين» ما تعلق بذات الله تعالى، نحو: لا إله إلا الله، أو ما تعلق بفعله سبحانه كقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: 102].
وأفعال المكلفين هي المطالب التي طالب بها الله تعالى بها عباده المكلفين، وهي على قسمين: طلب فعل، أو طلب ترك فعل.
وطلب الإتيان بالفعل قسمان:
- **الأول**: طلب على سبيل الحتم والإلزام، بحيث يترتب على عدم الامتثال العقاب وهو الواجب، كالأمر بالصلاة وإخراج الزكاة.
- **الثاني**: طلب الفعل لا على سبيل الحتم والإلزام، بحيث يترتب على المخالفة الحرمان من الأجر والثواب، مثل: صلاة الضحى والوتر، ويسمى هذا المندوب.

طلب ترك الفعل، وهو أيضاً قسمان:
- **الأول**: طلب ترك الفعل على سبيل الحتم والإلزام كالنهي عن السرقة وشرب الخمر بحيث يترتب على العصيان وعدم الامتثال للعقاب، ويسمى المحرم.
- **القسم الثاني**: طلب ترك الفعل لا على سبيل الحتم والإيجاب، ويترتب على المخالفة وفعل المنهي الحرمان من الأجر والثواب، ويسمى هذا المكروه، مثل النهي عن صلاة النافلة من بعد صلاة الصبح إلى أن تطلع الشمس، ومن بعد صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس.

أما المكلفون، فمن هو المكلف؟
المكلف هو العاقل البالغ، فلا تكليف بإحكام الشريعة على صبي لم يبلغ، ولا على مجنون حتى يبرأ لحديث علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائب حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم»**/ سنن أبي داود ـ كتاب الحدود رقم: 4399.
فالحكم الشرعي التكليفي عند هؤلاء القلة من علماء الأصول: الأقسام الأربعة المذكورة سابقاً خلافاً لجمهور العلماء الذين تقرر عندهم زيادة قسم خامس وهو التخيير بين الفعل والترك، وصار تعريفهم للحكم الشرعي التكليفي بأنه: خطاب الله تعالى القديم المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير. =

فإن وقع بين المتساويين فهو التماس[1]، وإن وقع بين المختلفين فإن كان

= فالاقتضاء شامل للأقسام الأربعة ـ كما مر تفسيره ـ وزيد في التعريف: «أو التخيير» وهو الحكم الشرعي الخامس، ومعناه: تخيير المكلف بين الفعل والترك/ المستصفى: 1/65، وإرشاد الفحول: 6.

وهذا التخيير بين فعل المطلوب أو تركه يسمى المباح «وهو مشتق من الإباحة، وهي لغةً: إظهار الشأن، وإعلانه فيقال: أباح سره، إذا أظهره، كما تكون الإباحة بمعنى الإطلاق والإذن، فيقال: أبحته كذا: إذا أذنت له/ القاموس المحيط: 1/60.

وفي الشرع عرف الأصوليون الإباحة بعدة تعاريف، أشهرها: ما خير الشرع المكلفين بين فعله وتركه كالأكل والشرب واللباس والعمل وغير ذلك/ الإحكام للآمدي: 1/175 ـ 176.

وقال أبو حامد الغزالي (ت505هـ/1092م) راداً على من أنكر من العلماء اعتبار المباح حكماً شرعياً قال: «المباح من الشرع، وقد صرح فيه بالتخيير بين الفعل والترك وقال: إن شئتم افعلوه، وإن شئتم فاتركوه، فهو خطاب، والحكم لا معنى له إلا الخطاب، ولا سبيل إلى إنكاره»/ المستصفى: 1/75.

وحكم المباح أنه لا ثواب على فعله أو تركه ولكن قد يصير المباح محرماً مؤاخذاً عليه، وقد يصير عبادة، مثاباً عليها.

فمثال صيرورة المباح: معصية الأكل مثلاً، فإن تركه مؤد إلى هلاك النفس، وحفظ النفس واجب، وتركه معصية ومثل ذلك: اللباس، فهو مباح، تلبس هذا أو تترك هذا لكن ينقلب معصية إذا كان كاشفاً للعورة أو مصوراً لها.

أما صيرورة المباح عبادة مثاباً عليها، فكمن ينوي بأكله اكتساب القوة على القيام بالعبادات.

ومما يدل على الإثابة بالمباح ما رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري ﷺ (ت32هـ/634م) أن الرسول ﷺ قال: «وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: نعم. أرأيتم لو وضعها في حرام كان عليه فيها وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»/ صحيح مسلم: 3/82.

قال القاضي عياض اليحصبي (ت476هـ/1064م): في هذا الحديث دلالة على أن المباح ينصرف بالنية إلى الطاعة/ إكمال الإكمال: 3/145.

(1) الالتماس: الطلب، يقال: التمس الشيء من فلان: طلبه/ القاموس المحيط: 2/250.

وهذا الطلب للفعل أو الترك يكون بين متساويين في الرتبة، فليس لأحدهما أمر على الآخر علو أو استعلاء.

صادراً من الأعلى[1]، فهو الأمر[2]

---

(1) بيَّن القرافي هنا أن خطاب طالب الفعل من لوازمه العلو والاستعلا، وهو شرط تحققه عند الأصوليين، والمراد بالاستعلاء هو هيئة الأمر، بالترفع وإظهار العلو والشرف وعلو المنزلة بالنسبة للمأمور المطالب بالفعل/ التنقيح: 116.
ومعنى ذلك: أن يكون الأمر صادراً من الأعلى وهو الله ﷻ إلى الأدنى، وهم عبيده المكلفون، أو يكون صادراً من بشر أعلى مرتبة من المأمور بأبوة أو سلطان أو صلاح أو نحو ذلك.

(2) الأمر هو طلب الإتيان بالفعل من المكلف على وجه الاستعلاء/ الإحكام: 204/2.
وطلب الإتيان بالفعل على وجه الاستعلاء، أي: من الله تعالى الأعلى من العبد المكلف يكون بعدة صيغ نذكر منها اثنين:
أ ـ افعل: كقوله تعالى خطاباً وأمراً للمسلمين المكلفين: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: 43].
ب ـ فعل المضارع المقترن بلام الأمر مثل قوله تعالى في وجوب صوم رمضان على كل مسلم مكلف: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185]، أي: من دخل عليه شهر رمضان وهو غير مسافر ولا مريض يجب عليه صومه.
وطلب الفعل على وجه الاستعلاء، أي: من الله تعالى على العبد المكلف على قسمين: طلب على سبيل الوجوب وطلب غير واجب.
أ ـ الأمر بطلب الفعل من المكلف، أي: العبد العاقل البالغ على وجه الوجوب والاستعلاء يسمى الواجب، أو الفرض عند جمهور العلماء وهو ما يترتب على الامتثال لأمر الله تعالى المدح والثواب، ويترتب على تركه وعصيان أمر الله الذم والعقاب. كما سبق ذكره.
والأصل في دلالة الأمر عند الإمام مالك بن أنس وأصحابه الوجوب إذا ورد مطلقاً، أي: لا توجد معه علامة، أي: قرينة تدل على أنه ليس للوجوب كالأمر بالإشهاد على البيع في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: 282].
فالأمر هنا للإرشاد وليس للوجوب والقرينة الدالة على ذلك أن المسلمين يبيعون بالأثمان المؤجلة من غير إشهاد في أي بلد إسلامي.
ب ـ الأمر بطلب الإتيان بالفعل من المكلف ليس على سبيل الوجوب والإلزام، ويسمى المندوب، أي: المطلوب فعله على وجه الاستحباب، وهو ما يمدح ويثاب فاعله، ولا ذم ولا عقاب على تركه، مثل: صلاة الوتر والفجر، والإقامة للصلاة، وصيام الأيام الفاضلة كالاثنين والخميس من كل أسبوع وعاشوراء/ الإحكام: 170/1، وشرح التنقيح للقرافي: 134.
وإضافة إلى دلالة فعل الأمر على معنى الوجوب والندب فقد أحصى الأصوليون له=

أو النهي[1]، وإن كان صادراً من الأدنى فهو الدعاء[2].

فإذن، حقيقة الدعاء هي قسم من أقسام الطلب يقتضي الفعل أو الترك صادراً من الأدنى للأعلى.

= معاني أخرى، كالإباحة والكراهة، والتأديب، والتهديد والإهانة... دلت عليها القرائن إذا كان فعل الأمر مطلقاً/ المستصفى: 1/417، 418.

(1) النهي لغةً: المنع، وشرعاً: طلب ترك الفعل من العبد المكلف على وجه الاستعلاء من الله تعالى والصيغ الدالة عليه، منها:
أ ـ الفعل المضارع المقترن بلا الناهية، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: 32].
ب ـ صيغة الأمر الدالة على الكف كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: 30].
والأصل في صيغة النهي: لا تفعل: دلالتها على معنى التحريم إلا إذا وجدت علامة، أي: قرينة تحولها إلى معنى آخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: 42]، فالمقصود من النهي هنا بيان العاقبة.
وهذه المعاني التي لا تدل فيها صيغة النهي على التحريم بسبب القرينة متعددة مثل الكراهة والدعاء/ المستصفى: 1/118.
وطلب ترك الفعل من المكلف امتثالاً لأمر الله تعالى تارة يكون على سبيل الوجوب، وتارة لا يكون كذلك، فالترك قسمان:
أ ـ طلب ترك الفعل على سبيل الوجوب والإلزام، وهو ما يترتب على الإتيان به الذم والعقاب، ويسمى المحرم والمحظور عند جمهور الأصوليين كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الإسراء: 33].
ب ـ طلب ترك الفعل لا على سبيل الوجوب، ويسمى المكروه: وهو ما يثاب على تركه، ولا يعاقب على فعله كصلاة النافلة في أوقات النهي عنها، وترك المندوبات وغير ذلك، وقد مر بيان هذا/ الإحكام: 1/174.

(2) مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8].
فالأدنى هو العبد والأعلى هو الله تعالى.
وهذه المعاني الثلاثة للمخاطبين بطلب الفعل نظمها الشيخ الأخضري في منظومته «السلم في علم المنطق» فقال:
أمر مع استعلاء وعكسه دعاء   وفي التساوي فالتماس وقعا
والأخضري هو الشيخ أبو يزيد عبدالرحمٰن بن محمد الصغير البسكري الجزائري (ت983هـ/1575م)/ السلم في المنطق.

وبهذا التقرير يحسن أن يقال: دعونا ربنا، ولا يحسن أن يقال: أمرنا ربنا، أو نهينا، لأن لفظ الدعاء اختص بالله تعالى، ولا يقال لأي أدنى طلب من الأعلى، بل هو خاص بالله تعالى.

□ □ □ □ □ □



الباب الثالث
في أقسامه

[اعلم أن الدعاء الذي هو الطلب من الله تعالى له حكم باعتبار ذاته من حيث هو طلب من الله تعالى، وهو الندب لاشتمال ذاته[1] على خضوع العبد لربه، وإظهار ذلته وافتقاره إلى مولاه][2]، وهو ينقسم إلى المحرم والواجب والمكروه والمندوب والمختلف فيه.

□□□□□□

(1) حكم الدعاء الندب لاشتمال ذات الدعاء على خضوع العبد لربه تعالى.

(2) ما بين المعقوفتين زيادة من كتاب/ الفروق: 4/259، 260.

القسم الأول:
المحرم

وهو ينقسم إلى ما ينتهي إلى حد الكفر، وإلى ما لا ينتهي إليه.

الأول: الذي يكون كفراً، وفيه أربعة فصول:

* * *

الفصل الأول

أن يطلب الداعي ما دل السمع القاطع من الكتاب والسُّنَّة على ثبوته[1]، وأمثلته:

---

(1) السمع القاطع من الكتاب والسُّنَّة: سماع القرآن الكريم المجزوم بثبوته وصدقه، الذي سمعه جبريل عليه السلام من الله تعالى ثم بلغه إلى نبينا محمد ﷺ فسمعه منه، ثم بلغه عليه الصلاة والسلام إلى الصحابة رضوان الله عليهم على امتداد ثلاث وعشرين سنة مقروناً بتبيانه لهم وتوضيحه توضيحاً كاملاً كما أمره بذلك ربه ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].
فسمعه من فمه الشريف الصحابة منجماً وحفظه الجمع الكثير منهم في صدورهم الذين يستحيل عليهم أن يتفقوا على الكذب أو تبديل فيه أو تغيير أو تحريف، وتواتر عليهم طيلة حياته ﷺ إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، فقام الخليفة الأول سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجمعه خشية عليه من الضياع ولما جاء الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه أكمل حفظه بكتابته في المصاحف، وأجمع الصحابة على أن ما بين دفتي المصحف=

[الأول:] أن يقول: اللَّهمَّ لا تعذب من كفر بك، واغفر له [وقد دلت القواطع السمعية على تعذيب كل واحد ممن مات كافراً بالله لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾[1] وغير ذلك من النصوص فيكون ذلك كفراً، لأنه طلب لتكذيب الله فيما أخبر به، وطلب ذلك كفر، فهذا الدعاء كفر][2].

[الثاني]: أن يقول: اللَّهمَّ لا تخلد فلاناً الكافر في النار [وقد دلت النصوص القاطعة على تخليد كل واحد من الكفار في النار[3].

فيكون الداعي طالباً لتكذيب خبر الله تعالى بدعائه][4].

[الثالث]: أن يسأل الله أن يريحه من البعث حتى يستريح من أهوال يوم القيامة، وقد أخبر الله تعالى عن بعث كل واحد من الثقلين[5]، فيكون

= هو القرآن الكريم كتاب الله ﷻ الذي أنزله جبريل عليه السلام وعلى نبينا محمد ﷺ، وبذلك كان القرآن العظيم قطعي الثبوت في كل عصر لا يشك عاقل في صحته وأنه كلام الله حقاً كما أخبرنا بذلك ربنا ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝﴾ [فصلت: 41 ـ 42]. فانتشر في أمم الأرض على اختلاف أمكنتهم وألسنتهم وأزمانهم وقومياتهم كما هو مقروناً ببيان السُّنَّة الشريفة له، وعكف المسلمون عليه حفظاً وفهماً، وتقديساً وتدريساً واستنباطاً وعملاً ودفاعاً عنه، وتخريصاً لألسنة المكذبين به، وسيبقى كتاب الله ﷻ محفوظاً مقطوعاً بثبوته بحفظه جل وعلا كما أنبأنا بذلك في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝﴾ [الحجر: 9].

(1) سورة النساء، الآية: 48.

(2) زيادة: من: الأول: أن يقول... إلى: الدعاء كفر/ الفروق: 260/4.

(3) الآيات القرآنية الكريمة الدالة على ذلك كثيرة، منها: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝﴾ [التغابن: 10].

(4) زيادة من كتاب الفروق: 260/1 من قوله: وقد دلت النصوص... إلى: وبدعائه.

(5) ومن الآيات الكريمة الدالة على بعث كل واحد من الإنس والجن أن الله تعالى بعد حشر الخلق جميعاً يقول مخاطباً الجن: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۝﴾ [الأنعام: 128]. =

بدعائه كافراً لاستلزامه التكذيب لخبر الله تعالى[1]، وقس على هذا نظائره.

* * *

الفصل الثاني

أن يطلب ثبوت ما دل القاطع السمعي على نفيه [وله أمثلة]:

الأول: أن يقول: اللَّهمَّ خلد عدوي في النار، وهو مؤمن ولم يرد سوء الخاتمة.

وقد أخبر [(2ب)] الله تعالى إخباراً قاطعاً بأن كل مؤمن لا يخلد في النار، ولا بد له من الجنة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[2]، فيكون هذا الدعاء مستلزماً لتكذيب خبر الله تعالى فيكون كفراً.

= أي: يا جن استكثرتم من إغوائكم الإنس فأجابهم من أطاعهم من الإنس: انتفع بعضنا ببعض إلى أن جاء أجل القيامة.

(1) قال قاسم ابن الشاط (ت1304) معلقاً على أمثلة القسم الأول التي ذكرها القرافي قال: إن الدعاء بطلب تكذيب الله تعالى فيما أخبر به كفر ليس بصحيح من جهة أن طلب التكذيب ليس بتكذيب، ولكنه مستلزم لتجويز التكذيب، وليس كفراً صريحاً، ولكنه تكفير بالمآل، أي: مؤد إلى الكفر، ولذلك فجزم القرافي بتكفير الداعي بذلك ليس بصحيح إلا على رأي من يكفر بالمآل وليس ذلك مذهبه/ إدرار الشروق: 260/4.
وما قاله ابن الشاط هو مذهب الجمهور الذي عبر عنه الإمام فخر الدين الرازي فقال: الكفر هو إنكار ما عرف من الدين بالضرورة مما جاء به رسول الله ﷺ وعدم تصديقه به كإنكار وجود الله أو إنكار كونه واحداً أو إنكار نبوة محمد ﷺ أو إنكار وجوب الصلاة والزكاة والصوم أو إنكار حرمة الربا والزنا والخمر، فمن أنكر ذلك يكون كافراً، ولذلك فلا تكفير لأحد من الأمة إلا بما ذكر، ولا تكفير كذلك بالتأويل/ التفسير الكبير: 172/1.

(2) سورة التغابن، الآية: 9. هذه الآية الكريمة الاستدلال بها لا يتطابق مع ما تقرر، لأن من يدخل النار لا يوصف عمله بالصلاح والإيمان وحده غير كاف ولا يخرج من النار إلا بعد تطهيره بالعذاب. =

[الثاني: أن يقول: اللَّهمَّ أحيني أبداً حتى أسلم من سكرات الموت وكربه، وقد أخبر الله تعالى عن موته بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾[1]، فيكون هذا الدعاء مستلزماً لتكذيب هذا الخبر يكون كفراً].

[الثالث]: أن يقول: اللَّهمَّ اجعل إبليس محباً ناصحاً لبني آدم كلهم أبد الدهر حتى يقل الفساد ويستريح العباد، والله تعالى أخبر بعداوته فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[2]، فيكون الداعي طالباً لتكذيب خبره تعالى: [فيكون كفراً] وقس على هذا[3].

* * *

الفصل الثالث: أن يطلب الداعي نفي ما دل القاطع العقلي على ثبوته مما يخل بجلال الربوبية

[وله أمثلة:

[الأول]: أن يسأل الداعي الله تعالى سلب علمه أو عالميته القديمة حتى يستتر العبد بقبائحه، ويستريح من اطلاع ربه على فضائحه حتى يأمن المؤاخذة.

[وقد دل القاطع العقلي على وجوب ثبوت العلم لله تعالى أزلاً

= والمؤمن لا يخلد في النار كما أنبأنا بذلك رسولنا ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ (ت64هـ/665م) عند البخاري قال ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه»/ صحيح البخاري: 11/416، 417.

(1) سورة آل عمران، الآية: 185.

(2) سورة فاطر، الآية: 6.

(3) قال ابن الشاط: الكلام على أمثلة هذا القسم هو نفسه المذكور في القسم الأول: أن من دعا بذلك لا يعد كافراً إلا على مذهب من يكفر بالمآل/ إدرار الشروق: 260/4.

وأبداً[1]، فيكون هذا الداعي طالباً لقيام الجهل بذات الله تعالى وهو

---

(1) العلم هو صفة من الصفات الثبوتية الواجبة لله ﷻ تكشف الأشياء على حقيقتها، وأن علمه شامل لجميع المعلومات محيط بها سابق على وجودها لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ظاهراً كان أو خفياً كبيراً كان أو صغيراً.

وقد دل على علمه الواسع الشامل لجميع المعلومات، والإحاطة بكلياتها وجزئياتها ودقائقها وخفاياها، دل على ذلك المعقول والمنقول وأسماء الله الحسنى التي تعود إلى معنى تحقق صفة علمه تعالى.

أ ـ **فمن الأدلة العقلية** انطلاقاً من الإنسان نفسه، أنه إذا تأمل ورأى ما خلق الله فيه من قابلية العلم المحدود المكتسب بعد الجهل، وأن الذي خلق في هذا الإنسان أدوات تحصيل العلم الجزئي هو الله الخالق الأعظم، فإذا ما أدرك العاقل ذلك لا بد أن يجزم ويعتقد أن هذا الخالق العظيم وهو بذاته العليم الذي لا يخفى عليه شيء من موجوداته، ولا ينكر ذلك إلا شخص مريض العقل قليل الإدراك ضال كافر.

ب ـ **أما الأدلة النقلية** فالقرآن الكريم طافح بالآيات التي وصف الله فيها نفسه بالعلم والخبرة والإحاطة بدقائق كل موجود أو سيوجد من الأزل إلى الأبد ومن تلك الآيات الكريمة:

ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: 32].

ـ قول الله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59].

ـ قوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 3].

ج ـ **أسماء الله الحسنى التي تعود إلى معنى تحقق صفة العلم الواجبة لله تعالى**: إن تحقق ثبوت صفة العلم الواجبة لله تعالى دل عليها عدد من أسمائه الحسنى ومنها: العليم ـ اللطيف ـ الخبير ـ الشهيد ـ المحصي:

ـ اسم الله العليم: وهو الذي يحيط علمه بكل شيء ولا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عن علمه ذرة في ملكه الواسع كما أخبر عن ذلك في قوله جل وعلا: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: 89].

ـ اسم الله اللطيف، أي: ذو اللطف الكامل، واللطف هو قوة النفوذ إلى بواطن الأشياء وخفايا الأمور مهما كانت دقيقة، ولذلك يعود اسمه تعالى اللطيف إلى صفة العلم ومعناه: أن الله عليم بخفايا الأمور ودقائقها لا تخفى عليه منها خافية فقال=

كفر[1]][2].

الثاني: أن يسأل منه سلب قدرته القديمة حتى يأمن من المؤاخذة، وقد دل القاطع العقلي على وجوب القدرة لله تعالى أزلاً وأبداً، وأنها لا تقبل التغيير ولا الفناء[3].

= تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: 14].

ـ اسم الله الخبير، أي: ذو الخبرة التامة التي هي نوع من العلم بالخفايا الباطنة، إذ لا يغيب عن علمه شيء.

ـ اسم الله الشهيد، أي: الموصوف بالشهادة الكاملة لكل شيء يشاهد حاضراً وغائباً، وهذه الشهادة قسم من العلم مع الحضور ويكون معنى الشهيد: العليم بالأشياء علم شهود وحضور، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: 33].

ـ اسم الله المحصي، أي: المحيط بكل موجود جملة وتفصيلاً، فلا يخفى على علمه شيء منه، فهو كما أخبر عن ذلك في قوله جل شأنه: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾ [الجن: 28]/ فتح الباري: 13/362، 363، وعقيدة المسلم: 1/170 وما بعدها.

وبعد الاستدلال على وجوب ثبوت صفة العلم لله تعالى عقلاً ونقلاً، وجوب اعتقاد الإنسان بحقيقتها وصدقها أصبح واضحاً له: أن أعماله كبيرها وصغيرها ظاهرها وباطنها، سرها وعلانيتها بل حتى ما يختلج في قلبه من أفكار ونوايا وما تضمره نفسه من خير أو شر، فقد صارت كل حركاته وسكناته ما أعلن منها وما خفي مكشوفة معلومة في علم الله تعالى، وهذا يكون أكبر حافز للإنسان على أن تكون أعماله جميعها في منهج الخير والصلاح، وأن يتجنب المعاصي حياء من الله تعالى الذي لا يخفى على علمه شيء من ذلك، وأنه لن يمهل تسجيل أي شيء في صحف أعماله ولو كان وزن ذرة كما أخبر بذلك في قوله جل وعلا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 ـ 8].

(1) قال ابن الشاط: الكلام على أمثلة هذا القسم هو نفسه المذكور في القسم الأول: أن من دعا بذلك لا يعد كافراً إلا على مذهب من يكفر بالمآل/ إدرار الشروق: 4/261.

(2) زيادة من: وقد دل. . . إلى: كفر/ الفروق: 4/261.

(3) القدرة صفة واجبة لله تعالى يتيسر بها إيجاد الأشياء الممكنة أو عدم إيجادها، أو التصرف في الموجودات جميعها أو تفريقها أو تحويلها، وقد دل النقل الصحيح الثابت القاطع مدعوماً بالعقل على وجوب اتصاف الله تعالى بصفة القدرة في عدة آيات كريمة منها ما جاء في أسمائه الحسنى: =

فطلب عدمها طلب لعجز الله تعالى وهو كفر[1]][2].

[الثالث]: أن يسأله تعالى أن لا يكون عليه استيلاء ولا تصرف وأن يدفع عنه قضاءه[3]، وقدره[4] حتى يستقل الداعي بالتصرف في نفسه ويأمن

= أ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [النور: 45].

ب ـ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: 45]، أي: التام القدرة لا يمتنع عليه شيء.

ج ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: 58].

ذو القوة: القوة من صفات الذات وهي بمعنى القدرة، والمتين بمعنى القوي التام القدرة فلا ينسب إليه أي عجز في حال من الأحوال، ويرجع معناه إلى القدرة/ فتح الباري: 11/360.

د ـ قال حجة الإسلام محمد الغزالي مبيناً الدليل العقلي لوجوب صفة القدرة لله تعالى: «إن هذا الوجود محكم في صنعته، مرتب في خلقته، ومن رأى ثوباً من الديباج حسن النسج والتأليف، متناسب التطريز، ثم توهم صدور نسجه عن ميت لا استطاعة له، أو عن إنسان لا قدرة له، كان منخلعاً عن غريزة العقل، ومنخرطاً في سلك أهل الغباوة والجهل»/ الإحياء: 1/90.

وإذن فقد ثبت نقلاً وعقلاً وجوب اتصاف الله بالقدرة الكاملة ولا ينكرها ـ كما قال الغزالي ـ إلا فاقدي العقول.

(1) زيادة: من: وقد دل القاطع العقلي. . . . إلى كفر/ الفروق: 4/261، 262.

(2) علق ابن الشاط على المثالين السابقين بأن طلب سلب علم الله وقدرته كفر ليس بصحيح، لأن طلب نفي العلم والقدرة ليس طلباً لضدهما وهما الجهل والعجز كما قال، لجواز غفلة الداعي أو إضرابه عنهما، وعلى تقدير عدم الغفلة والإضراب إنما يكون ذلك التكفير بالمآل/ الإدرار: 4/261.

(3) قضى من ألفاظ المشترك وقد سبق الحديث عن عدد من معانيها عند بيان الاشتراك في الأفعال ومن معانيها التي لم تذكر:

ـ القضاء بمعنى الفراغ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: 10]، أي: وقع الفراغ منها.

ـ القضاء بمعنى الخلق كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12]، أي: خلقهن، وهذا المعنى الأخير هو الذي يتطابق مع معنى القضاء شرعاً عند الأشاعرة: فهو: إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على حسب ما توجد عليه في وجودها الحادث كإرادته الأزلية بخلق الإنسان في الأرض/ الجامع لأحكام القرآن 10: 10/237، وصحيح مسلم بشرح النووي: 1/154، 155.

(4) القدر بفتح الدال وتسكن معناه لغةً: تبيين كمية الشيء ومقداره وهو مصدر قدر يقدر=

سوء الخاتمة من جهة القضاء. وألحق هذا بنظائره.

= بضم الدال وكسرها/ القاموس المحيط: 2/114.

وقد نقل الإمام يحيى بن شرف النووي في صحيحه عن الخطابي أبي سليمان حمد بن محمد البستي الفقيه المحدث (ت388هـ/958م) قوله في تعريف القدر شرعاً: «إن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم وعلم ﷻ أنها ستقع في أوقات معلومة وعلى صفات مخصوصة» فهي تقع على حسب ما قدر الله تعالى.

وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه ﷻ لم يقدرها ولم يتقدم علمه بها وأنها مستأنفة العلم، أي: يعلمها بعد وقوعها.

وقد انقرضت هذه الفرقة وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة عدة فرق، أشهرها: من يقول: الخير من الله والشر من غيره مخالفين بذلك مذهب أهل الحق في إثبات القدر الذي سبق تعريفه.

وقد سميت هذه الفرق الضالة بالقدرية لنفيها إثبات القدر، وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسُّنَّة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدرة الله ﷻ/ شرح مسلم للنووي: 1/154.

وقد ذم الرسول ﷺ هذه الفرقة في حديث عبدالله بن عمر بن الخطاب ﷺ (ت73هـ/673م) عند الحاكم محمد بن عبدالله النيسابوري المحدث الحافظ (ت405هـ/1059م) في «المستدرك» على الصحيحين فقال رسول الله ﷺ: **«القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم»** رقم: 286 ـ كتاب الإيمان/ الحاسوب: موقع الدرر السنية.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم الأشجعي من ابن عمر/ المصدر السابق.

والإيمان بالقضاء والقدر واجب من أركان العقيدة الإسلامية خيره وشره، فقد أخرج مسلم عن عمر ابن الخطاب ﷺ (ت23هـ/665م) الخليفة الثاني العادل أن الرسول ﷺ قال: **«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»**/ صحيح مسلم: 1/157.

وقد يحسب كثير من الناس ويعتقدون جهلاً أن معنى القضاء والقدر هو إجبار الله تعالى العبد وقهره على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كذلك كما يتوهمون وإنما معناه: الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه بما يكون من اكتساب العبد في أعماله وصدورها عن تقدير منه ـ خيراً كانت أم شراً ـ/ شرح مسلم النووي: 1/154، 155.

وقد أوضح هذا المعنى حجة الإسلام محمد الغزالي في قوله: «إن فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله ﷻ، فلا يجري في الملك والملكوت=

وقد دل القاطع العقلي على شمول إرادة الله تعالى[1]، واستيلاؤه

= طرفة عين، ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدره وبإرادته ومشيئته ومنه الشر والخير، والنفع والضرر والإسلام والكفر، والفوز والخسران، والطاعة والعصيان، والشرك والإيمان لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه، فهو كما أخبر عن نفسه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: 23]/ الإحياء: 1/ 111.

(1) إرادة الله تعالى هي صفة من صفاته الواجبة له سبحانه يتحقق بها وجود المكن ببعض ما يجوز عليه من الصفات كالألوان والأشكال والأطوال والمقادير، والجمال والقبح، والذكاء والبلادة وغير ذلك مما لا يعد من الخصائص التي تميز المكن بوجوده عن غيره/ شرح الرسالة: 1/ 27.

فوجود هذا العالم وهو مخصص بزمان ومكان وكيفية، دليل عقلي على إرادته ﷻ الذي وصف نفسه بها في كتابه العزيز في عدد من الآيات، منها:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: 107].

- قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: 68]، والمشيئة: هي الإرادة/ فتح الباري: 13/ 449.

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: 40].

فهذه الآية دالة على أن تنفيذ الإيجاد إنما يقع بعد تخصيص الإرادة، ودالة كذلك على الفرق بين صفتي القدرة والإرادة، فالقدرة صفة من شأنها تنفيذ ما خصصته الإرادة بصفاته والإرادة تبين ذلك التخصيص كالبياض والسواد والطول والقصر والوجود والعدم. . ./ شرح الرسالة: 1/ 27.

فإرادة الله تعالى الكاملة الشاملة لكل ما يريده من جميع الامور الممكنة عقلاً هي مخالفة لإرادتنا الصغيرة الجزئية المحدودة في نطاق بشريتنا الضيقة بدليل العقل والنقل، ولذلك فإن إرادته تعالى هي الفاعلة وأن مشيئته هي مشيئة كل صاحب مشيئة كما أخبرنا بذلك في قوله وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: 29].

وإذا كانت مشيئة العبد وإرادته تابعة لمشيئة الله تعالى، فإنه على العبد الرضى بما أراده الله من خير أو شر لعلمه ويقينه أنه لا قدرة لأحد غير الله على تحقيق مراد ما لم يرده الله في جميع مخلوقاته.

هذا ما اتفق عليه أهل السُّنَّة، وأنه لا يقع شيء في كونه إلا ما يريده تعالى، فإنه مريد لجميع الكائنات وإن لم يكن آمراً بها خلافاً لبعض الفرق الضالة القائلين بأنه لا يريد الشر، لأنه لو أراده لطلبه وأمر به.

ويرد عليهم بأن الله تعالى قد يريد الشيء ليعاقب عليه، ولثبوت أنه خلق النار وخلق أهلاً لها وخلق الجنة وخلق أهلاً لها/ فتح الباري: 13/ 451.

على جميع الكائنات [فيكون دعاؤه كفر[1]][2].

* * *

الفصل الرابع

أن يطلب منه تعالى ثبوت ما دل القاطع العقلي على نفيه مما يخل ثبوته بجلال[3] الربوبية وله مثل:

[الأول]: [أن يعظم شوق الداعي إلى ربه حتى يسأله أن يحل في بعض مخلوقاته حتى يجتمع به[4] أو يعظم خوفه من الله تعالى فيسأل الله تعالى أن يأخذ منه الأمان على نفسه[5]، فيستبدل من وحشته أنساً وقد دل

---

(1) علق ابن الشاط على المثال الثالث الذي قال فيه القرافي: إن الداعي إذا دعا به يكون طالباً لسلب إرادة الله فيكون كفراً، قال: إن كون أمر مّا كفر لا يكون كذلك إلا بوضع شرعي، فإن ثبت شرعاً أن طلب ذلك كفر فهو كذلك وإلا فلا.
هذا إذا أراد القرافي أن عين الطلب هو الكفر وإن أراد أنه يستلزم الكفر وهو الجهل يكون سلب الاستيلاء مما تتعلق به القدرة أو لا تتعلق فهو من التكفير بالمآل والله تعالى أعلم/ الإدرار: 4/262.

(2) الفروق: 4/262.

(3) قال ابن الشاط: إجلال، أما جلال الربوبية فلا يخل به شيء/ الإدرار: 4/262.

(4) هذا من أدعية بعض فرق الصوفية التي يقول أتباعها بالحلول والاتحاد وقد لخص عبدالرحمٰن بن خلدون في «مقدمته» مذهبهم فقال: «يرون أن ذات القديم كائنة في المحدثات محسوسها ومعقولها متحدين بها في المتصورين وهي كلها مظاهر له وهو المقوم لوجودها لولاه كانت عدماً وهو رأي أهل الحلول»/ المقدمة: 870 وما بعدها.
ومن آرائهم الدالة على كفرهم: الله هو الخلق والخلق هم الله/ ابن تيمية (ت728هـ/1350م)/ الفتاوى: 2/294.

(5) المراد بأمان المطلوب ـ والله أعلم ـ هو إكرام الله تعالى والتفضل عليه بأن يجعله في مأمن من الوقوع في المعاصي والذنوب خوفاً من بطشه ونقمته وعقابه تعالى. =

القاطع العقلي على استحالة ذلك على الله فطلب ذلك كفر[1]][2].

[الثاني]: أن تعظم حماقة الداعي فيسأله تعالى أن يفوض إليه أمور العالم مما هو مختص بالقدرة القديمة والإرادة الأزلية [(3أ)] من الإيجاد والإعدام والقضاء النافذ وقد دل القاطع العقلي على عدم ثبوت ذلك فيكون طلب ذلك طلباً للشركة مع الله في الملك وهو كفر[3].

[وقد وقع ذلك لجماعة من الجهال الصوفية فيقولون: أعطي فلان كلمة كن ويسألون أن يعطوا كلمة (كن) التي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[4] وما يعلمون معنى هذه الكلمة في كلام الله تعالى ولا يعلمون معنى إعطائها إن صح أنها أعطيت.

[وهذه أغوار بعيدة الروم على العلماء المخلصين فضلاً عن الصوفية المتخرصين فيهلكون من حيث لا يشعرون ويعتقدون أنهم إلى الله تعالى متقربون وهم عنه متباعدون عصمنا الله تعالى من الفتن وأسبابها والجهالات

= وهذا المطلب معناه العصمة أو الأمانة التي خصص الله تعالى بها رسله عليهم السلام وجعلها واجبة في حقهم، لأنه المثل الأعلى في الأمة الواجب الاقتداء بهم فقال تعالى في وصف الرسول ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [الأحزاب: 21].

أما العبد فيستحيل في حقه الحصول على هذه الصفة ولا يجوز له طلبها، لأن الله تعالى لما خلقه اقتضت حكمته أن يمتحن هذا العبد إذا توفرت فيه شروط التكليف التي تؤهله للامتحان الدقيق والاختبار التام هل كان من الطائعين أو العصاة فقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: 1 ـ 2].

(1) قال ابن الشاط: طلب ذلك ليس كفراً إلا على مذهب من يكفر بالمآل/ الإدرار: 262/4.

(2) زيادة من: أن يعظم... إلى: كفر/ الفروق: 262/4.

(3) يرى ابن الشاط أن ذلك كفر لمن يكفر بالمآل/ الإدرار: 262/4.

(4) سورة يس، الآية: 82.

وشبهها[1]][2].

وقد قال الشيخ أبو الحسن الأشعري[3] رحمه الله تعالى: «إن بناء الكنائس كفر وإذا بناها مسلم يكون ردة في حقه لاستلزامه [إرادة الكفر]»[4]، وكذلك أفتى بأن المسلم إذا قتل نبياً يعتقد صحة رسالته كان كافراً لاستلزامه إرادة إماتة شريعته وإماتة شريعته كفر.

[قال القرافي][5]: واعلم بأن الجهل بما تؤدي إليه هذه الأدعية ليس عذراً للداعي [عند الله تعالى] لأن القاعدة الشرعية دلت على أن كل جهل يمكن للمكلف دفعه لا يكون حجة للجاهل [فإن الله تعالى بعث رسله إلى خلقه برسائله، وأوجب عليهم كافة أن يعلموها ثم يعملوا بها، فالعلم والعمل هما واجبان فمن ترك التعلم والعمل وبقي جاهلاً فقد عصى معصيتن لتركه واجبين، فإن علم ولم يعمل فقد عصى معصية واحدة بترك العمل.

ومن علم وعمل فقد نجا ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«الناس كلهم هلكى إلى العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون**

---

(1) قال ابن الشاط مناقشاً القرافي فيما قرره من تكفيره للصوفية بطلبهم من الله تعالى إعطاء كلمة (كن) قال: إن كان أولئك القوم يعتقدون أن الله يعطي غيره كلمة (كن) بمعنى أنه يعطيه الاقتدار فذلك جهل شنيع وإن أرادوا أنه يعطيه الاستقلال وهو مذهب الاعتزال، فإن كليهما كفر بالمآل.
وإن كانوا يعتقدون أن الله تعالى يعطي كلمة (كن) فلا محذور في ذلك إذا اقترن قولهم بقرينة تفهم المقصود/ الإدرار: 4/263.

(2) زيادة: من: وقد وقع... إلى: وشبهها/ الفروق: 4/262.

(3) أبو الحسن الأشعري (ت330هـ/ 891م) فقيه مؤسس علم الكلام وناصر أهل السُّنَّة على المعتزلة من مؤلفاته: «الإبانة على أصول الديانة»، و«اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع»، و«مقالات الإسلاميين»/ مقدمة ابن خلدون: 833 ـ 834.

(4) علق ابن الشاط على قول الأشعري: إن بناء الكنائس كفر، أي: في الحكم الدنيوي، وأما الأخروي فبحسب النية والله أعلم/ الإدرار: 4/264.

(5) زيادة من الناسخ.

على خطر عظيم»[1].

فحكم على جميع الخلائق بالهلاك إلا العلماء منهم ثم ذكر شروطاً أخرى مع العلم في النجاة من الهلاك][2].

نعم الجهل الذي يشق على المكلف رفعه بمقتضى العادة يكون عذراً كما لو تزوج أخته يظنها أجنبية، أو شرب خمراً يظنه حلالاً أو أكل نجساً أو حراماً يظنه طاهراً مباحاً.

فهذه الجهالات يعذرون بها [إذ لو اشترط اليقين في هذه الصور وشبهها لشق ذلك على المكلفين فيعذرون بذلك][3].

وأما الجهل الذي يمكن رفعه بالتعلم مع طول الأزمان فلا يكون عذراً [لأحد[4] ولذلك ألحق مالك الجاهل في العبادات بالعامد دون الناسي؛ لأنه جهل يمكن رفعه فسقط اعتباره.

[وكذلك قال الله تعالى في كتابه العزيز حكاية عن نوح عليه السلام][5]: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾[6].

---

(1) هذا الحديث أخرجه الصاغاني، الحسن بن محمد القرشي (ت265هـ/847م) بلفظ: (الناس كلهم موتى إلا العالمون، والعالمون كلهم غرقى إلا المخلصون، والمخلصون في خطر عظيم) وقال: هذا حديث موضوع/ موضوعات الصاغاني: الصفحة أو رقم الحديث: 38.

وأخرجه ـ كذلك ـ ناصر الدين الألباني (ت1420هـ/1999م) في كتابه «سلسلة الأحاديث الضعيفة» برقم أو صفحة 76/ الحاسوب: موقع الدرر السنية.

(2) زيادة من: فإن الله تعالى. . . إلى: الهلاك/ الفروق: 4/264.

(3) زيادة من: إذ لو. . . . إلى: ذلك/ المصدر السابق.

(4) القاعدة في هذا: «كل من علم تحريم شيء وجهل ما يترتب عليه لم يفده ذلك» ولا يعذر، كتحريم الزنا والخمر والكلام في الصلاة، فالجاهل لا عذر له في ذلك ابن نجيم/ الأشباه والنظائر: 200، 201.

(5) زيادة من: لأحد. . . . إلى: السلام/ الفروق: 4/265.

(6) سورة هود، الآيتان: 46، 47 والآيتان هما: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ =

فاشترط العلم بجواز السؤال قبل الإقدام على الدعاء، وهذا يدل أن الأصل في الدعاء التحريم إلا ما دل الدليل على جوازه[1]، وهذه قاعدة جليلة يتخرج عليها فروع كثيرة.

[إذا تقرر هذا فينبغي للسائل أن يحذر هذه الأدعية وما يجري مجراها حذراً شديداً لما تؤدي إليه من سخط الديان، والخلود في النيران، وحبوط

= غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ظاهر هاتين الآيتين يدل على عدم عصمة الأنبياء عليهم السلام من المعاصي، وهو قول القليل من أهل العلم الشاذ وقالوا:

أ - أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ نهي لنوح عن السؤال فكان ذلك السؤال ذنباً ومعصية.

ب - أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ يدل على أن ذلك السؤال قد صدر عن غير علم، والقول بغير العلم ذنب لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

ج - أن نوحاً عليه السلام اعترف بإقدامه على الذنب والمعصية في هذا المقام فإنه قال: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

واعترافه بذلك يدل على أنه كان مذنباً.

قال الفخر الرازي: مجيباً عن هذه الأقوال: إنه لما دلت الدلائل الكثيرة القاطعة على وجوب تنزيه الله تعالى الأنبياء عليهم السلام من المعاصي وجب حمل أقوال هذه الجماعة الشاذة على ترك الأفضل، والأكمل، وحسنات الأبرار سيئات المقربين فلهذا السبب حصل هذا العقاب.

والأمر بالاستغفار لا يدل على سابقة الذنب كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد عليه السلام: 19].

وليس جميعهم مذنبين فدل ذلك على أن الاستغفار قد يكون بسبب ترك الأفضل.

(1) قال ابن الشاط: ما ذكره القرافي من أن الأصل في الدعاء التحريم، والاستدلال على ذلك بقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ﴾ ففي ذلك نظر والأظهر أن الأصل في الدعاء الندب إلا ما قام الدليل عليه/ الإدرار: 4/246.

الأعمال، وانفساخ الأنكحة، واستباحة الأرواح والأموال(1).

[وهذا فساد كله يتحصل بدعاء واحد من هذه الأدعية ولا يرجع إلى الإسلام، ولا ترتفع أكثر هذه المفاسد إلا بتجديد الإسلام والنطق بالشهادتين(2)، فإن مات على ذلك كان أمره كما ذكرنا نسأل الله تعالى العافية من موجبات عقابه.

[وأصل كل فساد في الدنيا والآخرة إنما هو الجهل، فاجتهد في إزالته عنك ما استطعت، كما أن أصل كل خير في الدنيا والآخرة إنما هو العلم(3)، فاجتهد في تحصيله ما استطعت، والله تعالى هو المعين على الخير كله.

[فهذه أربعة أقسام بتمييزها حصل الفرق بين ما هو كفر من الدعاء وما ليس بكفر وهو المطلوب(4)](5).

□ □ □ □ □ □

---

(1) ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 217].

(2) وهذا خلافاً لما ذهب إليه الإمام الشافعي (ت204هـ/800م) رحمه الله نقد رأى أن الله تعالى لما قيد حبوط الأعمال بالموت يفيد أنه لو رجع إلى الإسلام لم يبطل عمله فيثاب عليه ولا يعيده كالحج ـ مثلاً/ تفسير الجلالين ـ النصف الأول: 44.

(3) ومن الأدلة على فضل العلم وخيريته في الدنيا والآخر قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11].
قيل في تفسيرها: يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم، ورفعة الدرجات تدل على الفضل، إذ المراد كثرة الثواب وبها ترتفع الدرجات، ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة/ فتح الباري: 1/ 141.

(4) قال ابن الشاط: لم يحصل المطلوب بما قرره، لأن ما ذكره من الأدعية في هذا الفرق لم يأت بحجة على أنه بعينه كفر، فهو من باب التكفير بالمآل/ الإدرار: 265/4.

(5) زيادة من: إذا تقرر... إلى: المطلوب/ الفروق: 265/4.

القسم الثاني
من الدعاء المحرم وليس بكفر(1)
وفيه اثنا عشر فصلاً

[وقد حضرني من الدعاء المحرم الذي ليس بكفر اثنا عشر قسماً، ثبت الحصر فيها بالاستقراء فتكون هي المحرمة، وما عداها ليس محرماً عملاً بالاستقراء في القسمين، فإن ظفر أحد بقسم آخر محرم أضافه لهذه الاثني عشر، وها أنا أمثل لكل قسم بمثله اللائقة به ليقاس عليها نظائرها](2).

* * *

الفصل الأول [(3ب)]
أن يطلب الداعي المستحيلات العقلية
[التي تخل بجلال الربوبية وله أمثلة](3)

[الأول]: أن يسأل الله تعالى أن يجعله في مكانين متباعدين في زمن

---

(1) هذا القسم ذكره القرافي في الفرق الثالث والسبعين بين قاعدة ما هو محرم من الدعاء وليس بكفر، وبين قاعدة ما ليس محرماً ـ وعبر عن الفصول بالأقسام/ الفروق: 4/265.

(2) زيادة من: وقد حضرني... إلى: نظائرها/ الفروق: 4/265، 266.

(3) زيادة من: التي... إلى: أمثلة/ المصدر السابق.

واحد ليكون مطلعاً على أحوال الإقليمين [فهذا سوء أدب على الله تعالى، ولا يطلب من الملوك إلا ما يعلم أنه في قدرتهم، ومن فعل غير ذلك فقد عرضهم للعجز لا سيما والعبد مأمور أن لا يطلب إلا ما يتصور وقوعه لئلا يكون متهكماً بالربوبية[1]][2].

[الثاني]: أن يسأل الله تعالى دوام إصابة كلامه من الحكم الدقيقة والعلوم الشريفة أبد الدهر ليفتخر بذلك على سائر الفضلاء، وينتفع به أكثر من سائر العلماء][3].

[الثالث]: أن يسأل الله تعالى الاستغناء في ذاته على الأمراض ليسلم طول عمره من الآلام والأسقام والأنكاد والمخاوف وغير ذلك من البلايا.

وقد دلت العقول على استحالة جميع ذلك، وحينئذٍ يكون طلبها من الله تعالى سوء أدب عليه، بل لو سأل المستحيل من أقل الملوك لعد ذلك تلاعباً بذلك الملك، وضحكاً عليه في مقتضى العادة والله تعالى يجب له من الإجلال فوق ما يجب لخلقه، فما نافى إجلال خلقه أولى أن ينافي إجلاله تعالى [من كل نقص، بل قد عاب الله تعالى جميع خلقه بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[4]، أي: ما عظموه حق تعظيمه.

[وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[5]، أي: ثناؤك المستحق ثناؤك على نفسك، أما ثناء الخلق فلا لأنه دون المستحق.

---

(1) زيادة من: فهذا سوء أدب... إلى: الربوبية/ المصدر السابق.

(2) أنكر ابن الشاط قياس تحريم الدعاء بالكون في مكانين على القياس على الملوك لفساده لجواز العجز عليهم وامتناعه عليه تعالى/ الإدرار: 4/ 267.

(3) زيادة من: المثال الثاني... إلى العلماء/ الفروق: 4/ 267.

(4) سورة الزمر، الآية: 67.

(5) صحيح مسلم: 4/ 203.

وقس على هذه المثل نظائرها، واقض بأنها معصية، ولا تصل إلى الكفر لأنها من باب قلة الأدب في المعاملة، دون انتهاك حرمة ذي الجلال والعظمة][1].

وألحق بهذا نظائره.

* * *

الفصل الثاني

أن يطلب الداعي من الله تعالى المستحيلات العادية، إلا أن يكون نبياً، فإن الأنبياء عليهم السلام عوائدهم من الله خرق العادة؛ كخروج الناقة من الصخرة الصماء[2]، ونزول المائدة[3] أو يكون الداعي ولياً[4] له مع الله

---

(1) زيادة من: من كل نقص... إلى: العظمة/ الفروق: 4/267، 268.

(2) الناقة هي معجزة سيدنا صالح عليه السلام إلى قومه ثمود، دليلاً وبرهاناً على صدق رسالته وقد أخبر عنها القرآن الكريم في ست سور منها الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73)﴾ [الأعراف: 73].
وهذه الناقة جعل لها الله نصيباً من الماء تشربه، ولقوم ثمود يوم معين لشربهم من ذلك الماء، وحذرهم صالح من الاعتداء على ناقة الله ولكنهم أصروا على العناد وبعثوا أشقاهم فعقرها فأرسل الله عليهم الصيحة فدمرتهم تدميراً، وأصبحوا في ديارهم جاثمين هلكى قال تعالى مخبراً عن ذلك في سورة الشعراء: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ (157)﴾.

(3) المائدة هي التي أنزلها الله تعالى من السماء بطعامها لما طلبها الحواريون أصفياء عيسى عليه السلام، وأول من آمن به ليأكلوا من تلك المائدة وتزداد قلوبهم طمأنينة وثباتاً على الإيمان، وتكون معجزة مؤكدة لصدقه، فتوجه عيسى إلى ربه طالباً منه إنزال هذه المائدة فقال تعالى على لسانه: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (114) قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (115)﴾.

(4) الولي تركيبه لغة من واو ولام وياء يدل على معنى القرب، فولي كل شيء هو الذي=

تعالى عادة بذلك[1] فهو جار على عادته مع ربه، فلا يعد ذلك من الفريقين قلة أدب.

= يكون قريباً منه، والقرب من الله بالمكان والجهة محال إنما يكون إذا كان القلب مستغرقاً في نور معرفته تعالى، فإن رأى رأى دلائل قدرة الله تعالى، وإن سمع سمع آيات الله، وإن نطق نطق بالثناء على الله وإن تحرك تحرك في خدمة الله، وإن اجتهد اجتهد في طاعة الله، فهناك يكون في غاية القرب من الله تعالى/ التفسير الكبير: 10/5.

فهذا الشخص يكون ولياً لله تعالى وإذا كان كذلك كان الله تعالى ولياً له كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: 257].

ويكون الأمر كذلك لأن القرب لا يحصل إلا من الجانبين، المصدر السابق.

وقيل في تعريف الولي: ولي الله من يكون آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل، ويكون آتياً بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة.

وهذا المعنى للولي هو الذي عرفه به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: 62 - 63].

فقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فيه إشارة إلى كمال التصديق بما ورد الأمر به كلياً وجزئياً، وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ إشارة إلى العمل الصالح حسب ما جاء به الدين كاملاً.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يصف أولياء الله يقول: «**إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى**» قيل: يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم؟ قال: «**هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطون بها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس**»، ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾/ سنن أبي داود رقم: 3527، الحاسوب موقع الدرر السنية، والرازي: التفسير الكبير: 10/5، والقرطبي الجامع لأحكام القرآن: 384/8.

(1) طلب المستحيلات الخارقة للعادات من الله ﷻ جائز، وقد دل على ذلك ثبوتها ووقوعها في القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، وهي التي تسمى بالكرامات التي يجريها الله تعالى على يد بعض الصالحين من أتباع الرسول الملتزمين بأحكام شريعة الله، مما ينطبق على الواحد منهم حقيقة الولي حقاً، وصفاته المذكورة قبل الآن وهو المتقي سراً وعلانية.

فهذه الكرامات التي هي منح إلٰهية لبعض أصفيائه وإن كانت خارقة للعادة، فإنها=

= تختلف عن معجزات الرسل ﷺ، إذ ليس فيها تحد ولا ادعاء للنبوة كالمعجزة، وهي أيضاً عبارة عن حوادث خاصة يكرم بها الله بعض المتقين من عباده خاصة تثبيتاً لعقيدتهم ودعماً لإيمانهم أو اختباراً لهم، ولا تكون وسيلة للتفاخر بها أو التظاهر بالعبادة والصلاح، أو جمع الأموال، أو غير ذلك، وإلا كانت شراً على مدعيها.

فهذه الكرامات ـ كما قلنا ـ هي مكافآت من الله تعالى لعباده المتقين، كما أخبر عن ذلك تعالى في ذكره الحكيم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282].

وقد جعل الله للمتقين مخرجاً وخلاصاً لهم من الشدائد والمضائق فقال جل شأنه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾ [الطلاق: 2 ـ 3].

ومن الكرامات الواردة في القرآن العزيز إحدى كرامات السيدة مريم عليها السلام حيث كانت تجد رزقها في محراب تعبدها دون أن يجيء به إنسان لها، وهو أمر خارق للعادة، قال تعالى في شأنها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾ [آل عمران: 37].

ومما أنبأنا به كتاب الله ﷻ قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم أحياء سالمين عن الآفات مدة ثلاثمائة وتسع سنوات، والله يعصمهم من حر الشمس، فإذا طلعت تميل عن كهفهم ناحية اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال فلا تصيبهم البتة ـ سورة الكهف من الآية رقم: 9 إلى الآية رقم: 23.

أما الأحاديث النبوية الواردة في إثبات الكرامات للأولياء المتقين فهي على قسمين: كرامات وقعت للصالحين من الأمم السابقة وكرامات مأثورة عن الصحابة رضوان الله عليهم:

أ ـ كرامات الصالحين من الأمم السابقة: منها ما أخرجه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ في قصة النفر الثلاثة الذين باتوا في غار فانحدرت صخرة كبيرة من الجبل فسدت عليهم مدخل الغار ولفظها: **«بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر فمالوا إلى غار في الجبل فانحدرت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم...»** الحديث **«فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفرجت الصخرة بقدرة الله تعالى»**/ صحيح البخاري: 10/404.

ب ـ الكرامات المأثورة عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم، ومنها:

أ ـ الكرامات المأثورة عن عمر بن الخطاب ﷺ وهي كثيرة، منها:

أو يكون معنى سؤاله أن يجعله من أهل الولاية حتى يستحق خرق العادات فهذه الأقسام الثلاثة ليست حراماً.

وأما المحرم فله أمثلة:

[الأول]: أن يسأل الله تعالى الاستغناء عن التنفس في الهواء ليأمن من الاختناق على نفسه، وقد دلت العادة على استحالة ذلك.

[الثاني]: أن يسأل [الله] تعالى العافية من الهموم أبد الدهر لينتفع بقواه وحواسه وأعضائه أبد الدهر وقد دلت العادة على استحالة ذلك.

= بعث عمر بن الخطاب ﷺ جيشاً إلى «فارس» سنة (23هـ/265م) وأمّر عليه سارية بن زنيم، وفي رواية بن «الحصين» وكان خليعاً في الجاهلية ثم أسلم وحسن إسلامه وكان عداء يسبق الفرس عدواً/ الإصابة: 2/2، 3.

وبينما كان عمر يخطب خطبة الجمعة أراه الله تعالى أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم في بطن واد وقد هموا بالهزيمة، وبالقرب منهم جبل فنادى أثناء خطبته: (يا سارية الجبل) فسمعه فانحاز بالجيش إلى الجبل وأسندوا ظهورهم إليه، وقاتلوا العدو من جانب واحد ففتح الله عليهم/ مشكاة المصابيح: رقم: 54، 59، الإصابة: 2/2، 3، التفسير الكبير: 465/5.

ب ـ ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك ﷺ (ت93هـ/693م) (أن رجلين خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا فتفرق النور معهما).

وهذان الرجلان أحدهما: أسيد بن خضير (ت20هـ/622م)، والثاني: عباد بن بشر/ فتح الباري: 124/7، 125.

فهذه الكرامات ثابتة وواقعة وعلينا التحقق ممن تصدر عنه فلا بد من عرض أمره على القرآن الكريم والسُّنَّة الصحيحة.

قال يونس بن عبدالأعلى الصدفي (ت264هـ/841م) تلميذ الإمام الشافعي، وراوي فقهه والحديث عنه قال: قلت للشافعي: كان الليث بن سعد الفهمي عالم مصر وفقيهها خامس الأئمة المجتهدين (ت175هـ/722م) كان الليث يقول: «إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب» فقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي صاحب المذهب المعروف (ت204هـ/800م) قال: قصر الليث رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسُّنَّة/ عقيدة المسلم: 140.

[الثالث]: أن يسأل الله تعالى الولد من غير جماع أو الثمار من غير غرس وقد دلت العادة على استحالة ذلك وطلب ذلك مسيء للأدب على الله تعالى[1].

[وكذلك قول الداعي: اللَّهمَّ لا ترم بنا في شدة فإن عادة الله تعالى جارية قطعاً بوقوع بعض الأنفس في الشدائد، بل لا تكاد نفس تسلم من شدة في مدة حياتها، وكذلك قول الداعي: خرق الله العادة في بقائك وهو كثير في العرف، وكذلك قوله: أعطنا خير الدنيا والآخرة واصرف عنا شر الدنيا والآخرة لا يجوز، لأن من المحال أن يحصل هذا المدعو به لهذا الداعي فلا بد أن يقصد بهذا العموم الخصوم[2] إذ لا بد أن يفوت هذا الداعي رتبة النبوة ومرتبة الملائكة ودرجات الأنبياء في الجنة ولا بد أن يدركه بعض الشرور، ولو سكرات الموت، ووحشة القبر، فلا بد أن يقصد بهذا العموم الخصوص، وقس على هذا نظائرها][3] بل يجب على كل مكلف أن يفهم عوائد الله تعالى في ملكه، وتصرفه فيما خلقه ورضيه، وربطه المسببات بالأسباب [في الدنيا والآخرة] مع إمكان صدورها عن قدرته بغير سبب البتة.

فقد رتب ﷻ مملكته على نظام، ووضعها على قانون كما شاء وقدر ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[4].

فإذا سأل الداعي من الله تعالى تغيير مملكته، ونقض قانونه، وسلوك غير عوائده في ملكه كان مسيئاً الأدب عليه ﷻ.

---

(1) قال ابن الشاط: إن الحكم بإساءة الأدب لا دليل له وإن التكثير من الأمثلة لا حاجة إليه/ الإدرار: 4/269.

(2) رد ابن الشاط على قول القرافي: بأنه على الداعي أن يقصد في هذه الأدعية الخصوص فقال: بل يجوز أن تطلب على وجه العموم وغايته أن تقول: طلب مثل ذلك طلب للممتنع عادة على معنى أن يقصد الطالب بطلبه أن يصير ولياً فتخرق له العادة وبذلك جوز القرافي ما منعه/ الإدرار: 4/269.

(3) زيادة من: وكذلك... إلى: نظائرها/ الفروق: 4/269.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 23.

بل ذلك سوء الأدب على أدنى الولاة.

ولذلك عاب العلماء وغلطوا جماعة من العباد في توسط القفار من غير زاد، ولجوا في البحار في غير زمن معتاد، طالبين خرق العادة لهم في هذه الأحوال، [فهم يعتقدون أنهم سائرون إلى الله تعالى وهم ذاهبون عنه ظانين أن هذه الحالة هي حقيقة التوكل، وأن ما عداها ينافي الاعتماد على الله][1] وهذا غلط عظيم[2].

فقد دخل سيد المتوكلين محمد ﷺ مكة محفوفاً بالخيل والرجال[3]، والكراع[4] والسلاح في كتيبته الخضراء مظاهراً بين درعين، على رأسه مغفر الحديد[5] [وقال في أول أمره: من يعصمني حتى أبلغ رسالة ربي[6]][7].

---

(1) زيادة من: فهم يعتقدون... إلى: الله/ الفروق: 270/4.

(2) القول بالحكم بالغلط من قبل جماعة من العلماء للعبّاد المسافرين من غير زاد هو نفسه غلط من أولئك العلماء، لأنه مبني على إساءتهم الظن بأولئك العلماء وإساءة الظن بعامة المسلمين ممنوعة شرعاً، فكيف بالعباد منهم.
ولذلك فإن العباد الذين فعلوا ذلك لا يخلو حالهم إما أن يكونوا ممن تعود خرق العادة فلا عيب عليهم وهذا من الكرامات، أو يكونوا ممن لم يتعود ذلك فلا عيب عليهم أيضاً إن كانوا ممن غلب عليهم في ذلك أحوال لا يستطيعون دفعها، وإلا لحقهم العيب لارتكابهم - حينئذٍ - ممنوع، وهو ترك الأسباب وتعريض أنفسهم إلى المهالك/ تهذيب الفروق والقواعد السنية بهامش الفروق: 298/4، 299.

(3) فعل النبي ﷺ ودخوله مكة بتلك الكيفية لا حجة للقرافي فيه على أن التوكل لا بد معه من التسبب، لأن مساق كلامه يقتضي أن التوكل يصح مع التسبب وعدمه.
وما عدل النبي ﷺ إلى التوكل مع التسبب إلا لأنه المعلم المقتدى به، والاقتداء به ليس مختصاً بالخواص بل يعمهم وغيرهم مع العلم أن الجمهور من الناس لا تطمئن نفوسهم إلا مع التسبب/ تهذيب الفروق بهامش الفروق 299/4.

(4) الكراع: الخيل وتطلق عليها وعلى البغال والحمير.

(5) مغفر الحديد: زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة/ القاموس المحيط: 103/2.

(6) روى جابر بن عبدالله الأنصاري ﷺ (ت78هـ/678م) أن النبي ﷺ لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنة «سوق» وعكاظ «سوق» يقول: من يؤمّني ومن يؤويني، ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة فلا يجد أحداً ينصره/ زاد المعاد: 50/2.

(7) زيادة من: وقال... إلى: ربي/ الفروق: 271/4.

وكان في ماضي عمره عند غاية كماله مع ربه (كان يعزل لعياله نفقة سنة)[1] وهو سيد المتوكلين.

وتحقيق هذا الباب: أن تعلم أن التوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى فيما يطلبه [من خير أو يكرهه من ضير[2] لأجل أنه المستولي بقدرته وإرادته على سائر الكائنات من غير مشاركة له في ذلك ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾[3] ومع ذلك فله عوائد في ملكه رتبها بحكمته.

فمقتضى شمول قدرته انقطاع القلب عن غيره، ومقتضى سلوك أدبه التماس فضله من عوائده][4].

وقد انقسمت الخلائق في هذا المقام ثلاثة أقسام:

قسم عاملوا الله بمقتضى شمول قدرته للخير والشر، فحصلوا على حقيقة التوكل وأعرضوا عن الأسباب ففاتهم الأدب الواجب الاتباع.

وقسم لاحظوا الأسباب واستولت على قلوبهم، فحجبتهم عن الله تعالى، فهؤلاء فاتهم التوكل والأدب وهذا هو المهيع العام الذي هلك فيه أكثر الخلائق.

وقسم عاملوا [(4ب)] الله بمقتضى شمول قدرته وعوائده في مملكته فهؤلاء جامعون بين التوكل والأدب، وهذا مقام الأنبياء وخواص العلماء والأولياء والأصفياء.

---

(1) صحيح الترمذي عن عمر بن الخطاب ﷺ رقم: 1719/ الحاسوب: الدرر السنية.

(2) تعريف التوكل عند عامة الفقهاء هو: الثقة بالله، والإيقان بأن قضاءه ماض، واتباع سنته ﷺ فيما لا بد منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من العدو وإعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سُنَّة الله المعتادة/ الجامع لأحكام القرآن: 189/4.

(3) سورة فاطر، الآية: 2.

(4) زيادة من: خير. . . إلى: عوائده/ الفروق: 272/4، 273.

واعلم أن قليلاً من الأدب خير من كثير من العمل، ولذلك هلك إبليس وضاع أكثر عمله بقلة أدبه نسأل الله السلامة.

وقال رويم[1] لولده: «يا بني، اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً ليكن أدبك أكثر من عملك»، أي: ليكن استكثارك من الأدب أكثر من استكثارك من العمل لكثرة جدواه ونفاسة معناه.

والذي يدل على تحريم طلب خرق العوائد قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[2]، أي: لا تركبوا الأخطار التي دلت العادة على أنها مهلكة[3].

---

(1) رويم: أبو محمد بن أحمد بن يزيد بغدادي الأصل من أعلام الصوفية البارزين (ت303هـ/1193م)/ طبقات الشعراني الكبرى: 1/88.

(2) سورة البقرة، الآية: 195.
هذا جزء من الآية والآية بأكملها هي قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.
فالإنفاق هو صرف المال في وجوه المصالح ولكن قيد بذكر سبيل الله والمراد به طريق الدين، لأن السبيل هو الطريق وسبيل الله هو دينه.
فكل ما أمر به في دينه من الإنفاق فهو داخل في الآية سواء كان إنفاقاً في حج أو عمرة أو جهاد بالنفس أو صلة للرحم أو صدقات أو على العيال أو في الزكوات والكفارات أو غير ذلك، ولكن المعنى الأقرب هو الجهاد الذي عليه أغلب العلماء/ التفسير الكبير: 2/ 211.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ معطوف على الإنفاق وقد اختلف المفسرون فمنهم من قال: إنه راجع إلى نفس النفقة ووصفها حيناً بالهلاك، ومنهم من قال: راجع لغيرها فالذين قالوا برجوعها إلى النفقة اختلفوا أيضاً على أقوال، منها:
- الأمر بالإنفاق هو على العيال، والتهلكة: الإسراف فيها أو البخل الشديد.
- الإنفاق في الجهاد، والتهلكة: الخروج بغير زاد...
وأما من قال المراد بالإلقاء في التهلكة غير النفقة ففسر ذلك بعدة وجوه منها: أن لا تبخلوا بالجهاد فتتعرضوا للهلاك الذي هو عذاب النار، فحثهم بذلك على التمسك بالجهاد/ التفسير الكبير: 2/ 231، 232، الجامع لأحكام القرآن: 2/262، 263، تفسير ابن كثير: 1/228.

(3) استدلال القراني بهذه الآية على تحريم طلب الخوارق ليس قوياً، ولعله لا يصلح=

وقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1]، أي: الوقاية لكم من الحاجة إلى السؤال والسرقة، فإنهم كانوا يسافرون إلى الجهاد والحج بغير زاد، فربما وقع أحدهم في إحدى المفسدتين المذكورتين فأمرهم الله بالتزام العوائد وحرم عليهم تركها فإن المأمور به منهي عن ضده بل أضداده[2].

وقد قيل لبعض السلف: إن كنت متوكلاً على الله ومعتمداً عليه واثقاً بقضائه وقدره فالق بنفسك من أعلى هذا الحائط، فإنه لن يصيبك إلا ما قدر عليك.

فقال: إن الله خلق عباده ليختبرهم ويمتحنهم لا ليختبروه ويمتحنوه.

فأشار إلى سلوك الأدب مع الله تعالى، جعلنا الله من أهل الأدب معه ومع عباده حتى نلقاه بمنه وكرمه.

* * *

= دليلاً، لأنه ليس فيها دليلاً على منع طلب المستحيل وإنما هي دليل المنع من ارتكاب العمل على خلاف العادة، والعمل على خلاف العادة مغاير لطلب خرقها/ تهذيب الفروق بهامش الفروق: 4/299.

أما تفسير القرافي لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ فهو عام مجمل، وقد فسره الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (ت1393هـ/1953م) بقوله: وقوع فعل «تلقوا» في سياق النفي يقتضي عموم كل إلقاء باليد إلى التهلكة أي كل سبب في الهلاك عن عمد، فيكون منهياً عنه محرماً ما لم يوجد دليل لإزالة ذلك التحريم، وهو ما يكون حفظه مقدماً على حفظ النفس مع تحقيق حصول حفظه بسبب الإلقاء بالنفس إلى الهلاك ـ أو حفظ بعضه بسبب ذلك/ التحرير والتنوير: 2/ 211.

(1) سورة البقرة، الآية: 197.

(2) ليس في هذه الآية دليل على منع طلب المستحيل وإنما هي دليل المنع من ارتكاب العمل على خلاف العادة، والعمل على خلاف العادة مغاير لطلب خرقها كما تقدم وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ إشارة إلى تأكيد الأمر بالتزود، لأن فيه صيانة الماء الوجه/ تهذيب الفروق بهامش الفروق: 4/299.

الفصل الثالث:
من الدعاء الذي ليس بكفر وهو محرم

أن يطلب الداعي من الله تعالى نفي أمر دل السمع على نفيه وله أمثلة:

[الأول]: أن يقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾(1).

---

(1) سورة البقرة، الآية: 286.
جاءت في هذه الآية الكريمة ثلاث دعوات:
الأولى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، أي: لا تعاقبنا إن تركنا أمراً من أوامرك سهواً أو خطأً أو فعلنا شيئاً منهياً عنه سهواً أو خطأً كذلك.
والمراد بعدم المؤاخذة سقوط الإثم وعدم ترتب العقاب على المخالفة بسبب أمر من هذين الأمرين.
أما حكم الشرع على العلم الذي وقع فيه النسيان والخطأ، فإنه لا يخلو أمره إما أن يكون تركاً لمأمور به، أو فعلاً منهياً عنه.
أ ـ النسيان أو الخطأ في الفعل المأمور به كأن يكون عبادة مستقلة بذاتها كمن نسي صلاة من الصلوات الخمس أو نسي قضاء صوم يوم من رمضان أو أخطأ فصلى الصبح قبل دخول وقتها، فإن حكم الله في ذلك لا يسقط ويجب تداركه.
ومثل هذا من ترك ركناً في عبادة من العبادات أو شرطاً من شروط صحتها نسياناً، مثل ترك مسح الرأس في الوضوء أو قراءة الفاتحة في الصلاة أو صلى بنجاسة غير معفو عنها في البدن أو الثياب أو المكان، أو الخطأ في اجتهاده لمعرفة القبلة في الصلاة، فإن المالكية والشافعية يقررون إعادة الصلاة إلا أن المالكية يوجبون الإعادة في الوقت الضروري.
ب ـ النسيان أو الخطأ في الفعل المنهي: تارة يترتب عليه إتلاف وهلاك وتارة لا يترتب عليه ذلك.
فالفعل المنهي عنه المترتب عليه إتلاف وهلاك لأمتعة الناس أو أموالهم أو ممتلكاتهم فعلى المتلف الناسي أو المخطىء الضمان تطبيقاً للقاعدة الفقهية المستقاة من نصوص الشريعة «العمد والخطأ في أموال الناس سواء».
ومثل هذا: الخطأ في جرح إنسان خطأ أو إتلاف عضو من أعضائه أو قتله خطأ، =

وقد قال ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1].

= فإن الإثم ساقط والحكم باق.

أما الفعل المنهي عنه وليس فيه إتلاف فلا شيء فيه كمن تجرع خمراً يظنه ماء أو أكل لحماً محرماً يظنه حلالاً طيباً/ الأشباه والنظائر: 187 وما بعدها.

الدعوة الثانية: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ الإصر: الشدة والمعنى: ربنا لا تشدد علينا في التكاليف كما شددت على من قبلنا من اليهود، فقد قال المفسرون: إن الله تعالى فرض عليهم خمسين صلاة وأمرهم بأداء ربع أموالهم زكاة ومن أصاب ثوبه منهم نجاسة أمر بقطعه، وكانوا إذا نسوا شيئاً عجلت لهم العقوبة في الدنيا، وكانوا إذا أتوا بخطيئة، حرم الله عليهم من الطعام بعض ما كان حلالاً لهم، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: 160]/ التفسير الكبير: 384/2، 385، والجامع لأحكام القرآن: 431/3.

الدعوة الثالثة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ الطاقة: القوة، القدرة على فعل الشيء، والاستطاعة، أي: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة التي لا نقدر على القيام بها ومشقتها عظيمة، كما شددت على من كان من قبلنا في التكاليف.

فهذه الدعوات الثلاث جاءت بصيغة الجمع تعليماً لنا، ولأن قبول الدعاء عند الاجتماع أكمل، وذلك لأن لهم تأثيرات، فإذا اجتمعت الأرواح والدواعي على شيء واحد كان حصوله أكمل/ التفسير الكبير: 385/2.

(1) روي هذا الحديث الشريف بلفظ: «رفع» وروي بألفاظ أخرى.

فروايته بلفظ: «رفع» فقد جاءت عن أبي القاسم ابن جعفر التميمي التابعي (ت52هـ/653م) في «فوائده»/ الأشباه والنظائر: 187.

أما الألفاظ الأخرى غير «رفع» فمنها:

- ما أخرجه ابن ماجه محمد بن يزيد القزويني من أئمة المسلمين في الحديث (ت274هـ/867م) أخرجه في كتابه «السنن» من رواية عبدالله بن عباس حبر الأمة ابن عم الرسول ﷺ انتهت إليه الرئاسة في الفتوى والتفسير بعد عصر الخلفاء ﷺ (ت68هـ/669م) أخرج الحديث بلفظ: «إن الله وضع عن أمتي...» وأخرجه بهذا كل من ابن حبان محمد البستي الحافظ المحدث (ت52هـ/653م) في صحيحه والحاكم في كتابه «المستدرك»/ الأشباه والنظائر: 187.

- وأخرجه ابن ماجه في رواية أخرى عن أبي ذر الغفاري ﷺ بلفظ: «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»/ المصدر السابق.

- وأخرجه الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد المحدث الحافظ صاحب المعاجم الثلاثة في الحديث الشريف الكبير والأوسط والصغير (ت360هـ/952م) أخرجه=

فقد دل هذا الحديث على أن هذه الأمور مرفوعة عن العباد[1] فيكون طلبها من الله تعالى طلباً لتحصيل الحاصل فيكون سوء أدب على الله تعالى [(5أ)] لأنه طلب عري عن الحاجة والافتقار إليه.

ولو سأل أحدنا ملكاً شيئاً فقضاه له ثم سأله إياه بعد ذلك عالماً بقضائه لعدّ هذا الطلب الثاني استهزاء بالملك وتلاعباً به، ولحسن من ذلك الملك تأديبه، فأولى أن يستحق التأديب إذا فعل ذلك مع الله تعالى.

ولو رأينا رجلاً يقول: اللَّهمَّ افرض علينا الصلاة وأوجب علينا الزكاة واجعل السماء فوقنا والأرض تحتنا لبادرنا إلى الإنكار عليه لقبح ما صدر عنه من التلاعب في دعائه إلا أن يريد الداعي بقوله: ﴿إِن نَّسِينَآ﴾، أي: تركناه تعمداً كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[3]، أي: تركوا طاعته فترك الله الإحسان إليهم فهذا يجوز لأنه طلب العفو عما لم يعلم العفو فيه[4].

= باللفظ المتقدم عن ثوبان الهاشمي مولى النبي ﷺ الذي صحبه ولازمه ﷺ (ت54هـ/655م)/ المصدر السابق.
قال الإمام جلال الدين عبدالرحمٰن السيوطي (ت911هـ/1485م) بعد أن عدد الروايات العشر في اختلاف لفظ هذا الحديث قال: فهذه شواهد قوية تقضي للحديث بالصحة/ الأشباه والنظائر: 188.

(1) المرفوع عن العباد هو الإثم والمعاقبة على الأفعال التي اختلت بسبب من تلك الأسباب الثلاثة، أما الأفعال نفسها فقد حدثت ووقعت ورفع الواقع مستحيل ولذلك وجب التأويل فيكون المرفوع هو المؤاخذة بالإثم.

(2) سورة الجاثية، الآية: 34.

(3) سورة التوبة: الآية: 67.

(4) حول هذه المسألة تساءل العلماء عن فائدة الدعاء إذا كان النسيان في محل العفو، وقد دل عليه العقل حيث لا يجوز التكليف إلا بما يقدر عليه العبد ويطيقه ويتحمله ولقول الرسول ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».
أجيب عن هذا التساؤل ببيان الفائدة من هذا الدعاء بأجوبة عديدة، منها:
الجواب الأول: أن النسيان منه ما يعذر فيه صاحبه ومنه لا يعذر، ألا ترى أن من رأى في ثوبه دماً فأخّر إزالته إلى أن نسي فصلى وهو على ثوبه يعد مقصراً إذ كان يلزمه المبادرة إلى إزالته وأما إذا لم يره في ثوبه، فإنه يعذر فيه. =

[وكذلك إذا أراد بقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[1]، أي: من البلايا والرزايا والمكروهات.

= ومن رمى صيداً في موضع فأصاب إنساناً، فقد يكون بحيث لا يعلم الرامي أنه يصيب ذلك الصيد أو غيره، فإذا رمى ولم يتحرز ولم يتثبت كان ملوماً، ولكن إذا تثبت وأخطأ يكون معذوراً.
وكذلك الإنسان إذا تغافل عن الدرس والتكرار حتى نسي القرآن الكريم يكون ملوماً، وأما إذا واظب على القراءة ولكنه بعد ذلك نسي فهاهنا يكون معذوراً.
فثبت بما ذكر أن النسيان على قسمين منه ما يكون فيه العبد معذوراً، ومنه ما لا يكون كذلك، وروى البخاري في العلل الكبير عن عبدالله بن عمر ﷺ: «كان إذا أراد أن يذكر الشيء أوثق خاتمه خيطاً» 330.
وروي بألفاظ أخرى وهو منكر أو موضوع/ العلل لابن أبي حاتم: 320/3، والكامل في الضعفاء لابن عدي: 372/4.
فثبت بما ذكرنا أن الناسي قد لا يكون معذوراً إذا ترك التحفظ، وأعرض عن أسباب التذكر، وإذا كان كذلك صح طلب غفرانه بالدعاء.
الجواب الثاني: أن هذا دعاء على تقدير أن هؤلاء المؤمنين الذي ذكروا هذا الدعاء كانوا متقين الله حق تقاته، فما كان يصدر منهم ما لا يجوز إلا على وجه النسيان والخطأ، فكان دعاؤهم بذلك إشعاراً ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به، فكأنهم قالوا: إذا كان النسيان مما تجوز المؤاخذة به، فلا تؤاخذنا يا ربنا به.
الجواب الثالث: أن المقصود من الدعاء إظهار التضرع إلى الله تعالى لا طلب الفعل، ولذلك فإن الداعي كثيراً ما يدعو بما يجزم أن الله تعالى يفعله، سواء دعا أو لم يدع وقد أمرنا الله بالدعاء في أشياء نعلم قطعاً أنها ستوجد لا محالة فقال جل شأنه: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: 112].
وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: 194].
وقوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: 7].
فعلم بهذا أن النسيان مغفور لا يمنع من حسن طلبه الدعاء/ التفسير الكبير: 124/3.
(1) سورة البقرة، الآية: 286، هذا الدعاء في ظاهره معناه: الطلب من الله تعالى أن لا يكلفنا في الدين بأمر لا نقدر على القيام به ولا نطيقه لشدته علينا، وأن يجعل التكاليف التي يطلبها منا أوامر كانت أو نواهي في حدود استطاعة العبد ووسعه ولا تسبب له ضيقاً ولا حرجاً.
هذا المعنى الظاهري للآية اعتمده المعتزلة وقالوا: هذه الآية تدل على عدم جواز=

= تكليف الله للعبد بأمر لا يطيقه ولا يقدر على فعله مخالفين في ذلك جمهور المسلمين.

وقبل أن نبين خطأ هذا الاعتقاد عند جمهور علماء المسلمين نذكر تعريفاً موجزاً لهذه الفرقة فنقول: المعتزلة هم أصحاب مذهب عقدي فتح المجال للبحث النظري اعتماداً على العقل ولو خالف النص الشرعي، وبذلك انعزلوا بأفكارهم عن جمهور علماء السُّنَّة كقولهم بخلق القرآن، وأن العبد هو الخالق لأفعال نفسه، وقد استقوا تعاليمهم مما لم يكن إسلامياً صافياً بل كان أجنبياً يهودياً أو مسيحياً أو فلسفياً/ الملل والنحل: 65.

ومن أشهر أعلامهم واصل بن عطاء الغزّال (ت131هـ/512م) الذي دخل على الحسن البصري إمام أهل البصرة وعالمهم التقي ومرجعهم في شؤون دينهم ودنياهم (ت110هـ/754م) دخل واصل على الحسن وهو يشرح لطلابه معنى الإيمان وأن ركنه العمل، وأن كبائر المعاصي لا تضر مع الإيمان فقاطعه واصل قائلاً: إن صاحب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين لا هو مؤمن ولا هو كافر، فصاح فيه الحسن البصري: اعتزل عنا واصل، اعتزل عنا واصل فشاعت هذه التسمية في كل المجتمعات وصار لقب واصل وجماعته «المعتزلة»/ الملل والنحل: 1/64.

نعود الآن لاستدلال المعتزلة بالآية الكريمة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ فقد قالوا: هذه الآية صريحة في عدم جواز تكليف العبد ما لا يطيق وإذا ثبت هذا يكون العبد هو الموجد لأفعال نفسه، فلو كان الموجد لها هو الله تعالى لكان تكليف العبد تكليفاً بما لا يطاق/ التفسير الكبير: 2/380.

فأفعال العباد ـ عند المعتزلة ـ منحصرة في الحركات والسكنات والنظر والعلم والفهم فلذلك قالوا: من المستحيل أن يخاطب الله العبد بصيغة افعل وهو عاجز عن الفعل، أو لا يؤنس من نفسه القدرة عليه، وإنما يخاطبه بهذه الصيغة حتى يكون لعدله وحكمته قد أعطى الإنسان مقدرة على صنع الأعمال بنفسه/ الملل والنحل: 1/65.

قال جمهور علماء السُّنَّة ـ رداً على المعتزلة ـ: الدلائل العقلية والنقلية تدل على وقوع التكليف بما لا يطاق ولذلك وجب المصير إلى تأويل الآية.

وممن تصدى للرد على مقولة المعتزلة القاضي أبو بكر الباقلاني (ت403هـ/993م) فقال: إن الله تعالى يكلف عباده ما لا يطيقون.

وأدلة ذلك كثيرة نقلية وعقلية، نقتصر على دليل واحد من القرآن لعدم سماح المكان بأكثر من ذلك ـ فقد قال الله تعالى خطاباً للأزواج: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: 129]، وقد أمر الله بالعدل بينهن وأوجبه مع إخباره تعالى أننا لا نستطيع ذلك. =

[أما النسيان الذي هو الترك مع غفلة، الذي هو مشتهر في العرف فلا يجوز طلب العفو فيه، لأن منع طلبه معلوم بالنص والإجماع[1]][2].

= أما الآية التي استدلوا بها: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ فهي دليل - كذلك على جواز التكليف بما لا يطاق - ودحض لمدعاهم، وذلك أن الله تعالى أخبر فيها عمن أحسن الثناء عليه والمدح له، فإنهم رغبوا إليه أن لا يحملهم ما لا طاقة لهم به، فلو كان تكليف ما يطاق ظلماً من الله تعالى لكانوا قد رغبوا إليه في أن لا يظلمهم، ولا يوجب عليهم من الأوامر ما يخرج به عن حد الحكمة، والله أجل من أن يثني على قوم أجازوا ذلك عليه، فدل هذا أيضاً على المقصود.

الباقلاني وآراؤه الكلامية: 294، 295، والتفسير الكبير: 2/384، 385 في تأويل الآية أيضاً.

(1) زيادة من: أما النسيان... إلى: الإجماع/ الفروق: 4/275.

(2) منع طلب العفو عن المؤاخذة بالإثم في النسيان قال القرافي: معلوم بالنص ومعلوم بالإجماع.

فالنص الأول: هو القرآن المجيد المصدر الأول لأحكام الدين في الآية الكريمة المتقدمة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾.

والنص الثاني: السُّنَّة النبوية الشريفة المصدر الثاني لأحكام الشرع في الحديث السالف الذكر: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان».

أما الإجماع وهو الدليل الثالث المعتمد عليه في منع طلب العفو في النسيان الذي هو المصدر الثالث لاستنباط أحكام الشرع فهو يدل في اللغة على معنيين:

الأول: العزم مثل قوله تعالى على لسان نوح ﷺ مخاطباً المشركين من قومه: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: 71]، أي: اعزموا على أمر تفعلونه بي.

الثاني: الاتفاق، يقال: أجمع القوم على كذا: إذا اتفقوا.

أما المعنى الشرعي للإجماع فقد عرف بعدة تعاريف من أوضحها وأقربها للحقيقة تعريف محمد بن علي الشوكاني (ت1255هـ/1833م) وهو: «اتفاق مجتهدي أمة محمد ﷺ بعد وفاته في عصر من العصور على أمر من الأمور» إرشاد الفحول: 71.

والمراد بالاتفاق الاشتراك في الاعتقاد أو القول أو الفعل للعلماء المجتهدين من أمة محمد ﷺ لا العوام، ولا الأمم السابقة وأن هذا الاتفاق يكون بعد وفاته ﷺ في عصر من الأعصار وزمن من الأزمان/ الإحكام: 1/281، 282.

وهذا الإجماع أساسه القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة ولذلك فإن إجماع العلماء في مسألتنا ارتكز عليهما كما بينا قبل قليل.

وإذا استكمل الإجماع شروطه يكون حجة ودليلاً للعمل به على كل مسلم مكلف عند=

[فإن أطلق العموم(1)]

= جمهور العلماء، ويصير هو المصدر الثالث بعد القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الشريفة في استنباط الأحكام للوقائع الحادثة في حياة الأمة الإسلامية خلافاً لشواذ العلماء.

ومن أدلة اعتماده كمصدر شرعي ثالث للأحكام قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: 115].

ووجه الاستدلال بهذه الآية: أنه ﷻ جمع بين مشاقة الرسول ومخالفته فيما جاء به واتباع غير سبل المؤمنين فيما أجمعوا عليه جمع بينهما في الوعيد، فلو كان اتباع غير ما أجمع عليه علماء الدين المجتهدون جائزاً ومباحاً لما جمع بينه وبين المحرم المحظور، فثبت بهذا الدليل أن متابعة غير سبيل المؤمنين فيما وقع الإجماع عليه محرمة ومعصية/ الإحكام: 186/1، وإرشاد الفحول: 74.

(1) العموم: معناه لغةً: شمول أمر لمتعدد كقولنا: الطلبة، فهو يشتمل كل طالب ومنه قولهم: القوم عمهم الخير، أي: أن الخير شمل كل فرد من القوم وأحاط بهم.

والعموم في اصطلاح علماء الأصول وقع تحديده وتعريفه بعشرات التعاريف وكلها وقعت مناقشتها وبيان ما اعترضه العلماء على كل واحد منها، وأحسنها ـ كما قال الشوكاني: تعريف الإمام فخر الدين الرازي في كتابه «المحصول» فقد عرف العموم بقوله: «العام هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بوضع واحد دفعة».

فاللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له، مثل: كلمة «الناس» فإنها تشمل وتستغرق كل إنسي دفعة واحدة ليس واحداً وراء واحد ولكن جملتهم مرة واحدة وبمعنى واحد وهو عموم الناس/ إرشاد الفحول: 112، 113.

وهذا العموم هل يستفاد من الألفاظ فقط مثل لفظ جميع واللذين أو يكون في المعنى كذلك مثل الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286].

فالإصر هو الأمر الذي يثقل علينا حمله وهو كل ما يصعب علينا حمله عام ومن أنواعه: ما وقع لبني إسرائيل: كقتل النفس في التوبة وإخراج ربع المال في الزكاة وقرض موضع النجاسة وتحريم الطيبات.

وعمومه جاء، لأنه نكرة جاءت بعد لا الناهية والنكرة إذا وقعت بعد النفي تدل على العموم.

والأدوات أو الألفاظ أو الصيغ الدالة على العموم كثيرة أوصلها القرافي في شرحه «التنقيح» إلى عشرين منها: الاسم المعرف بأل ـ لغير المعهود ـ مثل ألفاظ الجموع كالمسلمين والصادقين والعاملين والمتقين والذين.

ومنها أسماء الأجناس كالحيوان والماء والتراب والطير والنبات والشجر والجبل=

من غير تخصيص[1]

= ومنها «ما» الموصلة الواردة في الآية الكريمة المتحدث عنها ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾.

فـ«ما» لفظ موصول بمعنى الذي ورد بعد لا الناهية أفاد العموم اللفظي بـ«ما» بعد النفي، أي: لا تحملنا أي: مشقة أكبر مما لا نحتمل وأفاد العموم المعنوي، وهو أن هذه المشقة العسيرة هي:

كما قال القرافي: الأمراض، المصاعب، الرزايا أو التكاليف الشرعية أو غيرها.

وهذا هو معنى قول القرافي: «فإن أطلق العموم»، أي: لم ينو شيئاً من معاني اللفظ وهو التحمل للطاقة/ شرح التنقيح للقرافي: 150 وما بعدها، شرح التنقيح لحلولو بهامش التنقيح للقرافي: 150، إرشاد الفحول: 112 وما بعدها، نهاية السول 312/2 وما بعدها.

(1) التخصيص: لغة هو الإفراد يقال: خص الله بالغيث بلد كذا: إذا أفرده وحده وخص الله عباده بأمر كذا إذا أفردهم به.

وقد تعددت تعريفاته عند الأصوليين وكانت مجالاً للاعترافات والمناقشات، ولعل أوضحها تعريف تاج الدين السبكي عبدالوهاب الأصولي الفقيه الشافعي (ت771هـ/1302م) الذي قال: التخصيص «هو قصر العام على بعض أفراده»، أي: لفظاً كان أو معنى، وهو إخراج الأفراد أو الفرد الذي وقع تخصيصه من لفظ العام كقولنا: جاء القوم إلا علياً، فقد قصرنا العام على القوم وأخرجنا منهم علياً/ حلولو: 17/2.

ومخصصات العام على قسمين: مخصص متصل بلفظ العام، وقسم منفصل عنه.

فالمخصص المتصل هو المتصل بلفظ العام ومن أنواعه:

- الاستثناء: كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقد أخرج الله المؤمنين الصالحين من عموم الإنسان الموصوف بالخسران.

- الشرط: نحو قول الله تعالى في ميراث الأبوين من تركة ابنهما إذا مات وخلف ولداً ذكراً أو أنثى: ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: 11]. خصص الله تعالى إرث الأبوين وهو السدس بشرط أن يكون للابن المتوفى أبناء ذكوراً أو إناثاً.

أما المخصص المنفصل فهو ما يستقل بنفسه دون العام من لفظ أو غيره وهو أنواع، منها:

- تخصيص نص بنص كتخصيص الكتاب بالكتاب في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: 228] وهو عام في كل مطلقة خصصه قوله=

[لا بالنية][1]

= تعالى: ﴿وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 4].
ـ فقد أخرج الحوامل من لفظ المطلقات وجعل عدتهن وضع الحمل لا الأقراء.
ـ ومن أنواع المخصص المنفصل الحس ويمثلون له بقوله تعالى في ريح قوم عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: 25].
ـ فقد أثبت الحس أن تلك الريح لم تدمر السماوات ولا الأرض ولا الجبال/ نهاية السول: 2/407 وما بعدها، شرح التنقيح لحلولو: 172 وما بعدها، إرشاد الفحول: 145 وما بعدها.

(1) من مخصصات عموم معنى اللفظ النية ودليلها حديث عمر بن الخطاب ﷺ عند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»**/ صحيح البخاري: 1/9.
فقد بيَّن رسولنا الكريم أن أساس أي عمل وركنه النية وأن العمل إذا لم تقارنه كان لغواً وغير معتد به فما هي هذه النية وكيف تكون مخصصة للعموم؟
النية لغةً: القصد إلى الشيء والعزيمة عليه ومنه قول الجاهلية: نواك الله بحفظه، أي: قصدك.
وقال القرافي: هي قصد الإنسان بقلبه ما يريده، أي: دون التلفظ بها، لأن محلها القلب، ثم قال القرافي: وهي من باب العزوم والإرادات ولكنها تختلف عنهما وتفترق عنهما فالفرق بينها وبين العزم أن العزم تصميم على إيقاع الفعل والنية تمييز له عن غيره من الأفعال.
والفرق بينها وبين الإرادة أن النية لها تعلق بفعل الناوي والإرادة يمكن أن تتعلق بفعل الغير كما نريد مغفرة الله تعالى وليست من فعلنا/ القاموس المحيط: 4/397، ومواهب الجليل: 1/230.
أما تعريف النية شرعاً فقد عرفها أبو الوليد محمد بن رشد القرطبي زعيم الفقهاء بالأندلس والمغرب (ت520هـ/1107م) بقوله: هي إرادة تتعلق بإمالة الفعل إلى بعض ما يقبله/ مواهب الجليل: 1/230.
دل هذا التعريف على أن اللفظ العام الذي له دلالات وأفراد متعددون، إذا دخلت عليه النية تخرج منه ما ميزته وخصصته من دلالات اللفظ/ المصدر السابق، مجال النية في الفقه الإسلامي: 291.
فلفظ الصلاة مثلاً عام يستغرق كثيراً من المعاني: الدعاء ـ الصلوات المكتوبة بأسمائها ـ أداء أو قضاء... فإذا عين المسلم صلاة العصر مثلاً بنيته يكون قد أمال الفعل إليها بنيته وأخرجها من العموم بتخصيص النية لها.
ومثل ذلك يقال في النوافل وكل عبادة من العبادات والأيمان والنذور وصيغ العقود=

[ولا بالعادة[1] عصى لاشتمال العموم على ما لا يجوز، فيكون ذلك حراماً، لأن فيه طلب تحصيل الحاصل، وهذا بخلاف ما في الآية من النسيان وغيره، فإنه يعصى بها مطلقاً من غير تفصيل.

= نكاحاً أو طلاقاً أو غيره.
فالنية هي التي تميز مقصود الناوي عن غيره وتخصصه، ودليل ذلك حديث البخاري السالف: «وإنما لكل امرىء ما نوى».
فهذه هي النية المخصصة لعموم اللفظ التي استدل بها القرافي على جواز الدعاء بنية تخصيص البلايا والرزايا والمكروهات عند دعاء الداعي ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ ولا إثم ولا معصية في ذلك أما لو أطلق العموم فقال القرافي: يكون عاصياً لدخول التكاليف الشرعية فيه وهي مرفوعة عنا/ المصدر السابق.

(1) التخصيص بالعادة: من المخصصات المستقلة والمراد بالعادة العادة القولية أو العرف القولي ومعناه: إذا جرت العادة بترك استغراق لفظ: العام كل أفراده ما سوى فرد من أفراده، فإذا أطلق لفظ العام في العرف على ذلك الفرد ينصرف إليه فيكون العرف مخصصاً للفظ ذلك العام.
ومن أمثلة ذلك إطلاق اسم الدابة على حيوان خاص كالحمار أو البغل فهذا يخصص عموم لفظ الدابة إذا هجر وترك الاستعمال العام.
ومن ذلك أيضاً إطلاق لفظ الطعام على المقتات دون غيره مما يعمه لفظ الطعام فإن قصره على المقتات وحده تخصيص له/ نهاية السول: 469/2، 470.
فمثل هذا النقل العرفي يقدم على موضوع اللغة، لأنه ناسخ للغة والناسخ يقدم على المنسوخ فهذا معنى القول: إن الحقائق العرفية مقدمة على الحقائق اللغوية.
والقاعدة في هذا: أن من له عرف وعادة في لفظ إنما يحمل لفظه على عرفه/ القرافي شرح التنقيح: 179، والفروق: 174/1، وفواتح الرحموت بالمستصفى: 345/1.
والتخصيص بالعرف القولي محل اتفاق والخلاف في التخصيص بالعرف العملي لدى بعض العلماء.
أما الشافعية وفي المشهور عند المالكية والحنفية فهو مخصص عندهم ومن أمثلته: لفظ الثوب يطلق لغة على ثياب الكتان والقطن والحرير والوبر والشعر، وأهل العرف يستعملون من الثياب الثلاثة دون الأخيرين فهذا عرف فعلي/ المستصفى: 345/1، حلولو على التنقيح: 183، الفروق للقرافي: 173/1، نهاية السول: 69/2، 470.
ونعود الآن إلى نقطة بحثنا فإن لفظ الطاقة بمعانيه المتعددة احتفظ بحقيقته اللغوية، ولم توجد عادة قولية تخرج أي معنى منها وتخصصه فيصير عرفاً قولياً.

فإن قلت: إن الله تعالى قد قال حكاية عن قوم في سياق المدح: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾[1].

ووعده ﷻ لا بد من وقوعه، فقد طلبوا تحصيل الحاصل وهو عين ما نحن فيه، ومدحهم الله تعالى فدل على جواز ذلك وأنت تمنعه؟[2].

[قلنا: إنما جاز لهم سؤال ما وعدهم الله تعالى به، لأن حصوله مشروط بالوفاة على الإسلام وهذا شرط مجهول الوقوع.

[والجهل بوقوع الشرط جهل بوقوع المشروط فما دعوا إلا بمجهول الوقوع لا بمعلوم الوقوع فظهر الفرق[3]][4].

[وأما ما نحن فيه فليس فيه شرط مجهول، بل علم من الشريعة بالضرورة ترك المؤاخذة بالخطأ مطلقاً.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 194.

(2) بعد أن تقرر لدى القرافي أن الدعاء بالطلب من الله تعالى عدم تكليفنا بما لا طاقة لنا به حرام، لأنه من باب تحصيل الحاصل فبعد ذلك توقع اعتراضاً عليه بأن الدعاء بطلب تحصيل الحاصل جائز بدليل القرآن وليس كما قرره وجعله غير جائز؟

فأجاب عن ذلك: بما هو مسطر مستنداً للقاعدة الأصولية «الشروط ومتعلقاتها» مستدلاً بها مبيناً سبب جواز الدعاء في طلب وعد الله للمؤمنين بتحقيق ما جاء على ألسنة الرسل، بينما الدعاء بطلب ترك المؤاخذة بالخطأ والنسيان معلوم من الدين بالضرورة.

(3) الفرق الظاهر بين الدعاء الجائز والدعاء المحرم المذكورين سابقاً هو أن الدعاء الجائز إنما جاز، لأنه طلب لتحقيق ما وعد الله به المؤمنين على ألسنة الرسل عليهم السلام وهو دعاء متوقف على شرط مجهول الوقوع ـ كما جاء عن القرافي ـ والجهل بوقوع الشرط جهل بوقوع المشروط وهي قاعدة «أصولية»/ فواتح الرحموت بأسفل المستصفى: 1/228 ـ 250.

أما تحريم الدعاء بعدم تحميلنا ما لا طاقة لنا من التكاليف فقد منع، لأنه طلب تحصيل الحاصل وهو معلوم من الشريعة بالضرورة/ الفروق: 2/276، 277.

(4) الزيادة متواصلة من صفحة 167 أول السطر... إلى: فيحرم الدعاء به/ الفروق: 4/278.

[فإن قلت: فإذا جوزت ذلك بناءً على الجهالة بالشرط فجوزه هاهنا بناءً على الجهالة بالشرط كذلك، فإن رسول الله ﷺ لم يخبر بذلك مطلقاً، وإنما أخبر بالرفع عن أمته، وكون الداعي يموت وهو من أمته مجهول، فما طلب إلا مجهولاً بناءً على التقرير المتقدم.

[قلت: كونه من الأمة ليس شرطاً في هذا الرفع.

[ودلالة الخبر على ذلك إنما هي من جهة المفهوم[1] ونحن نمنع كونه حجة لاختلاف العلماء فيه[2].

---

(1) المفهوم هو أحد قسمي اللفظ والقسم الأول هو المنطوق الذي يدل عليه اللفظ في محل النطق كقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: 275].
فإنه يدل بمنطوقه على حلية البيع وحرمة الربا.
أما المفهوم فهو قسمان: مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة:
ومفهوم الموافقة: هو دلالة اللفظ على ثبوت حكم المنطوق به للسكوت عنه مثل قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: 23].
فقد حرم الله التأفيف الدال على الضجر على الوالدين، ويفهم منه تحريم أي أذى من الأبناء على الوالدين كالشتم والضرب وغيرهما.
والقسم الثاني مفهوم المخالفة: وهو الذي يذكره القرافي هنا وهو دلالة اللفظ على ثبوت حكم المسكوت عنه المخالف لما دل عليه المنطوق كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: 187].
فقد دل بمنطوقه على وجوب صيام بياض النهار وبمفهومه المخالف على عدم وجوب الصيام في الليل/ مختصر المنتهى مع شرح العضد: 2/171، 172/ إرشاد الفحول: 178، 179.
وتطبيقاً لقاعدة مفهوم المخالفة في الحديث الشريف المذكور: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» فإنه يدل بمنطوقه على عدم المؤاخذة على كل فرد من الأمة المحمدية وبمفهومه المخالف على عدم الرفع لأي فرد لم يكن من الأمة المحمدية.
وهذا المفهوم بلغت أنواعه عشرة متفاوتة في القوة والضعف وكان لها أثر كبير في الاختلاف في الفروع/ كشف الأسرار للبخاري: 2/254، إرشاد الفحول للشوكاني: 172.

(2) ذهب جمهور الفقهاء من الشافعية والمالكية والحنابلة إلى أنه حجة، وخالف في ذلك بعض العلماء والحنفية وقالوا: لا يجوز أن يكون دليلاً وحجة في الأحكام/ إرشاد الفحول: 179، ونهاية السول: 2/205، 206. =

[سلمنا أنه حجة لكنه متروك هاهنا إجماعاً.

[فلا يعصي بذلك، لأنه لم تدل النصوص على نفي ذلك بخلاف التكاليف الشرعية، فإنها مرفوعة بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

= وجاء في كشف الأسرار لعبدالعزيز البخاري (ت730هـ/1311م) الحنفي أن الحنفية جعلوا مفهوم المخالفة من الاحتجاجات الفاسدة/ كشف الأسرار: 252/2 وما بعدها.

(1) سورة البقرة، الآية: 286، الكلفة: المشقة التي لا تطاق ولا تحتمل، والوسع: الجهد وهو ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يحرجه.
هذه الآية - هي أيضاً - من الآيات القرآنية المصرحة بظاهر لفظها بعدم جواز تكليف الله عباده بأمور لا يطيقونها ولا يتحملونها فاعتمدها المعتزلة في دعواهم بعدم جواز تكليف العبد بما لا يقدر عليه وما ليس في وسعه.
وقد أجاب علماء المسلمين السنيين رداً على مدعاهم في تفسيرهم لهذه الآية الكريمة، فإنها ليست صريحة كما تقولون لاحتمالها معاني أخرى من جملتها: احتمالان ذكرهما الفخر الرازي:
الأول: مساق الآية: أن هذا الدعاء حكاية عن الرسول والمؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285] فقالوا: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.
ويدعم هذا ما أردفه بعد ذلك من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾... فقد حكى القرآن عنهم طريقتهم في التمسك بالإيمان والعمل الصالح وحكى عنهم في جملة ذلك: أنهم وصفوا ربهم بأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها.
وإذا كان هذا كلام المؤمنين والرسول، فإن المعنى يكون أنهم لما قالوا: سمعنا وأطعنا فكأنهم قالوا: كيف لا نسمع ولا نطيع والله ﷻ لم يكلفنا إلا بما في وسعنا وطاقتنا، فإذا كان الله تعالى بحكم الرحمة الإلٰهية لا يطالبنا إلا بالشيء السهل اللين فكذلك نحن بحكم العبودية وجب أن نكون سامعين طائعين/ التفسير الكبير: 380/2.
الاحتمال الثاني: أن قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ليس من قول المؤمنين حكاية عنهم، وإنما هو من كلام الله فإن المعنى المحتمل: أنهم لما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ثم قالوا بعد ذلك: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ دل ذلك على أن قولهم: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ طلب للمغفرة فيما يصدر عنهم من تقصير على سبيل العمد، فلما كان قولهم: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ طلبا للمغفرة في ذلك التقصير خفف الله تعالى عنهم ذلك وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. =

فيقتضي طلب رفع ذلك [وتقريره: أن نقول: هل الكفار مخاطبون بفروع الشريعة أو لا[1]؟

فإن قلنا: إنهم غير مخاطبين بها[2] فالرفع حاصل لهم في جميع الفروع: النسيان وغيره فبطل المفهوم واستوت الخلائق في الرفع حينئذٍ.

= والمعنى: أنكم إذا سمعتم وأطعتم وما تعمدتم المخالفة فعند ذلك لو وقع منكم نوع تقصير على سبيل السهو والغفلة فلا تخافوا لأنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها وبالجملة فهذا إجابة لهم في دعائهم في قولهم: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾/ التفسير الكبير: 380/2.

ومن أدلة جمهور علماء المسلمين على أن هذه الآية ليست نافية للتكليف بما لا وسع للإنسان فيه: أن من مات على الكفر فالله تعالى عالم به في الأزل أنه سيموت على كفره، ومع ذلك فقد أوجب عليه الإيمان فيكون تكليفه بالإيمان مع العلم بموته على الكفر هو تكليف بما ليس للإنسان وسع فيه.

ومثال ذلك: أبو لهب لعنه الله فقد أمره الله تعالى بالإيمان، والله سابق في علمه أنه لن يؤمن وأخبر عن مآله وعاقبته وخسرانه فقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞﴾.

فالتكليف بالإيمان مع العلم بعدمه تكليف بما لا يطاق/ المصدر السابق.

(1) في هذه المسألة تباينت أقوال العلماء حتى في نطاق المذهب الواحد وانحصرت في ثلاثة:

- الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة كالصلاة والزكاة والصوم وحرمة الخمر والزنا والربا مثلاً.

- الكفار مخاطبون بالفروع شأنهم في ذلك شأن المسلمين.

- الكفار مخاطبون بالنواهي دون الأوامر/ نهاية السول: 369/1، 370، وشرح التنقيح: 131، 132.

(2) هذا هو القول الأول وهو لجمهور الحنفية والظاهر من مذهب الشافعية وجماعة من المعتزلة وهو أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة.

وحجتهم في ذلك: أن التقرب بأي عبادة من العبادات أوامر أو نواه شرطه وركنه الأساسي التصديق بالمخبر بالتكليف وهو الرسول ﷺ والفروع الشرعية متفرعة على الإيمان والتصديق ومن لم يصدق تعذر عليه أن يتقرب وكيف يتقرب بها وهو غير مؤمن بمن جاء بها؟/ نهاية السول: 370/1، فواتح الرحموت: 128/1 وما بعدها.

وإن قلنا: إنهم مخاطبون بالفروع[1] فلا يكون قد شرع في حقهم

(1) هذا هو القول الثاني وهو لجمهور الأصوليين وهو ظاهر المذهب المالكي عند أبي الوليد محمد ابن رشد الجد القرطبي (ت520هـ/1107م) وأبي الوليد الباجي سلمان بن خلف (ت494هـ/1082م) ومحمد بن عبدالله ابن العربي المعافري الإشبيلي (ت543هـ/1169م) خلافاً لما ذكر الفقيه المالكي محمد بن خويز منداد الذي ذكر في كتابه «الجامع»: أن ظاهر مذهب مالك هو عدم مخاطبة الكفار بالفروع بدليل أنه لا ينفذ طلاقهم ولا أيمانهم ولا يجري عليهم حكماً من الأحكام وإن قطعهم في السرقات وقتلهم في المحاربة فمن باب الدفع والردع، فهو تعزير لا حد من الحدود، لأن الحدود كفارات وليست هذه كفارات بالنسبة إليهم، وهي كفارات لنا/ الأسنوي: 1/ 371، وحلولو على شرح التنقيح: 140 وما بعدها، الجامع لأحكام القرآن: 15/340.

وقد استدل الجمهور على القول بمخاطبة الكفار بالفروع بعدد من الأدلة، منها:

- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: 1] فلفظ الناس يعم المؤمن والكافر.

- وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97] وهو عام، يتناول الكافر الأمر بالحج، كما يتناول المسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت: 6، 7] فقد أخبر الله عن عذاب المشركين الذين لا يؤتون الزكاة مع أنهم مشركون غير مصدقين باليوم الآخر.

- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾ [الفرقان: 68].

فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ يتناول جميع ما تقدم فيكون القتل والزنا يعاقب عليهما كما يعاقب على دعوى الإله مع الله تعالى، ولولا أن الكافر مخاطب بفروع الشريعة لما انتظم هذا الكلام/ شرح التنقيح: 140، 141، حلولو على التنقيح: 140، 141، المستصفى: 1/929.

فقد تتبع الأسنوي جمال الدين عبدالرحيم بن الحسن الأرموي الفقيه الأصولي الشافعي (ت772هـ/1351م) في كتابه: «نهاية السول في شرح منهاج الأصول» تتبع أقوال كل من الفريقين القائلين بخطاب الكفار بالفروع والقائلين بعدم ذلك، وناقشها واستخرج الخلاصة التالية:

قال: القول الصحيح وقد حصحص الحق الذي لا شك فيه: وهو أن الكفار لا يجبرون على فعل العبادات في الدنيا ولا يعاقبون على ترك شيء منها، ولا يقضون شيئاً منها إذا أسلموا، وأن مقتضى النصوص أنهم يعاقبون في الآخرة على جحودهم=

ما ليس سبباً في حقنا بل كل ما هو سبب للوجوب في حقنا هو سبب الوجوب في حقهم وما هو سبب التحريم في حقنا هو سبب التحريم في حقهم وما هو سبب الترخيص والإباحة في حقنا هو كذلك في حقهم.

[فعلى هذا التقدير لا يكون خصوص الأمة شرطاً في الرفع، ولم يقل أحد: إن الكفار في الفروع أشد حالاً من الأمة فظهر أن هذا المفهوم باطل اتفاقاً، فليس هناك في النسيان والخطأ شيء مجهول فيكون الشارع

= وإنكارها فيجب إرجاع ما خالف هذا الحق إليه وإلا كان قولاً مخالفاً لظاهر النصوص/ نهاية السول: 1/273، 274.

أما حجة الإسلام محمد الغزالي في كتابه «المستصفى» فقال: ليس من شرط الفعل المأمور به أن يكون شرطه حاصلاً حالة الأمر بل يتوجه الأمر بالشرط والمشروط ويكون مأموراً بتقديم الشرط، فيجوز أن يخاطب الكفار بفروع الإسلام كما يخاطب المحدث بالصلاة بشرط تقديم الوضوء والملحد بتصديق الرسول بشرط تقديم الإيمان بالمرسل.

وبعد هذا حصر خلاف الفريقين في نقطتين: جواز الخطاب للكفار بالفروع ووقوعه، وقال:

أما الجواز العقلي فواضح إذ لا يمتنع أن يقول الشارع: بني الإسلام على خمس وأنتم مأمورون بجميعها أو بتقديم الإسلام من جملتها فيكون الإيمان مأموراً به لنفسه ولكونه شرطاً لسائر العبادات كما في المحدث والملحد.

وأما الوقوع الشرعي فهل وقع خطاب الكفار بالفروع أم لا؟ فنقول: كان يجوز أن يخصص خطاب الفروع بالمؤمنين كما خصص وجوب العبادات بالأحرار المقيمين والأصحاء والطاهرات دون الحيض، ولكن وردت الأدلة بمخاطبتهم وهي المذكورة آنفاً/ المستصفى: 1/91، 92.

القول الثالث في خطاب الكفار أنهم مخاطبون بالنواهي دون الأوامر وذلك، لأن الكف عن المنهي عنه ممكن من الكافر حال كفره بخلاف فعل الطاعات، ولأن الكف عن المنهيات لا يتوقف على نية فصح من الكافر بخلاف العبادات فلا بد فيها من النية فيتوقف فعلها على الإيمان، فلا تصح من الكافر حال كفره، ولذلك فإنهم يعاقبون في الدنيا على ترك الإيمان بالقتل والسبي وأخذ الجزية والحد في الزنا والقذف/ المصدر السابق.

قد أخبر بالرفع في هذه الأمور مطلقاً فيحرم الدعاء به[1]][2].

[المثال الثاني] من الدعاء المحرم أن يقول الداعي: ربنا لا تهلك هذه الأمة المحمدية بالخسف العام والريح العاصف [كما أهلك من قبلنا، وقد أخبر رسول الله ﷺ في «مسلم» وغيره من الصحاح أنه سأل ربه الإعفاء من ذلك فأجابه[3] فيكون طلب ذلك معصية.

[المثال الثالث] أن يقول: اللَّهمَّ لا تسلط على هذه الأمة من [(5ب)] يستأصلها إلى يوم القيامة وقد أخبر رسول الله ﷺ في الصحاح بأنه **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»**[4] فيكون الدعاء بذلك معصية لما مر.

[المثال الرابع]: أن يسأل الداعي ثبوت أمر دل السمع على ثبوته بأن يقول لمريض أو مصاب: اللَّهمَّ اجعل له هذا المرض أو هذه المصيبة كفارة وقد دلت النصوص على أن المصائب كفارات لأهلها وقد قال رسول الله ﷺ: **«لا يصيب المؤمن وصب ولا نصب ولا تعب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من ذنوبه»**[5] فيكون الدعاء معصية كما مر. بل

---

(1) رأى ابن الشاط أن ما أجاب به القرافي على بطلان المفهوم غير صحيح ويلزم القول بهذا المفهوم لقرينة الأمة «رفع عن أمتي» فمساق الحديث مشعر بذلك/ الإدرار: 278/2.

(2) زيادة من بداية صفحة 167 إلى: فيحرم الدعاء به بصفحة 173/ الفروق: 4.

(3) لفظ الحديث عند مسلم عن ثوبان ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة - جدب عام - وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء، فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عام وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم....»** الحديث/ صحيح مسلم: 13/18، 14.

(4) صحيح مسلم عن ثوبان ﷺ (ت54هـ/655م)، وصحيح البخاري عن المغيرة بن شعبة ﷺ (ت50هـ/651م) 293/13.

(5) لفظ هذا الحديث كما جاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن الرسول ﷺ قال: **«ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر الله به من سيئاته»**. =

ينبغي للداعي [أن يقول]: اللَّهمَّ عظم له الكفارة، وأن يقول لمن مات أولاده: جعلهم الله لك حجاباً من النار، وقد جاء في الحديث الصحيح: **«إن الصلاة إلى الصلاة كفارات لما بينهما»**[1].

[وقد تقدم بيان أن السخط لا يخل بذلك التكفير بل يجدد ذنباً آخر كمن قضى دينه ثم استدان يقال: إنه لم تبرأ ذمته من الدين الأول.

وكذلك المصاب بريء من عهدة الذنب الأول وإن كان قد جدد ذنباً آخر بسخطه فيكون هذا الدعاء معصية بل يقول: اللَّهمَّ عظم له هذه الكفارة.

[فإن قلت[2]: إن الله تعالى قد أخبر عن قوم في الدار الآخرة بأنهم يقولون: ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿47﴾﴾[3].

وهؤلاء ليسوا من أصحاب النار لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

[وقد وردت الأحاديث أن من يدخل الجنة أو يكون في الأعراف[4]

= وفي حديث عائشة رضي الله عنها (ت57هـ/658م): **«ما من مصيبة يصاب بها المسلم إلا كفر بها عنه حتى الشوكة يشاكها»**/ صحيح مسلم: 16/129، 130.

(1) لفظ الحديث كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه (ت59هـ/660م) عند أحمد بن حنبل (ت241هـ/836م) في المسند ومسلم والترمذي **«الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»**/ الجامع الصغير: 2/50.

(2) توقع القرافي سائلاً لم يقتنع بما ذكره من الأدلة على تحريم الدعاء بتحصيل الحاصل فاستشهد بقصة أصحاب الأعراف الذين ليسوا من أهل النار، ولن يدخلوها ومع ذلك دعوا الله أن لا يكونوا في النار مع الظالمين وطلبهم هذا في تحصيل الحاصل؟ فأجاب عن ذلك التساؤل بما حرره مسطوراً.

(3) سورة الأعراف، الآية: 47.

(4) أصحاب الأعراف: الأعراف جمع عرف وهو كل مكان عال مرتفع ومنه عرف الفرس وعرف الديك وكل مرتفع من الأرض عرف، لأنه بسبب ارتفاعه يصير عرفاً مما انخفض منه/ القاموس المحيط: 3/174. =

لا يدخل النار[1]، وما علمت في هذا خلافاً بين العلماء، فيكون دعاؤهم طلباً بتحصيل الحاصل.

ولم يذكر الله تعالى ذلك في سياق الذم لهم مع أنهم سمعوا تلك النصوص في الدنيا وعلموا أن من سلم من النار في أول الأمر لا يدخلها بعد ذلك.

[قلت: قال المفسرون: هؤلاء أصحاب الأعراف[2]، وهم على خوف من سوء العاقبة وأهوال القيامة توجب الدهشة عن المعلومات.

[فقد قيل للرسل عليهم السلام: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾[3] لاستيلاء الخوف من الله تعالى على قلوبهم من جهة هول المنظر كذلك هؤلاء مع أن هؤلاء ليسوا مكلفين ولا ذم إلا مع التكليف][4].

المثال الخامس: أن يقول الداعي: اللَّهمَّ لا تغفر لفلان الكافر، وقد دل السمع على أن الله تعالى ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[5] فهذا محرم، لأنه

= أما المراد من الأعراف في هذه الآية فهي أعالي السور المضروب بين الجنة والنار المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: 13]، أي: بين المنافقين والمؤمنين/ التفسير الكبير: 213/4، 214.

(1) ومن ذلك ما جاء في قول الله تعالى حكاية عن أصحاب الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿47﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿48﴾﴾ [الحجر: 47 ـ 48].

(2) أصحاب الأعراف: اختلف المفسرون في تعيينهم اختلافاً كبيراً وأشهر أقوالهم: إنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يكونوا من أهل الجنة ولا من أهل النار، فأوقفهم الله تعالى على هذه الأعراف لكونها درجة متوسطة بين الجنة والنار ثم يدخلهم الله تعالى الجنة بفضله ورحمته/ الجامع لأحكام القرآن: 211/7.

(3) الآية الكاملة قوله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿109﴾﴾ [المائدة: 109].

(4) زيادة من: قلت... إلى: التكليف/ الفروق: 280/4.

(5) الآية كاملة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿48﴾﴾ [النساء: 48].

من باب تحصيل الحاصل، وقلة الأدب، بخلاف: اللَّهمَّ اغفر له، فإنه كفر، لأنه من باب تكذيب السمع القاطع.

* * *

الفصل الرابع:
من المحرم الذي ليس بكفر

أن يسأل الداعي من الله تعالى ثبوت أمر دل السمع على ثبوته، وله أمثلة:

[المثال الأول]: أن يقول الداعي: جعل الله موت من مات لك من أولاد حجاباً من النار، وقد دل الحديث الصحيح على أن **«من مات له اثنان من الولد كانا حجاباً له من النار»**[1] فيكون هذا الدعاء معصية.

[فإن قلت: قد أمرنا رسول الله ﷺ أن ندعو له بقوله: **«اللَّهـمَّ آت محمداً الوسيلة[2] والفضيلة[3] وابعثه المقام المحمود[4] الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد»**[5].

---

(1) لفظ الحديث عن أبي هريرة ﷺ عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال لنسوة من الأنصار: **«لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبه إلا دخلت الجنة**، فقالت امرأة منهن: أو اثنين يا رسول الله؟ قال: **واثنين»**/ مسلم: 16/ 181.

(2) الوسيلة: القرب من الله تعالى وهي منزلة في الجنة كما ثبت ذلك في حديث مسلم عن عبدالله بن عمرو ﷺ (ت65هـ/666م) **«سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة إلى الجنة... وأرجو أن أكون هو»**/ مسلم: 4/85.

(3) الفضيلة: المرتبة الزائدة على سائر الخلائق.

(4) المقام المحمود: روي بالتنكير (مقاماً محموداً) وهو الشفاعة العظمى عند أكثر العلماء وبهذا يتبين أن الفقرة الأخيرة **«وأن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى»** ليست من الحديث/ فتح الباري: 2/94، 95.

(5) لفظ هذا الحديث للبخاري عن جابر بن عبدالله ﷺ ما عدا **«إنك لا تخلف الميعاد»** فمن رواية البيهقي/ المصدر السابق.

وقد ورد في الحديث الصحيح: **«أن الوسيلة درجة في الجنة لعبد صالح وأرجو أن أكون إياه»**[1]، **«وأن المقام المحمود هو الشفاعة»**[2].

[وقد أخبر الرسول ﷺ أنه أعطيها فيلزم أحد الأمرين:

إما إباحة الدعاء بما هو ثابت، وإما الإشكال على الإخبار عن كونه عليه الصلاة والسلام أعطيها.

[قلت: ذكر العلماء في هذا الحديث أن رسول الله ﷺ أعطي هذه الأمور مرتبة على دعائنا، واعلم أنه بدعائنا يحصل له ذلك، فحسن أمرنا بالدعاء له، لأنه سبب هذه الأمور وحسُن الإخبار بحصولها، لأنه أعلم بوقوع سبب حصولها.

[والمحرم إنما هو الدعاء بحصول شيء قد علم حصوله من غير دعائنا فاندفع الإشكال[3].

[**المثال الثاني**: أن يقول الداعي: اللَّهمَّ اجعل صوم عاشوراء يكفر لي سنة، وقد جاء في الحديث الصحيح: أن صوم يوم عرفة يكفر سنتين وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة[4]، فلا يجوز طلب شيء من ذلك.

---

(1) **«أن أكون إياه»** في رواية مسلم **«أن أكون هو»** 4/85.

(2) هذه الفقرة من الحديث: **«وأن المقام المحمود هو الشفاعة»** قال ابن حجر: ليست من الحديث/ فتح الباري: 2/94.

(3) قال ابن الشاط: جواب القرافي على هذا مبني على أن الدعاء بمثل ذلك من تحصيل الحاصل ممنوع، وذلك هو عين دعواه من غير حجة أتى بها/ الإدرار بهامش الفروق: 4/ 281.

(4) لفظ الحديث عن أبي قتادة الحارث بن بلدمة الأنصاري رضي الله عنه (ت54هـ/655م) عند مسلم أن النبي ﷺ قال: **«صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السَّنَة التي قبله والسَّنَة التي بعده، وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السَّنَة التي قبله»**/ مسلم 8/50.

استشكل العلماء تكفير ما لم يقع من الآثام في السَّنَة الآتية؟

وأجيب عن ذلك: المعنى أن يوفق فيها المؤمن لعدم الإتيان بأي ذنب، وسماه=

[المثال الثالث: أن يقول: اللَّهمَّ اجعل صلواتي كفارات لما بينهما[1]، فيكون الدعاء بذلك معصية لما مر، والحق بهذه المثل نظائرها][2].

* * *

الفصل الخامس
[في المحرم الذي ليس بكفر]

هو أن يطلب الداعي من الله تعالى نفي ما دل السمع الوارد بطريق الآحاد على ثبوته، وقولي بطريق الآحاد احترازاً من المتواتر[3]، فإن طلب نفي ذلك من قبيل الكفر كما تقدم وله أمثلة:

= تكفيراً لمناسبة السنة الماضية، أو أنه إذا أوقع فيها ذنباً رفقه الله تعالى للإتيان بما يكفره.

وأما صوم يوم عاشوراء وهو العاشر من شهر المحرم، فإنه قد كان واجباً قبل فرض رمضان ثم صار بعده مستحباً.

وأفاد الحديث أن صوم يوم عرفة أفضل من صوم يوم عاشوراء/ سبل السلام: 166/2.

(1) جاء هذا في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»/ الجامع الصغير 50/2، فتح الباري: 357/8.

(2) زيادة من: وقد أخبر... إلى: نظائرها/ الفروق: 4/ 281.

(3) طريق الآحاد: هو الحديث الذي جاء بطريق الآحاد وهو ما رواه الصحابة عن الرسول ﷺ واحد أو اثنان، ورواه بعد الصحابة واحد عن واحد إلى منتهاه، وهو يفيد الظن لاحتمال اختلال صدق أحد الرواة، ويجب العمل به كقوله ﷺ رواية عن جابر بن عبدالله ﷺ: «**كل معروف صدقة**»/ صحيح البخاري: 10/ 447.

أما الحديث المتواتر تواتراً لفظياً فهو ما رواه عن الرسول ﷺ جمع عن جمع يستحيل اتفاقهم على الكذب من أوله إلى منتهاه وهو مجزوم بصحته إذا استكمل شروطه ويجب العمل به ويكفر جاحده مثل حديث مسلم الذي رواه ما يزيد عن=

المثال الأول: أن يقول: اللَّهمَّ اغفر للمسلمين جميع ذنوبهم وقد دلت السُّنَّة الصحيحة على دخول طائفة من المسلمين النار، وخروجهم منها بشفاعة[1]، وبغير شفاعة[2].

ودخولهم النار إنما هو مؤاخذة ببعض ذنوبهم أو كلها، فلو غفر للمسلمين كلهم ذنوبهم لم يدخل أحد النار فيكون هذا الدعاء مستلزماً لتكذيب تلك الأحاديث الصحيحة فيكون معصية ولا يكون كفراً، لأنها آحاد، والتكفير إنما يكون بجحد ما علم ثبوته بالضرورة[3] أو التواتر.

فإن قيل[4]: فمن آداب الدعاء أنه إذا قال: اللَّهمَّ اغفر لي أن يقول:

= ستين صحابياً عن النبي ﷺ قال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 1/67، 68، الإحكام 2/20 وما بعدها، إرشاد الفحول: 46 وما بعدها.

(1) جاء هذا في حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنه عند ابن خزيمة أبو بكر (ت311هـ/907م) عن النبي ﷺ قال: «يوضع للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها قال: ويبقى منبري لا أجلس عليه ولا أقعد عليه، قائم بين يدي ربي مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول الله ﷻ: يا محمد ما تريد أن تصنع بأمتك؟

فأقول: يا رب عجل حسابهم، فيدعى بهم فيحاسبون فمنهم من يدخل الجنة برحمة الله ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي، فما أزال أشفع حتى أعطي صكاكاً برجال قد بعث بهم إلى النار، وحتى أن مالكاً خازن النار يقول: ما تركت للنار لغضب ربك في أمتك من نقمة»/ صحيح ابن خزيمة رقم2/598، الحاسوب: الدرر السنية.

(2) دل على خروج طائفة من المؤمنين من النار بعد دخولهم إليها الحديث القدسي عند البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يقول الله: من كان في قلبه مثال ذرة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحيا ـ أو: الحياة شك مالك ـ فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية»/ البخاري: 1/72.

(3) المعلوم من الدين بالضرورة هو المشاهد الذي لا يخفى على أحد كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة الخمر والزنا وغيره.

(4) أورد القرافي هذا السؤال ليبين أن ما ورد في آداب الدعاء من طلب المغفرة من=

ولجميع المسلمين، وهذا خلاف ما قررته؟ وقد أخبر الله تعالى عن الملائكة صلوات الله عليهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[1]، أي: تابوا من الكفر واتبعوا الإسلام ولفظ الذين عام في جميع التائبين عن الكفر وهم المؤمنون.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾[2] عام في جميع من في الأرض وهو خلاف ما قررته؟

قلت: والجواب عن الأول: إن الإنسان إذا قال: اللَّهمَّ اغفر... فإن أراد المغفرة من حيث الجملة لا على وجه التعميم[3] [(6أ)] صح أن يشرك معه كافة المسلمين فيما طلبه لنفسه، إذ لا منافاة بين مغفرة بعض الذنوب، ودخولهم النار ببعض آخر، فلا ينافي في الدعاء أحاديث الشفاعة.

وإن أراد مغفرة جميع ذنوبه صح ذلك في حقه، لأنه لم يتعين أن يكون من الداخلين النار الخارجين بالشفاعة.

وأما في حق المؤمنين فإن أراد المغفرة من حيث الجملة ولم يشركهم في جملة ما طلبه لنفسه صح أيضاً، إذ لا منافاة فلا ردّ على النبوة.

وإن أراد اشتراكهم معه في جملة ما طلبه لنفسه، وهو مغفرة جميع الذنوب منعنا جواز ذلك.

= الداعي له ولجميع المسلمين، وما ورد من دعاء الملائكة للمؤمنين ليس عاماً ولا يتناول مغفرة جميع الذنوب للمسلمين وهو دعم لما قرره.

(1) سورة غافر، الآية: 7.

(2) سورة الشورى، الآية: 5.

(3) المراد بذلك مغفرة بعض الذنوب للمسلمين لا جميع الذنوب، كما سيتضح بعد قليل، وهو ما دل عليه الحديث السابق.

وعن الثاني: أن طلب الملائكة المغفرة للمؤمنين بقولهم: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا عموم في تلك الألفاظ لكونها أفعالاً في سياق الثبوت فلا تعم إجماعاً[1]، ولو كانت للعموم لوجب أن يعتقد أنهم أرادوا بها الخصوص وهو المغفرة من حيث الجملة للقواعد الدالة على ذلك[2].

وإن أطلق الداعي قوله: اللَّهمَّ اغفر لي ولجميع المسلمين من غير نية جاز لأن لفظة «افعل» في سياق الثبوت لا تعم كما أطلقته الملائكة.

[المثال الثاني]: أن يقول الداعي: اللَّهمَّ اكفني شر العري يوم القيامة حتى تستر عورتي عن الأبصار، وقد ورد في الصحيح أن الناس يحشرون حفاة عراة غرلاً[3] [فيكون هذا الدعاء مستلزماً للرد على رسول الله ﷺ في خبره فيكون معصية].

[المثال الثالث: أن يقول للداعي]: إذا قبضتني إليك فلا تحيني إلى يوم القيامة حتى أستريح من وحشة القبر، وقد ورد في الحديث الصحيح

---

(1) الأفعال إذا لم يتقدم عليها نفي لا تدل على العموم، مثل: أكل أو شرب فإن كلًا من هذين الفعلين يدل على معنى واحد فقط، مأكول واحد ومشروب واحد، ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال في الصائم: «**إذا نسي فأكل أو شرب ناسياً، فإنما أطعمه الله وسقاه**»/ البخاري: 4/ 301.

فالأفعال إذا لم يسبقها نفي لا تفيد العموم، وحتى إذا سبقها نفي وقع الخلاف في عمومها بين الأصوليين فجمهورهم لا يقولون بعمومها، لأن العموم من عوارض الألفاظ، وهذه معان وأفعال لا عموم لها/ شرح التنقيح للقرافي: 151، المستصفى: 2/ 63، 64، إرشاد الفحول: 144.

(2) أدلة ذلك: السنة الصحيحة المثبتة لخروج طائفة من المؤمنين من النار بالشفاعة وغير الشفاعة في الحديث المتقدم ثم القاعدة الأصولية المجمع عليها: **أن الأفعال في سياق الإثبات لا تكون عامة**.

(3) ولفظ الحديث عن البخاري عن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يحشرون يوم القيامة حفاة، عراة، غرلاً**، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: **الأمر أشد من أن يهمهم ذلك**»، غرلاً: جمع أغرل وهو الأقلف الذي لم يختن/ فتح الباري: 11/ 377، 378.

رجوع الأرواح إلى الأجساد، وأن الميت يسمع خفق نعل المنصرفين[1]، وقد قال عليه الصلاة والسلام في قتلى بدر: «**ما أنتم بأسمع منهم**»[2]، وليس ذلك خاصاً بهم إجماعاً فيكون هذا الدعاء مستلزماً للرد على رسول الله ﷺ فيكون معصية ولكونه من باب الآحاد فلا يكون كفراً.

* * *

الفصل السادس:
من الدعاء المحرم الذي ليس بكفر

هو أن يطلب الداعي من الله تعالى ثبوت أمر دل السمع بطريق الآحاد على نفيه، وله أمثلة:

[**المثال الأول**]: أن يقول: اللَّهمَّ اجعلني أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة لأستريح من غمها ووحشتها مدة من الزمن قبل غيري، وقد ورد في الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة**»[3]، فيكون هذا الدعاء ردًّا على النبوة فيكون معصية.

[**المثال الثاني**]: أن يقول: اللَّهمَّ اجعلني أول داخل الجنة، وقد ورد

---

(1) جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**العبد إذا وقع في قبره وولى ذهب عنه أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم**»/ فتح الباري: 3/205.

(2) قال عليه الصلاة والسلام ذلك في حديث أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري (ت نيف وخمسين) بعد ندائه لقتلى المشركين وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**».
قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقيمة وحسرة وندماً/ فتح الباري: 7/301.

(3) أخرجه الحاكم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما/ المستدرك: رقم: 4429، الحاسوب: الدرر السنية.

في الصحيح أن رسول الله ﷺ أول داخل الجنة[1] فيكون هذا الدعاء مضاداً لخبر النبوة فيكون معصية.

[المثال الثالث]: أن يقول: اللَّهمَّ اجعل الأغنياء يدخلون الجنة قبل الفقراء لكونه من الأغنياء.

وقد ورد في الصحيح: **«أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»**[2]، فيكون الدعاء [(6ب)] مضاداً لخبر النبوة فيكون معصية ولا يكون كفراً، لأن الحديث من أخبار الآحاد.

* * *

---

(1) ولفظ الحديث عند الترمذي عن عبدالله بن عباس ﷺ: «.... **وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح له، فأدخلها ومعي فقراء المسلمين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين**»/ المغني عن حمل الأسفار بهامش الإحياء: 528/4.

(2) لفظ الحديث كما جاء في الترمذي عن أبي هريرة ﷺ: **«يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام»**/ المغني عن حمل الأسفار: 193/4، شرح النووي على مسلم: 52/17، 53.

وجاء معنى هذا الحديث عن أسامة بن زيد بن حارثة ﷺ (ت54هـ/655م) عند مسلم يقول: قال محمد ﷺ: **«قمت على باب الجنة، فإذا عامة من دخلها من المساكين وإذا أصحاب الجد محبــون إلا أصحاب النار فقد أمر بهم إلى النار...»**/ مسلم 52/17، 53.

فظاهر هذين الحديثين الشريفين تفضيل الفقراء على الأغنياء أو تفضيل الفقر على الغنى.

في هذه المسألة اختلفت أنظار العلماء، فمنهم من فضل الفقر على الغني ومنهم من قال بالعكس ومنهم من قال بالكفاف ولكل أدلته.

فمن أدلة من فضل الفقر على الغنى حديث مسلم السالف.

ومن أدلة من فضل الغنى على الفقر حديث سعد بن أبي وقاص السهمي القرشي ﷺ (ت65هـ/666م) عن الرسول ﷺ قال: **«إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم»**/ البخاري: 363/5.

وقال الداودي الفقيه المالكي الجزائري: إن السؤال عن أيهما أفضل لا يستقيم لاحتمال أن يكون لأحدهما من العمل الصالح ما ليس للآخر فيكون أفضل، ولكن الفضل كله في الكفاف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ=

الفصل السابع:
من الدعاء المحرم الذي ليس بكفر

وهو الدعاء المعلق على مشيئة الله تعالى فلا يجوز أن يقول: اللَّهمَّ اغفر لي إن شئت، ولا اللَّهمَّ اغفر لي إلا أن تشاء، ولا اللَّهمَّ اغفر لي إلا أن تكون قد قدرت ذلك وما أشبه هذا من النظائر لما ورد في الصحيح: **«لا يقل أحدكم: اللَّهمَّ اغفر لي إن شئت وليعزم المسألة»**[1].

وسرّه: أن هذا الدعاء عري عن إظهار الحاجة إلى الله تعالى، ومشعر بغناء العبد عن الرب ودعاء بتحصيل الحاصل وهو محال، فإن ما شاء الله لا بد من وقوعه، وكل ذلك مناقض لقواعد الشريعة والأدب مع الله.

وهذا الحديث يدل على أن الواقع بغير دعاء لا يجوز أن يطلبه بالدعاء لأجل أن الحديث دل على طلب المغفرة على تقدير كونها مقدرة وإذا قدرت فهي واقعة جزماً[2].

* * *

= ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ [الإسراء: 29].

ولما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال: **«اللَّهمَّ اجعل رزق آل محمداً قوتاً»** وفي رواية القعقاع ابن اللجلاج: **«كفافا»**/ مسلم: 105/18.

والكفاف هو الكفاية بلا زيادة ولا نقصان وهي الحالة السليمة من الغنى المطغي والفقر المؤلم/ فتح الباري: 274/11، 275.

(1) أخرجه مالك في الموطأ والبخاري ومسلم والموطأ بهامش المنتقى: 356/1، والبخاري في صحيحه: 139/11، ومسلم في صحيحه: 76/18.

ولفظ الحديث عند البخاري: **«لا يقولن أحدكم: اللَّهمَّ اغفر لي إن شئت، اللَّهمَّ ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإنه لا مستكره له»**.

(2) وقوله ﷺ: **«ليعزم المسألة»**: أن الأمر بالعزم الجد فيه، أي: يجزم الداعي ويعتقد وقوع مطلبه ولا يعلق ذلك على مشيئة الله وإن كان العبد مأموراً في جميع ما يريد فعله أن يعلقه بمشيئة الله تعالى.

وقيل: معنى العزم أن يحسن الظن بالله في الإجابة.

الفصل الثامن:
من الدعاء المحرم الذي ليس بكفر

وهو الدعاء المعلق بشأن الله تعالى وله أمثلة:

[المثال الأول]: أن يقول: اللَّهمَّ افعل بي ما أنت له أهل في الدنيا والآخرة، وهو دعاء يعتقد جماعة من العقلاء أنه حسن وهو قبيح وبيانه:

[أن الله تعالى كما هو أهل للمغفرة في الذنوب هو أهل للمؤاخذة عليها، ونسبة الأمرين إلى جلاله تعالى نسبة واحدة.

وكذلك تعلق قدرته وقضائه بالخيور كنسبة تعلقها بالمكاره والشرور، وليس أحدهما أوفى بشأنه من الآخر عند أهل الحق، وأن له أن يفعل الأصلح لعباده، وأن لا يفعله ونسبة الأمرين إليه تعالى نسبة واحدة، وكل ذلك شأن الله تعالى في ملكه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

والخلائق كلهم دائرون بين عدله وفضله: فمن هلك منهم فبعدله، ومن نجا فبفضله.

= وقوله ﷺ: «فإنه لا مستكره له» وفي رواية مسلم: «فإن الله صانع ما شاء لا مكره له»، والمراد بذلك أن الذي يحتاج إلى تعليق الفعل بالمشيئة إذا كان المطلوب يتوجه إليه الإكراه والله ﷻ منزه عن ذلك، ولذلك فليس في التعليق فائدة وهو معنى: «فإنه لا مستكره له».

أما النهي في الحديث عن التعليق بالمشيئة فقال أبو عمرو يوسف بن عمر بن عبدالبر النمري (ت463هـ/1052م): ظاهره التحريم، فإنه لا يجوز لأحد أن يقول: اللَّهمَّ أعطني إن شئت وغير ذلك من أمور الدين والدنيا، لأنه تعالى لا يفعل إلا ما يشاء.

وحمل النووي النهي في ذلك على كراهة التنزيه، وقال أحمد بن حجر: وهو أولى/ فتح الباري 140/11، وشرح النووي لمسلم: 6/18، 7.

وكراهة التنزيه هي أحد أقسام المكروه شرعاً وهي ما أعلمنا الشارع بأن ترك الفعل المنهي عنه أفضل من الإتيان به كالصلاة في الأماكن المنهي عنها/ الإحكام للآمدي: 174/1.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 23.

وعدله وفضله من شأنه ونسبتهما إليه تعالى نسبة واحدة لا يزيده الإحسان جلالاً وعظمة ولا ينقصه العدل من جلاله وعظمته، بل الأمران مستويان بالنسبة إليه وكلاهما شأنه.

فمن دعا بشيء من ذلك وقال: اللَّهمَّ افعل بي ما أنت أهله فقد سأل من الله تعالى أن يفعل به إما الخير وإما الشر وأن يغفر له أو يؤاخذه، وهذا معنى قوله ﷺ: **«لا يقل أحدكم: اللَّهمَّ اغفر لي إن شئت»** فيكون في الدعاء على هذا التقدير إظهار الاستغناء وعدم الافتقار فيكون معصية إلا أن ينوي الداعي ما أنت أهله من الخير الجزيل، ولا يقتصر في نيته على مطلق الخير، فإن رسول الله ﷺ يقول: **«إذا سألتم الله فأعظموا المسألة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»**[1] **«وإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى، فإنه سر الجنة»**[2].

فإن عريت نفس الداعي عن نية تعظيم المسألة من القصد إلى الخير في الجملة فقد ذهب التحريم وإن عريت عنه النية وأطلق اللفظ كان معصية[3].

وهذا الدعاء إنما يستقيم على مذهب المعتزلة الذين يعتقدون أن الله تعالى يجب عليه رعاية المصالح وأنه أهل للخير فقط، ولا ينسب إلى شأنه

---

(1) صحيح مسلم: 6/17.

(2) الجزء الثاني من الحديث: «وإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى. . . .» رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن العرباض بن سارية السلمي (ت بعد 70هـ)/ الجامع الصغير: 1/27.

(3) قال ابن الشاط معلقاً على قول القرافي: وإن عريت النية عنه وأطلق اللفظ كان معصية قال: في مثل هذا الدعاء نظر، فإنه لا يخلو أن يكون الداعي ممن يعتقد مذهب الاعتزال وهو أن العبد خالق لأفعال نفسه أو لا؟

فإن كان الأول فذلك ـ ضلال ـ كما قال وهو مختلف فيه هل هو كفر أو ضلال غير كفر، وإن كان لا يعتقد مذهب الاعتزال فقرينه الحال في كون الإنسان لا يريد لنفسه إلا الخير مع سلامته من اعتقاد الاعتزال فهذه القرينة تقيد مطلق دعائه فلا كفر ولا معصية/ الإدرار: 4/288.

إلا ذلك فهذا هو شأنه عندهم[1].

ومذهب الاعتزال [(7أ)] إما كفر أو فسوق بالإجماع من أهل السُّنَّة فلا خير في هذا الدعاء على كل تقدير.

[المثال الثاني]: أن يقول: اللَّهمَّ افعل بي في الدنيا والآخرة ما يليق بعظمتك.

واللائق بعظمته وجلاله وكبريائه وذاته وربوبيته وكل ما يأتي من هذا الباب واحد هو الفصل والعدل وهما على حد سواء، ليس أحدهما أولى من الآخر بالنسبة إلى عظمته فيكون جميع ذلك محرماً لما مر.

[المثال الثالث]: أن يقول: اللَّهمَّ هبني بما يليق بقضائك وقدرك واللائق بقضائه وقدره الكثير والحقير والخير والشر، ومحمود العاقبة وغير محمودها فيكون ذلك حراماً لما تقدم.



الفصل التاسع:
من الدعاء المحرم

وهو الدعاء المرتب على استئناف المشيئة وله أمثلة:

[الأول]: أن يقول: اللَّهمَّ قدر لي الخير، والدعاء بوضعه اللغوي إنما يتناول المستقبل دون الماضي والحاضر، فيكون مقتضى هذا الطلب أن يقع من الله تعالى تقدير في مستقبل الزمان والله ﷻ يستحيل عليه استئناف التقدير، وإيقاعه في مستقبل الزمان بل فرغ سبحانه من كل شيء في

(1) القاضي أبو بكر الباقلاني وآراؤه الكلامية: 296 وما بعدها، والنظم الإسلامية: 162، 163.

الأزل[1].

ومقتضى هذا الدعاء هو مذهب من لا يرى أن لا قدر[2]، وأن الأمر أنف[3]، كما أخرجه مسلم[4]

---

(1) قوله: فرغ سبحانه من كل شيء في الأزل، مأخوذ من الأحاديث التي أخرجها مسلم ومنها:

ذكر حجاج آدم وموسى ﷺ، فقد روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«تحاجّ آدم وموسى فحاجّ آدم موسى فقال له: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة فقال له آدم: أنت الّذي اصطفاه برسالته وكلامه ثم تلومني على أمر قدّر عليّ قبل أن أخلق فحاجّ آدم موسى»**/ صحيح مسلم: 16/201.

وورد هذا المعنى - كذلك - في حديث عبدالله بن عمرو ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء»**/ مسلم: 16/203.

(2) هؤلاء هم القدرية، ومذهبهم مخالف لأهل الحق، لأن مذهب أهل السُّنَّة والجماعة إثبات القدر، ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدّر الأشياء في القدم، وعلم ﷻ أنها ستقع في أوقات معلومة عنده ﷻ وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدّرها ﷻ.

وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه ﷻ لم يقدرها ولم يتقدم علمه ﷻ بها، وأنه يعلمها بعد وقوعها وهو كذب على الله تعالى وجل عن أقوالهم الباطلة وتعالى علواً كبيراً.

وقد سميت هذه الفرقة القدرية لإنكارهم القدر وقد قال العلماء المحققون: إن القائلين بهذا القول الباطل الشنيع قد انقرضوا ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر ولكن يقولون: الخير من الله والشر من غيره، تعالى الله عن مقولتهم علواً كبيراً/ النووي على شرح مسلم: 1/154.

(3) أنف، أي: مستأنف، لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى وإنما يعلمه بعد وقوعه كما هو مقرر في مذهب غلاة القدرية الباطل/ المصدر السابق: 156.

(4) ولفظ الحديث كما جاء في صحيح مسلم: (... عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني فانطلقت أنا وحميد بن عبدالرحمٰن الحميري حاجّين، أو معتمرين، فقلنا: لو لقين أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبدالله بن عمر بن الخطاب ﷺ داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل=

عن الخوارج[1]، وهو فسوق بالإجماع.

[المثال الثاني]: أن يقول: اللَّهمَّ اقض لنا الخير، وقدر وقضى معناهما واحد في العرف[2] فيحرم.

= الكلام إليّ فقلت: أبا عبدالرحمٰن إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرؤون القرآن، ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون، لا قدر وأن الأمر أنف.

قال: فإذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منهم حتى يؤمن بالقدر»/ النووي عن مسلم: 1/150 ـ 156.

وكل من يحيى بن يعمر البصري وحميد بن عبدالرحمٰن الحميري من التابعين ومعبد بن خالد الجهني قتله الحجاج: ويتقفرون: يتبعون/ المصدر السابق.

(1) الخوارج: وهو خطأ لأن مساق الحديث في القدرية، لا الخوارج الذين هم فرقة إسلامية خرج رجالها على سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، لأنه رضي بمبدأ التحكيم إثر معركة صفين سنة (37هـ/639م) خرجوا منادين: لا حكم إلا لله، فكفروا علياً وعملوا على قتله على يدي ابن ملجم ألجمه الله بلجام من نار سنة (40هـ/641م).

كما كفر الخوارج من بعده سائر الخلفاء مخالفين أهل السُّنَّة والشيعة في المبادىء التي تتعلق بالخلافة والإيمان، وقد حاربتهم جميع السلط الحاكمة وتفرقوا فرقاً كثيرة أوصلها بعضهم إلى عشرين.

ومن آرائهم: تكفير مرتكب الكبيرة، والقول بخلوده في النار.

ولكن من أفضل آرائهم: أن الخليفة لا ينصّب إماماً إلا بانتخاب صحيح حر يقوم به عامة المسلمين.

المذاهب الإسلامية لأبي زهرة: 97 ـ 105، وصبحي الصالح النظم الإسلامية: 130 ـ 133، والإصابة: 2/507 ـ 510.

(2) قوله: قضى وقدر في العرف بمعنى واحد، هل هو العرف الشائع بين العلماء أو بين العوام؟

تعرض الخطابي أبو سليمان حميد بن محمد البستي إمام الفقه والحديث (ت338هـ/930م) إلى هذه المسألة ونقلها عنه النووي في شرحه لصحيح مسلم فقال الخطابي: «وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله ﷻ العبد، وقهره على ما قدر وقضاه، وليس الأمر كذلك كما يتوهمونه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله ﷻ بما يكون من اكتساب العبد من الأفعال وصدورها عن تقدير منه، وخلقٍ لها خيرها وشرها». =

فإن قلت: قد ورد الدعاء بلفظ القدر في حديث الاستخارة[1] فقال: «**واقدر لي الخير حيث كان[2] ثم رضني به**»[3]؟

قلت: يتعين أن يعتقد: أن التقدير هاهنا أريد به التسيير لا على سبيل المجاز[4]، وأنت أيضاً إذا أردت هذا المجاز جاز، وإنما يحرم الإطلاق عند عدم النية.

[المثال الثالث]: أن يقول: اللَّهمَّ اجعل سعادتنا مقدرة في علمك، والذي يتقدر في العلم هو الذي تعلقت به الإرادة القديمة، فكما يستحيل استئناف تعلق الإرادة به، يستحيل استئناف تعلق العلم، فيستحيل استئناف

= قال: والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر، يقال: قدرت الشيء وقدرته بالتخفيف والتثقيل بمعنى واحد، والقضاء في هذا: معناه الخلق كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 12] ـ أي: خلقهن/ شرح صحيح مسلم: 1/154، 155.

ويتضح مما ذكر الخطابي أن الدعاء المتقدم ممنوع في أي عرف من العرفين: عرف العوام أو العلماء.

(1) الاستخارة: هي استفعال من الخير، أو من الخيرة بكسر أوله وفتح ثانيه اسم من قولك: خار الله لي أو استخار الله، طلب منه خير الأمرين لمن احتاج إلى أحدهما/ فتح الباري: 11/183.

ولفظ الحديث عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: «كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن فيقول: **إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم يقول: اللَّهمَّ إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللَّهمَّ إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فأقدره لي وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني واصرفني عنه، وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به ويسمي حاجته**»/ البخاري: 11/183.

(2) اجعله لي مقدوراً أو قدره، وقيل: معناه: يسره لي والتقدير بمعنى التسير.

(3) ثم رضني به، أي: اجعلني به راضياً، والرضا هو سكون النفس إلى القضاء واطمئنانها بكل ما صدر عن خالقها ﷻ/ فتح الباري 11/186، 187.

(4) التسير لا على سبيل المجاز: التقدير/ المصدر السابق.

تعلق العلم بالسعادة فيكون محرماً لما مر[1].



الفصل العاشر:
من الدعاء المحرم

الدعاء بالألفاظ العجمية التي لا يعلم معناها لجواز اشتمالها على ما ينافي جلال الربوبية.

فمنع العلماء من ذلك وبعضها يقرب من التحريم وبعضها من الكراهة بحسب حال مستعملها من العجم.

فمن غلب على عادته الضلال والفساد حرم استعمال لفظه حتى يعلم خلوصه من الفساد، ومن لا يكون كذلك فالكراهة سداً للذريعة[2]، ويدل على تحريمه قوله تعالى [(7ب)] لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾[3].

---

(1) يكون هذا الدعاء محرماً، لأن تقدير السعادة في علم الله تمَّ في الأزل واعتقاد استئناف ذلك التقدير كفر وضلال.

(2) الذريعة: هي الوسيلة إلى الوصول إلى شيء ما.

وشرعاً: هي الطرق المفضية إلى المقاصد وسد الذرائع معناه: منع الوسائل المؤدية إلى الفساد، مثل حفر الآبار في طرق المسلمين، فإنه وسيلة إلى إهلاكهم، ومثل سب الأصنام عند من يعلم من حاله أنه يسب الله تعالى عند سبها.

وهذه الذرائع التي يجب سدها هي المؤدية إلى الحرام أو إلى الكراهة، كما بين القرافي بالنسبة للألفاظ العجمية التي لا يعلم معناها، أو المعلومة المعنى، دفعاً لكل ما يخل بجلال الربوبية.

أما الذرائع المؤدية إلى غير ذلك، فلا يجب سدها مثل المؤدية إلى الواجبات أو المندوبات، أو المباحات، لأن كل وسيلة تعطى حكم المقصد، فوسيلة الواجب مثلاً واجبة كالسعي إلى الجمعة والحج/ الفروق: 2/32، 33، و3/266.

(3) سورة هود، الآية: 46.

وقول نوح عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾[1] معناه: أن أسألك ما ليس لي بجوازه علم، فدل ذلك على أن العلم بالجواز شرط في جواز السؤال، فما لا يعلم جوازه لا يجوز سؤاله، وأكد الله تعالى ذلك بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

واللفظ العجمي غير معلوم الجواز فيكون السؤال به غير جائز ولذلك منع مالك من الرقى[2] به[3].

* * *

الفصل الحادي عشر:
من الدعاء المحرم

الدعاء على غير الظالم، لأنه سعي في إضرار غير مستحق فيكون حراماً كسائر المضار بغير استحقاق.

فإن قيل: الله ﷻ عالم بأحوال العباد جملة وتفصيلاً فلا يجيب دعاء من دعا لعلمه تعالى بأنه إضرار غير مستحق، وهو ﷻ لا يظلم أحداً فلا يكون هذا الدعاء سعياً للإضرار ولا وسيلة له؟

قلنا: لا نسلم أنه لا يؤثر، وأما علمه وعدله سبحانه فمسلّم لكن المدعو عليه لا يخلو غالباً من ذنوب اقترفها في الجملة فيستجيب الله دعاء هذا الداعي ويجعله سبباً للانتقام من المدعو عليه بذنوبه السالفة.

كما ينفذ فيه سهم العدو والكافر وسيف القاتل له ظلماً، إما مؤاخذة

---

(1) سورة هود، الآية: 47

(2) الرقى: بضم الراء جمع رقية بسكون القاف، يقال: رقى بالفتح في الماضي يرقي بالكسر في المستقبل، ورقيت فلاناً بكسر القاف، أرقيه، واسترقى طلب الرقية، أي: التعويذة/ فتح الباري: 10/195.

(3) المنتقى: 7/258، وفتح الباري: 10/ 211.

له بذنوبه، أو رفعاً لدرجاته مع أن صاحب السيف والسهم ظالم، فكذلك صاحب الدعاء ظالم بدعائه، وينفذ الله دعاءه كسيفه ورمحه.

[وكذلك يسلط الله على المؤمن السباع والهوام، وإن لم يصدر منه في حقها ما يوجب ذلك.

[ويعاقب هذا الداعي أيضاً على دعائه بغير حق، والكل عدل من الله تعالى، بل لو جوزنا خلو هذا المدعو عليه من الذنوب مطلقاً، وطهارته من جميع العيوب المجوز استجابة هذا الدعاء ليجعله الله سبباً لرفع الدرجات وإظهار صبر العبد، ورضاه فيحصل له الجزيل من الثواب][1].

وأما الدعاء على الظالم قد قال مالك وجماعة من العلماء بجوازه [والمستند في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾[2][3].

لكن الأحسن الصبر والعفو [لقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[4]، أي: معزومها ومطلوبها عند الله][5].

اللَّهمَّ إلا أن يكون الظالم مستمراً على ظلمه، ويغلب على الظن أنه

---

(1) زيادة من: وكذلك سلط.... إلى: ثواب/ الفروق: 292/4.

(2) سورة الشورى، الآية: 41.

(3) منع ابن الشاط الاستدلال بهذه الآية على جواز الدعاء على الظالم، ورأى أن الآية دليل على جواز الانتصار الذي هو الانتصاف وأخذ الحق من الظالم على درجة لا تكون زائدة على قدر الظلم الواقع، وجواز الانتصاف منه، فهذا قد يكون مسوغاً لدلالة الآية على الدعاء عليه ضمناً لا تصريحاً.
وأما الدعاء بغير ذلك فلا دلالة للآية عليه لا ضمناً ولا تصريحاً/ الإدرار: 293/4.
وقد جاء انتصار المظلوم من الظالم بالدعاء عليه في حديث عائشة رضي الله عنها عن الترمذي عن النبي ﷺ قال: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر»/ الجامع الصغير: 171/2، وتفسير ابن كثير: 119/4 وهو حديث ضعيف.

(4) سورة الشورى، الآية: 43.

(5) زيادة من: والمستند... إلى: بالكفر.

إذا دعي عليه ارتدع، فإن الدعاء مأمور به حسن، وقد ينتهي إلى حد الوجوب، إن انحصرت أسباب إزالة ظلمه في الدعاء عليه، ليكون السبب إلى إزالة المنكر واجباً.

ولو أحسن الداعي فدعا للظالم بالإصلاح والخروج عن الظلم، فقد أحسن إلى نفسه، بمثوبة العفو، وتحصيل مكارم الأخلاق، وإلى الجاني بالتسبب إلى إصلاح صفاته وإلى الناس بالتسبب إلى كفايتهم شره.

[فهذه ثلاثة أنواع من الإحسان لا ينبغي أن تفوت اللبيب لا سيما وقد روي: (أن الإنسان إذا دعا بمكروه على غيره[1] تقول الملائكة له: ولك مثله، وإذا دعا بخير لأحد تقول الملائكة: ولك مثله)[2].

[«تنبيه»: من الظلمة من إذا علم بالمسامحة والعفو زاد طغيانه، ولا يردعه إلا إظهار الدعاء عليه، فليكن العفو بينك وبين الله تعالى، ولا تظهر له ذلك، بل أظهر له ما فيه صلاحه واستصلاحه.

ومن يجود إذا جدت عليه كان سمة خير فينبغي إظهار ذلك له.

وحيث قلنا بجواز الدعاء على الظالم فلا تدعو عليه بملابسة معصية من معاصي الله تعالى، ولا بكفر].

---

(1) إذا دعا بمكروه على غيره: هذه زيادة على حديث مسلم الذي سيذكر بعد، وبسبب هذه الزيادة لا يصح الاستدلال بالحديث على المعنى المقصود،ولذلك عقب ابن الشاط على الحديث فقال: إن كان أراد القرافي حمله على إطلاقه في الدعاء بالمكروه، وكذلك في الدعاء بالمحبوب، فلا أرى ذلك صحيحاً بل إن دعا على ظالم بأن يصاب بمثل ما أصاب به فلا يقول الملك: ولك مثله، وإنما يقول الملك ذلك إذا دعا على بريء أو جان بأزيد في جنايته في جانب المكروه، وأما الدعاء في جانب المحبوب فلا أراه إلى على إطلاقه/ الإدرار: 293/4.

(2) حديث مسلم عن أبي الدرداء وأم الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك كلما دعا لأخيه قال الملك: آمين ولك بمثل**»/ صحيح مسلم: 49/17، 50.

[فإن إرادة المعصية، معصية وإرادة الكفر كفر، بل تدعو عليه بأنكاد الدنيا، ولا تدعو عليه بمؤلمة لم تقتضها جنايته عليك، بأن يجني عليك جناية فتدعو عليه بأعظم منها فهذا حرام عليك، لأنك جان بالمقدار الزائد، والله تعالى يقول: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1]، فتأمل هذه الضوابط ولا تخرج عنها.

[فإن قلت: فإن قال: اللَّهمَّ ارزقه سوء الخاتمة، أو غير ذلك من العبارات الدالة على طلب الكفر هل يكون هذا الداعي كافراً أو لا؟ لأن إرادة الكفر كفر، والطالب بها مريد لما طلبه؟

[قلت: الداعي له حالتان: تارة يريد الكفر بالعرض لا بالذات فيقع تابعاً لمقصوده لا أنه مقصوده، فهذا ليس بكافر كما قال عليه السلام: **«وددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا فأقتل ثم أحيا فأقتل»**[2].

فقد طلب رسول الله ﷺ أن يقتل في سبيل الله، وقتل الأنبياء كفر، لكنه عليه السلام مراده ومقصوده: منازل الشهداء، وما عدا ذلك وقع تابعاً لمقصوده، فمثل هذا لا إحراج فيه من هذا الوجه.

[وكذلك ما حكاه الله تعالى عن أحد ابني آدم من قوله: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾[3] مقصوده: إنما هو السلامة من القتل، لا أن يقتل، ويصدر منه معصية القتل، وإن لزم عن ذلك معصية أخيه بمباشرة القتل لا يضره ذلك.

[ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: **«كن عبد الله المقتول، ولا تكن**

---

(1) سورة البقرة، الآية: 194.

(2) ولفظ الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل»**/ فتح الباري: 16/6.

(3) سورة المائدة، الآية: 29.

عبد الله القاتل»[1] فأمره أن يريد أن يقتله عليه، ولا يعزم هو على القتل، فإن المقصود بالذات إنما هو السلامة ووقع غير ذلك تبعاً.

وتارة يريد الكفر بالذات، فهذا كافر إذا كان مقصوده أن يعصي الله بالكفر ليس إلا، كذلك هذا الداعي إذا كان مقصوده أن يعصي هذا المدعو عليه ربه، لا أن يكفر بالله، ويقع الكفر تبعاً لمقصوده فهذا ليس بكافر.

[نعم قد لا يكون المدعو عليه جنى جناية عليه يستحق أن يقابل عليها بهذا الدعاء العظيم فيكون عاصياً بجنايته على المدعو عليه لا كافراً.

فهذا تفصيل حال هذا الدعاء، وقد غلط جماعة فأفتوا بالتكفير مطلقاً وليس كذلك][2].

* * *

الفصل الثاني عشر:
من الدعاء المحرم

وهو ما استفاد التحريم من متعلقه وهو المدعو به لكونه طلباً لوقوع المحرمات في الوجود.

أما الداعي فكقوله: اللَّهمَّ أمته كافراً، أو اسقه خمراً، أو أعنه على المكس [(8أ)] الفلاني أو وطء الأجنبية الفلانية، أو يسّر له الولاية الفلانية، وهي مشتملة على معصية، أو يطلب ذلك لغيره.

أما لعدوه فكقوله: اللَّهمَّ لا تمت فلاناً على الإسلام، اللَّهمَّ سلط عليه من يقتله أو يأخذ ماله.

---

(1) الحديث أخرجه السخاوي في المقاصد الحسنة عن حذيفة بن اليمان ﷺ (ت36هـ/638م)/ المقاصد رقم: 388.

(2) زيادة من: فإن أراد المعصية.... إلى: كذلك/ الفروق: 4/294 ـ 296.

وإما لصديقه فيقول: اللّهمَّ يسر له الولاية الفلانية، أو السفر الفلاني، أو صحبة الوزير فلان، أو الملك فلان، ولا يكون جميع ذلك مشتملاً على معصية من معاصي الله تعالى فجميع ذلك محرم تحريم الوسائل ومنزلته من التحريم منزلة متعلقه.

فالدعاء بتحصيل أعظم المحرمات أقبح الدعاء، ويروى «من دعا لفاسق بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله تعالى»[1]، ومعصية الله تعالى محرمة، فقد دل ذلك على أن الدعاء بالمحرم محرم.

فهذه كلها أدعية محرمة، إما كبيرة، أو صغيرة إن تكررت صارت كبيرة وفسقاً.

[والعاقل الحريص على دينه أول ما يسعى في تحصيل السلامة والخلوص من المهالك وحينئذٍ يطلب الإرباح.

فهذا ما حضرني من الأدعية المنهي عنها المحرمة، وما عداها ليس بمحرم عملاً بالاستقراء.

وهذا الفرق وهذه الأقسام قل أن توجد في الكتب. بل كلمات يسيرة توجد في بعضها مشيرة إليها، أما التصريح بها على هذا الوجه فقليل أو معدوم، فتأمله، والحق ما تجده بنظيره، فينضبط لك المباح من غيره][2].



(1) لفظ الحديث عند البيهقي في «شعب الإيمان»: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله في أرضه»/ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق - بهامش الجامع الصغير: 2/105.

(2) زيادة من: والعاقل. . . إلى: غيره/ الفروق: 4/297.

القسم الثاني من الدعاء: وهو الواجب

ومنه الدعاء الذي اشتملت عليه الفاتحة[1]، وهو دعاء

---

(1) الدعاء قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتحة: 6]: ألهمنا وأرشدنا وارزقنا وأعطنا ووفقنا إلى السير والعمل في الطريق الواضح البين الذي لا اعوجاج فيه.

وقد فسر العلماء الصراط المستقيم في الآية بعدة تفسيرات منها: كتاب الله ـ الإسلام ـ دين الله ـ الحق ـ النبي ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر ﵄/ التفسير الكبير: 1/ 131، 132، تفسير ابن كثير: 1/ 27.

قال ابن كثير: وهذه الأقوال جميعها صحيحة متلازمة، فإن من اتبع النبي ﷺ واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر ﵄ فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم/ تفسير ابن كثير: 1/ 28.

وقد تساءل فخر الدين الرازي وابن كثير عن المؤمن كيف يسأل الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك، فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟/ التفسير الكبير: 1/ 131، ابن كثير: 1/ 28.

ولما كانت إجابة الرازي مطولة لا يتسع المقام لذكرها فسنورد إجابة ابن كثير عن ذلك فقال: «ليس ذلك من باب تحصيل الحاصل، لأن المؤمن لولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها، وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فأرشده الله تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالعون والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله، فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعا ولا سيما المضطر المحتاج إليه آناء الليل، وأطراف النهار» تفسير ابن كثير: 1/ 28.

جليل[1] أمرنا به ربنا في اليوم والليلة تسع عشرة مرة، إذ لا تصح الصلاة إلا بالفاتحة[2].

ومنه الدعاء للنبي ﷺ وهو الذي يسميه العلماء الصلاة على النبي ﷺ[3] مرة في العمر على كل مكلف[4]، واختلفوا هل تجب في

---

(1) عظمة هذا الدعاء وقدسيته ظهرت في كونه أفضل دعاء يدعو به الداعي، لأن كلام هذا الدعاء تكلم به رب العالمين، فالمؤمن يدعو بدعاء هو كلامه تعالى/ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 147.

(2) قال الجمهور غير الحنفية: إن ركن القراءة الواجبة في الصلاة هو الفاتحة لعدة أدلة، منها:

ما رواه مالك في الموطأ عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن، فهي خداج، هي خداج، هي خداج غير تام»/ المنتقى 1/156، الشرح الصغير: 1/309، منهج الطلاب: 1/ 381، العدة: 79.

وقال الحنفية: قراءة الفاتحة في الصلاة واجبة وليست فرضاً والواجب عندهم ما يقابل السنة، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [المزمل: 20].

وهو أمر بمطلق القراءة في الصلاة من غير تعيين، ولذلك فتعيين الفاتحة بعينها نسخ لإطلاق القرآن الكريم الذي لم يأت فيه التعيين، ونسخ القرآن الكريم بخبر الآحاد غير جائز، واعتماداً على ذلك فلا وجوب لقراءة الفاتحة بعينها/ البدائع: 1/160.

(3) الأمر بالصلاة على نبينا محمد ﷺ دل عليه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: 56].

والصلاة لغةً: الدعاء، وشرعاً: العبادة المخصوصة: الصلوات الخمس، والنوافل والسنن.

وصلاة الله على النبي ﷺ: رحمته له ورضوانه عنه، وصلاة الملائكة عليه استغفارهم له، وصلاة الأمة عليه تشريف له، وتعظيم لأمره/ الجامع لأحكام القرآن: 14/232.

(4) الصلاة على النبي ﷺ الواجبة مرة في العمر على كل مكلف: حمل الأئمة من السلف والعلماء من أهل التفسير أن الأمر في قوله تعالى في الآية: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ على الوجوب لعدم وجود قرينة تصرفه عن ذلك وتعيين محل الصلاة أو زمانها «كما ذهب إلى ذلك الجمهور، لأنه الأصل في الأمر وحقيقته، وهذا الوجوب يكون مرة في العمر بإجماع العلماء خلافاً لأبي جعفر الطبري» (ت310هـ/903م) دفعاً للحرج والتضييق على الناس لو وجبت الصلاة عليه دائماً أو كلما ذكر. =

الصلاة أم لا[1].

ومنه: الدعاء للميت في صلاة الجنازة[2].

= ولهذا يسقط إثم عدم الصلاة عليه بفعلها مرة واحدة، مثل الشهادة له بالنبوة، فإنها واجبة مرة واحدة عند النطق بها، وما عدا هذه المرة في الصلاة والشهادة فمندوب مرغب فيه/ نسيم الرياض: 3/245، والجامع لأحكام القرآن: 14/233.

أما كيفية الصلاة على النبي ﷺ فتكون كما رواها مالك في الموطأ عن أبي مسعود عقبة بن عامر الأنصاري أنه قال: (أتانا رسول الله ﷺ في مجلس سعد بن عبادة الأنصاري، فقال له بشير بن سعد الأنصاري: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك؟

قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال: «**قولوا: اللَّهمَّ صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم**»)/ المنتقى: 1/295.

(1) قال المالكية والحنفية بسنية الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير من كل صلاة، وقال الشافعية والحنابلة بوجوب الصلاة الإبراهيمية في التشهد الأخير.

ودليل المالكية والحنفية على السنية أن الأوامر المذكورة في الأحاديث تعلم كيفية الصلاة على النبي ﷺ وهي لا تفيد الوجوب، بينما استدل الشافعية والحنابلة على وجوب الصلاة الإبراهيمية في التشهد الأخير بحديث كعب بن عجرة الأنصاري أن النبي ﷺ خرج علينا فقلنا: يا رسول الله قد علمنا الله كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟

فقال: «**قولوا: اللَّهمَّ صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 4/126، 127، الشرح الصغير: 1/219، البدائع: 1/145، العدة: 79، المنهج: 1/381.

(2) الدعاء للميت ركن من أركان صلاة الجنازة بين التكبيرات عند المالكية والشافعية والحنابلة ما عدا الحنفية، واستدل الجمهور على ركنيته بالحديث الذي أخرجه الحاكم عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه وهو قوله ﷺ: «**إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء**»/ نيل الأوطار: 4/115.

وهذا الدعاء يقع بعد كل تكبيرة من الإمام والمأموم، وأقله «اللَّهمَّ اغفر له» أو ارحمه وما في معناه.

ومن الأدعية الواردة في الصلاة على الجنازة ما رواه مالك في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**فإذا وضعتُ كبرتُ وحمدتُ الله وصليتُ على نبيه، ثم أقول:** =

ومنه السلام في آخر الصلاة فإنه دعاء بالسلامة، وينبغي للإمام والمأموم والمنفرد أن يقصد كل بسلامه الدعاء بالسلامة من شر الدنيا والآخرة(1).



= اللَّهمَّ إنه عبدك وابن عبدك وابن أمتك كان يشهد أن لا إلٰه إلا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك وأنت أعلم به، اللَّهمَّ إن كان محسناً فزد في إحسانه وإن كان مسيئاً فتجاوز عن سيئاته، اللَّهمَّ لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده»/ المنتقى: 16/2.

ويقول في المرأة: (اللَّهمَّ إنها أمتك وبنت عبدك وبنت أمتك....) وفي الطفل الذكر: (اللَّهمَّ إنه عبدك وابن عبدك أنت خلقته ورزقته وأنت أمته وأنت تحييه، اللَّهمَّ اجعله لوالديه سلفاً وذخراً وفرطاً وأجراً، وثقل به موازينهما وأعظم به أجرهما ولا تفتنا وإياهما بعده، اللَّهمَّ الحقه بصالح سلف المسلمين في كفالة إبراهيم، وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وعافه من فتنة القبر وعذاب جهنم»/ الشرح الكبير: 1/ 411 ـ 413، بدائع الصنائع: 1/313، 314، العدة: 118، 119، المهذب: 1/ 133 وما بعدها.

(1) السلام: اسم من أسماء الله الحسنى المذكور في قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: 23].

وجاء في تفسيره وجهان؛ الأول: بمعنى السلام، ومنه: دار السلام وهي الجنة وسلام عليكم، والثاني: كونه موجباً للسلامة/ التفسير الكبير: 8/129.

وجاء هذا المعنى في حديث عائشة ﵂ قالت: (كان النبي ﷺ إذا سلم لم يقعد إلا مقدار ما يقول: «اللَّهمَّ أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»/ صحيح مسلم: 5/90.

فالله تعالى هو الذي بيده سلامتنا من كل شرور الدنيا والآخرة، ولهذا يصدق الدعاء بالسلامة بالقصد والنية.

القسم الثالث من الدعاء: المكروه[1]

اعلم أن أصل الدعاء من حيث هو الندب ـ كما تقدم ـ ويعرض له من جهة متعلقه ما يقتضي التحريم، وقد تقدم، وما يقتضي الكراهة، ولذلك أسباب خمسة:

الأول: الأماكن: كالدعاء في الكنائس[2]، والحمامات[3]، ومواضع

---

(1) هذا هو القسم الثالث من أقسام الشريعة الخمسة ذكره القرافي في الفرق الرابع والسبعين والمئتين بين قاعدة ما هو مكروه من الدعاء وقاعدة ما ليس بمكروه/ الفروق: 4/298 ـ 304.
والمكروه هو ما طلب الشارع تركه لا على وجه الإلزام والوجوب، وحكمه عند الجمهور: الثواب على تركه، ولا ذم ولا عقاب ولا لوم على فاعل.
أما الحنفية فالمكروه عندهم قسمان: مكروه تحريماً ومكروه تنزيهاً.
فالمكروه التحريمي: هو ما أمرنا الشارع بتركه وجوباً بدليل ظني وهو خبر الآحاد كتحريم لبس الذهب والحرير على الرجال، وحكمه الثواب على الترك والعقاب على الفعل وهو أقرب إلى الحرام.
أما المكروه التنزيهي: فحكمه لا يختلف عند الجمهور إلا بإضافة اللوم على فاعله/ المستصفى: 1/79 ـ 81، الإحكام: 1/174.

(2) كراهة الدعاء في الكنائس لما يوجد فيها من التماثيل والصخور وقبور الأنبياء التي كان الكفرة يسجدون إليها، واتخذوها أوثاناً مع الله تعالى، ولذلك ورد النهي عن الصلاة فيها في حديث البخاري عن عائشة ﵂ (أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا ذلك للنبي ﷺ فقال: **«إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»**/ صحيح البخاري: 1/524 ـ 531.

(3) دليل كراهة الصلاة في الحمام حديث أبي سعيد الخدري ﵁ أن النبي ﷺ قال: =

النجاسة والقاذورات[1].

ومواضع اللهو واللعب[2]، والمعاصي والمخالفات كالحانات

= «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام»/ نيل الأوطار: 2/135، 136.

وحكمة المنع من الصلاة في المقبرة قيل: هي ما تحت المصلي من النجاسة، وقيل: لحرمة الموتى.

وحكمة المنع من الصلاة في الحمام أنه تكثر فيه النجاسات، وقيل: إنه مأوى الشياطين/ المصدر السابق.

(1) ينزه اسم الله تعالى أن يذكر في مثل هذه الأماكن النجسة و«الدعاء عبادة» كما جاء في حديث الترمذي عن النعمان بن بشير (ت65هـ/666م) ﷺ.

وفي رواية أخرى للترمذي عن أنس ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»/ سنن الترمذي رقم: 2969 رقم: 2371.

ولذلك يجب تنزيه ذكر الله تعالى في هذه الأماكن القذرة بل وحتى حمله لما أخرجه الترمذي وصححه عن أنس ﷺ (كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء نزع خاتمه) وصح أن نقش خاتمه كان محمد رسول الله)/ النيل: 1/89.

(2) مواضع اللهو واللعب وهي كثيرة ومتنوعة لا يجوز فيها الدعاء، ومنها:

أ ـ مجالس الخمر والميسر: فقد أمرنا الله باجتناب هاتين المعصيتين: الخمر لذهابها بالعقل، والقمار بأنواعه سواء كان بعوض من الجانبين أو بغير عوض فلا يخلو من الكراهة لما في ذلك من إضاعة الوقت والانشغال عن ذكر الله وكل عمل مفيد نافع.

ب ـ اللعب بالنرد: لحديث أبي موسى الأشعري عبدالله بن قيس (ت50هـ/651م) ﷺ الذي رواه مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله» وهو عام في النهي عن اللعب به على أي وجه كان قماراً أو غيره/ المنتقى: 7/278.

ومثل هذا اللعب بالشطرنج وغيره قال فيه مالك: إلهاء وشر، لأن ذلك مما يلهي عن ذكر الله تعالى غالباً، ولأنه نوع من الميسر يقصد به المبالغة فيما لا منفعة فيه ديناً ولا دنيا، ويعد مالك اللعب بالشطرنج من الباطل ويتلو هذه الآية: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: 32].

فاللعب به يؤدي إلى القمار، وترك الصلاة واليمين الكاذبة، ولا يعتبر قول من قال: إن الإكثار منها يؤدي إلى ذلك، لأن قليلها يؤدي غالباً إلى كثيرها فيجب سد هذا الباب/ المنتقى: 1/278، 279.

ج ـ مجالس اللهو والغناء والمجون والاستهتار والفسق: تتنافى مع عبادة الله وطاعته.

والمراد بالغناء هو الشائع عند المشتهرين به الذي يحرك النفوس ويبعثها على الهوى، والغزل والمجون الذي يحرك الساكن، ويهيج الكامن، ويستفز الراقصين والراقصات. =

ونحوها، وكذلك الأسواق[1] التي يغلب فيها وقوع العقود الفاسدة، والأيمان الحانثة.

[فجميع ذلك يكره الدعاء فيه من أجل أن القرب إلى الله تعالى ينبغي أن يكون على أحسن الهيئات في أحسن البقاع والأزمان.

= فهذا النوع إذا كان في شعر يتغنى فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن، وذكر الخمور والمحرمات لا يختلف في تحريمه، لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق، والممنوع الذي دلت عليه ثلاث آيات من القرآن الكريم.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: 64] ـ قال مجاهد: الصوت: الغناء والمزامير/ الجامع لأحكام القرآن: 14/ 51.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: 6].

والآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿59﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿60﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿61﴾﴾ [النجم: 59 ـ 61].

قال ابن عباس هو الغناء بالحميرية، اسمدي لنا، أي: غني لنا/ الجامع لأحكام القرآن: 14/ 51.

وقال عبدالرحمٰن بن القاسم: سألت مالكاً عن الغناء؟ فقال: قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: 32]/ المصدر السابق.

د ـ ساحات المسابقات: وهي التي لا تكون طاهرة نقية وتنجم عنها كثير من المفاسد كالقمار والألفاظ البذيئة والكراهية والحقد والحسد والشجار وإراقة الدماء أحياناً بين المتبارين كما هو موجود في عصرنا.

أما إذا كانت المسابقة بغير عوض وتهدف إلى مقصد سليم كالصحة أو غيرها جازت مطلقاً، مثل: المسابقة على الأقدام والخيل والبغال والفيلة والسيارات والفن والطبور/ الشرح الكبير: 2/208، 209، نيل الأوطار: 8/307 وما بعدها، المغني: 8/ 651 وما بعدها، بدائع الصنائع: 6/206.

(1) دليل كراهة الدعاء في مثل هذه الأسواق ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها**»/ صحيح مسلم: 5/ 171.

فهذا الحديث يفيد كراهة الدخول إلى الأسواق لمّا يكثر فيها الباطل، وتظهر المنكرات من مكر وخديعة وتساهل في البيوع الفاسدة، والحلف بالأيمان الكاذبة والكذب/ الجامع لأحكام القرآن: 13/16، 17.

ويدل على ذلك نهيه ﷺ عن الصلاة في المزبلة والمجزرة، وقارعة الطريق[1].

[فإن أعجزه الخلوص من ذلك حصل له الدعاء مع فوات رتبة الدعاء كاملاً كالصلاة في البقاع المكروهة[2]][3].

السبب الثاني للكراهة: الهيئات [(8ب)] كالدعاء مع النعاس[4]، وفرط

---

(1) واللفظ هذا الحديث عن عبدالله بن عمر ﷺ عند ابن ماجه والترمذي أن النبي ﷺ (نهى أن يصلى في سبعة مواطن: في المزبلة والمجزرة والمقبرة وقارعة الطريق وفي الحمام وفي أعطان الإبل وفوق ظهر بيت الله)، نيل الأوطار: 2/142.
والعلة في النهي عن الصلاة في المزبلة والمجزرة فلكونهما محل النجاسة، أما قارعة الطريق فلما فيها من شغل الخاطر المؤدي إلى ذهاب الخشوع الذي هو سر العبادة، وقيل: لأنها مظنة النجاسة، وقيل: لأن الصلاة فيها شغل لحق الغير: المارين/ المصدر السابق.
وأجاز مالك الصلاة في المقبرة والحمام إن أمنت النجاسة، ومنع في أعطان الإبل وهي مباركها عند شربها للماء لإمكانية نفورها المؤدي إلى قطع الصلاة وتشويش الخاطر الملهي عن الخشوع.
أما الصلاة فوق ظهر بيت الله فمنعت لأنه إذا لم تكن للمصلي سترة ثابتة لم تصح صلاته، لأنه مصل على البيت، لا إلى البيت/ شرح الرسالة 1/94، 95، نيل الأوطار: 2/137 ـ 141 وما بعدها.

(2) قاس القرافي الدعاء في البقاع المكروهة على الصلاة في الأراضي المكروهة وأن الداعي حاصل له الدعاء، ودعاؤه صحيح إلا أنه لم يصل إلى درجة الدعاء الكامل من حيث وفرة الثواب ومضاعفة الأجر مثل الصلاة في الأرض المكروهة.
والعلة أن النهي كان عن مجاور للصلاة وليس عن ذات الصلاة ومثل ذلك الدعاء.
وقد سبق الحديث عن المواطن التي ورد النهي عن الصلاة فيها/ شرح الرسالة: 1/94، 95.

(3) زيادة من: فإن أعجزه... إلى: المكروهة/ الفروق: 4/298، 299.

(4) الدعاء عند النعاس: لما يهاجم النعاس الإنسان ويثقل رأسه وترتخي أجفانه، فمن أين للقلب في هذه الحالة أن يكون يقظاً واعياً، خاشعاً لله ضارعاً له، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن استجابة الله للداعي لا تحصل إذا كان قلبه لاهياً مشغولاً عن ربه، فقد أخرج الترمذي عن أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال: «ادعوا الله وأنتم=

الشبع[1]، ومدافعة الأخبثين[2]، وملابسات النجاسات والقاذورات[3] أو

= موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»/ المستدرك رقم: 1817، الحاسوب ـ الدرر السنية.

وقد بيَّن لنا الرسول ﷺ علَّة كراهة العبادة عند النعاس صلاة أو ما يقاس عليها، فقال رواية عن عائشة رضي الله عنها: «إذا نعس أحدكم في الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه»/ صحيح مسلم: 6/75.

(1) فرط الشبع: هذه الهيئة نهانا الله تعالى عنها فقال جل شأنه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

فالآية نهي عن كثرة الأكل ومنه كثرة الشرب؛ لأن ذلك يثقل المعدة ويثبط الإنسان عن خدمة ربه والأخذ بحظه من نوافل الخير كالضراعة إلى ربه بالدعاء وقد يمنعه الشبع الكثير من الجد في ذلك وهو على هذه الهيئة التي ليس فيها عزم على الطلب الذي أمرنا به الرسول ﷺ في حديث البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة»/ صحيح البخاري: 11/139.

والشبع المفرط أخبرنا نبينا ﷺ بأنه شر على البدن فقال في حديث المقداد بن معدي كرب رضي الله عنه (ت87هـ/687م) عند الترمذي في سننه: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة: فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»/ سنن الترمذي رقم: 2980.

(2) مدافعة الأخبثين: الأخبثان: البول والغائط ويلحق بهما الريح، والمدافعة: منع الإنسان بوله أو غائطه أو ريحه من الخروج وهو محصور بذلك.

فهيأته هذه تجعل قلبه منشغلاً بما ينفعل ببدنه غير متفرغ كلياً لذكر الله والضراعة إليه بالدعاء.

وهذا المنع والدفع فيه إضرار بالجسم والقلب، ولذلك كره الدعاء في مثل هذه الحالة، وأيضاً فلعل هذا المنع ينجر عنه انفلات النجاسة فتصيب البدن والثياب ولا يقدر الإنسان على دفعها.

وكراهة الدعاء في هذه الحالات قيست على هيئة منع الصلاة عند مدافعة الأخبثين في حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا صلاة بحضرة الطعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان»/ صحيح مسلم: 5/47.

والجمهور على صحة صلاة الحاقن وهو المحصور بالبول، والحاقب وهو المحصور بالغائط، والخازق وهو المحصور بالريح/ بداية المجتهد: 1/131، وحاشية الجمل: 1/443، 444.

(3) ملابسات النجاسات والقاذورات: ويكون ذلك بالاشتغال بحملها، أو تنظيف=

قضاء حاجة الإنسان[1]، ونحو ذلك من الهيئات.

السبب الثالث للكراهة: كونه وسيلة لتوقع فساد القلوب وحصول الكبر والخيلاء[2].

= أماكنها، أو تكون عالقة بثياب الإنسان أو بدنه، مثل الجنابة فالمجنب والحائض غير طاهرين.

فالعبد وهو ملابس لهذه النجاسة تكون هيئته ملوثة تتنافى مع تقديس الله تعالى وذكره ﷻ دعاء أو غيره، ولذلك منع جمهور العلماء مس المصحف لكل من عليه جنابة لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقعة: 77 ـ 79].

خلافاً لمن شذ، وقال: المطهرون: الملائكة، وقال جمهور العلماء ـ أيضاً ـ: لا تجوز قراءة القرآن للمجنب، لأنه غير متطهر، واستثنى المذهب المالكي الحائض لطول مدة حيضها.

ومنع جمهور علماء المسلمين ـ كذلك ـ دخول المجنب إلى المسجد، واستثنى الشافعية المسافر عابر السبيل/ النووي على شرح مسلم: 68/4، وبداية المجتهد: 30/1 ـ 35.

وبناء على ما تقدم فإن هيئة الملابس للنجاسة لا يكون صاحبها على طهارة، ولذلك يكره الدعاء في هذه الحالة تنزيهاً وتقديساً لله تعالى جل ذكره وتقدس علاه.

(1) قضاء حاجة الإنسان: ومحلها المواضع النجسة كالمراحيض وغيرها، وهي هيئة قبيحة لا تليق بالدعاء، هيئات كشف العورات ونزول النجاسات إضافة إلى المكان النجس، فالمطلوب تنزيه الله عن ذكره في هذه الهيأة المزرية الفظيعة. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(2) الكبر والخيلاء: هما بمعنى واحد: التعالي على الناس والتعاظم عليهم، واحتقارهم واستصغارهم. وهذا التعاظم والخيلاء أسبابه متعددة ومن أسوئها التكبر بالعلم، وعلو المنزلة وادعاء الشرف والعزة وهو المعنى الذي يقصده القرافي والذي ذمه الله تعالى في مواضع عديدة من كتابه العزيز وأخبر بأنه لا يحب المتعالين فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: 23].

وأخرج عبدالله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 89/2.

وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ قالا: قال رسول الله ﷺ: «العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 173/16.

كما كره مالك وجماعة من العلماء رحمهم الله لأئمة المساجد والجماعات الدعاء عقيب الصلوات المكتوبة جهراً للحاضرين[1].

فيجتمع لهذا الإمام: التقدم في الصلاة وشرف كونه نصب نفسه واسطة بين الله تعالى وعباده في تحصيل مصالحهم على يده بالدعاء، ويوشك أن تعظم نفسه فيفسد قلبه ويعصي ربه في هذه الحالة أكثر مما يطيعه.

ويروى أن بعض الأئمة استأذن عمر بن الخطاب ﷺ في أن يدعو لقومه بعد الصلوات بدعوات، فقال: إني أخشى أن تشمخ حتى تصل إلى

---

(1) من آداب الدعاء خفض الصوت وهو أمر من الله تعالى لعباده الداعين فقد قال جل وعلا: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: 95].
هذا أمر بالدعاء وتعبد به ثم قرن جل وعلا هذا الأمر بصفات تحسن معه وهي الخشوع والاستكانة والتضرع والإسرار بالدعاء ليبعد عن الرياء ولذلك أثنى على نبيه زكرياء عليه الصلاة والسلام إذ قال مخبراً عنه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: 3].
وأخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ أمر بسرية الدعاء فقال عليه الصلاة والسلام: **«أيها الناس أربعوا ـ أرفقوا ـ على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً بصيراً»**/ فتح الباري: 11/187.
أما الاعتداء في الدعاء فيكون على وجوه، منها: الجهر الكثير، والصياح الذي يمنع استجابة الدعاء/ الجامع لأحكام القرآن: 7/223 ـ 226.
فالأذكار والأدعية عقب الصلوات تكون سرية إلا إذا كانت لتعليم الحاضرين، فيجهر الإمام بها بعد أن يستقبل الحاضرين، جاعلاً يساره إلى المحراب/ الشرح الصغير: 1/10، والمغني: 1/559 وما بعدها، والمهذب: 1/80، والدر المختار: 1/595.
فرفع الصوت بالدعاء في الصلاة وغيرها مكروه إلا لحاج لما رواه الترمذي عن عبدالله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«أفضل الحج العج والثج»** أخرجه البيهقي في السنن الكبرى عن أبي بكر الصديق ﷺ رقم: 5/43.
أما تربع الإمام بعد الصلاة وجلوسه كثيراً داعياً جهرة والحاضرون يؤمنون فليس من السُّنَّة لما أخرجه مسلم عن عائشة ﷺ قالت: كان النبي ﷺ إذا سلم لم يقعد إلا مقدار ما يقول: **«اللَّهمَّ أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»**/ مسلم: 5/90.

الثريا[1] إشارة إلى ما ذكرناه.

ويجري هذا المجرى لكل من نصب نفسه للدعاء لغيره وخشي على نفسه الكبر بسبب ذلك، فالأحسن له الترك حتى تحصل له السلامة.

السبب الرابع للكراهة كون متعلقه مكروهاً: فيكره كراهة الوسائل لا كراهة المقاصد[2].

كالدعاء على اكتساب الرزق بالحجامة[3]، ونزو الدواب[4]، والعمل

---

(1) خبر منع سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ الإذن لهذا الإمام في الدعاء خشية الكبر أورده الغزالي في الإحياء: 3/341.

(2) موارد الأحكام الشرعية ونصوصها على قسمين:
الأول: المقاصد، وهي المتضمنة للمصالح والمفاسد أنفسها، وهي خمسة: حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ المال وحفظ النسل.
القسم الثاني: الوسائل، وهي الطرق المؤدية إلى تلك المقاصد وحكمها حكم ما أدت إليه من تحريم أو تحليل إلا أنها أخفض رتبة من المقاصد في حكمها.
والوسيلة إلى أفضل المقاصد أفضل الوسائل كالطهارة، غير أن هذه القاعدة قد لا تطرد فيختلف حكم الوسيلة عن حكم المقصد فتكون ـ مثلاً ـ وسيلة المحرم غير محرمة إذا أدت إلى مصلحة راجحة كالتوسل إلى فداء الأسرى بدفع المال للكفار، أو وسيلة المقصد مكروهة كما ذكر القرافي في المثالين الآتيين/ الفروق: 2/32، 33، والموافقات: 2/10، 19 ـ 20.

(3) الحجامة: هي المعالجة والمداواة بامتصاص مقدار من الدم من جسم الإنسان بالمحجم الذي هو آلة كالكأس يفرغ من الهواء ويوضع على الجلد بعد تشريطه شرطاً صغيرة بالموسى، فيحدث في الجسم تهيجاً ويجذب الدم أو الماء بقوة، وينجر على ذلك الشفاء والمعافاة/ القاموس المحيط: 4/93 ـ مشاهداتي الحسية لذلك.
وقد كانت هذه الحرفة ضرورية للشفاء من عديد الأمراض في الأعصر الماضية، وقد أخبر الرسول ﷺ بالمداواة بها فقال عليه الصلاة والسلام في حديث عبدالله بن عباس ﷺ عند البخاري: **«الشفاء في ثلاث: شربة عسل وشرطة محجم وكية نار»**/ فتح الباري: 10/136 وقد يعوض هذا العلاج بالأدوية.
وأخرج البخاري عن عبدالله بن عباس ﷺ (أن النبي ﷺ احتجم وهو محرم في رأسه من شقيقة كانت به)/ فتح الباري: 10/153.

(4) نزو الدواب: هو مجامعة الذكر للأنثى من فعل نزا ينزو نزواً ونزواً وهذا يقع في الدواب ذوات الحافر، والظلف وفي السباع/ القاموس المحيط: 4/395. =

في الحمامات[1]، والحياكة[2]، ونحو ذلك من الحرف الدنيئة[3] مع القدرة على الاكتساب بغيرها.

= وكراهة التكسب بهذه الحرفة يرجع إلى ملامسة النجاسة للقائم بها من أبوال الدواب وأرواثها وأوساخها، وما قد ينجم عنها من أخطار.
ولكن إلى جانب هذا لا ننسى فوائد هذه المهنة وخاصة منها: التوالد واستمرار النوع واستخدام الإنسان لها في شؤون مختلفة.

(1) العمل في الحمامات: الحمامي مهنته خدمة المستحمين وتنظيف الحمام من الأوساخ والقاذورات، ولعل ذلك يكون وسيلة إلى الاطلاع على العورات ومباشرة النجاسة ومن هنا جاءت كراهة هذه المهنة.
ومن أجل ذلك نهى الرسول ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن الصلاة في الحمام فقال ﷺ: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام».
الحديث أخرجه الشافعي وابن خزيمة وابن حبان واختلف في صحته، لكن صححه الحاكم/ نيل الأوطار: 2/135، 136.

(2) الحياكة، وهي القزازة ونسج الثياب التي تستر بها العورات وللتزين والتجميل، ولذلك فإن الحياكة مهنة جليلة ديناً ودنيا، بفضلها نتقي بها قساوة البرد وشدة الحر، لكن سلوك المشتغلين بها في بعض الأعصر والأماكن كان مهيناً وأخلاقهم صارت رديئة كما يصف لنا ذلك الفقيه المالكي محمد ابن الحاج العبدري الفاسي المالكي (ت732هـ/1312م) في كتابه «المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات» بأن هذه الحرفة ـ كما يقول القرافي ـ من الحرف الرديئة/ المدخل 10/4 وما بعدها.

(3) وصف القرافي لهذه المهن بأنها دنيئة، قد يكو ذلك في عصره أو في عصور سابقة أو لاحقة، أو في بعض البيئات والمدن أو القرى.
فلننظر مثلاً إلى مهنة التطبيب بالحجامة في عصرنا، فإنه بتقدم العلوم الطبية واكتشاف الأدوية والعقاقير المداوية لأمراض الرأس وأوجاعه وتحديد موضع الألم بالتشخيص والتصوير، فإن الأمراض التي كانت تعالج بامتصاص الدماء الضرورية للأبدان التي بها قوام الأبدان قلصت تلك الحرفة، ولعلها اختفت تماماً وحلت محلها الأدوية الشافية والعمليات الجراحية التي يقوم أطباء مهرة بلباس معين يحفظهم من الدماء والأوساخ في غرف نقية مطهرة من الجراثيم.
وتبعاً لذلك صارت مهنة الطب من المهن الراقية ومطمحاً جليلاً لأنظار المتعلمين ومسعى طيباً للراغبين يتسابقون إليه، ومقصداً عظيماً دينياً ودنيوياً هدفه المحافظة على النفس البشرية وسلامتها من الأمراض المختلفة والأوبئة الفتاكة.
فاكتساب الرزق بمثل هذه المهن لم يعد عيباً ولا يمكن احتقار من اشتغل بواحدة منها. =

وكذلك القول في الدعاء فكل ما نص العلماء على كراهته يكره كراهة الوسائل.

السبب الخامس للكراهة: عدم تعيينه قربة، بل يطلق على سبيل العادة، والاستراحة في الكلام وتحسين اللفظ مما لا يلابسه كما يجري ذلك على ألسنة السماسرة عند افتتاح النداء على السلع كقولهم: الصلاة والسلام على خير الأنام[1].

= ومهما يكن من أمر، فإن الله قسم أرزاق عباده منذ الأزل وأخبر رسول الله ﷺ في حديث عمران ابن حصين ﷺ عند البخاري: **«كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له»**/ البخاري: 11/ 491.

ووصف هذه المهن بكونها دنيئة حتى في عصورها السالفة فيه احتقار للمشتغل بها، واحتقار المسلم لأخيه المسلم والسخرية منه منهي عنه ـ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11].

وروى مسلم أن النبي ﷺ قال: **«كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»**/ صحيح مسلم بشرح النووي: 16/120، 121.

فهذه المهن وإن كان الاشتغال بها يؤدي إلى ما لا تطيب به النفوس فقصد المكلف هو الحصول على رزقه الحلال ورزق من يعولهم، وقد قال رسول الله ﷺ في حديث عبدالله بن مسعود ﷺ (ت32هـ/634م) عند ابن خزيمة: (طلب الحلال فريضة بعد الفريضة) أي: بعد فريضة الإيمان والصلاة/ ابن خزيمة: المجروحين رقم: 5/103.

(1) روى محمد ابن الحاج العبدري في كتابه «المدخل» عن علماء المالكية أنهم قالوا في الصلاة على النبي ﷺ على سبيل العادة قالوا: «إن من يصلي على النبي ﷺ عند ندائه على سلعته وبيعها وشرائها، إن فاعل ذلك ينهى عنه ويؤدب ويجزر، لأن الصلاة على النبي ﷺ إنما تكون على ما شرعت له من التعبد لا أنها تذكر على السلع حين بيعها وشرائها».

وليس هذا خاصاً بما ذكر بل هو عام فيما اعتاده بعضهم أو أكثرهم من أنه إذا رأى شيئاً يعجبه يقول: صلى الله عليك يا رسول الله، وكذلك إذا أراد أن يفسح له الطريق يقول: صلوا على محمد إلى غير ذلك وهو كثير.

وبعضهم يجمع بين الكذب حين ندائه على سلعته ـ كما تقدم ـ وبين الصلاة على النبي ﷺ على سبيل العادة، وبعضهم يجمع بين ذلك، وبين الأيمان الكاذبة. =

[قال مالك: كم يقولون هذا على حسب العادة من غير قصد الدعاء والتقرب إلى الله تعالى وهو خبر ومعناه الدعاء.

[وكما يقول المتحدثون في مجالسهم: ما أقوى فرس فلان أبلاها الله بدنية أو سبع ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى، ولا يريدون شيئاً من حقيقته.

فهذا كله مكروه وقد أشار بعض العلماء إلى تحريمه وقال: كل ما يشرع قربة لله تعالى لا يجوز أن يقع إلا قربة له على وجه التعظيم والإجلال لا على وجه التلاعب.

[فإن قلت: قد كان رسول الله ﷺ يقول نحواً من هذا الدعاء ومنصبه ﷺ منزه عن المكروهات بل يجب اتباعه في أقواله وأفعاله وأقل الأحوال أن يكون مباحاً.

[فمن ذلك قوله ﷺ لأم المؤمنين عائشة بنت الصديق ﵂[1]: «تربت

= والذي يتعين من ذلك توقير النبي ﷺ واحترامه وتعظيمه، بأن لا يذكر اسمه ولا يصلى عليه إلا على سبيل التعبد لا على سبيل العوائد المخالفة للسلف الماضين رضي الله عنهم أجمعين/ المدخل 100/4 ـ 101، ونسيم الرياض: 462/3.

(1) السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق ﵁ زوج النبي ﷺ تزوجها بمكة قبل الهجرة بسنتين، وهي بنت ست سنين أو سبع، وبنى بها في المدينة وهي بنت تسع بعد موت زوجته خديجة ﵂.

وتوفي عنها رسول الله ﷺ وهي بنت ثماني عشرة وكان مكثها معه تسع سنين روت عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة نقلها المحدثون عنها تجاوز عددهم العشرين وكانت أفقه الناس وأعلمهم وأحسنهم رأياً.

قال عنها محمد بن شهاب الزهري (ت124هـ/723م) من أكابر التابعين، وشيخ الإمام مالك ﵁ قال: «لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع الناس لكان علم عائشة أفضل».

وقد فضلها الرسول ﷺ على نسائه وغيرهن في حديث أنس بن مالك ﵁ عند البخاري قال ﷺ: **«فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»**/ فتح الباري: 106/7. =

يداك[1] **ومن أين يكون الشبه»**[2] لما تعجبت من كون المرأة ينزل منها المني كما ينزل على الرجل[3].

= روي عنها قولها: فضلت بعشر خلال: مجيء جبريل بصورتي، ولم ينكح الرسول ﷺ بكراً غيري، ولا امرأة أبواها مهاجرين غيري، وأنزل الله في القرآن براءتي من تهمة الفاحشة، وكان ينزل عليه وهو معي، وكنت اغتسل أنا وهو في إناء واحد، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه، وقبض بين سحري ونحري «أي: على صدري» في بيتي، وفي ليلتي، ودفن في بيتي.

ماتت سنة ثمان وخمسين، وقيل: 659 ليلة الثلاثاء سبعة عشر رمضان ودفنت بالبقيع/ الإصابة: 4/359 ـ 361.

(1) **«تربت يداك»**، وفي رواية أخرى: **«تربت يمينك»**، أي: التصقتا بالتراب، وهي كناية عن الفقر وهو خبر بمعنى الدعاء، ولكن لا يراد به الدعاء، وقيل: معناه ضعف عقلك، وقيل: افتقرت إلى العلم، وقيل غير ذلك/ فتح الباري: 9/135، 136.

وقال النووي: الخلاف في هذه العبارة كثير منتشر بين السلف والخلف، والأصح الأقوى الذي عليه المحققون في معناها: أنها كلمة أصلها افتقرت، ولكن العرب اعتادت استعمالها غير قاصدة حقيقة معناها الأصلي، فيذكرون: ترتب يداك، وقاتله الله ما أشجعه، ولا أمّ له ولا أبا لك وثكلته أمه وويل أمه، وما أشبه هذا من ألفاظهم، يقولونها عند إنكار الشيء أو الزجر عنه أو الندم عليه أو استعظامه أو الحث عليه أو الإعجاب/ شرح مسلم: 3/221.

(2) بيَّن الرسول ﷺ في الرواية الأخرى لحديث مسلم بمَ يقع الشبه للأب أو الأم للوليد فقال: **«إن ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فمن أيهما علا أو سبق يكون منه الشبه»**/ مسلم: 3/222، 223.

(3) ولفظ الحديث بأكمله عن أنس بن مالك ﷺ قال: **«جاءت أم سليم ـ وهي جدة إسحاق ـ إلى رسول الله ﷺ فقالت له ـ وعائشة عنده ـ: يا رسول الله: المرأة ترى ما يرى الرجل في المنام، فترى من نفسها ما يرى الرجل من نفسه؟ فقالت عائشة: يا أم سليم: فضحت النساء تربت يمينك.**

فقال لعائشة: بل أنت تربت يمينك. نعم فلتغتسل يا أم سليم إذا رأت ذلك»، وفي الرواية الأخرى: **«تربت يداك»**/ صحيح مسلم: 3/219، 220 ـ 225.

ـ أم سليم بنت ملحان بن خالد الأنصاري والدة أنس بن مالك ﷺ يقال: اسمها سهلة أو رميلة أو مليكة اشتهرت بكنيتها وكانت من الصحابيات الفاضلات ماتت في خلافة عثمان ﷺ/ المصدر السابق.

ـ قول عائشة لأم سليم: فضحت النساء، أي: حكيت عنهن أمراً يستحيي من=

[ومعلوم أنه عليه الصلاة والسلام ما أراد إذايتها بالدعاء[1].

وكذلك قوله ﷺ: «**عليك بذات الدين تربت يداك**»[2] فليس من الإرشاد ما يقتضي قصد الإضرار بالدعاء.

وقد استعمل الدعاء لا على وجه الطلب والتقرب وهو عين ما نحن فيه؟

[قلت: لفظ الدعاء إذا غلب استعماله في العرف في غير الدعاء انتسخ منه حكم الدعاء، ولا ينصرف بعد ذلك إلى الدعاء إلا بالقصد والنية.

[فإذا استعمله مستعمل في غير الدعاء فقد استعمله فيما وضع له عرفاً، ولا حرج في ذلك، وإنما الكلام في الألفاظ تنصرف بصراحتها للدعاء وتستعمل في غيره.

[فليس ما في الأحاديث من هذا الباب][3].



= وصفهن به، ويكتم، وذلك أن نزول المني منهن يدل على شدة شهوتهن للرجال/ المصدر السابق.

- أما قول الرسول ﷺ لعائشة: «**بل أنت فتربت يمينك**»: معناه: أنت أحق أن يقال لها هذا، فإنها فعلت ما يجب عليها من السؤال عن دينها فلم تستحق الإنكار واستحققت أنت الإنكار لإنكارك ما تجب معرفته/ المصدر السابق.

(1) فتربت يداك، لا دعاء بها عرفا كما مر.

(2) ولفظ الحديث عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين ترتب يداك**»/. صحيح البخاري: 132/9.

(3) زيادة من: ومعلوم...... ؛ إلى: الباب/ الفروق: 302/4 ـ 304.

القسم الرابع من الدعاء وهو المندوب[1]

تقرر أن الدعاء من حيث هو دعاء مندوب لاشتماله على الخضوع والتذلل، وإظهار عز الربوبية، وذل العبودية، فإذا لم يعرض له شيء من عوارضه المتقدمة، أو ما يجري مجراها بقي على ندبيته وقد تتأكد ندبيته لأسباب [ثلاثة].

(1) المندوب: لغةً: مأخوذ من الندب، وهو الدعاء إلى أمر مهم، وشرعاً: ما يمدح فاعله، ولا يذم تاركه، ويسمى نافلة وسنة/ الإحكام: 170/1، ونهاية السول: 77/1، 78.

والمندوب في مصطلح الفقه المالكي يراد به ثلاثة أمور: النافلة والرغيبة والمؤكد:

أ ـ المندوب النافلة: النافلة لغة الزيادة وشرعاً: ما فعله الرسول ﷺ ولم يداوم عليه بتركه في بعض الأحيان مثل نوافل الصلاة غير الرواتب في غير أوقات النهي والصوم في الأشهر الحرم، وتحية المسجد.

ب ـ المندوب الرغيبة: الرغيبة لغةً: ما وقع الحث عليه من فعل الخير وشرعاً: ما رغب الشارع فيه وحده ولم يفعله في جماعة مثل ركعتي الفجر التي رغب فيهما النبي ﷺ أمته في صلاتها وقال رواية عن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ لم يكن على شيء من النوافل أشد معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح)/ صحيح مسلم بشرح النووي: 54/6.

ج ـ المندوب المؤكد: ويطلق عليه السُّنَّة وهي لغةً: الطريقة، وشرعاً: ما فعله النبي ﷺ وأظهره في جماعة وداوم عليه ولم يدل دليل على وجوبه وكثرة ثوابه مثل صلاة الوتر والضحى ورواتب الظهر والعصر قبل صلاته وبعد المغرب والعشاء وصلاة التراويح/ الشرح الكبير: 312/1 ـ 318، وحاشية زروق على شرح الرسالة: 177/1 وما بعدها.

السبب الأول: لتأكده ترتيب المشرع له في بعض القربات كالقنوت في الصبح[1].

وقول المصلي: سمع الله لمن حمده[2]، وكقول المصلي: آمين، فإن

(1) القنوت في الصبح: القنوت هو الدعاء والتضرع لله تعالى في آخر صلاة الصبح عند المالكية بصفة خاصة تأتي بعد هذا.

والقنوت يطلق على أربعة أوجه: قنوت الطاعة لله تعالى باتباع النبي ﷺ وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: 116].

والقنوت السكوت وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: 238].

والقنوت بمعنى الدعاء الخاص ثم القيام المختص بالدعاء/ المنتقى: 1/283.

ودعاء القنوت اختلف فقهاء المذاهب في تحديد الصلاة التي يقنت فيها: فذهب المالكية والشافعية إلى أن القنوت يكون في صلاة الصبح قبل الركوع في الركعة الثانية وهو الأفضل وبعد الركوع عند الشافعية.

ويكون دعاء القنوت سراً. بينما ذهب الحنفية والحنابلة إلى أن القنوت يكون في الوتر طيلة السنة.

ولفظ القنوت المفضل عند المالكية والحنفية هو المروي عن عبدالله بن عمر وقيل: عمر ﷺ وهو: «اللَّهمَّ إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثني عليك الخير كله نشكرك ولا نكفرك ونخلع (نترك) ونترك من يفجرك، اللَّهمَّ إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد (نسرع في تحصيل عبادتك) ونرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجد بالكافرين ملحق».

وروي عن علي بن زياد التونسي (ت183هـ/780م) عن الإمام مالك بن أنس أنه لا يوجد دعاء خاص للقنوت، وليدع المسلم بما شاء/ المنتقى: 1/283، 284، والشرح الكبير: 1/248 وما بعدها، وشرح الرسالة: 1/167، 168، والبدائع: 1/27 وما بعدها، والمهذب: 1/81، والمغني: 1/151 ـ 155.

(2) سمع الله لمن حمده تقال في الرفع من الركوع من الإمام والفذ وهي سُنَّة مؤكدة رغب فيها الشارع ودل عليها حديث أبي هريرة ﷺ عند مالك في الموطأ ومسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده فقولوا: اللَّهمَّ ربنا ولك الحمد، فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**»/ الموطأ بهامش المنتقى: 1/164، صحيح مسلم: 4/128.

وقد أمرنا النبي ﷺ في هذا الحديث بأننا إذا كنا مأمومين نقول بعد تسميع الإمام: ربنا ولك الحمد وهي من المستحبات والفضائل بالاتفاق وتقال عند الاعتدال في القيام من الركوع أما غير المأموم وهو الفذ، فإنه يجمع بين التسميع والتحميد. =

معناها: أمنا يا ربنا خيبة الدعاء واستجب لنا[1].

= وفي المذهب المالكي: الإمام لا يقول: «ربنا ولك الحمد» والمأموم لا يقول: «سمع الله لمن حمده» والمنفرد الفذ يجمع بينهما حال رفعه من الركوع والوقوف معتدلاً، إذ الركوع يقترن بـ«سمع الله لمن حمده» فإذا اعتدل قال: «ربنا ولك الحمد».

وذهب الشافعي إلى أنه يسن عندهم الجمع بين التسميع والتحميد في حق كل مصل منفرد وإمام ومأموم، ودليلهم على ذلك حديث عبدالله بن أوفى علقمة بن خالد ﷺ (ت87هـ/687م) قال: (كان رسول الله ﷺ إذا رفع ظهره من الركوع قال: «سمع الله لمن حمده اللَّهمَّ ربنا ولك الحمد...») الحديث/ صحيح مسلم: 192/4.

وقوله: «اللَّهمَّ» ثبتت هنا وحذفت في بعض الطرق بدون ترجيح/ فتح الباري: 282/2.

قال النووي في شرحه للحديث: أنه يستحب لكل مصل من إمام ومأموم ومنفرد أن يقول: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد ويجمع بينهما/ المصدر السابق.

والتسميع والتحميد معناهما الدعاء كما ذكر القرافي، أي: ربنا استجب لنا ولك الحمد على هدايتك إيانا، والقول الأظهر أن التسميع مقصود به الترغيب في التحميد وقد أكده رسول الله ﷺ في الحديث السالف الذكر بقوله: «فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»/ المنتقى: 164/1.

ولما كان التسميع سُنَّة مؤكدة عند المالكية فإن تاركه عمداً يستغفر الله ولا تبطل صلاته، وتاركه نسياناً يجبر بسجدتين قبل السلام استناداً لما رواه عبدالله بن بجينة بن مالك ﷺ قال: (صلى لنا رسول الله ﷺ ركعتين من بعض الصلوات ثم قام فلم يجلس فقام الناس معه، فلما قضى صلاته ونظرنا تسليمه كبّر فسجد سجدتين وهو جالس قبل التسليم ثم سلم)/ صحيح مسلم: 58/5.

فقد دل الحديث على جبر السُّنَّة المؤكدة المنسية بسجدتين لها قبل السلام عند المالكية كما ذكرنا والشافعية والحنابلة، وعند الحنفية السجود بعد السلام مع أن حكم التسميع عندهم الوجوب/ المنتقى: 182/1، وشرح زروق على الرسالة: 204/1، والبدائع: 63/1، والمهذب: 71/1.

(1) آمين: تكون بعد الفاتحة جهراً ومعناها: اللَّهمَّ استجب، وقيل: معناها: اللَّهمَّ آمنا بالخير، وقريب منه المعنى الذي ذكره القرافي، وقيل: هي درجة في الجنة تجب لقائلها، وقيل: هي اسم من أسماء الله الحسنى/ الجامع لأحكام القرآن: 127/1، وفتح الباري: 262/2.

وحكم التأمين عند المالكية الاستحباب في حق الفذ على قراءة نفسه في السر والجهر والمأموم على قراءة نفسه في السر وعلى قراءة إمامه في الجهر وللإمام على=

وكدعاء الاستسقاء[1].

= قراءة نفسه في السر دون الجهر.

والتأمين عند الحنفية يكون سراً وعند الشافعية والحنابلة يكون سراً في الصلاة السرية وجهراً فيما يجهر فيه بالقراءة.

والدليل على استحبابه والترغيب فيه ما جاء عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا أمن الإمام فأمنوا فإن الملائكة تؤمن فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»/ فتح الباري: 266/2، والشرح الكبير: 248/1، وشرح المنهج: 355/1، والبدائع: 207/1، والجامع لأحكام القرآن: 127/1.

(1) الاستسقاء لغةً: بالمد هو طلب السقي، وشرعاً: طلب السقي من الله تعالى لقحط نزل بالعباد أو غيره بالصلاة المعهودة: ركعتان وخطبتان واستغفار ورحمة وحمد وثناء حضراً وسفراً عند الحاجة إلى الغيث النافع لما تشح المياه، ويكثر الجفاف، وتشتد حاجة الناس والبهائم والزرع والأشجار إليه.

وحكم صلاة الاستسقاء أنها سُنَّة مؤكدة عند جمهور العلماء دل عليها عدد من الأحاديث النبوية منها: حديث البخاري في صحيحه عن عباد بن تميم بن غزية الأنصاري المازني ﷺ قال: (خرج رسول الله ﷺ يستسقي واستقبل القبلة فصلى ركعتين وقلب رداءه)/ البخاري: 515/2.

وصفة الصلاة: ركعتان جهراً يجلس الإمام بعدهما إلى الأرض ويخطب خطبتين مثل صلاة العيد عند المالكية والشافعية إلا أنه يبدل التكبير بالاستغفار عند المالكية وصاحبي أبي حنيفة: أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت183هـ/780م) ومحمد بن الحسن الشيباني (ت189هـ/789م).

وعند الشافعية والحنابلة يكبر مثل صلاة العيد ويبالغ في الدعاء في آخر الخطبة الثانية ويرى الحنابلة وأبو يوسف صاحب أبي حنيفة خطبة واحدة.

وقال أبو حنيفة: لا خطبة للاستسقاء، لأنها تبع للجماعة، ولا جماعة لها عنده، وإنما دعاء واستغفار وليس لهذه الصلاة وقت محدد فهي مثل النوافل في كل وقت ما عدا أوقات النهي عن الصلاة.

ودعاء الاستسقاء عند المالكية يقوم به الإمام عند الفراغ من الخطبتين مستقبلاً القبلة محولاً رداءه تفاؤلاً فيجعل ما يلي ظهره إلى السماء، وما على اليمين إلى اليسار ومثل ذلك المأمومون وهم قعود، ويستحب صيام ثلاثة أيام قبل الخروج للاستسقاء والإكثار من التصدق.

ويبالغ الإمام في الدعاء برفع الكرب والقحط وإنزال الغيث والرحمة وعدم المؤاخذة بالمعاصي، ولا يدعو لأحد من الناس بينما يرى صاحبا أبي حنيفة والشافعية والحنابلة أن استقبال القبلة بالدعاء يكون خلال الخطبة. =

السبب الثاني: لتأكده كقربة، طلباً لمصلحة غير الداعي ممن يستحق ذلك من الخلائق فإن دعاء الداعي صدقة على المدعو له[1]، وبشرف الصدقة يشرف المتصدق عليه[2] [ولبيان ذلك أمثلة ثلاث]:

= وصيغة الدعاء: هي المروية عن عمرو بن شعيب بن محمد بن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا استسقى قال: «**اللَّهمَّ اسق عبادك، وبهيمتك، وانشر رحمتك وأحيي بلدك الميت**»/ الموطأ بهامش المنتقى: 1/333.

ويقع الخروج لهذه الصلاة مشاة لإظهار العجز والانكسار بثياب الذلة والخضوع، لأن ذلك أقرب للإجابة/ الشرح الصغير: 1/191، وبداية المجتهد: 1/156، والبدائع: 1/282 وما بعدها، وشرح المنهج: 2/430، والمغني: 2/430 ـ 440.

(1) الدعاء للأخ المسلم هو طلب الخير له عموماً برفع الشدة أو تيسير رزقه أو نجاحه في أعماله أو غير ذلك من كل ما فيه سعادة له، وهو من جملة الحقوق التي أحصاها حجة الإسلام محمد الغزالي في كتابه الإحياء ورتبها الدين على الأخوة فيه، فتدعو له مثلما تدعو لنفسك فإن دعاءك كله دعاء لنفسك على التحقيق، فقد أخرج مسلم عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه قال الملك: آمين، ولك بمثل**»/ صحيح مسلم: 7/49، 50.

وهذا الدعاء للأخ داخل في عموم كلمة «المعروف» الذي عرف بأدلة الشرع بأنه شامل لكل أنواع البر، فقد روى البخاري عن جابر بن عبدالله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل معروف صدقة**»/ فتح الباري: 2/447.

والصدقة لا تنحصر في الأمر المحسوس الخاص بالعطاء من أهل الغنى، لكنها تعم كل واحد قادر على أن يفعلها في أكثر الأحوال.

والضراعة بالدعاء لله تعالى لمن هو في حاجة إليها كلمات طيبة، وهي نوع من أنواع الكلم الطيب الذي أخبر الرسول ﷺ عنه أنه صدقة في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «**الكلمة الطيبة صدقة**»/ فتح الباري: 2/448.

(2) وبشرف الصدقة يشرف المتصدق عليه: الشرف هو علو المنزلة والشأن.

والمعنى لقول القرافي: أن الصدقة يرفع بها الله تعالى بمضاعفة أجره، وبالنسبة للمدعو له: يعلو شأنه بثواب الدعاء المحتاج إليه، ولعل الله يستجيب له فترتفع درجته حسياً بزوال شدته أو سعة رزقه مثلاً، أو ترتفع درجته معنوياً باطمئنان القلب، وراحة النفس، أو التقوى والصلاح، وما أشبه ذلك/ الإحياء: 2/286، وفتح الباري: 2/448.

[المثال الأول]: الدعاء لأفضل الخلق، فإنه أفضل الدعاء(1).

[المثال الثاني]: وبكونه ـ أي: الدعاء ـ أشد حاجة لشخص؛ لأن الإحسان إلى المحتاج أفضل من الإحسان إلى الغني(2).

[المثال الثالث]: وبكونه أنثى لأن الإحسان إلى الإناث أعظم موقعاً من الذكر لقلة حيلتهن(3).

السبب الثالث: لتأكده كونه مكافآت للإحسان(4) للحديث: «من فعل

---

(1) الدعاء لأفضل الخلق سيدنا محمد ﷺ وهو الصلاة عليه واجبة في العمر مرة وما عداها مندوبة/ نسيم الرياض: 3/245.

(2) ومما جاء في ذلك قول الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 271].
ذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع، لأن الإخفاء فيها أفضل، وكذلك سائر العبادات لانتفاء الرياء عنها/ الجامع لأحكام القرآن: 4/332، فتح الباري: 3/288، 289.

(3) ورد في هذا المعنى حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري عن النبي ﷺ قال: «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار»/ صحيح البخاري: 10/426.
والمراد بالابتلاء هل هو نفس وجودهن، أو بما يصدر منهن؟ وكذلك هل هو على العموم في البنات أو المراد من اتصف منهن بالحاجة أو أنفق عليهن وزوجهن، وأحسن أدبهن، أو أحسن صحبتهن، واتقى الله فيهن؟
فهذه الأوصاف وأمثالها يجمعها لفظ الإحسان.
ففي هذا الحديث تأكيد لحق البنات لما فيهن من الضعف غالباً على القيام بمصالح أنفسهن بخلاف الذكور لما فيهم من قوة البدن، وحسن الرأي، وإمكان التصرف في الأمور/ فتح الباري: 10/428، 429.

(4) مكافآت الإحسان: مقابلة الإحسان بإحسان مثله، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: 60].
قال القرطبي: الإحسان عند علمائنا على معنيين؛ أحدهما: متعد بنفسه كقولك: أحسنت كذا، أي: حسنته وكملته، وثانيهما: متعد بحرف جر كقولك: أحسنت إلى فلان، أي: أوصلت إليه ما ينتفع به، والله تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم لبعض/ الجامع لأحكام القرآن: 10/166.
وقال فخر الدين الرازي في التفسير الكبير: الإحسان في هذه الآية معناه عام، وقد=

معكم معروفاً فكافؤوه فإن لم تقدروا فادعوا له»[1].

□ □ □ □ □ □

= بلغت أقوال العلماء في تفسيره مئة قول، والمعنى الأقرب والأشهر: أن جزاء من أحسن إلى غيره أن يحسن هو إليه أيضاً، أي: إكرام مقابل إكرام وفضل مقابل فضل/ التفسير الكبير: 8/333، 334.

فالغفلة عن مقابلة الإحسان بالإحسان إجحاف في حق المحسن وعدم شكر الله تعالى. فقد روى أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله ﷻ»/ سنن الترمذي رقم: 1955.

(1) الحديث رواه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم مع اختلاف في بعض الألفاظ وهو بتمامه في سنن أبي داود عن عبدالله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافؤوه، فإن لم تجدوا ما تكافؤونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»/ سنن أبي داود رقم: 1672.

القسم الخامس من الدعاء المختلف فيه

وهو أربعة أنواع:

النوع الأول: ما اختلف فيه بالجواز والمنع: وهو كل دعاء بأمر، فمن قال بالجواز قال: طلبه جائز، ومن قال بالتحريم، قال: طلبه حرام[1].

النوع الثاني: ما اختلف فيه بالجواز والكراهة، فمن قال بالكراهة

---

(1) الأصل في الدعاء أن يتوجه العبد إلى ربه القريب منه مباشرة لا أن يأمر عبداً مثله بالدعاء له يكون واسطة بينه وبين الله تعالى، لأنه جل وعلا قريب منه عالم بحاله في سره وجهره وحاجته وطلبه، وقد وعد عباده بإجابة دعائهم إذا توفرت في هذا الدعاء شروطه وآدابه فقال جل شأنه: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].

قال فخر الدين الرازي في تفسيره للآية الأخيرة: تفيد هذه الآية أن لا واسطة بين العبد وربه في مقام الدعاء، ومن هنا فإنه لا يجوز لك أيها العبد أن تجعل عبداً مثلك يتوسط لك عند ربك داعياً لك/ التفسير الكبير: 229/2.

ولكن هناك من أجاز طلب المرء من شخص أن يدعو له لما يتميز به من صلاح ظاهري وتقوى ملموسة، ويظن أنه أقرب إلى الله تعالى منه، فإذا دعا له أجاب، واستدلوا على ذلك باستسقاء عمر ﷺ بالعباس بن عبد المطلب ﷺ (ت72هـ/634م) عم النبي ﷺ في سقياهم، أي: أنهم كانوا يسألونه أن يدعو الله لهم ويدعون معه، ويتوسلون بشفاعته ودعائه/ فتاوى ابن تيمية: 75/7، 76.

قال: مكروه، ومن قال بالإباحة قال: طلبه غير مكروه[1].

النوع الثالث: ما اختلف في مشروعيته كالقنوت في الوتر في شهر رمضان[2]، ونحو ذلك[3].

---

(1) ولعل هذا النوع هو المروي عن الإمام مالك ﷺ وجماعة من العلماء: فقد كرهوا لأئمة المساجد أو الجماعات الانتصاب للدعاء، والحاضرون يؤمنون لهم فيجتمع لهذا الإمام التقدم للصلاة وكونه نصب نفسه واسطة بين الله وعباده.

وقد سبق أن ذكر القرافي في مبحث «السبب الثالث لكراهة الدعاء» نبأ استئذان بعض الأئمة من عمر بن الخطاب ﷺ الدعاء لقومه بعد الصلوات بدعوات فقال له: أخشى أن تشمخ فتصل إلى الثريا ـ أي: كبراً وخيلاء ـ/ الإحياء: 3/ 341.

(2) رأى ذلك الحنابلة فإن دعاء القنوت عندهم يكون في الوتر في جميع السنة وفي وتر النصف الأخير من شهر رمضان بعد الركوع وحكمه أنه سُنَّة.

وقال الحنفية: دعاء القنوت يكون في الوتر، وحكمه الوجوب غير الفرض، ومن تركه سهواً سجد له قبل السلام.

وذهب المالكية إلى أن دعاء القنوت مستحب في ثانية الصبح قبل الركوع ولا يكون في الوتر ولا في غيره، ويجوز القنوت بعد الركوع وقبله أفضل.

وهذا ما ذهب إليه الشافعية في سنية الدعاء في القنوت في ثانية الصبح قبل الركوع ولكن بعد الاعتدال من الركوع لما رواه ابن ماجه قال: سئل رسول الله ﷺ عن القنوت في صلاة الصبح؟ فقال ﷺ: **«كنا نقنت قبل الركوع وبعده»**.

ولفظ الدعاء المختار عند المالكية والحنفية هو المروي عن عبدالله بن عمر ﷺ: «اللَّهمَّ إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثني عليك الخير كله نشكرك ولا نكفرك ونخلع (نترك) ونترك من يفجرك اللَّهمَّ إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد (نبادر ونسرع) نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجد بالكافرين ملحق»/ مسالك الدلالة: 47، 48.

وصيغة الدعاء المختارة عند الشافعية والحنابلة: **«اللَّهمَّ اهدنا فيمن هديت وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شر ما قضيت»**/ نيل الأوطار 3/ 51، البدائع: 1/ 27، الشرح الكبير: 1/248، المدونة: 1/102 ـ 104، بداية المجتهد: 1/95، 96، شرح المنهج: 1/368 ـ 371، المغني: 1/ 151 ـ 155، كشاف القناع: 1/490، 494، العدة: 88، مسالك الدلالة على متن الرسالة: 48.

(3) من الأدعية المختلف في مشروعيتها دعاء الثناء أو الاستفتاح أو التوجيه في الصلاة إثر تكبيرة الإحرام، فذهب مالك إلى القول بكراهتها، فالمصلي يكبر بالإحرام،=

فمذهب مالك وجماعة من العلماء أن هذه أدعية غير مشروعة، ومذهب غيرهم أنها أدعية مشروعة[1].

النوع الرابع: ما اختلف العلماء في وجوبه، وفيه فصلان:

= ويقرأ ولا يدعو لما رواه أنس بن مالك ﷺ قال: «كان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر ﷺ يفتتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين»/ فتح الباري: 2/226، 227، صحيح مسلم بشرح النووي: 4/111.

وقال جمهور العلماء: دعاء الاستفتاح سُنَّة بعد التحريمة في الركعة الأولى وله صيغ كثيرة، والمختار منها عند الحنفية والحنابلة ما روته عائشة ﷺ قالت: «كان النبي ﷺ إذا استفتح الصلاة قال: **سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك (عظمتك) ولا إله غيرك**»/ سبل السلام: 1/165.

والمختار عند الشافعية ما رواه أحمد عن علي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (أنه كان إذا قام للصلاة قال: «**وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**»)/ نيل الأوطار: 2/207، العدة: 74، البدائع: 1/202، بداية المجتهد: 1/89، شرح المنهج: 1/351، 35، المنتقى: 1/142، المدونة: 1/62.

(1) عجباً كيف يقول القرافي أن هذه أدعية غير مشروعة في المذهب المالكي مع أننا نجد من يعتمدها من فقهاء المالكية مخالفاً بذلك مذهبه؟ وهذان مثالان على ذلك:

أ ـ بالنسبة لدعاء القنوت فقد قال الباجي في المنتقى: ويختص عند مالك بصلاة الصبح وزاد علي بن زياد التونسي من تلاميذ مالك ورواة موطئه (183هـ/780م) زاد عن الإمام مالك: وفي الوتر من النصف الأخير من شهر رمضان/ المنتقى: 1/282.

ب ـ وبالنسبة لدعاء الاستفتاح المكروه ـ كما روي عن الإمام مالك ﷺ فقد جاء في المنتقى ما يلي: وأما بعد الإحرام ففي مختصر محمد بن شعبان المصري (355هـ/947م) عن عبدالله بن وهب المصري من تلاميذ مالك ورواة موطئه قال: صليت مع مالك فكان يقول عند افتتاح الصلاة: «**وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**».

وقال مالك: أكره أن أحمل الناس على ذلك فيقول جاهل: هذا من فروض الصلاة/ المنتقى: 1/142.

وبهذا يظهر أن دعاء الاستفتاح مشروع ولكن كره مالك سدًّا لذريعة اعتقاد الجهلة بوجوبه في الصلاة.

الفصل الأول:

السلام[1] والكلام فيه على لفظه ومعناه وفاعل السلام والمسلم عليه فهذا خمسة أطراف.

الطرف الأول: لفظه فالمبتدىء يقول: السلام عليكم والراد يقول: وعليك السلام بالإفراد ويجوز تقديم عليك وتأخيرها[2].

وإنما إفراد الرد بالابتداء لأن الرد مكافأة والمحسن واحد فأفردت المكافأة[3].

وأما الابتداء فإحسان مجرد، ينبغي أن يأتي بصيغة الجمع ليتم السلام عليه مع الحفظة الكرام[4].

---

(1) السلام: اسم من أسماء الله تعالى الحسنى وثبت ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: 23].
وثبت ذلك في استحباب الدعاء به بعد الصلاة في حديث عائشة ﵂ قالت: «كان النبي ﷺ إذا سلم لم يقعد إلا مقدار ما يقول: **اللَّهمَّ أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 89/5، 90.
ومعنى السلام: السالم من النقائص في ذاته وصفاته وأفعاله، فهو سبحانه سالم من كل ما لا يجتمع عقلاً مع معنى الألوهية كمشابهة الحوادث.
والمعلوم أن كل ما عدا الله ناقص في ذاته وصفاته وأفعاله فلا يمكن أن يكون بينه وبين الله مشابهة ولو في وجه من الوجوه/ فتح الباري: 12/11، 13.

(2) من علماء الشافعية من لا يرى تقديم عليك لأن السلام اسم الله فينبغي أن لا يقدم عليه شيء، ومثل ذلك من قال: عليكم السلام فإنه لا يكون سلاماً/ فتح الباري: 37/11.

(3) يرى بعض العلماء أنه إذا وقع الابتداء بصيغة الجمع، فإنه لا يكفي الرد بصيغة الإفراد، لأن صيغة الجمع تقتضي التعظيم فلا يكون امتثال الرد فضلاً عن الأحسن/ فتح الباري: 37/11.

(4) الحفظة الكرام: هم الموكلون بمراقبة أعمال المكلفين وحفظها وإحصائها وتسجيلها وكتابتها في صحف الأعمال، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: 10 ـ 12].
فوصف الله لهم بهذه الأوصاف الخمسة ثناء عليهم/ التفسير الكبير: 346/8، 347. =

وأما الواو في الرد، فلأنها عاطفة بين كلامين من متكلم واحد فيصير معنى التلفظ بها: علي السلام وعليكم السلام فيكون الراد قد حصل له السلام مرتين من المسلم ومن نفسه ويجوز الابتداء بلفظ الرد، والرد بلفظ الابتداء[1].

= ولكل إنسان ملكان موكلان بمراقبة أعماله وتسجيلها ملازمان له قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: 17 ـ 18].

هذان الملكان جعلهما الله للإنسان يتلقيان أقواله وأفعاله الحسنة والسيئة تلقى معرفة حفظ وتسجيل؛ أحدهما: من اليمين، والآخر: من الشمال، وكل منها قعيد ملازم للإنسان لا يفارقه، وكل منهما عتيد أعده الله لهذه المهمة فهو حاضر للقيام بها/ الجامع لأحكام القرآن: 17/9 ـ 12.

(1) أي: السلام عليكم، وكره مالك أن يقول الراد: سلام الله عليكم لما رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال له: اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله**»/ فتح الباري: 3/11، المنتقى: 279/7.

أما إلقاء السلام بصيغة التنكير: سلام عليكم أو بالألف واللام: السلام عليكم فقال العلماء: إن صيغة التنكير أفضل وأكمل.

قال أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني إمام المالكية في وقته وجامع مذهب مالك (ت389هـ/980م) قال في الرسالة: «والسلام أن يقول الرجل: السلام عليكم ويقول الراد: وعليكم السلام أو يقول: سلام عليكم كما قيل له»/ الرسالة بشرح زروق: 2/ 391.

وقال الإمام فخر الدين الرازي مبيناً أفضلية التسليم بالتنكير ـ سلام عليكم ـ على التسليم بالتعريف: السلام عليكم: فضل العلماء السلام بالتنكير لعدة أمور، منها:

أ ـ قول المسلم: سلام عليكم مبتدأ وهو نكرة والنكرة في قواعد النحو لا يبتدأ بها إلا إذا كانت موصوفة وهي هنا موصوفة، لأن المعنى: المراد من المسلم سلام كامل تام شامل، فيكون هذا مبتدأ والخبر في هذه الحالة يكون مقدراً وهو عليكم والتقدير سلام كامل تام عليكم.

ب ـ القرآن الكريم يؤكد أفضلية سلام عليكم بالتنكير على السلام عليكم بالتعريف: أنه كلما جاء لفظ السلام من الله تعالى جاء على سبيل التنكير كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 54]. =

وقيل: لفظ الابتداء بالسلام وينتهي في لفظ الرد إلى البركات ولا يزداد عليه على الأصح[1]، واختلف في أو في قوله تعالى: ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾[2] هل هي للتخيير أو للتنويع؟

وتظهر ثمرة الخلاف إذا اقتصر المبتدىء على: السلام عليكم فعلى التخيير، الراد مخير بين رد مثله، وبين الانتهاء إلى البركات.

= وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: 59] وفي القرآن من هذا الجنس كثير.

أما لفظ السلام بالألف واللام، فإنما جاء من الأنبياء ﷺ كقول موسى ﷺ: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: 47].

وأما في سورة مريم فلما ذكر الله يحيى ﷺ قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿15﴾﴾ [مريم: 15]، وهذا سلام من الله تعالى.

وفي قصة عيسى ﷺ قال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿33﴾﴾ [مريم: 33].

فثبت بهذه الوجوه أن قوله: سلام عليكم أكمل من السلام عليكم، فلهذا السبب اختار الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في قراءة التشهد: سلام عليك أيها النبي على سبيل التنكير/ التفسير الكبير: 4/ 497.

(1) عمدة القرافي على ذلك ما رواه مالك في الموطأ عن عبدالله بن عباس ﷺ: (أنه دخل عليه رجل من أهل اليمن فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم زاد شيئاً مع ذلك أيضاً.

قال ابن عباس، وهو يومئذٍ قد ذهب بصره: من هذا؟ قالوا: هذا اليماني الذي يغشاك فعرفوه إياه قال، فقال ابن عباس: إن السلام انتهى إلى البركة)/ الموطأ والمنتقى: 7/ 281.

وجاء عن عبدالله بن عمر ﷺ فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته والغاديات والرائحات، فقال له عبدالله بن عمر: وعليك ألفاً ثم كأنه كره ذلك).

الغاديات الرائحات: الملائكة الحفظة، وقوله: وعليك ألف معناه: ألف كسلامك علي، ومعنى الكراهة لتعمقه، والزيادة على البركة في السلام/ الموطأ والمنتقى: 7/283.

وأورد الحافظ ابن حجر في فتح الباري عدداً من الأحاديث الضعيفة المفيدة للزيادة على البركة/ الفتح: 11/6.

(2) والآية كاملة: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿86﴾﴾ [النساء: 86].

وعلى القول بالتنويع لا بد أن ينتهي الراد إلى البركات، ويتنوع رده إلى الإحسان، لأن المبتدىء اقتصر على دون ذلك وإلى المثل إن كان المبتدىء إلى البركات، والأول أظهر عند العلماء[1].

الطرف الثاني: في معناه [(10أ)] وهو الدعاء، بالسلامة، وكونه بالسلام يقتضي استغراق أنواع السلامة من شرور الدنيا والآخرة، وينبغي للمسلم أن ينوي ذلك ليعظم أجره.

وقيل: معناه: المسالمة، أي: سلمت مني فيأمن المؤمن عليه.

وقيل: هو اسم من أسماء الله تعالى وضعه الله تعالى للأمان ليأمن بعضهم بعضاً[2].

الطرف الثالث المسلِّم: وهو القادم على غيره، أو الداخل مطلقاً على أي حال كان صغيراً أو كبيراً، وفي الحديث: «**يسلم الصغير على**

---

(1) وتوضيحاً أكثر لما ذكره القرافي في معنى الآية، فقد قال القرطبي في بيان قوله تعالى: ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾: «إن رد الإحسان أن يزيد الراد: عليك السلام ورحمة الله لمن قال: سلام عليك».

وإن قال سلام عليك ورحمة الله، زد في ردك: وبركاته، وهذا هو النهاية فلا مزيد، قال الله تعالى مخبراً عن البيت الكريم: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: 73].

فإن انتهى بالسلام إلى غايته زدت في ردك الواو في أول كلامك فقلت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

والرد بالمثل أن تقول لمن قال: السلام: عليك إلا أنه ينبغي أن يكون السلام كله بلفظ الجمع ولو كان المسلم واحداً، لما رواه الأعمش ميمون بن قيس عن إبراهيم النخعي (ت96هـ/696م) قال: إذا سلمت على الواحد فقل: السلام عليكم، فإن معه الملائكة، وكذلك الجواب يكون بلفظ الجمع/ الجامع لأحكام القرآن: 299/5، 300.

(2) يراجع معنى السلام في فتح الباري: 12/11، 13، والتفسير الكبير: 277/3، وصحيح مسلم: 140/14.

الكبير والراكب على الماشي»[1] معناه: إذا التقيا[2].

«ويسلم القليل على الكثير»[3].

أما الصغير فلتعين الأدب من جهته[4]، وأما الراكب فحتى لا يجتمع له سبب إعجاب الركوب وكونه مسلماً عليه، وأما القليل فلأن الكثير من الإسلام أشرف من القليل[5]، فكان الصغير مع الكبير[6].

---

(1) لفظ هذا الحديث كاملاً كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ: **«يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير»/** فتح الباري: 14/11 ـ 16.

أما قوله ﷺ: **«والراكب على الماشي»** فهو لفظ حديث آخر أخرجه البخاري ومسلم ولفظه: **«يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير»/** فتح الباري: 15/11، صحيح مسلم: 140/14.

(2) جملة التفسير هذه كان من حق الكاتب أو الناسخ أن لا يفصل بها بين بقية الحديث: **«ويسلم القليل على الكثير»**.

(3) هذه هي الجملة الأخيرة من الحديثين السابقين عند البخاري ومسلم/ فتح الباري: 15/11، وصحيح مسلم: 140/14.

وأمر الكثير نسبي يشمل الواحد بالنسبة للاثنين، والاثنان بالنسبة للثلاثة فصاعداً، لأجل حق الكثير، لأن حقهم أعظم.

وأما القليل المسلم فلفضيلة الجماعة أو لأن الجماعة لو ابتدؤوا بالتسليم على الواحد خيف عليه الزهو فاحتيط لذلك/ فتح الباري: 17/11.

(4) **أما تسليم الصغير على الكبير فلأجل حق الكبير، لأنه أمر بتوقيره والتواضع له.**

ومحل الأمر في تسليم الصغير على الكبير إذا التقيا فإن كان أحدهما راكباً والآخر ماشياً بدأ الراكب بالتسليم وإن كانا راكبين أو ماشيين بدأ الصغير/ فتح الباري: 17/11.

(5) يدل على ذلك مشروعية صلاة الجماعة: الصلوات الخمس وصلاة الجمعة والعيدين وفضلها فقد روى البخاري عن عبدالله بن عمر ﷺ أن الرسول ﷺ قال: **«صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»/** فتح الباري: 131/2.

(6) تفصيل ما جاء في الحديث الشريف من تعيين المبتدىء بالسلام، فإنه خبر بمعنى الأمر على سبيل الاستحباب، ولا يلزم من ترك المستحب الكراهة غير أن مراعاة ما ثبت في الحديث أولى.

فلو ترك المأمور بالابتداء بالسلام فبدأ الآخر كان المأمور تاركاً للمستحب والآخر فاعلاً للسُّنَّة إلا إذا بادر فيكون تاركاً للمستحب أيضاً/ فتح الباري: 17/11.

ويجزىء الواحد من الجماعة بالابتداء، وكذا في الرد على الأصح[1]، وقيل: لا يجزىء[2].

والفرق بين الرد والابتداء تعيين المكافأة على الجميع.

الطرف الرابع: المسلم عليه، وهو الماشي مع الراكب والكبير مع الصغير والكثير مع القليل والمفارق مع من يفارقه.

ولا يسلم على الحرة الأجنبية، فإن فقد ذلك سلم[3].

---

(1) دليل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: 86]، وما رواه مالك في الموطأ قوله ﷺ: «**وإذا سلم من القوم أحد أجزأ عنهم**»/ الموطأ والمنتقى: 279/1.
قال القاضي أبو محمد عبدالوهاب بن نصر البغدادي (ت422هـ/1030م) إن ابتداء السلام سُنَّة أو فرض كفاية وإذا قام به البعض سقط عن الباقين، فإن سلم واحد من الجماعة أجزأ عنهم وإن رد واحد من الجماعة أجزأ عنهم، وهذا ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره/ المنتقى مع الموطأ: 279/7، 280، التفسير الكبير: 280/3، شرح زروق على الرسالة: 391/2، 392، في ظلال القرآن: 726/2.

(2) مذهب أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري صاحب أبي حنيفة (ت183هـ/780م) بمذهبه أنه يلزم جميعهم الرد/ المنتقى: 279/7 ـ 280، وشرح الرسالة لزروق: 392/2.

(3) الحرة الأجنبية: المرأة التي لم تكن من المحارم، ومنع التسليم عليها ليس على عمومه وقد بين الإمام مالك ﷺ نوع المرأة التي يمنع التسليم عليها في سؤال وجه إليه فقال: أما المتجالّة فلا أكره ذلك وأما الشابة فلا أحب ذلك/ الموطأ مع المنتقى: 280/7.
ومعنى ذلك: أن المتجالّة الهرمة لا فتنة في كلامها، ولا يتسبب به إلى محظور بخلاف الشابة، فإنه في مكالمتها فتنة، ويتسبب به إلى المحظور والسلام عليها يقتضي ردها وذلك من باب المكالمة.
وأصل هذا: أن السلام شعار الإسلام، شرع إفشاؤه عند لقاء كل مسلم ممن عرفت وممن لم تعرف، إلا أن يمنع منه ما يخاف من الفتنة والتعريض للفسوق، كما منع من الرؤيا بمثل ذلك وأمر بالحجاب.
ولا بأس أن تجلس المتجالّة عند الصانع لبعض حوائجها ولا ينبغي ذلك للشابة/ المنتقى: 280/7، فتح الباري: 34/11، 35.

ولا على الذمي البدء[1]، ويرد عليه: وعليكم[2].

وقال بعض العلماء: بحذف الواو والأول أصح[3].

---

(1) ولا على الذمي البدء: النهي عن بدء أهل الذمة بالسلام جاء صريحاً في حديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه البخاري في الأدب المفرد عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام**» وفي قوله ﷺ أيضاً: «**إني راكب غداً إلى اليهود فلا تبدؤوهم بالسلام**»/ فتح الباري: 39/11، الجامع لأحكام القرآن: 5/198 ـ 299.
وكذلك ما أخرجه مالك ﷺ في الموطأ عن عبدالله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن اليهود إذا سلم عليكم أحدهم فإنما يقول: السام عليكم فقل: عليك**»/ المنتقى: 280/7.
قال الباجي في شرحه لهذا الحديث في الموطأ: يقتضي هذا الحديث رد السلام عليهم إذا سلموا، ولا يبتدؤون بالسلام/ المنتقى: 280/7.
وقالت طائفة: يجوز ابتداء الكافر بالسلام لقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ⑧﴾ [الممتحنة: 8].
وقد أجاب القاضي عياض عن هذه الآية: أن القصد من ذلك ليس التحية وإنما تركهم ومباعدتهم.
والأصح الأخذ بحديث أبي هريرة الذي يقتضي رد السلام عليهم إذا سلموا ولا يبتدؤون بالسلام/ المنتقى: 280/7.

(2) ويرد عليه: وعليكم، أمرنا الرسول ﷺ بكيفية الرد على أهل الذمة إذا سلموا علينا في حديث أنس بن مالك ﷺ عند مسلم فقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: عليكم**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 144/14.
وقد بيَّن الرسول ﷺ في حديث الموطأ سبب الاقتصار في رد سلام اليهود والنصارى على «**عليك**» كما في الموطأ أو «**عليكم**» كما في حديث مسلم: أنهم يقولون في التسليم علينا: «**السام عليكم**» أي: الموت، وقيل: الحجارة الثقيلة.
وقد أخرج مسلم عن عائشة ﷺ قالت: استأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة ﷺ: بل عليكم السام واللعنة.
فقال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله، قالت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: قد قلت: وعليكم**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 146/14، والجامع لأحكام القرآن: 304/5.

(3) وقال بعض العلماء بحذف الواو في «وعليكم» والأول أصح: وهذا ما تقرر عند كثير من العلماء كما أوضحه القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾. =

ولا يسلم على الفسقة بالاعتقادات والأفعال ردعاً لهم[1]، ويشترط بيان الباعث على ذلك لهم.

ولا يسلم على المصلي[2]، ولا قاضي حاجة الإنسان[3].

= قال القرطبي: جاء إثبات الواو وإسقاطها في صحيح مسلم: «عليكم» بغير واو وهي الرواية الواضحة المعنى، وأما مع إثبات الواو ففيها إشكال، لأن الواو العاطفة تقتضي التشريك فيلزم منه: أن يدخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت أو من غيره، فاختلف المتأولون لذلك على أقوال؛ أولها: أن يقال: إن الواو عاطفة غير أنا نجاب عليهم، أي: عليكم، ولا يجابون علينا كما قال ﷺ.

وقيل: الواو زائدة وقيل: للاستئناف، والأول أولى، ورواية حذف الواو أحسن معنى، وإثباتها أصح رواية وأشهر، وعليها من العلماء الأكثر/ الجامع لأحكام القرآن: 303/5، 304، شرح النووي لصحيح مسلم: 144/14، 145، فتح الباري: 37/11.

(1) الفسق بالاعتقادات القولية هو كل قول فيه اعتراف بعقيدة مكفرة أو جحود عقيدة من عقائد الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، أو فيه استهزاء بالدين في عقائده وأحكامه كسبّ الخالق والاعتراض على عدل الله وقضائه وقدره وإنكار وجوب الصلاة أو إنكار البعث والحساب والجنة والنار.

أما الفسق بالأفعال فهو كل عمل يعتبر علامة ظاهرة على عقيدة منحرفة كتمزيق المصحف مع قرينة إهانته، أو إلقائه في القاذورات أو ترك الصلاة أو عدم إخراج الزكاة أو التعامل بالربا أو الإدمان على شرب الخمر أو فعل الفاحشة/ البيان والتحصيل: 149/18.

(2) المصلي هو محرم بصلاته مستغرق فيها متدبر لما اشتملت عليه من أقوال وأفعال وأذكار لا يجوز التسليم عليه، لأن إلقاء السلام عليه يوجب الرد ويستحب له الرد بالإشارة برأس أو يد إذا سلم عليه أحد أما الرد باللفظ فمبطل للصلاة.

(3) يمنع التسليم على من كان منشغلاً بقضاء الحاجة تنزيهاً لاسم الله تعالى «السلام» وذكره في أماكن القاذورات، ومنعاً لقاضي الحاجة من المؤاخذة إذا لم يقع رده على السلام.

وقد اقتصر القرافي على ذكر بعض المواضع التي يمنع فيها إلقاء السلام وفيما يلي ذكر بقية المواضع الأخرى:

- التسليم يوم الجمعة والإمام يخطب لانشغال المصلين بالاستماع وللأمر بالإنصات في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة: =

الطرف الخامس: حكمه: أما الابتداء فمندوب والرد واجب على الأصح في مذهب مالك[1].

= أنصت والإمام يخطب فقد لغوت»/ صحيح البخاري وفتح الباري: 2/ 414.

- يمنع التسليم على المستحمين في الحمام إذا كانوا غير مؤتزرين أو للانشغال بالتنظيف.

- ترك السلام على القارىء، لأنه إذا اشتغل برد السلام يقطع عنه التلاوة، وكذلك القول فيمن كان مشتغلاً برواية الحديث ومذاكرة العلم، ولكن إن وقع التسليم على واحد من هؤلاء يكفي الرد بالإشارة وإن رد قارىء القرآن باللفظ استأنف الإعادة.

- ترك السلام على المشتغل بالأذان والإقامة ولا يكره له الرد باللفظ، لأنه قدر يسير لا يبطل الموالاة.

- ترك السلام على المشتغل بأي نوع من الألعاب المشغلة عن ذكر الله، ومثله المغني وفي معناه كل من كان مشتغلاً بمعصية من المعاصي.

- قال النووي: يستثنى من العموم بابتداء السلام من كان مشتغلاً بأكل أو شرب أو جماع أو كان نائماً أو ناعساً.

- الداعي ربه المستغرق في الدعاء مستجمع القلب وفي التسليم عليه قطع لدعائه.

- الملبي في الإحرام يكره أن يسلم عليه، لأن قطعه التلبية مكروه ويجب عليه الرد باللفظ لو ألقي السلام عليه.

- وذكر بعض الحنفية أن من جلس في المسجد للقراءة أو للتسبيح أو لانتظار الصلاة لا يشرع السلام عليهم وإن سلم عليهم لا يجب الجواب عليهم، وكذا الأستاذ إذا سلم عليه تلميذه وهو بصدد التدريس والتعليم/ فتح الباري: 11/ 19، 20، التفسير الكبير: 3/ 280، شرح ابن ناجي للرسالة: 2/ 391.

(1) جاء في شرح الرسالة لابن ناجي أن هناك قولاً في المذهب المالكي يرى أن الابتداء بالسلام فرض كفاية، والمشهور أنه سنة/ شرح الرسالة: 2/ 391.
وقال زروق في شرحه للرسالة: أما كون رد السلام واجباً فلقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: 86].
فالرد من المسلم عليه كان واجباً لا لذاته، والابتداء به سنَّة لأنه إبرار للمسلمين ومعروف بينهم وإن من حق المسلم على المسلم أن يسلم عليه.
وفي البخاري عن عبدالله بن عمر ﷺ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «**أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**»/ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: 11/ 21، شرح زروق: 2/ 391.

الفصل الثاني: تشميت العاطس:

والكلام على لفظه وحكمه، وشرطه، وجوابه، وغايته [(10ب)] فهذه خمسة أبحاث:

البحث الأول في لفظه: يقال: بالشين وبالسين[1]، فالمهملة مأخوذ من السمت[2]، والمعجمة من الشماتة[3].

---

(1) التفريق بين السمت والشمت لا يراه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ/168م) وأبو عبيد القاسم ابن سلام الهروي (226هـ/822م) وغيرهما من علماء اللغة. فقد قال هذا الفريق: السمت أو الشمت بالمعجمة والمهملة: لغتان والمعنى واحد وهو: أن كل داع للخير يقال له: مسمت أو مشمت، والعرب تقول: السمت والشمت في اللفظ الواحد، والمعنى واحد، ولكن هذا ليس مطرداً عاماً بل هو في مواضع معدودة جمعها العالم اللغوي شمس الدين الشيرازي (ت817هـ/1395م) وهو صاحب القاموس في جزء لطيف/ فتح الباري: 10/ 611.

(2) القول بأنه مأخوذ من السمت هو قول أبي العباس ثعلبة الشيباني إمام الكوفيين والبصريين في زمانه (ت243هـ/838م) والسمت هو القصد والطريق القويم، ورجح هذا ابن دقيق العيد في شرح «الإلمام».

ونقل ابن التين عبدالواحد بن عمر الصفاقسي التونسي (ت611هـ/1224م) في كتابه «الخبر الفصيح الجامع لفوائد مسند البخاري الصحيح»: أن التسميت بالمهملة أفصح، وهو من سمت الإبل في المرعى إذا جمعت فيكون معنى قول المسمت للعاطس: يرحمك الله، أي: جمع الله شملك، ولكن ابن التين قال: إن سمت الإبل بالمعجمة، فيكون معنى سمته: دعا له بأن يجمع شمله.

(3) جاء هذا المعنى في كتاب «فتح الباري» عن بعضهم قال: التشميت بالمعجمة مأخوذ من الشمامة وفرح الشخص بما يسوء عدوه، فكأنه دعا له أن لا يكون في حال من يشمت به، أو أنه إذا حمد أدخل على الشيطان ما يسوؤه، فشمت هو بالشيطان.

وقيل: من الشوامت جمع شامتة وهي القائمة، يقال: لا ترك له شامتة أي: قائمة، ويكون معنى يرحمك الله، أي: صان الله شوامتك، أي: قوائمك التي بها قوام بدنك عن خروجها عن الاعتدال.

وارتضى هذا الفقيه المحدث محمد بن العربي المعافري (ت543هـ/1129م) في شرحه لهذا الحديث في صحيح الترمذي فقال: إن العاطس ينحل كل عضو في رأسه، وما يتصل به من العنق ونحوه، فكأنه إذا قيل له: يرحمك الله، كان معناه: أعطاه الله رحمة يرجع بها كل عضو إلى حاله قبل العطاس من غير تغيير في خلقته. =

وتقرير ذلك: إن قول المشمت: يرحمك الله: طلب الرحمة للعاطس؛ لأن العطاس حركة مزعجة للأعضاء، فربما صادفت أخلاطاً متهيئة فيحصل للعاطس آفة أو غيرها من الآفات، فكأنه سأل: أن يرحمك الله، فيبقيه على سمته، ولا يغير شيئاً من خلقه[1]، فينتفي عنه حينئذٍ شماتة الأعداء.

فمن حيث هو طلب للمعنى الثاني أن يقال بالمعجمة.

والسُّنَّة أن يقول: يرحمك الله بالياء من أوله والإفراد في آخره[2].

البحث الثاني: حكمه: قيل: واجب على كل من سمعه، وهو مذهب الظاهرية[3]، وقيل: على الكفاية، وهو مشهور مذهب

= قال أبو عبيد القاسم بن سلام: التشميت بالمعجمة أعلى وأكثر، وقال القاضي عياض اليحصبي (ت544هـ/1130م) هو كذلك.

وقال القزاز أبو عبدالله محمد بن جعفر التميمي النحوي القيرواني مؤلف كتاب «الجامع في اللغة» قال: التشميت: التبريك، والعرب تقول: شمته: إذا دعا له بالبركة، وشمت عليه: إذا برك عليه/ فتح الباري: 10/ 601.

(1) هذا المعنى هو الذي تقدم وارتضاه الفقيه المالكي المحدث ابن العربي.

(2) هكذا جاء في رواية مالك في الموطأ عن نافع أن عبدالله بن عمر ﷺ: «كان إذا عطس فقيل له: يرحمك» فهذا دعاء يحتمل أن يكون دعاء بالرحمة، ويحتمل أن يكون إخباراً على طريق البشارة فكأن المشمت بشر العاطس بحصول الرحمة له في المستقبل.

قال ابن دقيق العيد: ظاهر الحديث أن السُّنَّة لا تتأتى إلا بالمخاطبة/ الموطأ بشرح المنتقى: 7/286، وفتح الباري: 10/ 601 ـ 603.

(3) الظاهرية الذين يقولون بوجوب تشميت العاطس على من سمعه. هم أصحاب مذهب فقهي أسسه أبو سليمان داود بن علي الأصفهاني المولود بالكوفة سنة (202هـ/789م) المتوفى ببغداد عام (270هـ/864م).

وسموا الظاهرية لأن أساس مذهبهم العمل بما جاء منصوصاً في القرآن الكريم أو السنة النبوية حرفياً. فهم جامدون على نصوص الشريعة بالحرف، غير ناظرين إلى مقاصدها وعللها، فإذا لم يجدوا نصاً في الكتاب الكريم أو السُّنَّة النبوية للمسألة قالوا: لا ندري، وأحجموا على الفتوى، فأهملوا القياس وغير ذلك من الأدلة التي تجعل شريعة الإسلام؛ حية مسايرة لكل زمان ومكان ملبية لحاجيات الناس في كل=

مالك[1]، وقيل: مندوب مؤكد[2].

البحث الثالث: شرطه: وهو أن يقول العاطس: الحمد لله[3] جهراً

= عصر ومكان/ الفكر السامي: 360/1، 26/2 ـ 28، وحينئذٍ فالظاهرية لعلهم أول من قال بوجوب التسمية على كل من سمعه، وهنالك من المذاهب الأخرى من سار على منهجهم من المالكية والحنابلة.

فمن المالكية: ابن مزين أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري الأندلسي (ت656هـ/1239م) الفقيه المالكي المحدث، واستدل على ذلك بما رواه أبو هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إذا عطس فحمد الله فحق على كل مسلم سمعه أن يشمته**»/ صحيح البخاري بشرح فتح الباري: 607/10.

وكذلك قوله ﷺ رواية عن أبي برده بن نيار البلوي ﷺ (ت41هـ/642م): «**إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه**»/ صحيح مسلم: 121/18.

وكذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**خمس تجب للمسلم على أخيه: رد السلام وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض واتباع الجنائز**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 3/14.

وقد قوى هذا القول من الحنابلة محمد بن قيم الجوزية (ت751هـ/1331م) فقال: جاء وجوب التشميت على كل من سمعه جاء تصريحاً وبلفظ: «الحق» الدال عليه، وبلفظ «على» الظاهرة فيه، وبصيغة الأمر التي هي حقيقة في الوجوب، وبقول الصحابي: أمرنا رسول الله ﷺ/ فتح الباري: 603/10.

(1) تشميت العاطس فرض كفاية وهو ظاهر مذهب مالك والمشهور من المذاهب كما صرح بذلك القاضي عبدالوهاب بن نصر البغدادي (ت422هـ/1012م).
وبه قال جماعة من العلماء ورجحه أبو الوليد محمد بن رشد الجد (ت520هـ/1107م) وأبو بكر محمد بن العربي المعافري (ت543هـ/1129م) وقال بهذا الوجوب: الحنفية وجمهور الحنابلة/ المصدر السابق.

(2) التشميت: مندوب مؤكد، ويجزىء الواحد عن الجماعة، وهو قول الشافعية، قال ابن حجر في كتابه فتح الباري شرح صحيح البخاري، قال بعد أن عدد أقوال المذاهب الفقهية والعلماء في تبيان حكم التشميت عندهم قال:
«والراجح من حيث الدليل القول الثاني، أي: الوجوب الكفائي للأحاديث الصحيحة الدالة على الوجوب، التي لا تنفي كونه على الكفاية، فإن الأمر بتشميت العاطس وإن ورد في عموم المكلفين، ففرض كفاية يخاطب به الجميع على الأصح، ويسقط بفعل البعض».

(3) لفظ الحمد لله جاء بصيغ متعددة، منها:

حتى يسمع الناس، فإن لم يقل انتفت مشروعية التشميت لانتفاء شرطها[1]،

= أ ـ الحمد لله، فلا يزيد العاطس عليها، وقد ثبت هذا في حديث أبي هريرة ﷺ السابق: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله...»/ صحيح البخاري: 10/608.

ب ـ الحمد لله على كل حال، جاء هذا في حديث النسائي عن علي بن أبي طالب ﷺ وكرم وجهه عن النبي ﷺ قال: «إذا عطس أحدم فليقل: الحمد لله على كل حال»/ اليوم والليلة رقم: 212.

ج ـ الحمد لله رب العالمين، روى هذا النسائي من حديث سالم بن عبيدالله الأشجعي ﷺ من أهل الصفة عن النبي ﷺ قال: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله رب العالمين...»/ اليوم والليلة رقم: 227.

د ـ الجمع بين اللفظين: الحمد لله رب العالمين على كل حال: ورد هذا الجمع في «الأدب المفرد» للبخاري (عن علي ﷺ قال: من قال عند عطسة: الحمد لله رب العالمين على كل حال ما كان لم يجد وجع الضرس والأذن أبداً).

قال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث موقوف، رجاله ثقات، ومثله لا يقال من قبل الرأي، فله حكم الرفع/ فتح الباري: 10/600.

هـ ـ الحمد لله حمداً طيباً مباركاً... أخرج هذا اللفظ الترمذي وغيره من حديث رفاعة بن رافع قال: «صليت مع رسول الله ﷺ فقلت: الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه، مباركاً عليه كما يحب ربنا ويرضى، فلما انصرف قال: من المتكلم ثلاثاً؟ فقلت: أنا، فقال: والذي نفسي بيده لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكاً أيهم يصعد بها»/ فتح الباري: 10/600، 601.

ونقل ابن بطال علي بن خلف البكري الفقيه المالكي المحدث (ت444هـ/1033م) عن الطبراني سليمان بن أيوب اللخمي الحافظ المحدث (ت360هـ/952م) نقل عنه: «أن العاطس يتخير بين أن يقول: الحمد لله، أو يزيد رب العالمين، أو على كل حال، والذي يتخير من الأدلة أن ذلك مجزىء لكن ما كان أكثر ثناء أفضل بشرط أن يكون مأثوراً»/ المصدر السابق.

وقال النووي المحدث شارح صحيح مسلم (676هـ/1258م) في كتابه «الأذكار»: اتفق العلماء على أنه يستحب للعاطس أن يقول عقب عطاسه: الحمد لله، ولو قال: الحمد لله رب العالمين لكن أحسن، فلو قال: الحمد لله كان أفضل/ فتح الباري: 10/ 601.

(1) دليل هذا ما رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن الرسول ﷺ قال: «إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه فإن لم يحمد الله فلا تشمتوه»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 18/ 121.

فقد دل الحديث على مشروعية التشميت إن حمد العاطس الله، وسمعه من كان قريباً منه/ فتح الباري: 10/610، صحيح مسلم بشرح النووي: 18/120، 121.

فإن شمته في هذه الحالة فهو مخالف الشرع[1].

ويكفي أن يرى من يليه قد شمته، فيستدل به على حصول الشرط ويشمته[2].

المبحث الرابع جوابه من العاطس: وفي الحديث: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وإذا قال فليقل له: يرحمك الله، وإذا قيل له ذلك فليقل: يهديكم ويصلح بالكم»[3]، وروي: فليحمد الله، وليقل له من

---

(1) لكن قال المحدث النووي ـ أبو زكرياء يحيى بن شرف النووي ـ قال: ويستحب لمن حضر من عطس فلم يحمد الله ليحمد فيشمته، وهو من باب النصيحة والأمر بالمعروف، وأقل الحمد والتشميت أن يسمع صاحبه/ فتح الباري: 10/ 611.
ولكن إذا أتى العاطس بلفظ آخر غير الحمد لا يشمت لما أخرجه النسائي من حديث سالم بن عبيدالله الأشجعي ﷺ قال: عطس رجل فقال: السلام عليكم. فقال النبي ﷺ: **«عليك وعلى أمك، فقال: إذا عطس أحدكم فليحمد الله»**/ اليوم والليلة رقم: 225.

(2) مشروعية التشميت لمن حمد الله إذا عرف السامع أنه حمد الله، وإن لم يسمعه كما لو سمع العطاس، ولم يسمع الحمد، بل سمع من شمت العاطس، فإنه يشرع له التشميت لعموم الأمر به لمن عطس فحمد الله/ فتح الباري: 10/610، صحيح مسلم بشرح النووي: 18/120، 121.

(3) لفظ هذا الحديث كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم»**/ البخاري: 10/608.
ولا أصل لما اعتاده كثير من الناس من استكمال قراءة الفاتحة بعد قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، وكذلك العدول من الحمد لله إلى أشهد إن لا إلـه إلا الله، أو تقديمها على الحمد، فذلك مكروه/ فتح الباري: 10/ 601.
أما الحكمة في مشروعية الحمد للعاطس فقال الحليمي الحسن الجرجاني (ت403هـ/993م): إن العطاس يدفع الأذى عن الدماغ الذي فيه قوة الفكر، ومنه منشأ الأعصاب التي هي معدن الحس، وبسلامته تسلم الأعضاء فيظهر بهذا أن العطاس نعمة جليلة، فناسب أن تقابل بالحمد لله لما فيه من الإقرار له بالخلق والقدرة وإضافة الخلق إليه لا إلى الطبائع/ فتح الباري: 10/602 ـ 611.
ومن أدب العطاس أن يخفض العاطس صوته بالعطس، ويرفعه بالحمد، وأن يغطي وجهه لئلا يخرج من فيه أو أنفه ما يؤذي جليسه، وقد أخرج أبو داود والترمذي بسند جيد عن أبي هريرة ﷺ قال: «كان النبي ﷺ إذا عطس وضع يده على فيه وخفض صوته»/ فتح الباري: 10/602.

عنده: يرحمك الله، إذا قيل له ذلك، وليرد عليه: يغفر الله لنا ولكم[1]، فقالت الحنفية بالجواب الثاني[2]، لأن الخوارج[3] كانت تقول الأول، لأنهم لا يستغفرون لأحد[4].

---

(1) هذه الصيغة جاءت في حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم»/ فتح الباري: 608/10.

(2) الجواب الثاني هو: «يغفر الله لنا ولكم» وهو قول الطحاوي أبو جعفر أحمد بن محمد الأزدي (ت32هـ/340م) من أعلام الحنفية فقهاً وحديثاً، واحتج به بقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: 86].

قال: «والذي يجيب بقوله: غفر الله لنا ولكم لا يزيد المشمت على معنى قوله: يرحمك الله».

والأفضل من هاتين الإجابتين الدعاء بالهداية، لأن المغفرة ستر الذنب، والرحمة ترك المعاقبة بخلاف دعائه بالهداية والإصلاح، فإن معناه أن يكون سالماً عن مواقعة الذنب صالح الحال، فهو فوق الأول فيكون أولى/ فتح الباري: 509/10.

وهذا القول منقول عن إبراهيم النخعي (ت294هـ/844م) وقال البخاري بعد تخريجه للحديث في «الأدب المفرد»: هو أثبت ما يروى، وقال محمد بن جرير الطبري (ت310هـ/903م): هو من أثبت الأخبار، وقال البيهقي: هو أصح شيء ورد في هذا الباب/ المصدر السابق.

(3) الخوارج: أو حزب إسلامي انشق عن علي ﷺ ومعاوية في الفتنة التي وقعت آنذاك وكفروا علياً ﷺ ولا يعلمون إلا بقليل من السُّنَّة.

ومن أرائهم جواز الخروج عن الإمام لمجرد الفسق، ويكفرون بالمعاصي، وقد دسوا لعلي بن أبي طالب ﷺ من قتله/ مسالك الإمامة: 36، وشجرة النور الزكية التتمة: 71.

(4) قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الفقيه المفسر المحدث قال: «إن الذين منعوا من جواب التشميت بقول: «يهديكم الله ويصلح بالكم» احتجوا بأنه تشميت اليهود».

ومن أدلتهم على ذلك: ما أخرجه البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين (ت485هـ/1074م) في الشعب عن عبدالله بن عمر ﷺ قال: (اجتمع اليهود والمسلمون فعطس النبي ﷺ فشمته الفريقان جميعاً فقال للمسلمين: يغفر الله لكم ويرحمنا وإياكم، وقال لليهود: يهديكم الله ويصلح بالكم) قال ابن حجر: إنه حديث ضعيف؟

واحتج بعضهم بأن الجواب المذكور مذهب الخوارج؛ لأنهم لا يرون الاستغفار للمسلمين/ فتح الباري: 609/10.

وقال الشافعي بالأول لعموم الحاجة إلى الهداية وتحقق المغفرة على تحقيق الذنوب، وهذا هو الصحيح واختار غيرهم [(11أ)] الجمع بين اللفظين تحصيلاً للمصلحتين[1].

وأما أهل الذمة[2] فلا يقال لهم: يغفر الله لكم، لأنه كفر ـ كما تقدم ـ لما فيه من طلب الرد على الله تعالى من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[3].

وأن يقال لهم: يهديكم الله ويصلح بالكم، أي: بالإيمان[4].

---

(1) ممن رأى الجمع بين اللفظين: مالك، فقد قال «الباجي في المنتقى: إن مالكاً قال: لا بأس أن يقول العاطس لمن شمته: يهديكم الله ويصلح بالكم، وإن شاء قال: يغفر الله لنا ولكم، وهو مذهب الشافعي»/ المنتقى: 7/286.

وقال أبو الوليد محمد بن رشد الجد: الثاني أولى، لأن المكلف يحتاج إلى طلب المغفرة، والجمع بينهما أحسن.

واختار أبو محمد عبدالله بن أبي جمرة الفقيه المالكي، الحافظ المحدث (ت695هـ/1277م) اختار الجمع بين اللفظين، لأنه أجمع للخير وأفضل للخروج من الخلاف، ورجح هذا الرأي تقي الدين ابن دقيق العيد الشافعي (702هـ/1283م)/ فتح الباري: 10/609.

(2) أهل الذمة اليهود والنصارى وقع استثناؤهم من التشميت للحديث الذي أخرجه النسائي في كتابه عمل اليوم والليلة من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «كانت اليهود يتعاطسون عند النبي ﷺ رجاء أن يقول: يرحمكم الله، فكان يقول: يهديكم الله ويصلح بالكم»/ عمل اليوم والليلة رقم: 232.

(3) تكررت هذه الآية في سورة النساء مرتين، الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: 48].

والثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: 116].

(4) قال ابن حجر بعد ذكر الحديث: إن أهل الذمة داخلون في عموم الأمر بالتشميت لكن لهم تشميت مخصوص وهو الدعاء لهم بالهداية وإصلاح الشأن ولا مانع من ذلك/ فتح الباري: 10/604.

فسر القرافي أن صلاح البال لا يكون إلا بالإيمان، وهو التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح، ومجموع هذه الثلاثة هو الإسلام، ولهذا فلا فرق بين الإيمان والإسلام فهما بمعنى واحد عند الجمهور/ النووي على شرح مسلم: 1/148، 149.

المبحث الخامس في غايته: روي في الحديث: «**إذا عطس فشمته، ثم إن عطس فشمته، ثم إن عطس فقل: إنك مضنوك**»[1].

شك الراوي هل في الثالثة أو الرابعة[2].

وسر ذلك: أن سبب الحمد عقيب العطاس ما دخل على العاطس من الراحة بسببه، فإذا كان الألم مستمراً. كان سبب هذا الحمد مفقوداً، ويفقد فلا يتحقق شرط التشميت فلا يشرع التشميت[3].

---

(1) مضنوك: فسره الرسول ﷺ في عدد من روايات هذا الحديث المختلفة بأن معناها مزكوم ومنها: ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**شمته واحدة، وثنتين وثلاثاً وما كان بعد ذلك فهو مزكوم**»/ فتح الباري: 604/10.

(2) هذا لفظ حديث رواه مالك في الموطأ وهو بتمامه: أن الرسول ﷺ قال: «**إن عطس فشمته، ثم إن عطس فشمته، ثم إن عطس فقل: إنك مضنوك**»، فقال عبدالله بن أبي بكر راوي الحديث: لا أدري أبعد الثالثة أو الرابعة/ الموطأ بهامش المنتقى: 285/7.

قال عيسى بن دينار القرطبي (ت212هـ/808م): الذي أخذ به مالك أن يبلغ بالتشميت ثلاثاً، فإن زاد إلى ذلك فليشمت، وذلك أنه لما ورد الحديث بالشك ذهب مالك إلى الاحتياط/ المصدر السابق.

(3) قال ابن حجر في فتح الباري: «خص من عموم أمر الرسول ﷺ جماعة، ولكن القرافي ذكر منهم ثلاثة فقط: من لم يحمد الله، والمزكوم وأهل الذمة إذا فسرنا التشميت بالدعاء بالرحمة لا بما ذكره الرسول ﷺ في تشميتهم كما مر قبل الآن أما من لم يذكرهم القرافي فثلاثة هم:

أ ـ من يكره التشميت خلافاً لمن يرى أن التشميت هو دعاء بالرحمة، يناسب المسلم كائناً من كان.

ب ـ من عطس والإمام يخطب، لوجوب الأمر بالإنصات وتحريم الكلام عند الخطبة لما رواه مالك في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا قلت لصاحبك: انصت والإمام يخطب فقد لغوت**»/ الموطأ بهامش المنتقى 188/1.

فقد أفاد الحديث المنع من الكلام إذا خطب الإمام يوم الجمعة وأكد ذلك ﷺ بأن من أمر غيره بالصمت فهو لاغ، لأنه قد أتى من الكلام بما نهي عنه. كما أن من نهى في الصلاة مصلياً عن الكلام فقد أفسد على نفسه صلاته، وإنما نص=

= الرسول ﷺ على أن الأمر بالصمت وقت الخطبة لاغ تنبيهاً على أن كل مكلم غيره لاغ.

وهذا الأمر بالإنصات للخطبة على من شهدها سمعها أو لم يسمعها عند مالك وأبي حنيفة وأكثر الفقهاء، بينما قال أحمد بن حنبل: يجب الإنصات على من سمع الخطبة دون من لم يسمعها وهو أحد قولي الشافعي.

والدليل على وجوب الإنصات للخطبة حديث أبي هريرة ﷺ المتقدم وهو عام/ المنتقى: 188/1.

ولكن لو كان العاطس الخطيب وقد حمد الله واستمر في خطبته فالحكم أنه لا يشرع في حقه التشميت إلا إذا توقف قليلاً بعد الحمد، ولا يمتنع أن يشرع تشميته.

ج ـ من كان عند عطسه في حالة يمتنع عليه فيها ذكر الله، كما إذا كان في صلاة الجماعة أو على الخلاء لما رواه الحاكم عن أنس ﷺ: (أن الرسول ﷺ لبس خاتماً نقشه محمد رسول الله، فكان إذا دخل الخلاء وضعه)/ نيل الأوطار: 89/1.

والحديث يدل على تنزيه كل ما فيه ذكر الله تعالى عن إدخاله المراحيض، ومن باب أولى التلفظ به/ فتح الباري: 607/10.



الباب الرابع
في الآداب الباطنة

وفي ذلك ثلاثة فصول:

1 ـ الفصل الأول في الآداب الباطنة، وهي عشرة

● «الأدب [الباطني] الأول»: افتقار القلب وتضرعه إلى الله وهو أعظم آداب الداعي[1].

---

(1) خلق الله الإنسان ضعيفاً تنتابه الأمراض والشدائد وصنوف المكدرات والمنغصات والمهلكات، ودعامة تفريج كربه وشفائه، وحمايته هي الدعاء، وتوجيه القلب إلى خالقه داعياً ضارعاً، مفتقراً إلى رحمته، راجياً من فضله وإحسانه، ومنه كشف ضره بأمر منه ﷻ في قوله جل وعلا: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: 60].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝62﴾ [النمل: 62].

وقد تواردت الآثار عن النبي ﷺ بالترغيب في الدعاء، والحث عليه، ومنها: حديث أبي هريرة ﷺ عند الترمذي عن النبي ﷺ قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»/ سنن الترمذي رقم: 3370.

وأخرج الترمذي أيضاً عن عبدالله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج»/ سنن الترمذي رقم: 3548.

فالضراعة إلى الله تعالى من قلب مفتقر لكرمه الواسع وعطفه على خلقه الشامل. هذه=

● «الأدب» الباطني الثاني: الإقبال على الله بكلية القلب[1].

«الأدب» الباطني الثالث: اشتمال القلب على الاعتراف بالمخالفات والتقصير، فإنه سبب الإجابة لقوله تعالى حكاية عن يونس عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾[2]، والاستدلال به من وجهين:

= الضراعة بقلب خاشع هي عبادة كما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند الترمذي قوله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»/ فتح الباري: 94/11.

وقد توعد الله بعقاب كل من لا يتذلل ولا يخضع ويفتقر قلبه إليه فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [الزمر: 60].

وقال الجمهور الأعظم من العقلاء: إن الدعاء أهم مقامات العبودية خلافاً لبعض الجهال الذين لا تفتقر قلوبهم إلى عون الله، فقد رأوا أن الدعاء شيء عديم الفائدة واحتجوا بذلك بعد أمور، منها:

أ ـ إن المطلوب بالدعاء إذا كان معلوم الوقوع عند الله تعالى كان واجب الوقوع فلا حاجة إذن إلى الدعاء، وإن كان غير معلوم الوقوع كان ممتنع الوقوع فلا حاجة أيضاً إلى الدعاء.

ب ـ إن الدعاء يشبه الأمر والنهي وذلك من العبد في حق الله تعالى سوء أدب.

ج ـ حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»/ سنن الترمذي رقم: 2926.

إلى آخر أدلتهم التي ناقشها العلماء وفندوها ببراهين لا تقبل الطعن/ التفسير الكبير: 128/2.

وقالت طائفة: الأفضل ترك الدعاء والاستسلام لقضاء الله تعالى، وهم محجوجون بالأمر بالدعاء في الآية السابقة: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وغيرها من الأدلة/ فتح الباري: 94/11.

(1) الإقبال على الله بكلية القلب: معناه: يكون جاداً مجتهداً منصرف الهمة إلى ربه عن غيره، لا يتفكر في غير ما يدعو ربه به، عارفاً بمعاني دعائه معرفة دقيقة مستحضراً في قلبه عظمة الله وأنه قريب منه عالم بحاله مطلع على سريرته متيقن بإجابة دعائه.

(2) والآيتان هما: الأنبياء: 87، 88: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾.

ذا النون صاحب الحوت المسمى بالنون، وهو سيدنا يونس عليه السلام الذي ابتلعه ذلك الحوت لما رموه في البحر من السفينة بعد أن وقعت القرعة عليه بأنه زائد عن=

● الأول: إنه رتب الاستجابة على هذا القول فيكون سبباً لما تقرر في علم الأصول[1].

● الثاني: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

«الأدب» الباطني الرابع: التوبة الصحيحة الشرعية:[3] وإذا حصلت

= حملها. فدعا ربه في ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت تخليصه مما وقع فيه، معترفاً بظلمه وهو ترك قومه غاضباً لما لم ينزل الله عليهم العذاب بدون إذن الله تعالى/ التفسير الكبير: 302/1.

(1) السبب عند الأصوليين: هو ما يلزم من وجوده الوجود، ومن عدمه العدم لذاته، كالزوال لوجوب صلاة الظهر والصوم لرؤية هلال رمضان، فإذا لم ير الهلال فلا صوم، وإذا لم يأت الزوال فلا وجوب لصلاة الظهر/ المستصفى: 93/1.
وتطبيقاً لهذه القاعدة في مسألتنا: إن الاستغاثة بالله تعالى مع الاعتراف بالتقصير سبب لاستجابة الله تعالى دعاء من دعاه مع وجود شروط الاستجابة من صلاح وتقوى.

(2) أي: كما أنجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس في بطن الحوت وظلمته لما استغاث بنا، ننجي المؤمنين كذلك من كروبهم إذا استغاثوا بنا بما أسلفوا من الطاعة والتقوى/ الجامع لأحكام القرآن: 334/111.

(3) التوبة الصحيحة الشرعية، التوبة لغةً: الرجوع، فيقال: تاب وثاب وآب بمعنى رجع، أما التوبة الشرعية فهي الرجوع عن الذنوب والمعاصي والعودة إلى الطاعة والامتثال لله تعالى مع تدارك ما فات من حقوق الله والعباد.
وقد أجمع العلماء على أن التوبة واجبة على الفور ولا يجوز تأخيرها لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].
وهذه الذنوب التي يتاب منها قسمان: حقوق لله تعالى وحقوق للآدميين.
فإذا كان الذنب حقاً لله تعالى من العبادات كالصلاة والصيام، فإن التوبة لا تتم إلا بقضاء ما فات، وإن كانت حدوداً أو غيرها، فهناك تفصيل طويل في كيفية التوبة منها لا يتسع المقام لذكره.
وإن كان الذنب ظلماً للعباد فكذلك، لا تصح التوبة إلا بإرجاع الحقوق إلى أصحابها أو العفو عنها. إن كان قادراً على ذلك، وإن لم يكن قادراً فليعزم على الأداء إذا قدر/ الجامع لأحكام القرآن: 199/18، 200.
أما التوبة الصحيحة الشرعية، فإنها لا تتم إلا إذا تركزت على عدة أركان اختلف العلماء في تحديدها:
أ ـ الإقلاع عن المعصية تماماً وتركها وجوباً، لأنه إذا لم تترك كان فاعلها مذنباً فلا يكون تائباً. =

التوبة حصلت المغفرة(1).

= ب ـ الندم على فعل الذنب: وهو ركنها الأعظم، لأن المذنب إذا لم يندم يكون راضياً بكونه فاعلاً للمعصية، والراضي بالشيء قد يفعله، ومعنى الندم توجع القلب عند إحساسه بخطاياه ومعاصيه، وحسرته وحزنه ومرارته والبكاء أحياناً كلما تذكر.
ج ـ العزم على أن لا يعود إلى المعصية أبداً خوفاً من الله وحياء منه لا من الناس.
وإن كانت المعصية بحق آدمي ينضاف ركن رابع وهو التحلل من صاحب ذلك، وإرجاع الحقوق إلى أهلها إلا إذا وقع العفو عنها.
وزاد الغزالي ركناً خامساً وهو العلم الكامل بأن الذنوب سموم مهلكة، فهذا العلم هو نور يوجب الندم فيتألم به القلب كلما أبصر نور الإيمان/ المستصفى 3/4 وما بعدها، الجامع لأحكام القرآن: 5/190، 191، والتفسير الكبير: 1/310، وصحيح مسلم بشرح النووي: 17/59، 60.

(1) التوبة إذا استجمعت شرائطها تكون مقبولة بصريح الآيات القرآنية والأحاديث وإجماع أهل السُّنَّة، فمن الآيات الكريمة:
أ ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: 25].
ب ـ قول الله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: 3].
ومن الأحاديث ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 17/59.
قال الغزالي: الفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة/ الإحياء: 4/13.
واعتماداً على نصوص الشريعة المثبتة لقبول توبة المذنب قال أهل السُّنَّة بحصول المغفرة وقبول التوبة بالإجماع.
قال النووي في شرحه لصحيح مسلم: عرفنا قبول التوبة بالشرع والإجماع خلافاً للبعض/ صحيح مسلم: 17/59.
وهؤلاء المنشقون عن إجماع أهل السُّنَّة على رأسهم القاضي عبدالجبار المعتزلي (ت415هـ/1005م) ومن آرائه: أنه يجب على الله قبول التوبة عقلاً واستدل مع جماعته بكثير من الأدلة ناقشها المفسر الكبير فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير وأبطلها/ التفسير الكبير: 3/170، 171.
وقد ورد في الرد على هؤلاء القائلين بوجوب قبول الله لتوبة المذنب إذا استكملت شرائطها ما ذكره القرطبي في تفسيره: بأن شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجب عليه، والحق ﷻ خالق الخلق ومالكهم والمكلف لهم فلا يصح أن يوصف بوجوب شيء عليه تعالى عن ذلك، غير أنه سبحانه أخبر وهو الصادق في وعده بأنه=

«الأدب» [الباطني] الخامس: اعتراف القلب بالعجز عن الحمل لقوله تعالى حكاية عن أيوب[1] عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾[2]، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾[3][4].

= يقبل التوبة عن العاصين من عباده بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: 25].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: 82].

فإخباره ﷻ عن أشياء أوجبها عن نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء ولكن العقيدة الصحيحة أنه لا يجب عليه شيء عقلاً، أما السمع فظاهره قبول توبة التائب.

قال إمام الحرمين عبدالملك الجويني (ت478هـ/1060م) وغيره: وهذه الظواهر إنما تعطي غلبة ظن لا قطعاً على الله تعالى بقبول التوبة/ الجامع لأحكام القرآن: 5/90، 91.

(1) أيوب عليه السلام رسول من رسل الله وقد اختلف في نسبه، والمحقق أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام لقوله تعالى في عرض الحديث عن إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: 84].

وكان أيوب عبداً صالحاً أنعم الله عليه بالمال والأهل والأولاد شاكراً لأنعمه وكرمه وأفضاله براً تقياً رحيماً بالمساكين، يكفل اليتامى يكرم الضيف إلى غير ذلك من صفات الصالحين/ الجامع لأحكام القرآن: 11/322 ـ 327.

(2) مسني الضر: الضر الذي مس أيوب عليه السلام اختلف العلماء والمفسرون في تحديده وبيانه وبلغت أقوالهم إلى سبعة عشر قولاً في بيان نوعه، ذكرها القرطبي في تفسيره/ الجامع لأحكام القرآن: 11/322.

والبلاء الذي أصاب أيوب فقد المال والأهل والولد والصديق والغربة والإصابة بالأمراض الفتاكة التي أصابته حتى قيل: صار لحمه يتناثر منها، والدود يأكله.

ولما بلغ ابتلاء الله له مبلغاً لم يعد قادراً على تحمله نادى ربه داعياً ضارعاً صابراً محتسباً طامعاً في رحمته، وإخراجه من محنته/ التفسير الكبير: 6/123 وما بعدها، والجامع لأحكام القرآن: 11/322 ـ 327، وتفسير ابن كثير: 3/188 ـ 190.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 83.

(4) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾: أول آية 84 من سورة الأنبياء والآية كاملة: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

بينت هذه الآية الكريمة استجابة الله لأيوب، وكشف الضر عنه، وقد تمثل في أمرين:

أ ـ شفاؤه من مرضه بالشراب والاغتسال من العين التي تدفق ماؤها بعد ضرب=

أخبر على أن سبب الإجابة الاعتراف بالعجز والحمد لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[1].

[(11ب)] والتقدير ما مر من الترتيب[2].

«الأدب» السادس: إخلاص القلب لله تعالى بالدعاء[3].

= رجليه بأرضها بأمر من الله تعالى في قوله: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝﴾ [ص: 42].
فشفاه الله بذلك وعاد أكمل ما يكون صحة وقوة.
ب - رد أهله إليه، حيث أحيا الله من مات من أولاده ورزقه مثلهم رحمة كبيرة من الله وفضلاً منه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ روي أنه صار له من الأولاد ستة وعشرون ذكراً، ثم ختمت الآية: بالعظة والاعتبار مما ذكر لأيوب تنبيهاً لأصحاب العقول بأن الله تعالى لما سلط البلاء عليه صبر محتسباً، فجازاه الله تعالى بإيصال النعم إليه بناءً على أن من صبر ظفر/ الجامع لأحكام القرآن: 322/11 - 327، 207/15، والتفسير الكبير: 198/7 - 202، 170/3، 171، وتفسير ابن كثير: 188/3 - 190، 39/4، 40.

(1) سورة النمل، الآية: 62 والآية بأكملها: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝﴾؟ وهذه الآية دعم لما قرره القرافي لضرورة الدعاء عند فقد التحمل، والمضطر داخل في ذلك.
المضطر: المحتاج، والضرورة هي الحالة الماسة إلى الالتجاء، والمضطر هو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى التضرع إلى الله تعالى.
وقوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما يحدث من الأضرار وتحويلها إلى نعم: من فقر إلى غنى ومرض إلى صحة وضيق إلى سعة إلا الله القادر جل وعلا.
وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ الخلافة الملك والتسلط، والمعنى تتوارثون سكنى الأرض والتصرف فيها قرناً بعد قرن/ التفسير الكبير: 415/6، 416، تفسير ابن كثير: 370/3، 371.

(2) ما مر قريباً من تفسير الأصوليين للسبب من أنه ترتيب الحكم على وجود السبب وهو في مسألتنا - كما فسره القرافي - أن سبب إجابة الدعاء عجز الداعي عن تحمل ما لحقه من ضرر أو مرض واعترافه بذلك لخالقه، لأنه لن يقدر أحد على التخفيف عليه مما أصابه من سوء إلا القادر الخالق كاشف الضر بإيجاد أسباب الشفاء والأنكاد والعلل/ التفسير الكبير 415/6، 416، تفسير ابن كثير: 370/3، 371.

(3) أمر الله تعالى بالدعاء والإخلاص فيه في قوله جل شأنه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا=

«الأدب» السابع: اعتقاد القلب وجزمه أنه لا يحسن إلا الله، لأن مؤمن آل فرعون لما فوض أمره إلى الله تعالى في دعائه وقاه مكرهم[1]، فرتب الوقاية على التفويض فيكون سبباً للقاعدة الأصولية[2].

«الأدب» الثامن: تصفية القوت من التشبهات بعد اجتناب المحرمات لحديث: «فأنى يستجاب لذلك»[3].

= هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ [غافر: 65]، والإخلاص من خلص الشيء من الشوائب والمكدرات إذا صفا، ويسمى الفعل المصفى المخلص: إخلاصاً.

والإخلاص هو النية الخالصة بأن يأتي الداعي بالدعاء خالصاً لمقصد واحد هو الضراعة إلى الله تعالى بتيسير أمره ـ أو زوال ضره مخلصاً له لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر دنيوياً.

وهذا الإخلاص محله القلب ويكون ـ كما قلنا ـ في القصود والنيات.

والنية ترجع إلى إجابة البواعث على العمل، فمهما كان الباعث واحداً متجرداً عن بواعث أخرى سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً بالإضافة إلى المنوي، فمن دعا وغرضه ثناء الناس عليه واستحسانهم لصوته وهيئة ضراعته وحبهم له فهو مخلص في نيته البعيدة عن عبادة الله في دعائه.

ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد تعبد الله تعالى بالدعاء من جميع الشوائب الدنيوية/ التفسير الكبير: 452/8، 453، والجامع لأحكام القرآن: 144/20، والإحياء: 179/4 وما بعدها.

(1) قال تعالى مخبراً على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر: 44 ـ 45].

(2) ترتيب النجاة من القتل بتفويض الأمر لله: فلما أسلم القبطي أمره إلى الله وتوكل عليه حفظه من القتل الذي توعدوه به.

وروي أن هذا المؤمن هرب إلى الجبل فلم يقدروا عليه/ الجامع لأحكام القرآن: 318/15.

فسبب وصية مؤمن آل فرعون ونجاته من التعذيب والقتل الذي توعدوه به هو تفويض أمره إلى الله الخبير بأحوال العباد، فتم ترتيب النجاة من الهلاك على تفويض الأمر لله.

(3) ولفظ الحديث كاملاً عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين»، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: 51]. =

الأدب التاسع: حسن الظن بالله تعالى في الإجابة للحديث[1].

فمن ظن أن الله لا يستجيب لم يستجب له عقوبة له على سوء ظنه بخلاف عكسه، وكذلك المتطيرون[2] يتأذون بما يتطيرون منه دون غيرهم

= وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ [البقرة: 172] ثم ذكر - أي: الرسول ﷺ - **الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»**/ صحيح مسلم بشرح النووي: 7/100.

(1) لفظ الحديث كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»** صحيح البخاري بفتح الباري: 13/384، وصحيح مسلم بشرح النووي مع اختلاف في بعض الألفاظ: 17/12.

معنى ظن عبدي بي: ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكاً بوعده الصادق إنه لا يخلف الميعاد.

ويؤيد هذا حديث الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قوله ﷺ: **«ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»**/ سنن الترمذي رقم: 3479.

وقوله ﷺ: **«ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي...»** أي: ذكرني بالتنزيه سراً ذكرته بالثواب والرحمة سراً، وإذا ذكرني جهراً ذكرته جهراً، والملأ: الملائكة.

وقوله ﷺ: **«وإن تقرب إلي بشبر....»** أي: إن زاد في الطاعة زدته توفيقاً وإعانة.... وإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولة، أي: صببت عليه الرحمة وسبقته بها/ فتح الباري: 13/385، 386.

(2) المتطيرون: المتشائمون، التطير: التشاؤم، وأصله الشيء المكروه من قول أو فعل أو مرئي.

وأصل التطير أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون في قضاء شؤونهم على الطير، فإذا خرج أحدهم لأمر سفراً أو تجارة أو غيرها، فإن رأى الطير على يمينه تيمن به وتبرك واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم ورجع، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمد عليه إقداماً وإحجاماً.

وكانوا يسمونه السانح والبارح، فالسانح ما يطير من يسار الشخص إلى يمينه، فيتيمنوا به، والبارح عكسه، فإذا خرج ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وشؤونهم=

عقوبة لهم[1].

= تشاؤماً به، وتركوا مصالحهم في كثير من الأوقات.
ولما جاء الشرع العزيز نهى عن هذا الفعل وحرمه لاعتقاد الجهلة بنفعه أو ضرره بعيداً عن الله تعالى فقال رسول الله ﷺ رواية عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا طيرة وخيرها الفأل، قالوا: ما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»/ صحيح البخاري بفتح الباري: 212/10، وصحيح مسلم بشرح النووي: 218/14.
وقد أخبر الرسول ﷺ في حديث أبي داود عن عبدالله بن مسعود ﷺ: «**الطيرة شرك**»/ سنن أبي داود رقم: 10.
وإنما كانت كذلك لاعتقاد الجهلة بأن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضراً فكأنهم أشركوه مع الله تعالى.
أما الفأل فهو كما فسره الرسول ﷺ بأنه الكلمة الحسنة الصالحة الطيبة المسموعة يسر بها السامع ويتبرك بها يسمعها صدفة كمن ينادي: يا مفلح يا ناجح.
أما التفاؤل المكتسب كأخذ الفأل بالمصحف وضرب الرمل ونحوه فهو حرام مثل الأزلام التي كانت عند السادن في الكعبة يحتكمون إليها فيأتمرون بأمرها ولا يفعلون بنهيها/ فتح الباري: 212/10، 213، وصحيح مسلم بشرح النووي: 218/14 ـ 220، والمدخل: 277/1، 278.

(1) عقوبة المتطير بينها القرافي في الفرق 266 بين قاعدة التطير وقاعدة الطيرة وما يحرم منها ولا يحرم فقال: بعد أن عرف التطير بأنه الظن السيئ الكائن بالقلب، وأن الطيرة هي الفعل المترتب على هذا الظن من فرار أو غيره.
وبعد أن بين أن كليهما حرام للحديث المتقدم: «**لا طيرة وخيرها الفأل....**» فبعد بيان ما تقدم قال: كراهة الرسول ﷺ للطيرة، لأنها من باب سوء الظن بالله تعالى، والمتطير قد لا يسلم مما تطير منه إذا فعله وغيره لا يصيبه شيء.
ثم ذكر سؤالاً وجه لبعض العلماء من بعض المتطيرين فقال: إنني أتطير فيقع الضرر بي وغيري يقع له مثل ذلك السبب فلا يجد منه ضرراً، وقد أشكل علي ذلك فهل لهذا أصل في الشريعة؟
فقال له: نعم، قوله ﷺ حكاية عن الله تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي...**» الحديث، وقد تقدم، وفي رواية: «**فليظن بي خيراً**» فإذا ظننت أن الله تعالى يؤذيك عند ذلك الشيء، الذي تطيرت منه، فأنت قد أسأت الظن بالله تعالى فيقابلك الله على سوء ظنك به بأذايتك بذلك الشيء الذي تطيرت منه، وغيرك لا يسيء ظنه بالله تعالى ولا يعتقد أنه يحصل له منه ضرر فلا يعاقبه الله تعالى فلا يتضرر/ الفروق: 238/4.

الأدب العاشر: اجتناب الإياس من الإجابة للحديث: «**يستجاب لأحدكم**»[1].

وروي أن موسى قام يدعو على فرعون أربعين سنة: فإياك والإياس من رحمة الله فتكون من الهالكين[2].

* * *

(1) ولفظ الحديث عند البخاري رواية عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل**»/ صحيح البخاري بفتح الباري: 11/140.
ولفظ مسلم عن أبي هريرة ﷺ: «**لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل**»ﷺ، **قيل: يا رسول الله؛ ما الاستعجال؟**».
قال: «**يقول: قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويقطع الدعاء**».
والاستحسار: الانقطاع عن الدعاء.
والمعنى: أنه ينبغي إدامة الدعاء ولا يستبطىء الإجابة أو تعجيلها، لأن من شروط الإجابة عدم التعجيل فيها كما جاء في الحديث/ شرح صحيح مسلم شرح النووي: 17/51، 52.
فهذا الحديث دلنا على أدب من آداب الدعاء، وهو ملازمة الطلب وعدم اليأس من الإجابة، لما في ذلك من الانقياد لله تعالى والخضوع لأمره وإظهار الافتقار والاحتياج إليه في كل شأن، لأنه الغني الرحيم مجيب الدعاء.
ولذلك فعلى المؤمن أن لا يقع فيما يقع فيه بعض الجهلة من القول: إن كثيراً من الناس يدعون فلا يستجاب لهم وهو خطأ كبير، لأن الأحاديث دلت على أن كل داع يستجاب له، ولكن الإجابة تتنوع، فتارة تقع بعين ما دعا له وتارة بعوضه.
ومن الأحاديث الدالة على ذلك حديث عبادة بن الصامت ﷺ (ت34هـ/636م) عند الترمذي عن النبي ﷺ قال: «**ما على الأرض مسلم يدعو بدعوة إلا آتاه الله أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**».
فقال رجل من القوم: إذن نكثر قال: «**الله أكثر**»/ سنن الترمذي رقم: 123.
وروى أحمد عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**»/ فتح الباري: 11/96 ـ 141.

(2) هلاك الإياس من رحمة الله أو فضله أو عدم استجابة دعائه أو غير ذلك هو خروجه=

2 ـ الفصل الثاني في الأدب الظاهر وهي عشرة

«الأدب الظاهر» الأول: تقديم الطهارة والصلاة[1].

= من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر، وهذا ما نطقت به الآية الكريمة ـ حكاية عن يعقوب عليه السلام ـ حاثاً أبناءه على البحث الجدي عن أبنيه يوسف وبنيامين؛ قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿87﴾﴾ [يوسف: 87].

ووصف الله تعالى اليائسين بالضالين فقال على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿56﴾﴾ [الحجر: 56].

وقال ﷻ ناهياً إيانا عن القنوط واليأس: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿53﴾﴾ [الزمر: 53].

وهي مخصصة بقوله جل من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48].

وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنه: «إن المؤمن بالله على خير كثير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء».

وأعلم أن اليأس من رحمة الله لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الله ﷻ غير قادر على الكمال، أو غير عالم بجميع المعلومات، أو ليس بكريم، بل هو بخيل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وكل واحد من الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عن حدوث أحد هذه الثلاث وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً والله أعلم/ التفسير الكبير: 160/5.

(1) من الآداب التي يحسن بالمسلم أن يتحلى بها عند التوجه إلى ربه بالدعاء أن يكون طاهراً مصلياً مناجياً لربه، سواء كانت الصلاة مفروضة أو نافلة لما تشتمل عليه الصلاة من أدعية كان الرسول ﷺ يدعو بها خلال صلاته وقد حصرها العلماء في ستة مواطن، وهي:

عقب تكبيرة الإحرام ـ الاعتدال ـ الركوع ـ السجود ـ بين السجدتين ـ بعد التشهد.

وكان رسول الله ﷺ يدعو في القنوت: وفي حال القراءة، وإذا مر بآية رحمة سأل الله وإذا مر بآية عذاب استعاذ بالله/ فتح الباري: 132/11 ـ 141.

والملاحظ أن مواطن الدعاء المذكورة منها ما هو محل اتفاق بين العلماء ومنها ما هو محل اختلاف.

«الأدب الثاني»: خفض الصوت[1]، لأن رفعه يشعر بغيبة المطلوب

---

(1) حفظ الصوت عند الدعاء جاء الأمر به من الله تعالى في قوله جل من قائل: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: 55].

وهذا الأمر قرنه ﷻ بالأمر بصفات يستحسن أن تكون مصحوبة معه، وهي الخشوع والاستكانة والتضرع سراً في نفس الداعي ليبعد عن الرياء.

وروى مسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال النبي ﷺ: **«أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، إنكم لستم تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم»**/ صحيح مسلم بشرح النووي: 25/17، 26.

أربعوا على أنفسكم: ارفقوا بها، واخفضوا أصواتكم فإن رفع الصوت يفعله إنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه وأنتم تدعون الله وليس بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب وهو معكم بالعلم والإحاطة بكل شيء.

وقد دل هذا الحديث على الندب والاستحباب في خفض الصوت بالذكر دعاءً أو غيره إذا لم تدع حاجة إلى رفعه فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه وقالت عائشة ﷺ في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 110]. قالت عائشة ﷺ: إن المراد بالصلاة المنهي عن رفع الصوت فيها هو الدعاء، وقد أنزلت فيه، وهو قول أبي هريرة ﷺ ومجاهد بن جبر الإمام المقرىء المفسر (ت103هـ/703م).

قال فخر الدين الرازي: وقد روي هذا مرفوعاً: **«أن النبي ﷺ قال في هذه الآية: إنما ذلك في الدعاء والمسألة»**.

والمعنى: لا ترفع صوتك فتذكر ذنوبك، فيسمعك الغير فتعير بها، ولذلك وقع النهي عن الجهر بالدعاء والمبالغة في الإسرار.

والمستحب من ذلك التوسط وهو أن يسمع الإنسان نفسه.

كما روي عن عبدالله بن مسعود ﷺ قوله: لم يخافت من أسمع أذنيه/ التفسير الكبير: 455/5.

وتجدر الملاحظة أن تفسير السيدة عائشة ﷺ للنهي عن الجهر بالصلاة المراد بها الدعاء ليس محل اتفاق بين العلماء، وهو أحد أقوال أربعة، منها:

قول عبدالله بن عباس إن رفع الصوت المنهي عنه المراد به رفع الصوت بالقرآن وقد ورد هذا فيما أخرجه البخاري في صحيحه عنه: قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة. كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن. =

منه فيكون ذلك قلة أدب مع الله تعالى.

واستنثني من ذلك دعاء الاستسقاء[1]، لأن فيه شعار الضرورة

= ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم، وابتغ بين ذلك سبيلاً/ البخاري 404/8، 405، والتفسير الكبير: 455/5.

وقد أثنى الله ﷻ على نبيه زكرياء عليه السلام حيث قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: 3]/ صحيح مسلم: 26/17، 26، الجامع لأحكام القرآن: 223/7، 224.

قال العلماء: راعى زكرياء سُنَّة الله في إخفاء دعوته؛ لأن الجهر والإخفاء عند الله تعالى سواء، فكان الإخفاء أولى، لأنه أبعد في الرياء وأدخل في الإخلاص/ التفسير الكبير: 518/5.

(1) الاستسقاء: لغةً: طلب السقي، وشرعاً: طلب السقي من الله تعالى بمطر عند حاجة العباد والحيوانات إليه على صفة مخصوصة، وهي صلاة ركعتين وخطبتين بعدهما واستغفار وحمد وثناء على الله ودعاء لدفع البلاء، وشح الأمطار وجفاف الزروع والأعشاب/ الشرح الصغير: 191/1، والجمل على شرح المنهج: 114/2، وفتح الباري: 492/2.

ويحدث هذا الجدب عادة ابتلاء من الله تعالى بسبب غفلة الناس عن ربهم ونسيانهم تعاليمه وتفشي المعاصي بينهم، فقد روى ابن ماجه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«لم ينقص قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا»**.

السنون: هي السنوات السبع المجدبة زمن يوسف عليه السلام، كما جاء ذلك في صحيح البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدباراً قال: **«اللَّهمَّ سبع كسبع يوسف، فأخذتم سنة حصة كل شيء حتى أكلوا الجلود، والميتة والجيف، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من شدة الجوع»**/ صحيح البخاري: 492/2، 493، نيل الأوطار: 27/4.

وذهب جمهور الفقهاء إلى أن صلاة الاستسقاء سُنَّة مؤكدة حضراً وسفراً عند الحاجة خلافاً لأبي حنيفة.

ودليل سنيتها عدة أحاديث رويت عن الرسول ﷺ، منها: حديث أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (خرج نبي الله ﷺ يوماً يستسقي فصلى بنا ركعتين بلا أذان ولا إقامة، ثم خطبنا ودعا الله ﷻ، وحول وجهه نحو القبلة، رافعاً يديه، ثم قلب رداءه فجعل الأيمن على الأيسر والأيسر على الأيمن)/ نيل الأوطار: 28/4، والشرح الصغير: 191/1، والمدونة: 165، والجمل على شرح المنهج: 114/2، =

والحاجة، ولذلك شرع في الفلوات والجموع، وكانت الجاهلية تفرق بين البهائم وأولادها وتربط العشب في أذنابها وتطلق فيها النيران، فتصيح الأولاد شوقاً إلى الأمهات، وحاجة للغذاء بالألبان، وتصيح الأمهات من ألم النيران وشوقاً إلى الأولاد، وتصيح الناس جملة واحدة بالتضرع إلى الله تعالى في طلب الغيث، فيكون ذلك شعاراً عظيماً للضرورة.

فرفع الأصوات مناسب له بخلاف غيره [(12أ)] فأسقط الشرع أمر البهائم لما فيه من تعذيب الحيوان من غير مأكلة ولا جناية، ولأن فضل الله لا ينال بمعصية، وبقي إظهار بقية الشعار على حاله.

الأدب الثالث: رفع الأيدي في الدعاء[1]، وهو مشروع في

= وبدائع الصنائع: 282/1، 283، العدة: 91، 92.

بين حديث أحمد وابن ماجه صفة هذه الصلاة عند المالكية والشافعية وتشتمل على خطبتين مثل صلاة العيدين، ولكنها تختلف عنها، بلا أذان وإقامة كما نص على ذلك الحديث، وفي عدم تحديد وقتها ما عدا أوقات النهي عن صلاة النافلة.

وتخالف صلاة الاستسقاء صلاة العيدين، كذلك في تعويض التكبيرات بالاستغفار عند المالكية والشافعية لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾ [نوح: 10 ـ 11]/ الشرح الصغير: 191/1.

ومن أدعية الرسول ﷺ في الاستسقاء ما رواه أبو داود والحاكم وابن حبان عن عائشة رضي الله عنها أنه كان من دعائه ﷺ: «**الحمد لله رب العالمين مالك يوم الدين لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللَّهمَّ أنت الله، لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغاً إلى حين**»/ نيل الأوطار: 28/4.

(1) رفع الأيدي عند الدعاء رويت فيه عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة عدّد منها الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري أكثر من خمسة عشر.

وقال النووي في شرحه لصحيح مسلم: «قد ثبت رفع يديه ﷺ في الدعاء في مواطن كثيرة غير الاستسقاء وهي أكثر من أن تحصر، وقد جمعت منها نحواً من ثلاثين حديثاً من الصحيحين أو أحدهما، وذكرتها في أواخر باب «صفة الصلاة من شرح المهذب»»/ شرح صحيح مسلم: 191/6، وفتح الباري: 141/11 ـ 143.

ومن أدلة رفع اليدين في الدعاء ثلاثة أحاديث أخرجها البخاري في صحيحه «باب رفع الأيدي في الدعاء: كتاب الدعوات».

أ ـ **حديث أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه: (دعا النبي ﷺ ثم رفع يديه ورأيت بياض إبطيه). =

الاستسقاء[1] لما تقدم.

= ب - حديث عبدالله بن عمر ﷺ: «رفع النبي ﷺ يديه وقال: إني أبرأ إليك مما صنع خالد» وهو خالد بن الوليد الذي بعثه النبي ﷺ في غزوة بني جذيمة، وأمر باجتهاد منه بقتل الأسرى/ الفتح: 8/ 57.

ج - حديث أنس عن النبي ﷺ: (رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه)/ فتح الباري: 11/ 141.

واستدل القائلون بعدم رفع اليدين في الدعاء إلا في دعاء الاستسقاء بما رواه مسلم في صحيحه عن أنس ﷺ، قال: (كان النبي ﷺ لا يرفع يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء وأنه يرفع حتى يرى بياض إبطيه)/ صحيح مسلم بشرح النووي: 6/ 19.

قال النووي: «هذا حديث ظاهره أنه لم يرفع ﷺ يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء، وليس الأمر كذلك بل قد ثبت رفع يديه ﷺ في الدعاء غير الاستسقاء، وهي أكثر من أن تحصر، ولهذا تعين تأويل الحديث»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 6/ 190.

قال النووي وابن حجر في تأويل الحديث: أن النبي ﷺ لم يرفع يديه الرفع البليغ بحيث يرى بياض إبطيه إلا في الاستسقاء، أو أن أنساً لم يره رفع وقد رآه غيره في مواطن أخرى، فيقدم المثبتون في مواضع كثيرة وهم جماعات على واحد لم يحضر ذلك/ صحيح مسلم بشرح النووي: 6/ 190، وفتح الباري: 11/ 142.

ورأى عدد من العلماء الجمع بين حديث أنس النافي لرفع اليدين في الدعاء ما عدا الاستسقاء، والأحاديث الصحيحة المثبتة للرفع، فقالوا: إن المنفي ليس هو رفع اليدين نفسه، وإنما هو صفة من صفات الرفع تخالف غيرها، وذلك أن من صفات الرفع المبالغة في ذلك إلى أن تصير اليدان في حذو الوجه مثلاً، وفي الدعاء إلى حذو المنكبين، ولا يقدح في ذلك بياض إبطيه، بل يجمع أن تكون رؤية البياض في الاستسقاء أبلغ منها في غيرها.

قال الحافظ عبدالعظيم المنذري زكي الدين (ت656هـ/1249م) وبتقدير تعذر الجمع فجانب الإثبات أرجح ولا سيما مع كثرة الأحاديث الواردة في ذلك/ فتح الباري: 11/ 141، 142.

(1) مشروعية الدعاء ثم الاستسقاء ثبتت عن النبي ﷺ في أحاديثه، ومن ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ قال: (أتى رجل أعرابي من أهل البدو إلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة فقال: يا رسول الله، هلكت الماشية، هلك العيال، هلك الناس فرفع رسول الله ﷺ يديه يدعو، ورفع الناس أيديهم معه يدعون قال: فما خرجنا من المسجد حتى مطرنا)/ صحيح البخاري: 2/ 516.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[1] قال مالك[2]:

---

(1) وتمام هذه الآية مع التي قبلها قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 89 ـ 90].

عود الضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائد إلى الأنبياء المسمين في هذه السورة ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وقيل: إلى زكريا وامرأته ويحيى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، أي: يفرغون إلينا فيدعوننا في حال الشدة والرخاء وقيل المعنى: يدعون وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف، لأن الرغبة والرهبة متلازمان/ الجامع لأحكام القرآن: 11/336.

(2) مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي الذي ينسب إليه هو الإمام مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي إمام دار الهجرة المدينة المنورة حديثاً وفقهاً، ولد سنة (93هـ/693م).

أخذ العلم والحديث عن علماء المدينة البارزين أمثال عبدالرحمٰن بن هرمز وهو من شيوخه البارزين (ت117هـ/716م) ونافع مولى عبدالله بن عمر ﷺ الذي كان من سادات التابعين وأكابر الصالحين (ت16هـ/117م) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت125هـ/724م) وشيخه الكبير ربيعة بن عبدالرحمٰن المعروف بربيعة الرأي مفتي المدينة (ت136هـ/735م).

فكان مالك كما وصفه معاصروه من العلماء الوارث لحديث الرسول ﷺ الناشر في أمته الأحكام الفقهية العالم الذي ذاع صيته وانتشر علمه في الأمصار الإسلامية، شرقاً وغرباً، وارتحل الطلبة إليه من كل قطر للتزود من فقهه والرواية عنه لحديث الرسول ﷺ.

قال عنه الإمام محمد بن إدريس الشافعي مؤسس المذهب الشافعي (ت204هـ/800م): «مالك أستاذي، وعنه أخذت العلم، وهو الحجة بيني وبين الله تعالى، وما من أحد أمنّ علي من مالك، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم».

انتصب للتدريس وهو ابن سبع عشرة، واحتاج إليه شيوخه ليأخذوا عنه، وروى عنه ما يزيد عن ألف، منهم: الإمام أبو حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفي (ت150هـ/749م).وصاحباه محمد بن الحسن الشيباني الذي روى عنه موطأه (ت189هـ/789م) وأبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الكوفي (ت182هـ/779م).

من أشهر تآليفه: كتاب الموطأ الذي قال عنه الإمام الشافعي: «ما على الأرض كتاب أقرب إلى القرآن من كتاب مالك الموطأ».

وقال بعضهم: «إنه سماه الموطأ، لأنه عرضه على بضعة عشر تابعياً، وكلهم واطؤوه على صحته». =

= وقال أبو زرعة الدمشقي عبدالرحمٰن بن عمرو الثقة الحافظ المصنف (ت281هـ/875م): «لو حلف رجل بالطلاق على أن أحاديث مالك في الموطأ صحاح لم يحنث».
وقال القاضي أبو بكر محمد بن العربي المعافري (ت505هـ/1089م) في شرحه لكتاب صحيح الترمذي: «الموطأ هو الأصل الأول واللّباب، والبخاري الأصل الثاني في هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذي».
وذكر أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني الحافظ الثقة (ت340هـ/932م) أنه روى عن مالك بن أنس أنه قال: «شاورني هارون الرشيد أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه؟ فقلت: لا تفعل فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلدان، وكل مصيب، فقال: وفقك الله يا أبا عبدالله».
وإضافة إلى كتاب «الموطأ» فقد كانت لمالك مشاركة في علوم كثيرة غير الحديث والفقه فقد ألف في علم الأوقات والنجوم والتفسير وغيره.
وكان مالك يتحرى في الفتوى ويدقق في الجواب، قال عبدالله بن وهب أحد طلبته البارزين (ت197هـ/794م) سمعته عندما يكثر عليه السؤال لا يجيب ويقول: حسبكم: من أكثر أخطأ، وكان يعيب كثرة ذلك ويقول: «من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب».
وقال أبو سهل الهيثم بن جميل المحدث الثقة (ت213هـ/809م): شهدت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنين وثلاثين منها: لا أدري «وكان يقول: ينبغي للعالم أن يؤكد على جلسائه وطلبته قول: لا أدري حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يهرعون إليه، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري».
أما الرواة عنه فالحظ الذي حصل لمالك لم يحصل لغيره قط، فقد روى عنه حديثه وفقهه ما يزيد عن ألف وثلاثمائة من أعلام الأقطار الإسلامية: الحجاز واليمن والعراق وخراسان والشام ومصر وإفريقية والأندلس وسواهم كثير.
وكان مالك مهاب الجانب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولذلك امتحن سنة (147هـ/745م) في قوله بعدم لزوم طلاق المكره، فضرب بالسياط حتى انفكت ذراعه، وبقي مريضاً بسلس البول إلى وفاته سنة (179هـ/776م) بالمدينة المنورة.
وهي مسألة سياسية راجعة إلى أيمان البيعة والموافقة على تنصيب الحاكم الجديد التي أحدثت فكان من جملة هذه الأيمان الحلف بالطلاق، فرأوا أن فتوى مالك بعدم لزوم طلاق المكره تنقض البيعة وتجيش الناس للثورة عليهم/ الفكر السامي: 376/2 وما بعدها، وشجرة النور الزكية: 52 وما بعدها، والديباج المذهب: 11 وما بعدها. =

الراغب أن تكون الأيدي مفتوحة نحو السماء، والراهب أن تكون ظهورهما نحو السماء[1]، لأن الراغب يفتح كفيه لأجل المرغوب فيه، والراهب من الشيء الخائف منه يحجم عنه.

= أما أشهر تلامذته الذين نشروا مذهبه في أوطانهم، فمصريون وأندلسيون وأفارقة، فمن المصريين: عبدالرحمٰن بن القاسم (ت191هـ/788م) تفقه على مالك طيلة عشرين سنة وروى عنه المدونة التي هي من أجلّ كتب المالكية ومصدرها، وقد رواها عنه الفقيه المالكي الشهير سحنون بن سعيد التنوخي القيرواني المتوفى سنة (240هـ/835م)/ شجرة النور الزكية: 58، 59.

ومن المصريين أيضاً عبدالله بن وهب بن مسلم (ت197هـ/794م) الذي لازم مالكاً عشرين سنة وكان له الأثر الكبير في تدوين مذهبه/ شجرة النور الزكية: 58، 59.

ومن التلاميذ المغاربة: أبو الحسن علي بن زياد التونسي الثقة الحافظ مرجع الفتوى والعلم في عصره، أول من أدخل الموطأ إلى المغرب توفي سنة (183هـ/780م)/ شجرة النور الزكية: 60.

ومن التلاميذ المغاربة كذلك أسد بن الفرات بن سنان التونسي مات شهيداً بسرقوسة إذ كان أمير الجيش الذي ذهب لفتح «صقلية» كان عالماً فقيهاً مجاهداً، سمع الموطأ من مالك وألف كتابه الأسدية، «أصل المدونة»/ سحنون شجرة النور الزكية: 2.

ومن التلاميذ القرطبيين: زياد بن عبدالرحمٰن القرطبي الملقب بـ«شبطون» (ت90هـ/193م) سمع الموطأ من مالك وأول من أدخله إلى الأندلس.

ومن القرطبيين كذلك يحيى بن يحيى بن كثير الليثي (ت234هـ/830م) سمع من مالك الموطأ وروايته عنه من أشهر الروايات/ شجرة النور الزكية: 63، 64.

(1) هذه صفة رفع اليدين في صلاة الاستسقاء وردت في حديثين للرسول ﷺ:

الحديث الأول: أخرجه مسلم عن أنس ﷺ (أن رسول الله ﷺ استسقى فأشار بكفيه إلى السماء)/ مسلم: 6/190.

الحديث الثاني رواه أبو داود عن أنس ﷺ (أن النبي ﷺ كان يستسقي هكذا ومد يديه وجعل بطونهما مما يلي الأرض حتى رأيت بياض أبطيه)/ فتح الباري: 2/517، 518.

قال النووي: ذهب جماعة من أصحابنا إلى أن السُّنَّة في كل دعاء لرفع البلاء أن يرفع الداعي يديه، جاعلاً ظهور كفيه إلى السماء، وإذا دعا بسؤال شيء وتحصيله يجعل كفيه إلى السماء.

وقال غيره: الحكمة في الإشارة بظهور الكفين في الاستسقاء دون غيره للتفاؤل بتقلب الحال ظهراً لبطن، كما قيل في تحويل الرداء/ صحيح مسلم بشرح النووي: 6/190، وفتح الباري: 2/517، 518، ونيل الأوطار: 4/34، 35.

الأدب الرابع: أن يدعو للمؤمنين والمؤمنات[1]، وينوي بذلك كل عبد مؤمن كائن في سائر الأمم، أو كائن إلى يوم القيامة، لأن القاعدة أن العبد يجازى من جنس عمله فمن غفر غفر له، ومن ستر ستر[2]، ومن

---

(1) هذا من باب الدعاء للأخ المسلم والمسلمين عموماً بظهر الغيب وهو من الدعاء المستجاب بمشيئة الله، فقد أخرج مسلم عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 17/49.

قال النووي: بيَّن الحديث فضل الدعاء للأخ المسلم غائباً حياً أو ميتاً، ولو دعا لجماعة حصلت هذه الفضيلة، وكان بعض السلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة، لأنها تستجاب ويحصل له مثلها/ المصدر السابق.

وقد علمنا كتاب الله ﷻ، وسُنَّة الرسول ﷺ في أدعيته تعميم الدعاء للمؤمنين والمؤمنات جميعاً. تعميماً للخير، ونشر الصلاح والاستقامة، ودفعاً للفساد والانحراف.

ومن الآيات الواردة في هذا الشأن قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 201]، قال أنس ﷺ: (كان أكثر دعاء النبي ﷺ به)/ صحيح البخاري: 11/ 191.

وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

وقوله تعالى على لسان نوح ﷺ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: 28].

وأخرج البخاري عن عبدالله بن عباس ﷺ: «**لو أن أحدهم أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهمَّ جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدّر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً**»/ صحيح البخاري فتح الباري: 11/ 191.

(2) الأخوة الإسلامية توجب ستر أحوال المسلم وعدم إفشاء سره وإظهار معائبه لما رواه مسلم عن عبدالله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة**»/. صحيح مسلم بشرح النووي: 16/134، 135.

فهذا الحديث دعامة من دعائم قاعدة الجزاء من جنس العمل التي ذكرها القرافي في أعلاه.

حفظ الذراري حفظ الله ذريته ومن صان عورات الناس صان الله عورته[1]، ومن سهل الحساب سهل الله حسابه ومن سامحهم سامحه الله[2].

---

(1) من فروع قاعدة الجزاء من جنس العمل صون عورات الناس وعدم كشفها، والعورة لغةً: النقص والعيب وما يجب حفظه عن الإنسان في أخلاقه وسلوكه وسيرته، أو ما يحرم النظر إليه وكشفه عن أعين الناس وفي الصلاة.
والمراد بصون العورات هنا هو تغطية معائب الإنسان الخلقية والخلقية وحفظ أسراره، وما يكره كشفه وفضحه أمام الناس تطبيقاً لما أوجبه الله علينا في ذلك وطمعاً في مجازاته لنا إن سترنا عورات الأخ المسلم.
فقد روى ابن ماجه عن عبدالله بن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من ستر عورة أخيه ستره الله في الدنيا ويوم القيامة**»/ المغني عن حمل الأسفار بالإحياء.
وروى الحاكم عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: «**من رأى عورة أخيه فسترها كان كمن أحيا موؤودة في قبرها**»/ صحيح الإسناد المغني عن حمل الأسفار/ الإحياء: 178/2.
وسأل رجل عبدالله بن عمر ﷺ، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟
فقال: قال رسول الله ﷺ: «**يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقول: عملت كذا وكذا فيقول: نعم، فيقول: عملت كذا وكذا فيقول: نعم فيقرره ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم**»/ صحيح البخاري: 10/486 ـ 489.
والنجوى: كلام المرء مع نفسه أو يسمع غيره سراً دون من يليه.
ويدنو: يقرب قرب كرامة وعلو منزلة عند الله.
يضع كنفه: والكنف الحماية والحفظ والمراد هنا الستر، أي: يكون في حماية الله ويستر أعماله فلا تكشف أمام الخلائق.

(2) هذه المسألة من فروع قاعدة الجزاء من جنس العمل، والمسامحة هنا العفو عن الذنب وليست بمعنى الكرم والسهولة في المعاملة، فالعفو عن المسيء وعدم مقابلة السيئة بالسيئة خلق كريم حثت عليه الآيات القرآنية الكريمة والسُّنَّة النبوية الشريفة ومن تلك الآيات:
أ ـ قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: 40].
ب ـ قوله تعالى آمراً نبيه ﷺ وأمته من بعده: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: 199].
هذه الآية من ثلاث كلمات تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، فقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين للعلاقات الأخوية=

وكذا القول في سائر أنواع الإحسان والنصوص في هذا كثيرة[1].

فمن دعا للمؤمنين بالمغفرة مع نفسه[2]، فقد أحسن إلى عباد الله

= والروابط العائلية، والعفو عن المسيئين والرفق بالمؤمنين وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

ودخل في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ دخل فيه صلة الأرحام وتقوى الله في الحلال والحرام والاستعداد للآخرة.

ودخل في قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾: الحث على التعلق بالعلم، والإعراض عن منازلة السفهاء وأهل الظلم وغير ذلك/ الجامع لأحكام القرآن: 344/7.

ج ـ قوله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134].

وكظم الغيظ حبسه، ومنع الغضب حتى لا يصدر منه التهور والشرور.

قال فخر الدين الرازي: هذان الوصفان وما تقدمهما في أوصاف المتقين أوصاف مشتركة في كونها إحساناً إلى الغير ذكر الله ثوابها، فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن محبة الله للعبد أعظم درجات الثواب.

والإحسان إلى الغير ممن كظم غيظه وعفا عن المسيء، معناه: أن يدفع الضر عن الغير دنيا وأخرى.

ففي الدنيا أن لا يقابل الإساءة بالإساءة، وهو المراد بكظم الغيظ، وفي الآخرة أن يبرىء ذمته من كل التبعات والحقوق والمطالبات في الآخرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾/ التفسير الكبير: 52/3.

(1) من تلك النصوص ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة.

وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 21/17، 22.

(2) قد ذكر الله تعالى لنا في كتابه العزيز عدداً من الآيات في الدعاء للمؤمنين بالمغفرة مع النفس:

أ ـ قوله تعالى تعليماً لنا، وإخباراً عن دعاء المجاهدين في سبيله، الصابرين=

تعالى كافة بالتسبب إلى مغفرة ذنوبهم، وأكرم به من إحسان فيجازى من جنس عمله فيغفر له.

وكذا القول في سائر الأدعية لا سيما والإحسان إلى العبيد إجلال السادات، فيكون جامعاً بين مصلحة نفسه، وإجلال ربه، والإحسان لإخوانه من المؤمنين، ويكون له بكل مؤمن ومؤمنة شملهما دعاءه عمل صالح يثاب عليه، بعشرة أمثاله[1]، وهذا باب عظيم النفع.

الأدب الخامس: تقديم الثناء على الله تعالى قبل الدعاء[2]، وسبب

= حتى الشهادة: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: 147].

ب ـ **قوله تعالى** تنويهاً بدعاء العابدين الذاكرين المؤمنين الصالحين باستجابته لنداء الداعي إلى الإيمان بالله: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: 193 ـ 194].

ج ـ **قوله تعالى** حكاية عن طلب آدم عليه السلام وزوجته حواء المغفرة من ربهما لما ظلما نفسيهما بالأكل من الشجرة المنهي عنها تأثراً بإغواء الشيطان لهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 23].

ومن أدعية الخير للمؤمنين والمؤمنات الواردة في حديث الرسول ﷺ ما رواه النسائي في سننه الكبرى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **«اللّهمَّ زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا»**/ السنن الكبرى رقم: 1443.

(1) قال تعالى مبيناً جزاءه في تضعيف الحسنة بعشر أمثالها: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: 160].

قال القرطبي: المراد بالحسنة هنا الإيمان، أي: من جاء بشهادة أن لا إلٰه إلا الله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب.

ومن جاء بالسيئة يعني الشرك ﴿فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو الخلود في النار/ الجامع لأحكام القرآن: 7/ 151.

(2) دل على افتتاح الدعاء بالثناء على الله تعالى إضافة إلى ما سيذكره القرافي ـ فيما بعد ـ دلّ على ذلك حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه الذي أخرجه عبدالرزاق بن همام الصنعاني الحافظ الثقة (ت211هـ/623م) والطبراني سليمان بن أحمد المحدث المشهور وأحد علماء وأئمة أهل السُّنَّة (ت360هـ/525م). =

تقديم الثناء أن العادة عند قصد الآمال تقديم الثناء قبل ذكر الحاجة [(12ب)] تيسيراً للمقاصد.

وربما كان الثناء كافياً في تحصيل المقاصد كما قال أمية[1]: أأذكر حاجتي. الأبيات[2].

= وهذا هو لفظ الحديث: «إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئاً، فليبدأ بحمده والثناء عليه بما هو أهله، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم ليسأل حاجته، فإنه أجدر أن ينجح»/ نسيم الرياض: 458/3.

(1) أمية بن أبي الصلت الثقفي الشاعر الشهير، ذكر في الصحابة، ولم يعتنق الإسلام، صدّقه الرسول ﷺ في بعض شعره وقال عنه: كاد أن يسلم.
نشأ بالطائف وروى الكثير من أخبار اليهود والنصارى، وما بقي في عقول مشائخ الجاهلية من ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فخاض في التوحيد وأمر الآخرة، وتعبد وليس المسوح، وحرّم الخمر على نفسه، وشكّك في الأصنام، لأنه قرأ فيما قرأه من الكتب أن نبياً يبعث بالحجاز، فطمع أن يكون هو فلما بعث النبي ﷺ حسده ولم يسلم.
وقد حمله الحسد على معاداته والكيد له أن يكفر بدينه علماً منه بصحته، وأن يحرض قريشاً عليه ويرثي قتلاهم في غزوة بدر، فنهى الرسول ﷺ عن رواية شعره.
وروى عنه أنه لا ينكر حقيقة الإسلام ـ كما أسلفنا ـ ولكنه لم يعتنقه استحياء من صبيات ثقيف، فإنه كان يحدثهم بأنه المنتظر، ثم يرونه تابعاً لغلام من بني عبد مناف.
وروى أنه هو الذي نزلت فيه آية ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ [الأعراف: 175]، توفي سنة تسع للهجرة:/ الإصابة 129/1، 130، الجامع لأحكام القرآن: 320/7.

(2) هذه الأبيات يمدح فيها أمية بن أبي الصلت عبدالله بن جدعان، وهي:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع ... لك الحسب المهذب والسناء
كريم لا يغيره صباح ... عن الخلق الجميل ولا مساء
يباري الريح مكرمة وجوداً ... إذا ما الكلب أحجره الشتاء
وأرضك أرض مكرمة بنتها ... بنو تيم وأنت لها سماء
إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرضه الثناء

أي: لا تحوجني إلى الطلب، فبمجرد أن يقابله فيثني عليه، فيعلم عبدالله بن جدعان=

فلما كان ذلك أدباً في العادات وردت الشريعة به فقال رسول الله ﷺ: «أما الركوع، فعظموا فيه الرب[1]، وأما السجود فأكثروا

= ما يحتاجه فيعطيه من غير سؤال، ولم يحوجه إلى إراقة ماء وجهه بالطلب، وهذا مخلوق فكيف بالخالق ﷻ إذا أثنيت عليه وهو أعلم بالسر وأخفى.

وعبدالله بن جدعان التيمي مات قبل الإسلام وقد قال النبي ﷺ: «شهدت مأدبة في دار ابن جدعان وقد مدحه أمية بن أبي الصلت بأبيات مشهورة ورثاه لما مات».

وسألت عنه عائشة رضي الله عنها وذكرت له ما كان فيه من الجود، فقال: «إنه لم يقل: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»/ الإصابة: 288/2.

يوم الدين هو يوم الجزاء، حيث يجازي العباد بأعمالهم.

وهذا من دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام الوارد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: 82].

وفيه إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له.

وأخرج مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت: «يا رسول الله، إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟

قال: إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»/ مسلم: 86/3.

(1) تعظيم الرب في الركوع: تسبيحه وتنزيهه وتمجيده فيسن للمصلي أن يقول: سبحان ربي العظيم مرة وهو الحد الأدنى وأدنى الكمال ثلاثاً عند الجمهور لحديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عند الترمذي عن النبي ﷺ قال: «إذا ركع أحدكم فقال في ركوعه: سبحان ربي العظيم ثلاثاً فقد تم ركوعه وذلك أدناه، وإذا سجد فقال في سجوده: سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات فقد تم سجوده وذلك أدناه»/ سنن الترمذي رقم: 261.

ولا حد لهذا التسبيح عند المالكية: وتكره الزيادة عن الثلاث للإمام تخفيفاً على المأمومين/ رسالة ابن أبي زيد: 160/1، بداية المجتهد: 93/1، نيل الأوطار: 275/2.

فالركوع فيه تسبيح الله تعالى وليس فيه قراءة لنهي الرسول ﷺ عن ذلك، فقد أخرج مسلم عن علي رضي الله عنه قال: (نهاني رسول الله ﷺ عن قراءة القرآن وأنا راكع أو ساجد)/ صحيح مسلم: 198/4.

ولأن الركوع وظيفة المصلي فيه التسبيح فقد نهى النبي ﷺ عن الدعاء فيه، فالدعاء فيه مكروه عند المالكية خلافاً لغيرهم، مثل: الإمام البخاري الذي عنون للدعاء في الركوع باباً: «باب الدعاء في الركوع» أو ورد فيه حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: «سبحانك اللّهمَّ ربنا وبحمدك اللّهمَّ اغفر لي»/ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: 281/2. =

فيه من الدعاء[1]، فقمن[2] أن يستجاب لكم»[3].

= قال ابن حجر في شرحه للحديث: قيل: الحكمة في تخصيص الركوع بالدعاء دون التسبيح مع أن الحديث واحد أنه قصد الإشارة إلى الردّ على من كره الدعاء في الركوع كمالك.

وأما التسبيح فلا خلاف فيه، فاهتم البخاري هنا بذكر الدعاء لذلك، والحجة عليهم حديث مسلم من رواية ابن عباس ﷺ مرفوعاً فيه: **«فأما الركوع فعظموا فيه الرب»**/ فتح الباري: 2/ 281.

أفاد هذا الحديث أن الركوع هو محل تعظيم الله تعالى وتقديسه وليس محلًا للدعاء عند المالكية، وهو مكروه عندهم في الركوع.

ولعل مالكاً قصد بالاستدلال بهذا الحديث أمرين:

الأول: كراهة الدعاء في الركوع وهو المقرر عند المالكية/ الشرح الكبير: 1/252.

الأمر الثاني: أن التسبيح في الركوع هو ثناء على الله تعالى يستفتح به الدعاء في السجود تطبيقاً لما تقرر في الأدب الخامس من آداب الدعاء وهو تقديم الثناء على الله تعالى قبل التوجه إليه بالدعاء.

(1) الأمر بالإكثار من الدعاء جاء الأمر به ـ أيضاً ـ في حديث أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»**/ صحيح مسلم بشرح النووي: 4/200.

والدعاء المأمور به في السجود يكون عقب التسبيح: سبحان ربي الأعلى ثلاثاً. كما سبق في حديث ابن مسعود.

والأمر بالإكثار من الدعاء في السجود يشمل الحث على تكثير الطلب لكل حاجة كما جاء في حديث أنس ﷺ: **«ليسأل أحدكم ربه حاجته حتى في شسع نعله إذا انقطع»**/ صحيح الترمذي: 3604.

وشسع النعل قطع بعض أجزائه، وطلب إصلاحها/ القاموس المحيط: 3/ 45.

(2) قمن بفتح الميم وكسرها لغتان مشهورتان ومعناها: حقيق: وجدير، وفيه الحث على الدعاء والتسبيح، فيستحب أن يجمع الساجد بين الدعاء والتسبيح/ صحيح مسلم بشرح النووي: 4/87.

(3) هذه الفقرة من الحديث جاءت في حديث عبدالله بن عباس ﷺ عند مسلم ولفظه كاملاً قال: كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر فقال: **«أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، ألا وإني نهيت أنا أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم»**/ صحيح مسلم النووي: 4/196.

وكذلك قدم الثناء في الفاتحة على دعائها[1]، وهو كتقديم الصدقة بين يدي النجوى أو لا[2]، فالتقرب إلى الله بالثناء عليه أولاً وسيلة لحصول مطلوبه.

---

(1) هذا هو الدليل الثاني الذي استدل به القرافي على تقديم الثناء على الله تعالى قبل الدعاء، فقد افتتح الله الفاتحة بالثناء عليه ابتداء بأنه المستحق ليحمد من جميع خلقه وأنه مالك لجميع العوالم التي أبدعها وصورها من إنس وجن وملائكة ودواب وغيرهم، وأنه الرحمٰن الرحيم، لا يريد إلا الخير لخلقه. مالك يوم الجزاء وما فيه من حساب وجنة ونار، وأنه المخصوص وحده بالعبادة والتقدير، ولا طلب للاستعانة على العبادات والأعمال إلّا منه، ولا يشاركه في ذلك غيره.

وبعد هذا الثناء عليه ﷻ نتوجه إليه جل شأنه ضارعين داعين بأن يرشدنا ويهدينا إلى السير في طريق الإسلام الصحيح الذي أمرنا باتباعه غير طريق المغضوب عليهم وهم اليهود، وغير الضالين وهم النصارى.

وأخرج عبدالرزاق بن همام بن نافع الصنعاني الحافظ الثقة، (ت211هـ/807م) في مصنفه بسند صحيح عن النبي ﷺ قال: «إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئاً فيبدأ بمدحه والثناء عليه»/ نسيم الرياض: 3/458.

قال شهاب الدين أحمد الخفاجي المصري (ت1571هـ/1659م) في شرحه على تفسير البيضاوي ناصر الدين (ت698هـ/1280م) تعقيباً على الحديث: «كما أرشدنا الله لذلك في سورة الفاتحة»/ المصدر السابق.

وقال ابن برجان عبدالسلام بن عبدالرحمٰن اللخمي المغربي الإفريقي المفسر الصوفي المقرىء المحدث (ت530هـ/1117م) قال في تفسيره «تنبيه الأفهام إلى تدبر القرآن» قال: «إذا قيل لك: أن أحداً أحيا ميتاً بقراءة الفاتحة فلا تنكر عليه، وليقرأها ملاحظاً الثناء على الله تعالى وحمده، لأنه المنعم بجميع النعم الدنيوية والأخروية جليلها ودقيقها. ثم يلاحظ عظمة جلاله المشير إليه بقوله جل من قائل: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ ثم يخضع غاية الخضوع، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ثم يفوض أموره إليه لقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ثم يسأله حاجته لقول جل شأنه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ ولذلك سميت سورة الفاتحة: سورة تعليم الدعاء»/ نسيم الرياض: 3/158.

(2) النجوى: المسارة في الحديث، والآية التي أمر الله تعالى فيها الصحابة بتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ هي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ [المجادلة: 12].

اختلف في سبب نزول هذه الآية: ومما روي في ذلك: أن قوماً من المسلمين كانوا =

الأدب السادس: الصلاة على رسول الله ﷺ أول الدعاء وآخره ووسطه[1]،

= يستخلون بالنبي ﷺ ويناجونه فظن بهم قوم من المسلمين أنهم يستنقصونهم في النجوى، فشق ذلك عليهم فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليبعدهم عن استخلائه ويقطعهم عن مناجاته.

وروي كذلك من أسباب النزول: أن الصحابة ﷺ أكثروا من الأسئلة على رسول الله ﷺ فأمر الله بتقديم الصدقة عند النجوى تخفيفاً عما يلاقيه عليه الصلاة والسلام من عناء كثرة تلك الأسئلة إلى غير ذلك مما روي في سبب نزول الآية/ الجامع لأحكام القرآن: 17/ 301.

ولعل القرافي هنا شبه ابتداء الدعاء بالثناء على الله تعالى وجعله شرطاً للاستجابة بشرط تقديم الصدقة عند النجوى.

(1) قال الحافظ ابن حجر في شرحه لحديث أبي سعيد الخدري الذي جاء فيه الأمر بالصلاة على النبي ﷺ قال: مما تأكد ووردت فيه أخبار خاصة أكثرها بأسانيد جيدة: الصلاة على رسول الله ﷺ أول الدعاء وأوسطه وآخره/ فتح الباري: 11/160.

والصلاة على النبي ﷺ فرض مرة في العمر بالإجماع وما زاد ذلك فمندوب مرغب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله، لأمر الله تعالى بالصلاة عليه في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

وقد حمل الأئمة الأمر في الآية على الوجوب مرة في العمر وعلى الندب والاستحباب بعدها/ نسيم الرياض: 3/446، 447.

وقد دل على الصلاة على النبي ﷺ قبل الدعاء وبعد الثناء على الله تعالى ما أخرجه الترمذي في جامعه عن فضالة بن عبيد الأنصاري الأوسي الصحابي الجليل ﷺ (ت58هـ/659) قال: (بينما رسول الله ﷺ قاعداً إذ دخل عليه رجل فصلّى، فقال: اللّهمَّ اغفر لي وارحمني، فقال له: **عجّلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله وصلّ عليّ، ثم ادع تجب**»/ سنن الترمذي رقم: 3476.

في هذه الرواية الأمر بالدعاء قبل الصلاة على النبي ﷺ في غير الصلاة، وفي الرواية الأخرى بعد التشهد في الصلاة.

وحتى لو كان الأمر بالدعاء بدءاً بالصلاة بعد التشهد خاصاً، فإنه يعم كل دعاء خارج عن الصلاة/ نسيم الرياض: 455.

أما الأمر بالدعاء وتخلل الصلاة على النبي ﷺ في أوله ووسطه وآخره فلحديث جابر بن عبدالله ﷺ (ت24هـ/605م) في رواية البزار الحسن بن الصباح (ت249هـ/844م) وأبي يعلى محمد بن الصلت (ت288هـ/824م) والبيهقي: أحمد بن الحسين المحدث الحافظ (ت458هـ/1047م) قال رسول الله ﷺ: «لا=

روي ذلك عن عبدالله بن مسعود ﷺ[1] وقال: إنها أجنحة الدعاء التي يطير بها إلى السماء[2].

= **تجعلوني كقدح الراكب، فإن الراكب يملأ قدحه، ثم يضعه ويرفع متاعه، فإن احتاج إلى شراب شرب أو الوضوء توضأ وإلا أهراقه، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره**»، أي: اذكروني بالصلاة عليّ في هذه المواطن الثلاثة خصوصاً، فإنكم لن تستغنوا عني عموماً»/ نسيم الرياض والاستيعاب: 3/459.

وروي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «الدعاء محجوب حتى يصلي الداعي على النبي ﷺ»/ المصدر السابق.

(1) عبدالله بن مسعود بن غافل، مات أبوه في الجاهلية وأسلمت أمه، وكانت تكنى أمّ عبد، ولذلك نسب إليها، وقد سماه الرسول ﷺ حيناً بكنية أمه، كما ورد في الأحاديث.

وهو أحد الستة الذين دخلوا إلى الإسلام، وقد ضمه النبي ﷺ إليه فكان يلبسه نعله، ويمشي معه أمامه، ويستره إذا اغتسل حتى ظن بعض الصحابة أنه وأمه من أهل بيت النبي ﷺ.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: (قدمت المدينة أنا وأخي فمكثنا حيناً، ما نرى إلا أن عبدالله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي ﷺ لما نرى دخوله ودخول أمه على النبي ﷺ/ فتح الباري: 7/102، 103، صحيح مسلم بشرح النووي: 16/14 وما بعدها.

شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ فعرف أمانته وصدقه، وقال عنه: «**تمسكوا بعهد ابن أم عبد، ولو كنت مستخلفاً أحداً من غير مشورة لاستخلفت ابن أم عبد**»/ الترمذي: 5/673.

وقد شهد له الرسول ﷺ بالعلم فقال: «**خذوا القرآن عن أربعة، عن أم عبد، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة**»/ صحيح البخاري: 7/102.

وقد انتشر علمه بكثرة أصحابه الآخذين عنه، ومزاياه وفضائله كثيرة لا يتسع المقام لذكرها توفي في خلافة عثمان ﷺ سنة (32هـ/634م)/ الإصابة: 2/316، فتح الباري: 7/102 وما بعدها.

(2) لم أجد هذا مرفوعاً في دواوين الحديث، ولعله أثر من أقوال عبدالله بن مسعود.

والقول بأن للدعاء أجنحة يطير بها إلى السماء ذكره بعض العلماء من بينهم أحمد بن عطاء الله السكندري الصوفي الكبير الشهير (ت909هـ/1484م) فقد قال: للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات، فإن وافق أركانه كمل وتم، وإن وافق أجنحته طار في السماء، أي: صعد إليها، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه تم وكمل. =

الأدب السابع: تعظيم المسألة، وإيثار طلب الجزيل دون القليل للحديث المشهور[1].

الأدب الثامن: أن يكون الطلب بصيغة الماضي، فإن أصل الطلب أن يكون بصيغة الأمر، وليس من لوازم الأمر حصول مأموره في الوجود.

وأبلغ من هذه الصيغة صيغة الخبر المستقبلي، وأبلغ من هذه الصيغة صيغة الخبر الماضي، لأن الماضي يشهد العيان بوقوع متعلقه بخلاف المستقبل، فكأن هذا تفاؤل لحصول المطلوب فهذه الصيغة أبلغ من الآخرين.

فقولنا لزيد: الله يديم سعادتك أبلغ من قولنا: اللَّهمَّ أدم سعادته، وقولنا: أدام الله سعادتك أبلغ من قولنا: الله يديم سعادتك، وكان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة[2].

= فأركانه حضور القلب والخضوع والتذلل والخشوع والافتقار، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه المسرعة لحصول المراد الصلاة على محمد ﷺ.

(1) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: «إن رسول الله ﷺ قال: إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللَّهمَّ اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 17/6.

قوله: «ليعزم المسألة» المسألة: الدعاء: والمعنى: أن يجد الداعي في الأمر المطلوب، وأن يجزم بوقوع مطلوبه، ولا يعلّق ذلك بمشيئة الله تعالى، وإن كان كل مؤمن مأمور بتعليق مشيئة الله في كل عمل سيقوم به.

وقيل: عزم المسألة: حسن الظن بالله في استجابة دعائه.

وقوله ﷺ: «وليعظم الرغبة»، أي: الرغبة والمبالغة في تكرار الدعاء والإلحاح فيه، ويحتمل أن يراد به الأمر بطلب الشيء الجزيل العظيم الكثير كما فسر ذلك القرافي.

ويؤيد هذا ما جاء بعده: «فإن الله لا يتعاظمه شيء، أعطاه»/ فتح الباري: 11/140، وصحيح مسلم بشرح النووي: 17/7.

(2) لفظ الحديث كما أخرجه البخاري عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: أن النبي ﷺ قال: «ولا طيرة ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة»/ فتح الباري: 10/214، وأخرج ابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة»/ المصدر السابق. =

فيكون التفاؤل بلفظ الخير مطلوب شرعاً.

قلت: في هذا نظر: وأكثر الأدعية المأثورة بصيغة الأمر[1].

وكذا أدعية القرآن، ومنها:

قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾[2].

= وهذا الحديث استدل به القرافي على مدعاه: أن الطلب بصيغة الماضي أبلغ من الصيغتين الأخريين، لأن الماضي يشهد بوقوع متعلقه. كما قال اعتماداً على المعنى اللغوي لا على الاصطلاح الشرعي كما سيبين القرافي ذلك.

وقد سبق أن عرفنا الطيرة والتطير والفأل والتفاؤل في مبحث «الأدب الباطني التاسع للدعاء عند قول القرافي»: «وكذا المتطيرون يتأذون بما يتطيرون منه، دون غيرهم عقوبة لهم».

فالطيرة أو التطير من الشيء، كما سبق تعريفه، التشاؤم وأصله: الشيء المكروه من قول أو فعل أو مرئي، وكان هذا من معتقدات الجاهلية، فجاء الإسلام وأبطله، ونهى عنه بلسان النبي ﷺ الصادق الأمين فقال: «لا طيرة».

وكراهة الرسول ﷺ ونهي أمته عنها، لأنها لا تأثير لها بنفع أو ضرر، ومن اعتقد ضررها فقد أشرك كما جاء في حديث الترمذي وصححه عن عبدالله بن مسعود ﷺ: «الطيرة شرك»/ فتح الباري: 213/10.

أما الفأل فقد فسره الرسول ﷺ بالكلمة الطيبة الحسنة يسمعها من غيره، وإنما أحب الرسول ﷺ الفأل، لأنه من باب حسن الظن بالله والرجاء في فضله والأمل في إفادته، كمن يكون له مريض فيتفاءل بما يسمعه فيسمع من يقول: يا سالم، فيقع في قلبه رجاء البرء والشفاء/ فتح الباري: 215/10.

(1) اعتراض القرافي هذا على نفسه على ما قرره في صيغ الدعاء، وأن بعضها أبلغ من بعض، وفضل صورة الدعاء بخبر الماضي لشهادة العيان بوقوع متعلقه.

هذا الاعتراض كان سيلقيه على القرافي كل من يقرأ تفصيله في صيغ طلب الدعاء، لورود أكثر الأدعية في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية بصيغة الأمر، فبادر إلى القول بأن ما قرره فيه نظر، وأتبع ذلك قائلاً بعدم صحة ما ذهب إليه أولاً: الخير كله في الاتباع، الله الله، أي: أن قوله الحق، وهو النور الذي نسير على هديه.

(2) الآية بتمامها: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: 118].

ومن الأدعية الواردة في القرآن بصيغة الأمر:

أ ـ دعاء سيدنا زكرياء ﷺ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: 38]. =

والخير [(13أ)] كله في الاتباع[1] الله، الله.

الأدب التاسع: أن يكون القليل من لفظ الدعاء جامعاً لمعان كثيرة كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الآية[2].

= ب ـ قوله تعالى آمراً الأبناء بطلب الرحمة للآباء: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 24].

ج ـ دعاء سيدنا موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ [طـه: 25 ـ 30].

د ـ دعاء سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: 100].

أما الأدعية الواردة بصيغة الأمر في الأحاديث الشريفة؛ فمنها:

أ ـ دعاء سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي علمه الرسول ﷺ ليدعو به في الصلاة، فقد أخرج البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ علمني دعاء أدعو به في صلاتي: قال: «**قل: اللَّهمَّ إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»/ فتح الباري: 11/131.

ب ـ دعاء النبي ﷺ فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللَّهمَّ اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللَّهمَّ اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللَّهمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير**»)/ صحيح البخاري بفتح الباري: 11/196، صحيح مسلم، البخاري بشرح النووي: 17/39، 40.

ج ـ ومن أدعية الرسول ﷺ ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: (كان الرسول ﷺ يقول: «**اللَّهمَّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»)/ صحيح مسلم البخاري بشرح النووي: 17/40.

(1) في هذا أمر من الله لنبيه محمد ﷺ بأن يبلغ أمته فضيلة اتباعه، فقال جل شأنه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: 31].

(2) والآية بتمامها: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: 201]. =

قال بعض العلماء: حسنة الدنيا جملة ما فيها من الخير، وحسنة الآخرة خيرها أجمع[1]، فقد جمع هذا الدعاء خير الدنيا والآخرة وكفاية

= هذه الآية من جوامع الدعاء التي عمت الدنيا والآخرة، قيل لأنس بن مالك ﷺ ادع لنا، فقال: «اللّهم ﴿ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾»، قالوا: زدنا، قال: ما تريدون؟ قد سألت الدنيا والآخرة/ الجامع الأحكام القرآن: 2/433.

وقد أخرج البخاري عن أنس ﷺ قال: «كان أكثر دعاء الرسول ﷺ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾»/ البخاري في صحيحه: 191/11

وأخرج مسلم أن قتادة بن دعامة السدوسي التابعي (ت مئة وبضع عشرة) سأل أنساً أي دعوة كان يدعو بها النبي ﷺ أكثر؟ قال: كان أكثر دعوة يدعو بها يقول: «اللّهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». قال: وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها فيه»/ صحيح مسلم: 17/16.

جاء عن الفخر الرازي قوله: الآية جمعت في الدعاء بين طلب الدنيا والآخرة ولكن هناك قسم ثالث لم يذكر وهو الاقتصار في الدعاء على طلب الآخرة فقط. اختلف العلماء في مشروعيته والأكثر على أنه غير مشروع، وذلك أن الإنسان خلق محتاجاً ضعيفاً لا طاقة له بآلام الدنيا ولا بمشاق الآخرة، فالأولى له أن يستعيذ بربه من كل شرور الدنيا والآخرة.

ومن أدلة عدم مشروعيته الإشارة إلى ذلك في الآية، أنه ورد فيها ذكر القسمين الأولين وإهمال القسم الثالث/ التفسير الكبير: 2/179.

(1) وقد اختلفت عبارات العلماء في تفسير المراد من حسنة الدنيا، والمراد من حسنة الآخرة فقال بعضهم: الحسنة في الدنيا: العلم والعبادة، والحسنة في الآخرة: الجنة.

وقال الآخر: هي العافية في الدنيا والآخرة، وقال غيره: حسنة الدنيا: الرزق الحلال الواسع والعمل الصالح، وحسنة الآخرة: المغفرة والثواب/ الجامع لأحكام القرآن 2/432، 433، وفتح الباري: 11/192.

وقال أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير (ت774هـ/1357م) جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شر، فإن كل حسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي: من عافية ودار رحبة وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع وعمل صالح، ومركب هيّن وثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. =

شر النهار[1].

وكذلك التعوذ من فتنة المحيا والممات[2]، والمسيح الدجال[3] فيه

= وأما الحسنة في الآخرة فأعلاها دخول الجنة، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب، وغير ذلك من أمور الآخرة.

وأما الوقاية من عذاب النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم وترك الشبهات/ تفسير ابن كثير: 1/243، 244 (1253).

(1) قال أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت271هـ/1253م) في تفسيره: الذي عليه أكثر العلماء أن المراد بالحسنتين نعم الدنيا والآخرة، وهذا هو الصحيح، لأن اللفظ يقتضي هذا كله، فإن حسنة نكرة في سياق الدعاء تعم كل حسنة من الحسنات على البدل، وحسنة الآخرة الجنة بالإجماع/ الجامع لأحكام القرآن: 2/432، 433.

(2) فتنة المحيا والممات: الفتنة هي الامتحان والاختيار وتستعمل في الدلالة على المكروه والشر.

وفتنة المحيا هي ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتتان بالمال والدنيا والشهوات أو ما يصاب به من المكاره والشدائد كالفقر والأمراض وغير ذلك من المصائب، في دينه أو أخلاقه أو أهله قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35].

وقال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: 186].

أما فتنة الممات فالمراد بها سوء الخاتمة. أو المراد بها سؤال الملكين في القبر مع الحيرة وعدم معرفة الجواب/ فتح الباري: 2/319.

(3) المسيح الدجال هو ضمن أربعة: أمرنا الرسول ﷺ بأن نتعوذ بالله ونحتمي به من فتنهم وشرورهم: فتنة المحيا والممات، وقد مرت، والثلاثة الأخر: المسيح الدجال، وعذاب النار، وعذاب القبر.

فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر المسيح الدجال**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 5/87، 88.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يدعو: **اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال**»/ صحيح البخاري: 2/19.

والمسيح الدجال بفتح الميم وتخفيف السين: يطلق على الدجال الذي هو من=

= علامات قيام الساعة الكبرى، والذي أمرنا الرسول ﷺ أن نتعوذ بالله منه ومن شروره.

ويطلق المسيح على سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، وهو الذي يقتل هذا الدجال بعد أن يبعثه الله ويحييه، وهو أيضاً علامة من العلامات الكبرى على قيام الساعة.

واختلف في تلقيب الدجال بالمسيح، قيل: إنه ممسوح العين كما ورد في صحاح الأحاديث، وقيل: لأن أحد شقي وجهه ممسوحاً لا عين فيه ولا حاجب، وقيل: لأنه يمسح الأرض ويطويها طياً إذا سار.

وأما عيسى عليه السلام فقد سمي بالمسيح، قيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، وقيل: لأن زكرياء عليه السلام مسحه عند ولادته، أو لأنه كان لا يمسح ذا عاهة أو مرض إلا برىء، وقيل: لأنه كان يمسح الأرض بسياحته، وقيل غير ذلك/ فتح الباري: 318/2.

فهذا المسيح الدجال الذي يخرج في آخر الزمان مدعياً الربوبية، ومعه خوارق ويقتله سيدنا عيسى عليه السلام حذرنا منه الرسول ﷺ وبيّن لنا بعضاً من أوصافه لكي نتقي شره إذا صادفناه في عدد من أحاديثه عليه الصلاة رواية عن البخاري ومسلم، منها:

أ ـ أخرج البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وأن بين عينيه مكتوب كافر**»/ صحيح البخاري: 90/13.

ب ـ حديث حذيفة بن اليمان ﷺ قال: إن الدجال يخرج وإن معه ماء وناراً، فأما الذي يراه الناس، ماء فهو نار تحرق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فإنه ماء عذب طيب»/ صحيح البخاري بفتح الباري 90/13، 91، وصحيح مسلم بشرح النووي: 60/18، 61.

ج ـ حديث مسلم عن النواس بن سمعان ﷺ وهو حديث طويل نقتطف منه بعض فقرات، قال النوّاس: ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال: «**إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط** ـ أي: شديد جعودة الشعر ـ **عينه طافية...**».

«**فمن أدركه منكم فليقرأ عليه بفواتح سورة الكهف، فإنها جواركم من فتنته...**».

(قلنا: يا رسول الله: وما لبثه في الأرض؟ قال: «**أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم...**»).

(قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟

قال: «**لا. أقدروا له قدره**، قلنا: يا رسول الله: وما إسراعه في الأرض؟ =

= قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى ـ جمع ذروة ـ . . .».

«ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزاً كيعاسيب النحل. . . .» الحديث/ صحيح مسلم بشرح النووي: 18/63 وما بعدها.

الأمر الرابع: الذي تعوذ منه الرسول ﷺ وأمرنا بالتعوذ منه في حديث البخاري ومسلم: عذاب القبر الذي يجب الإيمان به، وقد دل على ثبوته القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة.

فمن القرآن الكريم:

أ ـ قوله تعالى في تعذيب الظالمين في سكرات الموت: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: 93].

أي: أن الملائكة باسطو أيديهم بالضرب والتعذيب لهؤلاء الظالمين، وهم في سكرات الموت قائلين تعنيفاً لهم: أخرجوا أنفسكم إلينا لنقبضها، ذلك أن الكافر إذا احتضر بشّرته الملائكة بالعذاب والنكال والجحيم وغضب الرحمٰن فتتفرق روحه في جسده وتعصي وتمتنع عن الخروج، فتضرب الملائكة هؤلاء الظالمين حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون على اتباع تعاليمه، والطاعة لرسله.

وقد وردت الأحاديث المتواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر عند الموت ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27].

والتثبيت في عذاب القبر عند سؤال الملكين/ تفسير ابن كثير: 2/157 ـ 531.

ب ـ قوله تعالى في تعذيب المنافقين: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: 101]، أي: يعذبون مرتين بالفضيحة أو القتل في الدنيا، وعذاب القبر، ثم يردون إلى العذاب العظيم في الآخرة/ تفسير الجلالين: 229.

أما الأحاديث الصحيحة في إثبات عذاب القبر؛ فمنها:

أ ـ ما أخرجه البخاري عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع خفق نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله=

كفاية من شر الدنيا والآخرة بكلمات يسيرة إلا أن يتعلق الغرض بشيء مخصوص من أمر الدنيا، فالأفضل التنصيص عليه، لأن ضمه لغيره على سبيل التلفيق يعد كالإعراض عنه.

كما أن من أوصى الأمير عند سفره على عيال المدينة، طالباً بذلك الوصية على عياله، يعد في العادة معرضاً عنهم.

الأدب العاشر: أن يكون لفظ الدعاء لفظ الفقراء الضعفاء الذليلين لا المتخضّعين برياض ألفاظ الجبارين ليتطابق الظاهر والباطن على صورة الافتقار لله تعالى والخضوع[1]، ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه هو

= ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار فقد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً».

قال قتادة: «وذكر لنا أنه يفسح له في قبره».

ثم رجع إلى حديث أنس: «وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين».

والثقلان: الجن والإنس/ صحيح البخاري: 232/3.

ب ـ وروى مالك في الموطأ ومسلم عن نافع أن عبدالله بن عمر ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»/ الموطأ بالمنتقى 30/2، وصحيح مسلم: 200/17، 201.

(1) ألفاظ الفقراء الذليلين: هي كلمات وعبارات مفصحة عن ذلهم وانكسارهم وضعفهم وافتقارهم واحتياجاتهم الشديدة إلى فضل الإلٰه الكبير، وعطائه الجزيل، وتيسير أحوالهم الصعبة والمنّ عليهم بالشفاء من الأمراض والأسقام وتفريج الكروب، وغير ذلك مما لا يقدر على جبر كسرهم ومداواة جروحهم وشفاء قلوبهم إلا الإلٰه القادر الغني الرحيم، ذو الفضل العظيم، مع الاعتقاد الصحيح بأنه هو وحده الرزاق، الوهاب، المعين الشافي، مفرج الكروب، ميسر الأمور، قاضي الحاجات، مجيب الدعاء، كاشف الضر، مفتقر إلى رحمته كل حيّ، محتاج إلى غناه المطلق كل فقير ضعيف، إنساناً كان أو غيره، وبهذا يتطابق الظاهر الذي هو ذل الألفاظ مع الباطن الذي هو الاعتقاد الجازم بضعفنا وفقرنا والإخلاص له ﷻ. =

ساجد[1]، لأنها هيئة ذل وهوان.

* * *

3 ـ الفصل الثالث في هيئات الداعين، وهي عشرة

(الهيئة) الأولى: التوجه نحو السماء في حالة الدعاء، لأنها سُنَّة الأنبياء والسلف الصالح[2].

= ولما كنا ضعفاء لا حول لنا ولا قوة ولا مناعة ولا صحة إلا بأمره جل شأنه أمرنا بالتوجه إليه بالدعاء في كل ضيق أو حرج ليخفف عنا ما نزل بنا ووعدنا بالإجابة فقال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿60﴾﴾ [غافر: 60].

والاستجابة مشروطة بالإخلاص، فالدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله تعالى والاستكانة له، لأن بيده كل شيء ولذلك توعّد الله المتعالين المستكبرين عن عبادته في دعائهم بالعذاب صاغرين أذلاء مهانين.

وقال ﷻ: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿15﴾﴾ [فاطر: 15]، أي: أنكم المحتاجون الفقراء إلى الله في بقائكم وكل أحوالكم، والفقر يتبع الضعف، وقد شهد الله تعالى على الإنسان بالضعف في قوله جل من قائل: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28].

(1) هذا حديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه وقد تم تخريجه في مبحث الأدب الخامس الظاهري من آداب الدعاء: تقديم الثناء على الله تعالى قبل الدعاء.

أما وصف الله بالحميد فإنه سبحانه لما أثبت فقر الناس إليه وغناه عنهم بين أنه ليس كل غني نافع بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق الحمد منهم، ليدل بذلك على أنه هو الغني النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم، المستحق بأنعامه أن يحمدوه ويثنوا عليه/ الجامع لأحكام القرآن: 337/14.

(2) هذا رأي المجيزين لرفع البصر إلى السماء في الدعاء خارج الصلاة ودليلهم أن السماء قبلة الدعاء، كما أن الكعبة قبلة الصلاة، فلا يكره رفع الأبصار إليها كما لا يكره رفع اليدين.

قال علي بن بطال القرطبي الإمام الحافظ المحدث الفقيه شارح صحيح البخاري (449هـ/1038م) قال: أجمعوا على كراهة رفع البصر إلى السماء في الصلاة، =

(الهيئة) الثانية: التوجه نحو الكعبة لمزيد فضله[1] فقد صح: «أفضل المجالس ما كان مستقبلنا»[2].

= واختلفوا في كراهة رفع البصر إلى السماء في الدعاء في غير الصلاة، فجوزه الأكثرون وكرهه آخرون، منهم: الإمام العالم المفسر المحدث المجتهد التابعي أبو أمية شريح بن الحرث الكندي القاضي.

استقضاه عمر بن الخطاب ﷺ فيمن بعده إلى زمن الحجاج بن يوسف. كان أعلم الناس بالقضاء، وكان يناظر الصحابة ويحاججهم في عديد من المسائل، توفي سنة 80، وقيل: 8 للهجرة (680/687).

وقد رد المانعون لرفع البصر إلى السماء في الدعاء بثلاثة أمور.

أ ـ أن هذا القول لا دليل عليه من الكتاب والسُّنَّة، ولا يعرف من سلف الأمة.

ب ـ أن رسول الله ﷺ كان يستقبل القبلة في دعائه، وقد ثبت ذلك عنه في مواطن كثيرة، نص عليها ابن حجر في فتح الباري: 144/11.

ج ـ أن قبلة الشيء هي ما يقابله لا ما يرفع إليه بصره/ فتح الباري: 233/2، وشرح النووي لصحيح مسلم: 152/4.

(1) الإحياء: 305/1، فتح الباري: 141/11.

(2) ثبت استقبال القبلة في الدعاء بعدة أحاديث وردت من فعل الرسول ﷺ في استقباله الكعبة في الدعاء، منها:

أ ـ حديث عبدالله بن مسعود ﷺ، عند البخاري: «استقبل النبي ﷺ الكعبة، فدعا على نفر من قريش...» الحديث/ صحيح البخاري 293/11.

ب ـ حديث عبدالله بن عباس ﷺ، عند مسلم: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين فاستقبل القبلة، ثم مد يده فجعل يهتف بربه...» الحديث/ صحيح مسلم بشرح النووي: 174/16، 175.

ج ـ حديث عمر ﷺ عند النسائي: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فأنزل الله عليه يوماً، ثم سري عنه، فاستقبل القبلة ورفع يديه ودعا»/ السنن الكبرى رقم: 1443.

وقد ذكر ابن حجر في كتابه فتح الباري أحاديث في هذا الموضوع تراجع في الجزء 144/11.

أما ما استدل به القرافي على أنه حديث وأكد عليه بقوله: وقد صح، فإنه قول مأثور للفقيه التابعي المجتهد المبرز في الفتوى، مكحول بن أبي مسلم الدمشقي (ت113هـ/712م).

نص عليه أبو بكر ابن أبي شيبة (ت235هـ/831م) في مصنفه، ولفظه: «أفضل المجالس ما استقبل به القبلة»/ المصنف: 164/6.

(الهيئة) الثالثة: لبس الطاهر من الثياب حالة الدعاء[1] لكونه أفضل العبادات[2] فلا تصح مع النجاسات.

(الهيئة) الرابعة: شعار الفقراء والضعفاء من الناس ليجتمع الظاهر والباطن في صورة الافتقار والذل والخضوع بالجنان واللسان والأركان[3]، فيكون أقرب إلى حصول المطلوب من ذي الجلال.

---

(1) الدعاء هو العبادة كما أخبر بذلك سيد الخلق محمد ﷺ في حديث النعمان بن بشير ﷺ أن النبي ﷺ قال: الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: 60].

قال القرطبي في تفسيره للآية بعد أن ذكر الحديث: قال أبو عيسى الترمذي، هذا حديث حسن صحيح. فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة، وكذا قال أكثر المفسرين/ الجامع لأحكام القرآن: 326/15، وفتح الباري: 94/11، والإحياء: 304/1، سنن الترمذي رقم: 2969.

ويؤيد هذا ما أخرجه الترمذي ـ أيضاً ـ من حديث أنس بن مالك ﷺ أن الرسول ﷺ قال: «الدعاء مخ العبادة»/ فتح الباري 94/11، والإحياء 304/1، سنن الترمذي رقم: 3371.

وإذا كان الدعاء هو عبادة الله تعالى من جملة العبادات فيستحب للداعي أن يكون طاهر البدن والثياب من النجاسات والأكدار والأوساخ تأدباً، مع الخالق المرجو إجابته، الطامع في التفضل عليه وإكرامه، وتحقيق مبتغاه.

(2) دل على ذلك حديث عبدالله بن عباس ﷺ الذي أخرجه الحاكم في «المستدرك» أن الرسول ﷺ قال: «أفضل العبادة الدعاء»/ الجامع الصغير: 50/1.

ولكن هل يكون الدعاء أفضل من الصلاة مثلاً التي شرعها الله تعالى في السماء، وأوجبها وجوباً عينياً على المكلف إذا توفرت شروطها. بينما الدعاء هو جزء منها وأخص منها؟

قال الجمهور: إن الدعاء من أعظم العبادة ومعنى ذلك: أنه معظم العبادة وركنها الأكبر/ فتح الباري: 94/11.

(3) أركان الدعاء حددها ابن عطاء الله السكندري أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل من أجل مشائخ الصوفية توفي سنة (309هـ/902).

قال ابن عطاء الله: للدعاء أركان أربعة، أي: أمور مهمة لا بد منها، شبهت بأركان البناء، ومنه أركان الصلاة عند الفقهاء، وهذه الأركان هي:

أ ـ حضور القلب: أي: توجهه توجهاً تاماً بجميع فكره وحواسه إلى الخالق جل وعلا. =

(الهيئة الخامسة) السجود حالة الدعاء لمكان قرب العبد من ربه، وللأمر بالدعاء فيه لقوله[1]: **«أما السجود فأكثروا فيه من الدعاء»**.

(الهيئة السادسة): مباشرة الوجوه بالتراب[2]، وما يجري مجراه مما ينافي الكبرياء ويوجب الخضوع[3].

= ب ـ رقة القلب: وهي الاستكانة والخضوع والانقياد لله تعالى بالمذلة وعدم رفع الصوت والبصر والتأثر بالدعاء والذكر.

فكم من دعاء أو ذكر يجري على اللسان ولا يتأثر القلب به لقساوته، فكأن بينه حجاب بسبب قسوة القلب.

ج ـ تعلق القلب بقطع النظر عما سوى الله تعالى.

د ـ قطع الأسباب كلها: بأن لا يرجى غيره كما في الدعاء المأثور: **«اللَّهمَّ اقذف قلبي برجاك، واقطع رجائي عما سواك»**/ نسيم الرياض: 3/459، 460.

(1) أي: الرسول ﷺ، والحديث مر تخريجه.

(2) لعل القرافي يشير بهذا إلى حديث أبي هريرة ﷺ عند الحاكم في المستدرك وهو قوله ﷺ: **«رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس، لو أقسم على الله لأبره»**/ الجامع الصغير: 2/22. طمرين: ثوبين باليين/ المستدرك: 2/793.

أو قوله ﷺ في رواية مسلم عن أبي هريرة ﷺ: **«رب أشعث، مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»**/ صحيح مسلم: 16/174، 175.

ذكر النووي في شرحه لحديث مسلم:

أن الأشعث ملبد الشعر المغبّر غير مدهون ولا مرجّل، مدفوع بالأبواب، ليس له قدر وتعظيم عند الناس، لذلك يدفعونه عن أبوابهم، ويطردونه عنهم احتقاراً له.

فصاحب هذه الهيئة المتواضعة المهانة في نظر الناس لو أقسم على الله لأبره، أي لو حلف على وقوع شيء أوقعه الله إكراماً له بإجابة سؤاله، وصيانته من الحنث في يمينه، وهذا لعظم منزلته عند الله تعالى: وإن كان حقيراً عند الناس.

وقيل معنى القسم هنا: الدعاء. وإبراره: إجابته/. صحيح مسلم بشرح النووي: 16/174، 175.

فالمعتبر عند الله تعالى ليست الهيئة الخارجية للإنسان والشكل المرئي، ولكن ما في القلوب وما انطوت عليه، كما جاء في حديث مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**/ صحيح مسلم بشرح النووي: 16/121.

(3) ومعنى هذا أن هيئة الداعي ربه الضارع له، الراجي فضله وإكرامه وإحسانه، وحفظه ورحمته يجب أن تكون هيئة ذل وخضوع وتواضع وافتقار إلى الغني القادر المتكبر=

(الهيئة) السابعة: الخلوة، والبعد عن الخلق، خوف الرياء وطلب الأمن منه[1]، وفراغ القلب[2].

(الهيئة) الثامنة: خلو الجوف من الطعام والشراب بحيث لا يتضرر بالجوع[3].

= الجبار، من بيده مفاتيح الفرج والشفاء والعافية وأبواب الرزق والتيسير والتوفيق.

فهيئة الخضوع لله تعالى والتذلل إليه تشمل كل أحواله وأفعاله، في ملامح وجهه ونظره إلى الناس أو جلوسه ومشيئته، أو أقواله في صوته ونغمته أو حركاته أو سكناته، فلا يرى في شيء من ذلك أي مظهر للتعالي والاستكبار على الله تعالى وعدم الإذعان له والخضوع إليه، فقد قال وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: 37].

(1) بهذا أمرنا الله تعالى في قوله جل من قائل: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: 55].

هذا أمر بالدعاء وتعبّد به، ثم قرن ﷻ بالأمر صفات تحسن معه وهي الخشوع والاستكانة والضراعة، وأن يكون الدعاء سراً في النفس ليبعد عن الرياء ويستثنى من ذلك أعمال البر كالصدقة في بعض الأحيان يكون الجهر بها أفضل من السر.

ومثل ذلك دعاء الإمام في آخر الخطبة الثانية في الجمعة أو العيدين وغيرهما للمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة لهم وإجراء النعم لهم، ودفع النقم عنهم، والنصر على الأعداء، والمعافاة من الأمراض والأدواء، والتعوذ والاستغفار والثناء.

فخلوة الداعي والسرية في ضراعته لربه في خاصة نفسه تبعده عن الرياء وهو نوع من أنواع الاعتداء في الدعاء، الذي لا يحب الله تعالى المتصف به قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

فالرياء حرام، والمرائي ممقوت عند الله تعالى، كما شهدت بذلك الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110].

ومن الأحاديث قوله ﷺ في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: «من سمّع سمّع الله به، ومن راءى راءى الله به»/ صحيح مسلم: 116/18، والجامع لأحكام القرآن: 223/7، 224.

(2) فراغ القلب يكون بالإخلاص في الدعاء والصدق فيه بحيث لا يشوبه أي شيء عند مناجاة الله تعالى.

(3) كتاب الله تعالى هو الفيصل في هذا المقام، قال جل ذكره: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]. =

= قال عبدالله بن عباس ﷺ أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن فيهما إسراف، فأما ما تدعو الحاجة إليه لاعتدال الجسم وصحته، وهو سد الجوعة وتسكين الظمأ فمندوب إليه عقلاً وشرعاً لما فيه من حفظ النفس وحماية الحواس/ الجامع لأحكام القرآن: 7/ 191.

ومن أجل المحافظة على صحة الجسم جاء النهي من الرسول ﷺ عن مواصلة الصيام في حديث أبي هريرة ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إياكم والوصال، قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله قال: إنكم لستم في ذلك مثلي، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 7/212، 213، وصحيح البخاري: 4/208، 209.

فمجاوزة ما يتطلبه الجسم من الطعام والشراب منهي عنه، والمسرف في ذلك مبغوض عند الله تعالى ممقوت، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وحكم ذلك حرام، وقيل: مكروه وهو الأصح.

قال العلماء والأطباء: إن في الإسراف في الأكل وكثرته، ضرراً وعنه يكثر شراب الماء وثقل المعدة ونتن التخمة، وتثبيط الإنسان عن خدمة ربه، والأخذ بحظه من نوافل الخير، وعنه تتولد الأمراض المختلفة التي صارت في عصرنا تتطلب معالجتها أثماناً باهظة.

بينما في قلة الأكل التي لا تسبب ضرراً للجسم، منافع كثيرة، منها: أن يكون الإنسان أصح جسماً وأجود حفظاً، وأزكى فهماً، وأقل نوماً، وأخف نفساً.

فالإسراف في الأكل والشرب ضرره بالغ في الجسم، وقد بيّن رسول الله ﷺ هذا في حديث الترمذي عن المقداد بن معدي كرب ﷺ عند الترمذي فقال ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه**»/ سنن الترمذي رقم: 2380.

قال علماؤنا: لو سمع بقراط أشهر الأطباء الأقدمين يوناني توفي قبل 460م لو سمع هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة/ الجامع لأحكام القرآن: 7/192.

ويذكر أن هارون الرشيد الخليفة العباسي الدّين المحافظ على التكاليف الشرعية، وصلت الدولة في خلافته إلى أوج سلطانها سطوة وثروة وعلماً وأدباً المتوفى سنة (193هـ/790م) يذكر أن الرشيد كان له طبيب نصراني قال لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب زين العابدين، الثقة الثبت العابد الفقيه توفي (193هـ/790م)، هذا الطبيب قال لعلي: أليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان؟

فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا، فقال له ما هي؟=

(الهيئة) التاسعة تقدم صوم له[1].

(الهيئة) العاشرة: أن تكون أغذيته في تلك الأيام المتقدمة على الدعاء من النبات متجنباً الحيوان ولحومه، والأدهان المستخرجة منه[2]،

= قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.
فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب؟
فقال علي: جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة، قال: ما هي؟ قال: «المعدة بيت الأدواء والحمية رأس كل دواء» فقال النصراني: ما ترك كتابكم طبًا لجالينوس الطبيب اليوناني الذي ائتمّ به أطباء العرب في علم التشريح.
ولكن ما ذكر بأنه حديث ليس صحيحاً، وإنما هي حكمة من كلام الحارث بن كلدة الطبيب العربي المشهور في خلافة عمر ﷺ/ الجامع لأحكام القرآن: 7/192، أحكام القرآن لابن العربي: 2/ 781، نسيم الرياض: 1/439. التتمة شجرة النور الزكية: 112.

(1) لما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم»/ تحفة الأحوذي: 6/39.

(2) هذه النظرية التي يعتقدها النباتيون تتناقض مع ما قرره شرعنا العزيز معززاً بآراء الأطباء المختصين في الأغذية بأن تناول اللحوم ركن أساسي لنمو الأجسام وصحتها، حيث أنها تمد مختلف أعضاء الجسم بـ«البروتينات» من عضل وأعضاء وغدد وعظام وغير ذلك.
ولما كان أكل اللحوم غذاء حيوياً لجسم الإنسان فإن الله تعالى الذي خلق الإنسان وقدر له ما ينفعه ويفيده في طعامه أباح له أكله، فقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝﴾ [النحل: 5]، والأنعام: الإبل والبقر والضأن والماعز.
وقال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 1]، أي: هي مباحة حلال إلا ما استثناه تعالى منها كالميتة، والساقطة من مرتفع، والمنخفضة... إلخ.
وقد أمرنا الله تعالى بعد التحلل من الإحرام بالحج أو العمرة بالصيد للتغذي بلحومها فقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: 2].
وإذا رجعنا إلى السنة النبوية، فإنه مما يروى لنا فيها أن الرسول ﷺ كان يحب اللحم ويأكله، وأحب شيء إليه في الشاة هو الذراع كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: (لما فتحت خيبر أهديت إلى الرسول ﷺ شاة فيها سم)/ 7/497، أهدتها له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم اليهودية شاة مشوية، =

ويقتصر على دهن الزيتون، فإنه الشجرة المباركة[1].

= وكانت سألت: أي عضو من الشاة أحب إليه؟

قيل: الذراع، فأكثرت فيها السم، فلما تناول الرسول ﷺ الذراع لاك منها مضغة، ولم يستسغها، وأكل معه بشر بن البراء فمات منها، وقيل: إنه لم يمت، وقيل: إنه وقع القصاص من اليهودية، وقيل غير ذلك/ فتح الباري: 7/497.

وكان ﷺ حتى إذا امتنع عن أكل لحم ما فإن ذلك راجع إلى نفسه التي تعافه، فقد روى مالك في الموطأ عن خالد بن الوليد رضي الله عنه «أن الرسول ﷺ دخل بيت زوجته ميمونة فأتي بضب محنوذ مشوي فأهوى إليه رسول الله ﷺ بيده فقيل له: هو ضب، فرفع يده، فقلت ـ أي: خالد ـ: أحرام هو يا رسول الله؟

فقال: لا، ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجده أعافه»/ الموطأ بهامش المنتقى: 7/288.

ولكن لا بد من الملاحظة هنا: أن تناول اللحم يجب أن لا يصل إلى حد الإسراف الذي يضر بالجسم، وتنشأ عنه بعض الأمراض امتثالاً لقول الله تعالى العالم الحكيم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

وكما أباح الله تعالى لنا أكل اللحوم التي تنفعنا حرم علينا ما يضرنا منها. فقد روى الترمذي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: «حرم رسول الله ﷺ الحمر الإنسية ولحوم البغال وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير»/ سنن الترمذي رقم: 1478.

وروى مسلم عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: (نهى رسول الله ﷺ عن آكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير»/ مسلم بشرح النووي: 13/82، 83.

وبناءً على ما تقرر في شريعتنا من إباحة اللحم في حدود ما ينفع البدن، فإن ما ذكره القرافي من تجنب اللحوم وأدهانها في الأيام المتقدمة على الدعاء مرفوض شرعاً وطباً وعقلاً.

(1) الشجرة المباركة هي الزيتونة التي شبه الله تعالى نوره الذي هو هداية للمؤمن وتوضيح الطريق المستقيم الذي يسير عليه في منهاج حياته. شبه نوره المستمد من تعاليمه بنور المصباح الذي توقدت فتيلته بزيت شجرة الزيتون.

إذا كان ذلك المصباح في زجاجة والزجاجة في نافذة.

فهذا المصباح بنوره الصافي مثل الكوكب الدري في الإنارة وسطوع الضوء والصفاء قال عنه تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: 35].

وقد اجتمع في المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة إلى ضوء الزيت، فصار لذلك نوراً على نور واجتمعت هذه الأنوار في المشكاة، فصارت كأنور ما يكون، =

ويقال: للحم ضراوة كضراوة الخمر[1]، وقد شهدت العادة، بأن اجتناب اللحوم والإقلال منها، مما يوجب رقة القلب وإصلاحه، وهذا كله بشرط حفظ المزاج الذي يصون العقل، ويذكي اللب[2].

قلت: هذا الأدب العاشر، لا أصل له في الشرع، فلا يلتفت إليه، والله أعلم.

= فكذلك براهين الله تعالى واضحة، وهي برهان على برهان/ الجامع لأحكام القرآن: 255/12.

(1) ضراوة الخمر: هذا القول رواه الإمام مالك في الموطأ عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: وحدّثني مالك عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: **«إياكم واللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر»/ الموطأ بهامش المنتقى 253/7.**

قال أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت494هـ/1082م) في شرحه لهذا الأثر في كتابه «المنتقى»: أراد عمر منع التنعم بالمبالغة في أكل اللحم، حتى لا يصبح عادة يصعب تركها لمن ألفها، مثل: الإدمان على شراب المسكر.

فما يدعو إليه عمر هو الاقتصاد والاقتصار على أيسر الأوقات فإذا زاد على هذا القدر المندوب يكون إسرافاً مضراً.

وجاء في الموطأ أيضاً: (أن عمر بن الخطاب أدرك جابر بن عبدالله ﷺ ومعه حمال لحم فقال: ما هذا؟

قال: يا أمير المؤمنين قرمنا اللحم، فاشتريت بدرهم لحماً.

فقال عمر: أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه عن جاره أو ابن عمه، أين تذهب عنكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: 20].

ومعنى ذلك: أن عمر كره من جابر اشتراء اللحم الكثير ودعا له حمالاً يحمله اتباعاً لشهوته، وإيثارها على مواساة الجار وابن العم، وقد عاب الله على من فعل ذلك في الآية الكريمة السابقة/ المنتقى: 253/7.

ومما تجدر ملاحظته في هذا الشأن أن اللحم الذي هو من جملة أغذية الإنسان، أي: من جملة ما يأكله ويشربه وكل ما يتغذى به لا يتابع فيه شهوات نفسه في الإكثار منه، ودليل ذلك الآية الكريمة السابقة وحديث الرسول ﷺ المتقدم: **«فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»**.

(2) وبوجود هذا الشرط الذي يبعد عن الجسم المضرة الذي ذكره القرافي تنتقض مقولة النباتيين في اجتناب اللحوم المبنية على عادة مرفوضة إسلامياً وطبياً وهو ما نبه عليه القرافي بقوله: قلت.

ولكن يبقى الاحتمال عنده موجوداً في منفعتنا ولو قليلاً بدليل قوله في الأخير: والله أعلم.



الباب الخامس
في المختار للدعاء عن الأزمان
ليصل فيها إلى مرتبة الكمال

وهي عشرة أزمان:

1 ـ **(الزمن) الأول**: ليالي رمضان[1].

---

(1) ليالي رمضان: رمضان شهر العبادة والخير والبركة، يغشانا الله فيه بالرحمة وحط الخطايا، واستجابة الدعاء، ولا سيما في الأوقات الفاضلة التي سنتها لنا شريعتنا الغراء في لياليه الكريمة بهدي الرسول ﷺ أوقات عبادة الله والتقرب إليه ﷻ والتضرع إليه رجاء استجابته لنا وهي: صلاة التراويح والعشر الأواخر من رمضان.

أ ـ **صلاة التراويح**: أو قيام رمضان: لقد رغبنا رسول الله ﷺ في قيام رمضان طيلة لياليه وعبادة الله تعالى لما في ذلك من الفوائد الكثيرة والمنافع وإجابة الدعاء ومغفرة الذنوب، فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يرغب في قيام رمضان من غير أن يأمرهم بعزيمته فيقول: «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 6/39، 40، صحيح البخاري: 4/250.

قوله: من غير أن يأمرهم بعزيمته: هذا بيان لحكمه، وأنه ليس واجباً علينا، وأنه من النوافل المرغب فيها.

وقوله: «**إيماناً**» تصديقاً لما وعد الله به من الثواب للقائم به، وقوله: «**احتساباً**» أي: أن يريد القائم في عبادته الله وحده لا غرضاً من الأغراض الدنيوية، كالمباهاة وطلب الثناء، أو الأجر للقائم به، وطلب المنزلة في القلوب.

وقوله: «**غفر له ما تقدم من ذنبه**» المغفرة مختصة بالصغائر، لأن كبائر لا يكفرها إلا=

= التوبة، وهذا فيما بين العبد وربه، وأما ذنوب الخلائق فلا بد من إرجاعها إلى أهلها أو العفو عنها من أصحابها.
ب ـ **العشر الأواخر من رمضان**: ليالي الذكر والعبادة فقد روت عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»/ صحيح البخاري: 269/4.

«شد مئزره»: اعتزل النساء: وجدّ في العبادة، ويمكن أن يكون شد مئزره فلم يحله.
«أحيا ليله»: بسهره فيه بالطاعة والتقرب إلى الله تعالى بمختلف العبادات.
«أيقظ أهله» للعبادة برفقتهم، وإمامتهم، وتعليمهم كيفية التعبد/ فتح الباري: 269/4.
ومن ضمن هذه العشر الأواخر من رمضان ليلة القدر المباركة التي أنزل الله فيها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾ [القدر: 1].
وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③﴾ [الدخان: 3].
هذه الليلة التي شرفها الله وعظمها، وفضيلة الزمان أن تكون بقدر ما يقع فيه من الفضائل، وقد فضلها الله تعالى، وجعل عبادته فيها وحدها خيراً من عبادته في ليلة غيرها مدة ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر.
وقد رغّب الرسول ﷺ أمته في تحريها والتماسها لينالوا فضلها وثوابها، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 40/6، 41.
وهذه الليلة اختلف العلماء في تعيينها ووصلت أقوالهم إلى ستة وأربعين قولاً، إلا أن الذي ذهب إليه أكثر العلماء أنها في العشر الأواخر في رمضان لورود عدد من الأحاديث في ذلك، منها: ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان**».
وفي رواية «**التمسوها في العشر الأواخر**»/ صحيح البخاري 259/4، صحيح مسلم شرح النووي: 43/6، ونيل الأوطار: 363/4 وما بعدها، الجامع لأحكام القرآن 129/20 وما بعدها.

واختلف العلماء في المراد من القدر الذي أضيف إلى هذه الليلة، فقيل: المراد به التعظيم، أي: أنها ذات قدر وشرف لنزول القرآن فيها، وأن الذي يحييها يصير ذا قدر، أو لما ينزل فيها من البركة والرحمة والمغفرة وإجابة الدعاء، أو لأن الملائكة تتنزل فيها من سدرة المنتهى إلى الأرض يؤمّنون على دعاء الناس إلى طلوع الفجر ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾، أي: لكل أمر قدره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل، وهي سلام كلها لا شر فيها ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ⑤﴾/ فتح الباري: 255/4، والجامع لأحكام القرآن: 129/20 وما بعدها. =

2 ـ (الزمن) الثاني: يوم عرفة[1].

3 ـ (الزمن) الثالث: يوم عاشوراء، ويلحق به يوم تاسوعاء[2].

= ولشرف هذه الليلة وفضلها وعظمة قدرها عند الله تعالى يندب التوجه إليه بالدعاء، وهو الكريم ذو الفضل العظيم القائل وقوله الحق: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: 186].

(1) هذا هو اليوم التاسع من ذي الحجة وفيه يقف حجاج بيت الله الحرام في عرفات من بعد الزوال إلى غروب الشمس ثم إلى طلوع فجر يوم العيد، فمن فاته الليل، بطل حجه لقول الرسول ﷺ: «**الحج عرفة، فمن جاء قبل صلاة الصبح من ليلة جمع ـ أي: ليلة المبيت بالمزدلفة ـ تم حجه**» أخرجه أحمد وأبو داود والبيهقي في السنن عن عبدالرحمٰن بن يعمر واللفظ لأبي داود/ سنن أبي داود رقم: 1949.

فشرف هذا اليوم أنه يوم العبادة الكبرى للركن الخامس من أركان الإسلام، ومجد هذا اليوم ورفعته في مكان عرفات، أنه اليوم الأغر الذي وقف فيه سيد الخلق محمد ﷺ في حجة الوداع خطيباً داعياً مبلغاً للأحكام مبشراً أمته بدنو رحمة الله منهم، وقربه إليهم ومحو ذنوبهم.

فقد أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 9/116، 117.

«**يدنو**»، أي: تدنو رحمته وكرامته لا دنو مسافة ومماسة، أو المراد دنو الملائكة إلى الأرض أو إلى السماء بما ينزل معهم من الرحمة.

ومباهاة الملائكة بالسعداء المعتقين في طاعتهم لربهم وتلبية دعوته للقيام بعبادة الحج، وهم في هذا الموقف العظيم داعين ملبين ذاكرين أنه يوم العبادة السنوية الذي تستجاب فيه الدعوات ويمحو الله فيه السيئات.

فقد أخرج الترمذي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أن النبي قال: «**خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**»/ المغني عن حمل الأسفار بهامش الإحياء: 1/253، سنن الترمذي رقم: 3585.

(2) فضيلة الزمن في هذين اليومين تقدر بما يقع فيهما من الفضائل والعبادات والدعاء.

فمن العبادات التي سنها الرسول ﷺ في هذين اليومين عبادة الصوم نافلة لله تعالى بعد أن كان صوم يوم العاشر واجباً ثم نسخ سنة تسع للهجرة بوجوب صوم رمضان. فقد صام اليوم العاشر وعزم على صيام اليوم التاسع ولكن عاجلته المنية. =

4 ـ (الزمن) الرابع: ليلة الجمعة ويومها(1).

= فقد روى مسلم عن عبدالله بن عباس ﷺ قال: حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: «فإذا كان العام المقبل صمنا اليوم التاسع»، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ/ صحيح مسلم: 12/8.

قال بعض العلماء: ولعل السبب في صوم اليوم التاسع مع العاشر أن لا يقع التشبه باليهود في إفراد اليوم العاشر بالصوم وكان ﷺ يخالف أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ولا سيما إذا كانت فيه مخالفة الأوثان، كصوم عرب الجاهلية لهذا اليوم فلما فتحت مكة، واشتهر أمر الإسلام أحب مخالفة أهل الكتاب أيضاً كما ثبت في الصحيح/ فتح الباري: 246/4.

قال العلماء: والباعث على صيام اليوم العاشر موافقة اليهود على سبب صيامهم، وهو شكر الله تعالى على نجاة موسى عليه السلام وغرق فرعون وقومه، وهو من فضائل صوم هذا اليوم أيضاً حيث استجاب الله لدعوة موسى بهلاك فرعون وقومه. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: 88 ـ 89].

ومن فضائل صيام هذين اليومين كذلك استجابة دعاء من كان صائماً، لما رواه ابن ماجه عن عبدالله ابن عمر ﷺ أن الرسول ﷺ قال: «إن للصائم دعوة لا ترد»/ نيل الأوطار: 4/ 301.

(1) ليلة الجمعة ويومها: وهما من أزمنة الخير والفضل، فقد روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 6/ 141، 142.

وفي هذا اليوم المبارك يستجاب الدعاء، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه الله إياه»، وأشار بيده يقللها/ صحيح البخاري: 2/ 415، صحيح مسلم: 6/ 139.

وقوله ﷺ: «يقللها» الإشارة لتقليلها للترغيب فيها والحث عليها ليسارة وقتها وغزارة فضلها وثوابها/ فتح الباري: 2/ 416.

أما تحديد زمن الدعاء في هذه الساعة واستجابة الله تعالى للداعي، فقد اختلفت أقوال العلماء في ذلك تبعاً للآثار الواردة فيها.

فمن ذلك ما أخرجه مسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ (ت50هـ/672م) أن=

5 ـ (الزمن) الخامس: عشر ذي الحجة[1].

6 ـ الزمن السادس: شعبان[2].

= رسول الله ﷺ قال: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تنقضي الصلاة»/ صحيح مسلم: 6/140.

وقد وصلت أقوال العلماء في تحديد وقت هذه الساعة إلى نيف وأربعين، قال الحافظ ابن حجر: إن تحصيل الأفضلية ومصادفة ساعة الإجابة يمكن الوصول إليه والعمل بمقتضاه باستيعاب اليوم والليلة/ فتح الباري: 2/422.

(1) هي أيام شريفة يضاعف الثواب فيها. فضّل الرسول ﷺ العمل فيها على الجهاد في سبيل الله إلا من استشهد وأنفق ماله في الجهاد، فقد روى عبدالله بن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله ﷺ من هذه الأيام» ـ يعني أيام العشر ـ، قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع بشيء»/ صحيح البخاري 2/457، نيل الأوطار: 3/384.

وروى أحمد عن عبدالله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»/ المسند رقم: 23 ـ 54.

وقد شرف هذه الأيام وعظمها أنها من الأشهر الحرم وفيها موقف عرفات، موضع إجابة الدعاء وتختم بيوم العيد، يوم الحج الأكبر.

(2) فضل الرسول ﷺ شهر شعبان باستحباب الصيام فيه، والإكثار من صوم أيامه، فقد أخرج البخاري عن عائشة ﷺ قالت: (كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: «لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم، وما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر إلا رمضان وما رأيت أكثر صياماً منه في شعبان»)/ صحيح البخاري: 4/213.

والحكمة في صيام أكثر أيام شعبان ذكر العلماء عدداً منها، وقد بينها الرسول ﷺ في حديث أسامة بن زيد ﷺ توفي (54هـ/655م) عند النسائي: «قلت: يا رسول الله، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم في شعبان؟ قال: ذلك شهر يغفل الناس عنه، بين رجب ورمضان وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم»/ صحيح البخاري رقم: 2356.

فلا فضل في شهر شعبان إلا باستحباب التنفل فيه بالصيام، والصائم لا ترد دعوته كما أخبر بذلك سيد الخلق محمد ﷺ في حديث عائشة عند ابن ماجه، وقد تقدم.

7 ـ (الزمن) السابع: الأشهر الحرم، الثلاثة الأخيرة، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة والمحرم[1].

8 ـ (الزمن) الثامن: أيام النحر[2].

---

(1) خصص القرافي من الأشهر الحرم الثلاثة المتواليات: ذي القعدة وذي الحجة والمحرم، دون رجب، لأن رجب وردت آثار بخصوصه.
فضل هذه الأشهر يعز عن الحصر، ففيها تقع عبادة الحج بما في ذلك الوقوف بعرفات، والطواف والسعي والعيد والأضاحي والنحر، وشكر المولى على نعمه التي لا تحصى.
ومن ذلك استحباب الصيام فيها لما رواه أبو داود أن الرسول ﷺ قال لرجل من باهلة: «**صم شهر الصبر ويوماً من كل شهر**، قال: زدني فإن بي قوة، قال: **صم يومين**، قال: زدني، قال: **صم ثلاثة أيام**، قال: زدني، قال: **صم من الحرم واترك، صم من الحرم واترك، صم من الحرم واترك**، وقال بأصابعه الثلاثة: فضمّها ثم أرسلها»/ سنن أبي داود رقم: 2428.

(2) أيام النحر قال الإمام مالك: يوم النحر ويومان بعده وهو ما ذهب إليه أبو حنيفة وأحمد، أما الشافعي فرأى أنها أربعة أيام يوم النحر وثلاثة أيام بعده/ بداية المجتهد 319/1.
وهذه الأيام تسمى أيام التشريق، كما سماها الرسول ﷺ في حديث عائشة ﵂ عند مسلم: «**أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله ﷻ**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 17/80.
وقد فسر العلماء التشريق بعدة معانٍ، منها: تقديد اللحم ونشره في المشرقة تحت ضوء الشمس، وقد جرت العادة بتشريق لحوم الأضاحي في الأيام الثلاثة، فسميت هذه الأيام لذلك بأيام التشريق.
وأيام التشريق هذه اختلف العلماء فيها: هل هي الأيام المعلومات أو المعدودات المذكورة في كتاب الله ﷻ؟
فالإمام مالك قال: إنها الأيام المعلومات لقوله تعالى في ذكر فضائل أيام النحر: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: 28].
والأيام المعدودات عند مالك هي أيام رمي الجمرات في منى: اليوم الثاني والثالث والرابع ليوم النحر لقوله تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝﴾ [البقرة: 203]. =

= وذكر الله ﷻ المأمور به في هذه الأيام وهو التكبير، فقال جل شأنه مبيناً ما يصل عليه من نحر الأنعام: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿37﴾﴾ [الحج: 37].

وصيغة التكبير عند المالكية: الله أكبر ثلاثاً وهو الأحسن، فإن زاد: لا إلٰه إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد فهو حسن والكل واسع/ شرح الرسالة: 260/1.

ويندب للجماعة والفرد التكبير إثر كل صلاة من الصلوات المكتوبة في خمس عشرة فريضة وقتية من ظهر يوم النحر إلى صبح اليوم الرابع، لقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾.

وهذا الخطاب وإن كان مقصوداً به الحجاج، فإن الجمهور رأوا أنه يعم الحجاج وغيرهم وتلقّي الناس بعمل أهل المدينة، والناس تبع للحجاج، وهم يكبرون من الظهر، وينتهون بعد صلاة الصبح في اليوم الرابع/ الشرح الكبير: 406/1، وشرح الرسالة: 259/1، 260.

وما ذهب إليه مالك هو مذهب الشافعية، الجمل على شرح المنهج 103/2، 104.

أما الحنابلة فالتكبير عندهم في ثلاث وعشرين فريضة من فجر يوم عرفة إلى عصر آخر أيام التشريق فهي ثلاث وعشرون/ صلاة العدة: 113، 114.

ومثل هذا عند الحنفية يقع التكبير من فجر يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق/ الدر المختار: 784/1 ـ 787.

أما فضائل أيام النحر، وشرف أزمانها فلأنها من الأشهر الحرم، ولأنها أيام عبادة الحج بالنسبة للحجاج، وغير الحجاج المشتملة على الذكر الذي أمرنا به الخالق تبارك وتعالى في قوله جل وعلا: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ وقد مر قبل أن هذا الذكر وإن كان مقصوداً به الحجاج، ولكن الجمهور قالوا: إنه عام يشمل الحجاج وغيرهم.

وكذلك حديث عائشة رضي الله عنها المتقدم عند مسلم: **«أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله ﷻ»**.

وروى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ «بعث عبدالله بن حذافة أيام منى يطوف، يقول: **إنها أيام أكل وشرب، وذكر الله تعالى**»/ الموطأ بهامش المنتقى: 307/2.

ولأفضلية هذه الأيام وشرفها بعبادة الله تعالى والتقرب إليه بالأضاحي والهدايا والشكر والثناء والتسبيح والتكبير والدعاء يكون دعاء المؤمن مرجو الإجابة إن شاء الله تعالى.

9 ـ (الزمن) التاسع: أيام رجب[1].

10 ـ (الزمن) العاشر: الأسحار من سائر الأزمان أفضل لحديث: «هل من سائل؟»[2].

---

(1) رجب هو من الأشهر الحرم الفاضلة التي يتقرب فيها المؤمنون بالعبادات إلى ربهم، ومنها: الصوم.

والصائم ما دام في عبادة الله يكون دعاؤه مرجو الإجابة كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق في حديث عبدالله بن عمر ﷺ عند ابن ماجه: «إن للصائم دعوة لا ترد» وقد مر تخريجه.

ولكن العلماء ـ مع ذلك ـ اختلفوا في مشروعية استحباب صوم أيام منه.

وقد استدل القائلون بمشروعية استحباب الصوم فيه بعدد من الأحاديث، منها: ما رواه البيهقي في «شعب الإيمان»: «من صام يوماً من رجب كان كصيام سنة»/ رقم: 1392/3.

واستدل المانعون لمشروعية استحباب الصيام فيه بأنه لم يرد في صيامه بالخصوص سنة ثابتة، والأحاديث التي تروى فيه واهية لا يفرح بها عالم.

ومما يؤيد هذا ما أخرجه الألباني عن خرشة بن الحر الفزاري التابعي (ت74هـ/674م): (أنه رأى عمر بن الخطاب ﷺ يضرب أكف الناس في رجب حتى يضعوها في الجفان ويقول: كلوا فإنما هو شهر كان يعظمه أهل الجاهلية)/ النصيحة: 211.

وقال الشوكاني رداً على المانعين بأن الصوم في رجب دل على استحبابه العموم والخصوص، أما العموم فالأحاديث الدالة على الترغيب في صوم الأشهر الحرم وهو منها بالإجماع، وأما الخصوص فعدد من الأحاديث ضعيفة/ نيل الأوطار: 433/4.

(2) لفظ الحديث، كما أخرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح»/ صحيح مسلم: 37/6، 38، وأخرجه البخاري مع اختلاف في اللفظ صحيح البخاري: 128/11، 129.

بين هذا الحديث فضل الدعاء في هذا الوقت، وهو كما قال ابن بطال ـ أبو الحسن علي بن خلف في شرحه للحديث: وقت شريف خصه الله بالنزول فيه، فيتفضل على عباده بإجابة دعائهم، وإعطاء سؤلهم، وغفران ذنوبهم، وهو وقت غفلة واستغراق في النوم واستلذاذ به ومفارقة اللذة والبعد عن الراحة صعب، لا سيما أهل الرفاهية وفي زمن البرد، وكذا المتعبون بالأعمال ولا سيما في قصر الليل صيفاً. =

قال: وسبب ذلك: أن هذا الوقت يأتي على الناس، وهم في غاية الكسل، والغفلة مستغرقين في نومهم، ولذتهم في فرشهم بأزواجهم، معرضين بسبب ذلك عن ربهم فالقائم في ذلك الوقت مؤثر لربه على نفسه، جدير بأن يفاض عليه الإحسان ولأجل ذلك قال سبحانه: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[1].

ويلحق بالتقرب إلى الله تعالى في الأسحار كل ذاكر من الغافلين، وكل من قام بما غفل الناس عنه[2].

= فمن آثر مناجاة ربه، والتضرع إليه مع ذلك دلّ على خلوص نيته وصدق رغبته فيما عند ربه.

فلذلك نبه الله عباده على الدعاء في هذا الوقت الذي تصفو فيه النفس، وتتجرد من خواطر الدنيا وشواغلها فيجدّ فيه المؤمن ويجتهد في ضراعته لله، والإخلاص له/ فتح الباري: 139/11.

أما قوله ﷺ: «ينزل» فإن النزول محال على الله تعالى، لأنه عبارة عن حركة من جهة العلو إلى الأسفل، وقد دلت البراهين القاطعة على تنزيه الله على ذلك، ولذلك فلا بد من التأويل بالإجابة واللطف/ فتح الباري: 139/11.

(1) هذه آخر آية في وصف من أوصاف المتقين الموعود لهم بجناب النعيم، الذين وصفهم المولى ﷻ في قوله جل من قائل: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧﴾ [آل عمران: 16 ـ 17].

وأفضل الاستغفار وسيده ما أخرجه البخاري عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«سيد الاستغفار أن يقول: اللَّهمَّ أنت ربي لا إلٰه إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، اغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه، قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»**/ صحيح البخاري: 97/11، 98.

(2) القائم بعبادة الله في وقت يغفل الناس عنه، يلحق بالداعين المستغفرين بالأسحار والتهجد، ومثله ما أخبرنا به رسول الله ﷺ في سبب إكثاره من صوم شعبان: **«إن شعبان شهر يغفل عنه الناس بين رجب ورمضان»**/ نيل الأوطار: 333/4.

أي: إنهم يغفلون عن تعظيم شعبان بالصوم كما يعظمون رمضان ورجب/ المصدر السابق.



الباب السادس
فيما يختص من الدعاء في البقاع

ودليله حديث «لا تشد الرحال»[1]، وحديث النهي عن الصلاة في الحمام[2] ونحوه، وغير ذلك[3].

---

(1) هذا الحديث متفق عليه ولفظه من البخاري: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»/ صحيح البخاري: 3/63، صحيح مسلم: 7/167، 168.
الرحال: جمع رحل وهو للبعير كالسرج للفرس، وشدّه: كناية عن السفر.
والمعنى أنه لا يستقيم شرعاً أن تقصد بالزيارة إلا هذه المساجد لاختصاصها بهذه المزية الشريفة، ومثلها: كل بقعة طاهرة في إجابة الدعاء.

(2) حديث النهي عن الصلاة في الحمام أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «**الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام**»/ سنن الترمذي رقم: 317.
الحمام هو من المواضع التي اختلف العلماء في طهارتها، والتعبد فيها، فالإمام مالك ﷺ يقول بطهارتها وجواز الصلاة فيها إن أمنت النجاسة فيها.
ويرى الحنفية والشافعية والحنابلة منع الصلاة فيها، لأنها مأوى الشياطين ومظنة انكشاف العورات/ الشرح الصغير: 1/98، والبدائع: 1/115 وما بعدها، والمهذب: 1/62، والمغني: 2/67.

(3) وغير ذلك: هذه إشارة إلى المواضع الأخرى التي ورد النهي من الشرع عن التعبد فيها ومنها حديث عبدالله بن عمر ﷺ عند الترمذي: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلى في سبعة مواطن: في المزبلة والمجزرة والمقبرة، وقارعة الطريق، وفي الحمام، وفي إعطان الإبل، وفوق ظهر بيت الله الحرام»/ سنن الترمذي رقم: 346.
=

البقعة الأولى: قبر الرسول ﷺ لأنها أفضل البقاع إجماعاً[1].

= أ ـ **المزبلة**: مكروهة عند غير المالكية لمجاورتها النجاسة أو مظنة وجودها، ولأنها مجمع الأوساخ والنفايات والذباب، والمالكية رأوا جواز الصلاة فيها إذا لم توجد بها نجاسة.

ب ـ **المجزرة**: محل نحر الإبل وذبح البقر والغنم فكره الصلاة فيها عند غير المالكية، لأن المصلي كأنه يصلي على النجاسة، أما المالكية فأجازوا الصلاة فيها إن أمنت النجاسة فيها ووقع التحقق من عدم وجودها.

ج ـ **المقبرة**: تكره الصلاة فيها عند الجمهور غير المالكية لنجاسة ما تحتها بالصديد، ولحديث أبي مرثد الغنوي ﷺ (ت12هـ/614م) أن الرسول ﷺ قال: «**لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها**»/ مسلم: 38/7.

د ـ **قارعة الطريق**: أعلاه أو وسطه، والصلاة عند المالكية جائزة فيه إن أمنت النجاسة ومكروهة عند الحنفية والشافعية، ومحرمة عند الحنابلة.

هـ ـ **الحمام**: سلف الحديث عن الصلاة فيه.

و ـ **أعطان الإبل**: مباركها، الصلاة فيها مكروهة عند المالكية لما يصدر عنها من نفور قد يحدث في الصلاة فيؤدي ذلك إلى قطعها أو يحصل منها أذى أو تشويش الخاطر الملهي عن الخشوع في الصلاة.

وهي مكروهة كذلك عند الحنفية والشافعية القائلين بنجاسة أبوالها وأرواثها ومحرمة عند الحنابلة لمظنة النجاسة فيها/ العدة: 69.

ولا تكره الصلاة في مرابض الغنم لحديث أنس ﷺ عند البخاري (كان النبي ﷺ يصلي في مرابض الغنم)/ صحيح البخاري: 526/1.

ز ـ **الصلاة فوق الكعبة**: كرهت لما فيها من ترك التعظيم المأمور به لعدم وجود السترة بين يدي المصلي، ولأنه يصير مصلياً على سطح البيت لا إلى البيت.

وصلاة الفريضة فيها أو في وسطها عند المالكية والحنابلة تصح مطلقاً وكذلك عند الحنفية والشافعية/الشرح الصغير: 98/1، والبدائع: 115/1، والمهذب: 62/1، والمغني: 36/2، 76.

ولما ورد النهي عن الصلاة في هذه المواطن والصلاة عبادة، فإن الدعاء يمنع كذلك إلحاقاً بالصلاة، لأنه عبادة أيضاً.

(1) هذا الإجماع نقله القاضي عياض في كتابه «الشفاء» وعبدالوهاب السبكي على أن قبر الرسول ﷺ الذي ضمّ جسمه الشريف أفضل من سائر البقاع كلها لشرفه وعلو قدره وما خصه الله من المزايا والمحامد التي لم تعط لرسول مثله، خلافاً لما ذهب إليه بعض شذاذ العلماء من أن الأفضلية لا تكون إلا بكثرة الثواب على الأعمال ولا عمل على قبره الشريف يثاب عليه. =

والدعاء عندها سريع الإجابة[1] لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا

= وقد ردّ أحمد بن إدريس القرافي هذه الدعوى في فروقه بأن للتفضيل أسباباً كثيرة عددها وذكر منها الحلول في الموضع، ووجود جثمانه الشريف في قبره/ الفروق: 249/2، ونسيم الرياض: 531/3.

(1) الدعاء في قبر الرسول يكون الداعي واقفاً في روضته المباركة بعد السلام والصلاة عليه والسلام على أبي بكر وعمر ﷺ ثم الدعاء في الروضة، وهي ما بين بيته ومنبره التي حددها عليه الصلاة والسلام في حديث عبدالله بن زيد الأنصاري ﷺ عند مسلم قال: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة»/ صحيح مسلم: 161/9، 162.

قوله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»: ذكر العلماء فيه قولين؛ أحدهما: أن ذلك الموضع بعينه ينقل إلى الجنة، والثاني: أن العبادة والدعاء فيه وسيلة إلى الجنة.

أما البيت ففيه قولان:

أحدهما: القبر الذي يضم جثمانه الشريف، وقد فسره بذلك زيد بن أسلم التابعي الشهير ورئيس فقهاء المدينة السبعة (ت93هـ/693م) فسره عند شرحه لحديث: «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة» فقال: والقبر يطلق عليه البيت مجازاً، لأن معناه ما يبيت فيه الحي، والرسول ﷺ حي في قبره.

والقول الثاني: المراد بالبيت سكناه وهو على ظاهره وهو بيت عائشة ﷺ.

قال محمد بن جرير الطبري (ت310هـ/903م): القولان متفقان لأن قبره في حجرته، وهي بيت عائشة ﷺ/ النووي على مسلم: 161/9، 162، ونسيم الرياض: 519/3 وما بعدها.

وزيارة قبر الرسول ﷺ سُنَّة من سنن المسلمين مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها لما رواه ابن خزيمة والدارقطني والطبراني عن عبدالله بن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من زار قبري وجبت له شفاعتي»، أي: حقت وثبتت، فهي ثابتة له بالوعد الصادق لا بد منها، وليس المراد به الوجوب الشرعي/ المصدران السابقان.

وأفادت إضافة الشفاعة له ﷺ أنها شفاعة عظيمة جليلة، إذ هي تعظم بعظم الشافع ولا أعظم منه ﷺ ولا أعظم من شفاعته، وهي كذلك بشرى بموت الزائر مسلماً/ نسيم الرياض: 511/3.

ولكن هذه الشفاعة ذات الثواب العظيم لا تحصل إلا لمن أخلص فيها بأن لا يقصد بها أو معها أمراً آخر ينافيها لما رواه أنس بن مالك ﷺ أن الرسول ﷺ قال: من زارني في المدينة محتسباً كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة»/ الجامع الصغير: 172/2، ونسيم الرياض: 511/3، 512. =

﴿أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ الآية[1].

وهذا الأصل في بقاع سائر الأنبياء عليهم السلام، والدعاء عند أولي العزم منهم[2] أفضل، وكذا بقاع ورثة الأنبياء من العلماء والصديقين [(14ب)] والأولياء والزهاد[3].

= وشذ عن إجماع الصحابة والتابعين وكل علماء المسلمين أحمد ابن تيمية (ت728هـ/1309م) وتلميذه محمد ابن قيم الجوزية (ت751هـ/ 1331م) فقد ذهب ابن تيمية إلى تحريم السفر لزيارة قبر النبي ﷺ وشد الرحال إليه، ووصل الأمر إلى تكفير العلماء له ولتلميذه بسبب ذلك.

وصنف في هذا السبكي عبدالوهاب (ت771هـ/1350م) مصنفاً خاصاً مستقلاً أفتى فيه بمنع زيارته لقبر الرسول ﷺ.

فقد توهم ابن تيمية وتلميذه ـ كما قال القاضي عياض ـ أنه حمى جانب التوحيد بخرافات لا ينبغي ذكرها، فإنها لا تصدر عن عاقل فضلاً عن عالم فاضل سامحه الله تعالى/ نسيم الرياض: 3/513، 514.

وقال علي القاري (ت1014هـ/1586م) شارح الشفاء: «يمكن حمل كلام من حرم أو كره على صور خاصة من الزيارة من الاجتماع في وقت خاص على هيئة منكرة أو صفة مكروهة من اجتماع الرجال والنساء في وقت واحد، لما فيه من اتخاذ قبره عيداً، وإظهار الزينة وغيرها مما يعمل في الأعياد عادة»/ شرح الشفاء: 3/514.

(1) وتمام الآية قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: 64].

والاستشهاد بهذه الآية الكريمة يدل على استحباب الدعاء والاستغفار في أماكن هؤلاء وفي أضرحتهم لمكانتهم عند الله تعالى، لأنهم يستغفرون للمذنبين وهم أموات حسياً مع العلم أنهم أحياء في قبورهم.

(2) أولو العزم الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم آمراً نبيناً محمداً ﷺ بالصبر مثلهم في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35].

وقد اختلف العلماء في تحديد عددهم وتعيينهم، ووصلت أقوالهم إلى اثني عشر قولاً، منها: قول مجاهد بن جبر التابعي أمام التفسير (ت101هـ/ 701م) قال مجاهد: أولو العزم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم/ الجامع لأحكام القرآن: 16/220، 221.

(3) زيارة القبور والمشاهد مشروعة، ولها مقاصد عديدة كالتذكير بالموت والاتعاظ بمن صاروا في الألحاد تحت التراب، أو الدعاء لأهلها المسلمين بالرحمة والغفران، أو=

البقعة الثانية: طيبة[1] زادها الله شرفاً.

= القصد بالزيارة برهم وإكرامهم كزيارة قبر الوالدين، ومن عليه حق لإكرامه.
ويضاف إلى هذه المقاصد التبرك بمن فيها من الأنبياء والصالحين والانتفاع بزيارتهم.
ولكن ذهب بعض العلماء إلى أن زيارة القبور مشروعة للأنبياء مثل إبراهيم وموسى ويحيى وغيرهم ﷺ، أما غير الأنبياء من الصالحين والعباد والأولياء فزيارة قبورهم بدعة.
واحتج لمنع زيارة قبورهم بحديث أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا ومسجد الحرام والمسجد الأقصى»**/ مسلم: 9/167، 168.
وهذه الحجة مدحوضة بأمرين:
● **أولاً**: أن زيارة القبور مأمور بها لقوله ﷺ رواية عن أبي هريرة ﷺ عند مسلم قال: (زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: **استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزورها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت»**/ صحيح مسلم: 7/45، 46.
● **وثانياً**: أن الحديث الشريف إنما ورد في المساجد الثلاثة وليس في معناها القبور والمشاهد، لأن المساجد غير الثلاثة المفضلين متماثلة في الفضل والدرجة، ولذلك فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر.
وأما المشاهد فلا تتساوى، فبركة زيارتها تتفاوت في الأجر والثواب على قدر درجاتهم عند الله تعالى.
وبناءً على هذا فإنه إذا جوّزنا زيارة قبور الأنبياء ﷺ، فقبور الأولياء والصلحاء في معناها، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة قياساً على زيارة العلماء في حياتهم وهو مقصد حسن/ نسيم الرياض: 3/511، والإحياء: 1/244، وفتح الباري: 3/65.

(1) هي المدينة المنورة سماها الرسول ﷺ طيبة جاء ذلك في حديث البخاري عن أبي حميد ﷺ قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من «تبوك» حتى أشرفنا على المدينة فقال: **«هذه طيبة»**/ صحيح البخاري: 4/88.
وتبوك مكان بين المدينة والشام الذي غزا فيه الرسول ﷺ جيش الروم ومن انضم إليه من العرب سنة 9 للهجرة، كما سماها الرسول ﷺ «طابة» في حديث جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله تعالى سمى المدينة طابة»**/ صحيح مسلم: 9/156.
والطابة والطيب لغتان بمعنى واحد اشتقاقاً من الشيء الطيب، وقيل: لطهارة تربتها.
وقد سمى القرآن الكريم المدينة يثرب في قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿قَالَت=

ذهب مالك رحمه الله إلى أنها أشرف البلاد[1]، وقال

= ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: 13]/ فتح الباري: 44/88، 89.

وكره الرسول ﷺ تسميتها يثرب لاشتقاقها من التثريب وهو التوبيخ والملامة، وكان ﷺ يحب الاسم الحسن ويكره الاسم القبيح/ النووي شرح مسلم: 9/154، 155.

وروى زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «**المدينة، وطابا، وطيبة، والمطيبة، والمسكينة والدار وجابرة ومحبورة، ومنيرة ويثرب**»/ فتح الباري: 4/88، 89.

(1) فضل الإمام مالك ﷺ والمدنيون المدينة على مكة وسبقهم في ذلك عمر بن الخطاب والصحابة ﷺ.

وتفضيل عمر يظهر فيما رواه مالك في الموطأ: (أن عبدالله بن عياش القتباني (ت70هـ/ 671م) كان عند عمر بن الخطاب: فلما أدبر عبدالله ناداه عمر فقال له: أنت القائل: لمكة خير من المدينة، فقال عبدالله: هي حرم الله وأمنه، وفيها بيته.

قال عمر: لا أقول في بيت الله ولا في حرمه شيئاً، وتكرر هذا مرتين، ثم انصرف»/ المنتقى: 7/196.

قال عيسى بن دينار (ت121هـ/808م): كأن عمر كره تفضيل مكة على المدينة دار الهجرة، وقال محمد بن عيسى الجلاب (875هـ/ 1451م): لو أثره على ذلك لأدبه على تفضيله مكة على المدينة/ المتقى: 7/197.

وقال القرافي مبيناً حجة الإمام مالك ومن تبنى رأيه، قال القرافي: هذا التفضيل استند إلى أمور نعرفها وأخرى لا نعرفها.

فأما ما نعرفه فإن المدينة هي دار هجرته ﷺ وظهور دعوة المؤمنين، ومدفن سيد المرسلين وبها كمل الدين، واتضح اليقين، وحصل العز والتمكين.

وكان النقل من أهلها لأحاديثه عليه الصلاة والسلام أفضل النقول، لأن الأبناء هناك ينقلون عن الآباء، والأخلاف على الأسلاف/ الفروق: 2/129، 130.

واستدل المفضلون المدينة على مكة بعدة أحاديث نذكر منها ما يلي:

أ ـ **ما أخرجه البخاري ومسلم** عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت بقرية تأكل القرى يقولون: يثرب، وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد**»/ صحيح البخاري 4/87، 88، ومسلم: 9/454.

تأكل القرى: تغلبهم غلبة فضل وشرف على غيرها، وتنفي الناس، أي: شرارهم.

والكير: منفاخ الحداد يولد الهواء الذي يسلط على الفحم فيشعل النار قوية ليحمّر الحديد ويطرق، والخبث: الوسخ الذي تخرجه النار.

والاستدلال بهذا الحديث على أن المدينة أفضل البلاد، لأنها هي التي أدخلت مكة=

الشافعي[1]: مكة أشرف فيتخرج شرف الدعاء فيهما على اختلاف المذهبين فأيهما قلنا: أفضل فالدعاء فيهما أكمل.

= وغيرها من المدن والقرى في الإسلام، وصار الجميع في صحائف أهلها، ولأنها تنفي الخبث/ فتح الباري: 4/87، 88.

ب ـ ما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «اللَّهمَّ اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة» صحيح البخاري: 4/27، صحيح مسلم: 9/142.

البركة، كما قال القاضي عياض: النماء والزيادة في أمور الدنيا والدين، ففي الأمور الدنيوية كل ما يتعلق بها من حق الله تعالى من الزكاة والكفارات، ولا سيما وقوع البركة في الصاع والمد، وفي الدين أمور كثيرة أبرزها قبر الرسول ﷺ/ فتح الباري: 4/98.

ج ـ ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» صحيح البخاري: 4/99.

فقد دل هذا الحديث على أن الأرض التي بين البيت والمنبر من الجنة/ فتح الباري: 4/99.

(1) الإمام أبو عبدالله محمد إدريس الشافعي المطلبي القرشي، يجتمع نسبه من النبي ﷺ في عبد مناف، وهو صاحب المذهب الذي ينسب إليه.

ولد بغزة سنة (150هـ/748م) ونشأ بمكة يتيماً بعد موت أبيه بسنتين فحفظ القرآن الكريم وتربّى في بادية هذيل، قبيلة عربية، التي كانت أفصح القبائل العربية، فتعلم الفصاحة والشعر العربي وأصبح الفارس الذي لا يشق له غبار.

روي عنه أنه قال: لما رجعت إلى مكة من هذيل أنشد الأشعار والآداب وأيام العرب مرّ بي رجل من الزبيديين فقال لي: عزّ عليّ أن لا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه فتكون قد سدت على أهل زمانك.

فقلت: ومن بقي يقصد؟

فقال لي: مالك سيد المسلمين يومئذٍ، فوقع في قلبي فاستعرت الموطأ وحفظته في تسع ليالي ورحلت إلى مالك فأخذت عنه الموطأ.

كما أخذ الفقه عن مسلم بن خالد الزنجي المخزومي الفقيه الصدوق (ت79هـ/679م) وقد أذن له في الإفتاء وهو ابن خمس عشرة سنة.

كما أخذ العلم عن أئمة، منهم: سفيان بن عينية (ت198هـ/795م).

ارتحل بعد إلى بغداد، طالباً العلم فلقي محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة (ت189هـ/786م) وتفقه عنه، كما التقى به أحمد بن حنبل، وأخذ عنه، وغيره=

البقعة الثالثة: مكة زادها شرفاً[1] وأفضلها البيت الحرام[2]، ثم بيوت

= من علماء العراق، وهناك أملى كتبه التي يعبر عنها بالقول القديم، لأنها كانت على مذهبه بالعراق.
انتقل إلى مصر ووجد مذهب مالك منتشراً هناك وأصحابه تعج بهم البلاد المصرية، فنشر مذهبه وأملى كتبه الجديدة المعبر عنها بالقول الجديد، وهو المذهب الذي تغير إليه اجتهاده بمصر وتوفي بها سنة (204هـ/800م) ودفن بالقرافة مقبرة مصر.
من مؤلفاته: الرسالة أول كتاب مدون في علم أصول الفقه، وكتاب «الأم» في فقه مذهبه الجديد قال فيه شيخه سفيان بن عيينة: أنضل فتيان زمانه وكان إذا أتاه شيء من التفسير أو الفتيا أحاله عليه.
وقال فيه أحمد بن حنبل: كان أفقه الناس في كتاب الله، وسُنَّة رسوله، قليل الطلب للحديث/. الانتقاء: 65، الفكر السامي: 1/394.

(1) شرف مكة وتفضيلها كان من عدة وجوه وهي التي اعتمدها الشافعي وغيره في تفضيل مكة على المدينة، منها: النبوة ووجوب الحج وسنية العمرة في مكة بينما المدينة تستحب زيارتها، ولا تجب، وأن إقامة النبي ﷺ كانت بمكة بعد النبوة أكثر من المدينة.
وفضلت مكة بالطائفين من الأنبياء والمرسلين وأن تعظيم الحجر الأسود واستلامه نوع من الاحترام وهما خاصان بالكعبة وأن وجوب استقبالها في الصلاة يدل على تعظيمها وكذلك تحريم ابتقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة، يدل على تعظيمها ولم يحصل ذلك لغيرها، ثم تحريمها يوم خلق الله السماوات والأرض قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: 36].
ولم تحرم المدينة إلا في زمنه ﷺ وذلك دليل فضلها وشرفها. إضافة إلى أنها مثوى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وأنها مولد سيد المرسلين محمد ﷺ وأنها لا يدخلها المسلم إلا محرماً، وهذا دليل كذلك على تعظيمها، والمدينة ليست كذلك... إلى آخره/ الفروق: 2/232، نسيم الرياض: 3/536 وما بعدها.

(2) ورد تفضيل البيت الحرام في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: 96 ـ 97].
فأول فضل شرف الله به هذا البيت المعمور هو أنه أول بيت وجد على ظهر الأرض لعبادته تعالى في بكة وهي موضع البيت، أما مكة فهي سائر البلد كما روي ذلك عن الإمام مالك بن أنس وقيل: بكة هي مكة، أبدلت الميم باء، وقيل غير هذا/ الجامع لأحكام القرآن: 4/138. =

أصقاعها في الشرف على حسب ما وردت به الشريعة[1].

= ومن وجوه تفضيل القرآن لهذا البيت أن الله جعله مباركاً لتضاعف العمل فيه حسناً كان أو سيئاً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: 25].

ومن دلائل تفضيله أنه مقام إبراهيم عليه السلام، وأنه مفضل بنسبته إلى الله تعالى، حتى أنه إذا كان اللاجىء إليه عند العرب يصير آمناً ما دام فيه.

وقد بيَّن الله تعالى له هذه المزية في قوله جل من قائل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: 125].

مثابة: مرجعاً يثوبون إليه من كل مكان، وأمناً: مأمناً لهم من الظلم/ الجامع لأحكام القرآن: 137 وما بعدها.

هذا البيت المقدس المبارك، أو الكعبة المشرفة الطاهرة، ذكر الدكتور «علي العربي» أصيل بلدة «سيدي خليف من ولاية جندوبة التونسية»، الكاتب الإسلامي الشهير، والباحث الأكاديمي البصير، والمؤلف القدير، تزيد مؤلفاته على العشر في الدراسات الإسلامية: القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية، والتاريخ الإسلامي ورجالاته والآداب العامة.

وقد جند قلمه للرد على مقالات المناوئين للإسلام من الصليبيين الأوروبيين أو من سار على نهجهم ممن ينتسبون إلى الإسلام، فأوهن حججهم، ودحض مدعاءاتهم بأدلة ثابتة، وحجج راسخة ساطعة.

يذكر الدكتور العربي، أمد الله في أنفاسه، متحدثاً عن تفضيل مكة المشرفة ناقلاً عن أحد علماء الفلك المعاصرين: إن الكعبة المشرفة هي مركز الكون فكل إشعاعاته تصب فيها.

وقد جاء في معجم البلدان، ما يشبه هذا الكلام فقد قال ياقوت الحموي: (1179 ـ 1229)، «إن أول ما خلق الله في الأرض مكان الكعبة، ثم دحا الأرض من تحتها، فهي سرة الأرض، ووسط الدنيا وأم القرى أولها، وحول مكة الحرم وحول الحرم الدنيا»/ العربي، الخلاصة النقية في سيرة خير البرية محمد ﷺ: 23، ومعجم البلدان لياقوت الحموي: 4/463.

(1) الأصقاع: النواحي، وهي المواضع التي يستحب قصدها للبركة والدعاء فيها، وقد حددها الفقيه المالكي محمد بن جزي الكلبي الغرناطي (ت741هـ/ 1321م) في كتابه القوانين الفقهية، ومنها:

ـ قبر إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر في الحجر، وقبر آدم عليه السلام في جبل أبي قبيس.

ـ جبل «أبي ثور» الذي يقع جنوب مكة، وأخبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]. =

(البقعة) الرابعة: بيت المقدس[1].

= ـ غار جبل حراء، حيث ابتدأ نزول الوحي على النبي ﷺ بأول سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: 1].

ـ منى، وهي قرية صغيرة تبعد عن مكة 7كم، وهي موطن الذكر والضراعة، والذبح والنحر في الأيام المعلومات، يوم النحر واليومان بعده عند المالكية، والأيام المعدودات أيام التشريق الثلاثة بعد عيد النحر قال تعالى منبهاً للذكر في الأيام المعلومات: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج: 28].

ـ وقال تعالى آمراً بالذكر في الأيام المعدودات: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: 203].

ـ المزدلفة: وهي ما بين منى وعرفة، والنزول بها ليلاً واجب، لإحياء الليل هنا بالصلاة والذكر والدعاء، والتقاط الحصى منها لرمي الجمار يوم العيد وأيام التشريق.

ـ المشعر الحرام، وهو جبل صغير بالمزدلفة للوقوف إن أمكن وإلا وقع الوقوف أسفله لذكر الله والدعاء امتثالاً لأمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198].

(1) بيت المقدس: هو المسجد الأقصى ويسمى إيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ومسرى النبي ﷺ، وقد جمع الله له الأنبياء كلهم هناك فأمهم في محلّتهم ودارهم فكان ذلك دليلاً على أنه الإمام الأعظم والرئيس المقدم عليهم جميعاً.

وإن المسجد الأقصى من المساجد الفاضلة الثلاثة، وقد ذكره الله في كتابه العزيز فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: 1].

وهذه المساجد الثلاثة التي فضلها الله على بقية المساجد هي التي عيّنها الرسول ﷺ في حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد الحرام ومسجد الأقصى»**/ صحيح مسلم: 9/167، 168، وصحيح البخاري: 3/63.

وقد بيَّن الرسول ﷺ فضل الصلاة في هذه المساجد ودرجة ثواب كل منها في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»**/ صحيح البخاري: 3/63.

وحديث البزار والطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة والصلاة في مسجدي بألف صلاة والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة»**/ فتح الباري: 3/67.

(البقعة) الخامسة: المساجد وأفضلها الجوامع[1].

البقعة السادسة: جبل عرفات[2].

البقعة السابعة: أرض الشام، وذكر فضله، بالبيت المقدس وغيره[3].

---

(1) الصلاة في المساجد أفضل لشرفها وطهارتها، وإظهار شعائر الإسلام فيها، وأفضل المساجد في الصلاة ما كان أكثرها جماعة للحديث الصحيح عند ابن ماجه عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«صلاة الرجل في بيته بصلاة، وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة، وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه الناس بخمسمائة صلاة»**/ الجامع الصغير: 2/47.

أفاد الحديث أن الصلاة في المساجد الجامعة أكثر فضلاً من غيرها، وكلما كثر الفضل ارتفع الشرف، لأن في ذلك إعلاء للكلمة، وأوقع للهيبة ودعماً للوحدة وسبباً قوياً للتعارف والتعاون.

(2) جبل عرفات، والوقوف به في اليوم التاسع من ذي الحجة زوالاً، وهو الركن الأصلي من أركان الحج لقوله ﷺ رواية عن عبدالرحمٰن بن يعمر ﷺ عند الترمذي وغيره: **«الحج عرفة»**/ الجامع الصغير: 1/ 151.

أي: الحج الوقوف بعرفة، وعرفة كلها موقف في أي مكان منها لحديث الترمذي عن علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«عرفة كلها موقف»**/ سنن الترمذي رقم: 885.

والأفضل الوقوف عند الصخرات الكبرى في أسفل جبل الرحمة مستقبل القبلة، وهناك يتوجه المؤمنون إلى الله بالتكبير والتهليل وقراءة القرآن والاستغفار وإظهار الضعف والافتقار إليه جل شأنه، والإكثار من الدعاء، وهو خير الدعاء كما جاء ذلك عن عمرو بن العاص ﷺ عند الترمذي عن النبي ﷺ قال: **«خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير»**/ سنن الترمذي رقم: 3585.

وخيرية الدعاء تفيد إجابة مطالب الضارعين، وأن الدعاء مستجاب في هذا الموضع الجليل.

(3) فضلت أرض الشام ـ كما قال القرافي ـ بأنها موطن الأنبياء ﷺ من لدن إبراهيم، وفضلت بالمسجد الأقصى وهو البيت المقدس الذي هو أحد المساجد الثلاثة التي فضل الله تعالى الصلاة فيها على بقية المساجد، وقد اختلفت درجاتها من حيث الفضل والأجر وجعلت الصلاة في المسجد الأقصى بمثابة خمسمائة صلاة، كما جاء في حديث أبي الدرداء السالف الذكر قريباً.

والشام من البلدان التي دعا لها الرسول ﷺ بالخير والبركة في حديث عبدالله بن=

البقعة الثامنة: مواضع تعليم القرآن[1]، وإلقاء العلوم الشرعية[2]، وإيقاع العبادات[3]، والقضاء بالعدل[4]، ومساكن العلماء والصلحاء وأهل

= عمر ﷺ عند البخاري فقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهمَّ بارك لنا في شامنا»/ صحيح البخاري: 13/45.

وقد نطق القرآن الكريم بهذه الميزة فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: 1].

وهي بركات كثيرة: الأرض وما فيها من أزهار وثمار ونعم مختلفة، وأنها كانت مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(1) اكتسبت مجالس تعليم القرآن الكريم وتعلمه مزية استحباب الدعاء، لأن القرآن العزيز أفضل أنواع الذكر، وخير ما يعلم وما يتعلم، وخير ما يدرس فهو النور الذي يضيء لنا الطريق الصالح، ويهدينا إلى الصراط المستقيم في مختلف شؤون الحياة.

روى البخاري عن عثمان بن عفان ﷺ أن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»/ صحيح البخاري: 9/74.

فمواضع هذا التعلم والتعليم طاهرة بطهارة القرآن وسموه ورفعته، ومجالسه شريفة سنية سواء كانت حفظاً لكتاب الله أو استظهاراً له أو استخراج الأحكام والدرر والمعاني والمعارف من آياته البينات أو تلاوته فجميعها مجالس الذكر والعبادة والتقوى والصلاح والمعارف.

والقرآن هو أفضل أنواع الذكر، وسماه ربنا الكريم الذكر في عديد الآيات الشريفة منها قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

(2) مواضع إلقاء العلوم الشرعية هي أماكن تبليغها وتعليمها للطلبة وغيرهم من عموم الناس وتبيينها، وسواء أكانت هذه العلوم المقصدين الأصليين: كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، أو وسائل لتجليتهما وحفظهما من أي انحراف على امتداد الأزمان، مثل: علوم القرآن وعلم مصطلح الحديث وعم الفقه وعلم مقاصد الشريعة وأصول الفقه والنحو وغير ذلك من الوسائل المتكفلة بحفظ كتاب الله وسُنَّة نبينا محمد ﷺ بهدي وتوفيق للعلماء والمجتهدين من ربنا جل شأنه.

ومن هنا صارت مجالس تلقي العلوم الشرعية مجالس عبادة يستجاب فيها الدعاء.

(3) أماكن إيقاع العبادات كالمنازل وغيرها من الأماكن الخاصة شرفت بفضل ما يحصل فيها من التقرب إلى الله ﷻ وعبادته بأي عبادة فرضاً كانت أو نافلة.

ومن أجل ما ينبعث منها من ذلة وخشوع وخضوع للخالق تبارك وتعالى يندب فيها الدعاء إليه وسؤاله من فضله الكبير رجاء إجابة الضارع إليه في تحقيق مبتغاه.

(4) هي مواضع التقاضي والفصل بين الناس في منازعاتهم بالقسط وإقامة العدل في=

الخير[1].

= الأرض الذي أمرنا به ربنا العادل في عديد من الآيات القرآنية الكريمة مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: 105].

ولما كانت هذه الأحكام العادلة منزلة من الله تعالى، ومبينة في كتابه الكريم أو سُنَّة نبيه العظيم، فإن مواطن القائمين بها من الحكام هي مواطن عبادة والقضاة متعبدون بتطبيقها كما أنزلت ولهذا استحب فيها الدعاء.

(1) مساكن هؤلاء العلماء الربانيين الداعي إلى شريعة الله تعالى أمراً بالمعروف أو نهياً عن المنكر، أو منازل أولياء الله الصالحين، أو الخيرين الأبرار.

فمساكن هؤلاء تشع بذكر الله والخشية منه بعباداتهم أو إرشاد وتوجيه من هم تحت أنظارهم من الأهل والأولاد وغيرهم من الأقارب بأمر من الخالق جل شأنه القائل وقوله الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6].

جاء الأمر الإلٰهي بوقاية الإنسان نفسه وأهله من النار وقال عبدالله بن عباس ﷺ في تفسير هذه الآية: قوا أنفسكم وأمروا أهليكم بالدعاء والذكر حتى يحفظهم الله تعالى من العذاب بكم.

ولهذا فعلى الرجل إصلاح نفسه بالطاعة وإصلاح من ولي أمرهم بالإرشاد والتوجيه والامتثال والخضوع لله تعالى، فقد أخرج البخاري عن عبدالله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم»**/ صحيح البخاري: 380/2، والجامع لأحكام القرآن: 194/17.

وفضل هذه المجالس بينه الرسول ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ عند مسلم أن النبي ﷺ قال: **«إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلاء يبتغون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معه وحف بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء.**

قال: فيسألهم الله ﷻ ـ وهو أعلم بهم ـ من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عبادك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك.

قال: وما يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك قال: وهل رأوا جنتي: قالوا: لا، أي ربي. قال: وكيف لو رأوا جنتي؟

قالوا: ويستجيرونك، قال: ومم؟ قالوا: من نارك يا رب، قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا. قال فكيف لو رأوا ناري. =

البقعة التاسعة: أرض اليمن لما جاء في فضله وفضل أهله[1].

= قالوا: ويستغفرونك، قال: فيقول: قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا»/ صحيح مسلم: 14/17، 15.

وقد شبه الرسول ﷺ مجالس الذكر هذه برياض الجنة في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي في قوله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قلت: يا رسول الله: وما رياض الجنة؟ قال: المساجد»/ سنن الترمذي رقم: 3509.

وفي رواية لأنس رضي الله عنه «حلق الذكر»/ البخاري: العلل الكبير رقم: 313.

(1) الحديث الذي جاء في فضل اليمن وفضل أهله هو ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة، الإيمان والفقه يمان والحكمة يمانية»/ صحيح مسلم: 30/2.

فهذا الحديث يدل بظاهره على أن مبدأ الإيمان كان من اليمن، مع أن مبدأه كان من مكة، ثم من المدينة، ولذلك اختلف العلماء عند شرحهم لهذا الحديث في ثلاثة مواضع نسبة الإيمان إلى أهل اليمن والفقه يمان، والحكمة يمانية.

أ - نسبة الإيمان إلى أهل اليمن: ذكر النووي أن العلماء انقسموا في بيان ذلك إلى قسمين: قسم أول الحديث وصرفه عن غير ظاهره، وقسم فسره على مقتضى ظاهره.

فالذين أولوا الحديث منهم من قال: المراد بذلك مكة لا اليمن، لأن مكة من تهامة، وتهامة من أرض اليمن.

ومنهم من قال: المراد بذلك الأنصار، لأنهم يمانيون في الأصل فنسب الإيمان إليهم لكونهم أنصاره، وهذا القول هو الأقوى لكثرة قائليه/ شرح صحيح مسلم: 32/2، 33.

وهنالك من رأى أن المراد مكة والمدينة لما روى في الحديث أن النبي ﷺ قال هذا الكلام، وهو بتبوك، ومكة والمدينة، حينئذٍ بينه وبين اليمن، فأشار إلى ناحية اليمن وهو يريد مكة والمدينة، فقال: «الإيمان يمان» ونسبهما إلى اليمن، لكونهما حينئذٍ من ناحية اليمن. كما يقال: الركن اليماني وهو بمكة، لكونه من ناحية اليمن/ المصدر السابق.

أما من فسر الحديث على ظاهره فقال: المراد به اليمن وأهل اليمن وذلك، لأن مبدأ الحديث «جاء أهل اليمن» والأنصار من جملة المخاطبين بذلك فهم غيره، وكذلك قوله ﷺ في الرواية الثانية: «أتاكم أهل اليمن»، أي: جاء غير الأنصار/ المصدر السابق.

ثم إنه ﷺ وصفهم بوصف يقضي بكمال إيمانهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «الإيمان يمان» فكان ذلك إشارة إلى كمال إيمان من أتاه من أهل اليمن، لا من مكة والمدينة.

ولا مانع من إجراء الكلام على ظاهره، وحمل كمال الإيمان على أهل اليمن=

البقعة العاشرة: أرض المغرب[1] لحديث: «لا تزال طائفة[2] من

= حقيقة، لأن من اتصف بشيء وتغلغل حبه في أعماقه وتأكد اطلاعه عليه، ينسب إلى ذلك الشيء الذي أحبه، لتميزه به وهكذا كان حال أهل اليمن ـ حينئذٍ ـ في الإيمان وحال الوافدين منه في حياة الرسول ﷺ وفي أعقاب موته كأويس بن عامر القرني سيد التابعين، وأبي مسلم ابن ثوب الخولاني الثقة العابد الذي رحل إلى النبي ﷺ ولم يدركه، وشبه هذين ممن سلم قلبه وقوي إيمانه، وليس المراد كل أهل اليمن في كل زمان فإن اللفظ لا يقتضي ذلك/ النووي: شرح صحيح مسلم: 33/2.

ب ـ الفقه يمان: الفقه هنا عبارة عن الفهم في الدين، وليس معناه ما اصطلح عليه الفقهاء والأصوليون من تخصيص الفقه بإدراك الأحكام الشرعية العملية بالاستدلال عليها.

ج ـ الحكمة يمانية: فسرت الحكمة بتفسيرات متعددة، منها: العدل، والعلم والحلم والنبوة والقرآن/ القاموس المحيط: 98/4.

وفسرت ـ أيضاً ـ بكلمة جامعة، هي كل كلمة وعظتك أو زجرتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة، وحكم.

ومن ذلك قول الرسول ﷺ رواية عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه، عند أحمد وأبي داود: «إن من الشعر حكماً» وفي رواية: «حكمة»/ المعجم الصغير: 98/1، شرح صحيح مسلم: 33/2.

وإذن فإنه تبين لنا من خلال تفارير العلماء وشروحهم لهذا الحديث، حديث: «فضل اليمن وأهله» وتأويلهم له واختلافهم في ذلك، فإنه لا يدل دلالة قطعية على المراد بل دلالة احتمالية.

وبناءً على ذلك فإن استجاب الدعاء يكون في بقاع الطهر من أرض اليمن كالجوامع والمساجد ومواضع تعليم القرآن، وغير ذلك مما تقدم.

ولعل هذا الزمن الذي يحصل فيه الفضل لأهل اليمن لم يأت بعد، وسيأتي قرب قيام الساعة، كما أشارت إليه الأحاديث النبوية المخبرة عن هذه الطائفة المؤمنة الصامدة.

(1) المغرب: اسم أطلقه الجغرافيون على بلاد البربر وإفريقيا الصغرى الشاملة لطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش/ منجد الأدب والعلوم: 505.

(2) الطائفة القائمة لتثبيت الحق وتركيز دعائم الدين قال البخاري: هم أهل العلم، وقال أحمد بن حنبل: أهل السُّنَّة والجماعة.

وقال النووي في شرحه لحديث هذه الطائفة: يحتمل أن تكون هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أنواع أخرى من أهل الخير، ولا يلزم أن=

= يكونوا مجتمعين في البلد الواحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد، وأن يكونوا في بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولاً فأولاً إلى أن لا تبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله/ شرح صحيح مسلم: 13/66، 67.

وهذه الطائفة اختلفت طرق رواية الحديث في تحديد موقعها ومكانها وحيناً لم تحددها بها وجاء التعبير عنها بلفظ الأمة.

وقد بين الحافظ ابن حجر العسقلاني هذه الطرق فيما يلي:

أ ـ **ورود الحديث بلفظ: «طائفة من أمتي»** بدون تعيين بلد معين كما جاء ذلك في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة ﷺ واللفظ للبخاري: قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»**/ صحيح البخاري: 13/293، وصحيح مسلم: 2/193، 13/68.

ب ـ **جاء تعيين هذه الطائفة بأنها من بيت المقدس** في حديث أبي أمامة ﷺ عن الرسول ﷺ قال: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم... قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس»**/ فتح الباري: 13/295.

ج ـ **جاء تعيين هذه الطائفة بأنها في دمشق** في حديث أبي هريرة عند الطبراني في الأوسط: **«... يقاتلون على أبواب دمشق، وما حولها...»**/ المصدر السابق.

د ـ **ورد تعيين هذه الطائفة بأنها أهل الشام** في حديث أبي هريرة ﷺ: **«لا تزال من أمتي عصابة قوامة على أمر الله ﷺ لا يضرها من خالفها تقاتل أعداءها... وقال** رسول الله ﷺ: **هم أهل الشام، ونكت رسول الله ﷺ بإصبعه يومىء بها إلى أرض الشام حتى أوجعها»**.

قال ابن حجر: ويمكن الجمع بين الأخبار بأن المراد قوم يكونون ببيت المقدس وهي شامية، ويسقون بالدلو، وتكون لهم قوة في جهاد العدو وحدّة وجدّ/ فتح الباري: 13/295.

هـ ـ **أهل الغرب**: وردت هذه التسمية في حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ الذي أخرجه مسلم: **«لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»**/ صحيح مسلم: 13/68.

قال علي بن المديني بن جعفر البصري (ت234هـ/830م): المراد بالغرب الدلو ـ أي: العرب لأنهم أصحابها ـ لا يستقي بها غيرهم، لكن هذا يتعارض مع ما سيقوله معاذ ﷺ إثر هذا/ فتح الباري: 13/296.

وقال معاذ بن جبل: هم أهل الشام، وقال ابن حجر: الظاهر أن المراد بالغرب=

أهل المغرب[1]،

= البلد، لأن الشام غربي الحجاز.

وهذا التأويل يمنع برواية الحديث: «**أهل المغرب**»/ فتح الباري: 13/295.

أما قوله ﷺ في حديث البخاري: «**حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون**» قال ابن حجر: المعنى قاهرون وغالبون من خالفهم، أو المراد بالظهور أنهم غير مستترين بل مشهورين.

والتفسير الأول أقوى مدعوماً بحديث جابر بن سمرة عند مسلم: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**»/ صحيح مسلم: 2/193، فتح الباري: 13/294.

(1) هذا هو الحديث السادس الذي ورد فيه ذكر هذه الطائفة، وأنها من أهل المغرب، وقد أخرجه الصوفي الكبير الشهير أبو بكر محيي الدين بن علي الحاتمي الطائي، ابن عربي الحكيم الفقيه المفسر المتكلم الشاعر المتوفى سنة (638هـ/1221م)/ لسان الميزان: 5/311، والنجوم الزاهرة: 6/339.

أخرج ابن عربي هذا الحديث جواباً عن سؤال الترمذي الحكيم أبي عبدالله محمد بن علي بن الحسين الصوفي الشهير بالترمذي الملقب بالحكيم المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري مؤلف كتاب «ختم الأولياء» الذي وضع فيه مئات الأسئلة ليجيب عنها العلماء، من بينها السؤال: 163 المتعلق بالمغرب الأقصى.

أخرج ابن عربي الحديث عند إجابته على السؤال المتقدم في كتابيه الآتيين:

- **الكتاب الأول**: الجواب المستقيم عما سئل عنه الترمذي الحكيم قال ابن عربي بعد عرض نص السؤال: وأين باب الاسم الخفي عن الخلق من أبوابه؟ الجواب بالمغرب الأقصى/ ورقة 250ب، وختم الأولياء: 308.
- **الكتاب الثاني** الذي أجاب فيه ابن عربي عن هذا السؤال فهو «الفتوحات المكية» قال ابن عربي: «الجواب بالمغرب». قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة**»/ ختم الأولياء: 308.

ثم قال بعد ذلك: «وعليه تطلع الشمس من المغرب عندما يسد باب التوبة، فلا ينفع نفس إيمانها، ولا ما تكسبه من خير بذلك الإيمان، والمؤمن لا يغلق له باب، وكيف يغلق دونه؟ وقد جاوزه وتركه وراءه».

«فمن عناية المؤمن غلقه حتى لا يخرج عليه بعد ما دخل منه، فلا يرتد مؤمن من بعد ذلك، فإنه ليس له باب يخرج منه».

فغلق باب التوبة رحمة بالمؤمن ووبالاً بالكافر، وجعله الله بالمغرب «يعني ختم الأولياء» لأنه محل الأسرار والكتم.

وهو سر لا يعلمه إلا أهل الاختصاص، فلو كان هذا الباب بالشرق لكان ظاهراً عند=

- ويروى: من أهل المغرم ـ[1].

ويروى: «عليهم جباب الصوف»، وهذا شعار أهل المغرب[2]، ولا سيما على رواية الميم، فيكون ذلك رداً على من يقول: إن أهل المغرب هم أهل الدلو الكبير غرباً[3]، وأهل الجهاد لأجل «غرب السيف» الذي هو حدته[4].

وأهل الشام[5]، ولما اشتمل عليه المغرب من إقامة الدين، وصحة العقائد، حتى لا يكاد يوجد اليوم على وجه الأرض إقليم أصح منه

= العام ووقع به الفساد في العموم... إلى آخره/ الفتوحات: 2/ 121.
وإذن فحديث: «الطائفة وأنها من أهل المغرب» لم يذكر له ابن عربي إسناداً ولا مصدراً سنّياً ويترتب على هذا سؤال كبير جداً حول صحته ونسبته إلى رسول الله ﷺ، ولا سيما حول اختلاف الناس فيه: فقائل بكفره وقائل غال متطرف.
ولذلك حذر أرباب البصائر من الاشتغال بكتبه لمخالفتها ظاهر ما عليه الجمهور، وهو نفسه منع الناس من النظر فيها، وخاصة الفقهية منها لاختياراته الشاذة عن اجتهاد منه مثل: مسح الرجلين في الوضوء من غير خف، وجواز السجود في التلاوة إلى أي جهة، وجواز إمامة المرأة، والقول بإيمان فرعون وأن الطهارة لا تشترط في صلاة الجنازة، وعبور المسجد للجنب والإقامة فيه إلى آخر ما قاله.
قال جلال الدين السيوطي باعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه/ الفكر السامي: 2/172، والدر المختار: 3/303.

(1) المغرم: الدَّين وقد تعوذ منه الرسول ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (إن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الدعوات، منها: «اللّهمّ فإني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم»/ صحيح مسلم: 18/28، 29.
والسؤال: لماذا لم يبين القرافي تسمية أهل المغرب بأهل المغرم؟

(2) هذا الشعار يتغير بتغير الأزمان ولا يمكن أن يكون حجة بأن المراد بالمغرب هم أهله.

(3) القرافي يرد بهذا على ابن المديني الذي فسر الغرب في حديث مسلم المتقدم بالدلو، أي: الغرب.

(4) القرافي يرد بهذا على من قال: المراد بالغرب أهل القوة في الجهاد، يقال: في لسانه غرب، بفتح ثم سكون، أي: حدة/ فتح الباري: 13/295.

(5) وهذا أيضاً رد من القرافي على من فسر أهل «المغرب» في الحديث بأهل «الشام» مثل معاذ بن جبل رضي الله عنه، وغيره من العلماء/ فتح الباري: 13/295.

عقيدة، ولا أجمع كلمة ولا أشد على الدين حمية[1]، ولأنه في غاية البعد عن المشرق الذي ذمه الرسول ﷺ، فقال: **«ألا إن الفتنة من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان»**[2].

والأبعد عن الذم أمدح، وإذا ظهر شرفه [(15أ)] ظهر فضل الدعاء به.



(1) اختصاص أهل «المغرب» وحدهم بهذه المزايا لعله كان في عصر القرافي وحسب منظوره هو، وشهادته على ذلك، ولكن الأمر قد يختلف ويكون بعكس هذا، مثلما هو ملاحظ اليوم.

(2) لفظ الحديث ـ كما جاء ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ، وهو مستقبل المشرق يقول: **«ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان»**/ صحيح البخاري: 45/13، وصحيح مسلم: 31/18، 32.

وفي رواية البخاري: **«من حيث يطلع قرن الشيطان ـ أو قال: قرن الشمس ـ»**.

قال الحافظ ابن حجر: «أو» هنا الشك.

وقال الداودي أبو جعفر أحمد بن نصر البسكري التلمساني، الفقيه المحدث (ت402هـ/992م) قال: «يحتمل أن يريد بالقرن قوة الشيطان، وما يستعين به على الفساد».

وقيل: إن الشيطان يقرن رأسه بالشمس عند طلوعها ليقع سجود عبادها له أو أن له قرناً.

وقال غيره: كان أهل المشرق يومئذٍ أهل كفر فأخبر ﷺ أن الفتنة تكون من تلك الناحية، فكان كما أخبر، إذ أن أول الفتن كان من قبل المشرق التي تنشأ عليها تفرق المسلمين وتفكك وحدتهم، وذلك ما يحبه الشيطان وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة/ فتح الباري: 4746/13.



[الباب] السابع
عوارض الدعاء

وهذه العوارض[1] استقل القرافي بذكرها، وجمعها في ثمانية:

العارض الأول:

[سؤال الله تعالى][2] ببعض مخلوقاته كقول الداعي: اللَّهمَّ إني أسألك بنور عرشك، ونبيك محمد، بالبيت الحرام، بأبينا إبراهيم، بالذبيح إسماعيل إلى غير ذلك من المخلوقات المعظمات فهل يجوز ذلك أو لا؟

---

(1) العوارض: جمع عارض، ومن معانيه: ما يستقبل من الشيء، ومنه قوله تعالى حكاية عن قوم عاد عليه السلام لما رأوا سحاب العذاب عارضاً في أفق السماء: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: 24]، والقاموس المحيط: 334/2.
والمراد بالعوارض هنا أدعية اختلفت أنظار الفقهاء في استنباط أحكام لها بين مجيز لها ومعترض عليها، وهذه العوارض في الأدعية استقل القرافي بذكرها وإحصائها في ثمانية وتوسع في تحليلها وعرض آراء العلماء فيها.

(2) عبارة المخطوط: القسم على الله تعالى، وهو خطأ من الناسخ أما العبارة الصحيحة التي كتبت بين المعقفين فهي (سؤال الله تعالى) بدليل ما جاء على المؤلف بعد ذلك: «كقول الداعي: اللَّهمَّ إني أسألك بنور عرشك ونبيك محمد، بالبيت الحرام، بأبينا إبراهيم، بالذبيح إسماعيل إلى غير ذلك من المخلوقات المعظمات فهل يجوز ذلك أو لا؟».

وتقدّم على ذلك قاعدة[1] وهي: أن الله ﷻ يجب تعظيمه على كافة المكلفين من خلقه، وينقسم ذلك إلى ثلاثة أقسام: قسم يحرم عليهم أن يعظموا به غيره، ويجب عليهم أن يوحدوه بالإجماع كالربوبية، واعتقاد التفرد بالخلق والسجود وإطلاق لفظ الله والرحمٰن، فلا يجوز معاملة أحد من الخلق بشيء من ذلك ولا تعظيمه به، وبعضه كفر وبعضه ليس كذلك.

وقسم يجوز معاملة غيره كاعتقاد الرحمة والعفو والإحسان والانتقام، وصورة الركوع، وشكر الإحسان، وإطلاق لفظ الغفار والوهاب، والبر والرحيم، ونحو ذلك فهذان قسمان مجمع عليهما[2].

وقسم ثالث اختلف فيه العلماء، هل يختص به تعالى أم لا؟ فمن ذلك الحلف هل يجوز بغيره تعالى من المخلوقات، فإن من حلف بشيء فقد عظمه.

فمن العلماء من أفتى بالتحريم[3] للحديث: «**من كان حالفاً فليحلف**

---

(1) هذه القاعدة ذكرها القرافي في الفرق الرابع والعشرين والمئة بين قاعدة ما يجب توحيد الله تعالى به من التعظيم، وبين قاعدة ما لا يجب توحيده به ﷻ، وذكرها قبل في كتابه الذخيرة، ونقلها عنه الفقيه محمد الحطاب المغربي (ت902هـ/1477م) في كتابه مواهب الجليل، لشرح مختصر خليل/ الفروق: 3/24، ومواهب الجليل: 3/265.

(2) قول القرافي الثاني مجمع عليه، ليس كذلك، فقد نقل الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، أن ثاني الأقسام، فيه تفصيل، مثل الجبار والحق والرب، فهي تطلق على الله تعالى وعلى غيره، وفي الغالب على الله تعالى، فإذا نوى المتكلم بها غير الله فليست بيمين، وإذا أطلقت من غير تقيد كانت يميناً/ فتح الباري: 11/225.

(3) أفتى بالتحريم من فقهاء المالكية أبو الحسن علي اللخمي (478هـ/1485م) فقال: الحلف بالمخلوقات ممنوع، فمن فعل ذلك استغفر الله/ الفروق: 2/97.

وقال بمنع هذه اليمين وحرمتها: الحنفية للحديث: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**» الكاساني/ البدائع: 3/21.

قال المانعون: ولا ينطلق القول بالمنع قسمه تعالى ببعض مخلوقاته كقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝﴾ [التين: 1 ـ 3].

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝﴾ [الشمس: 1 ـ 4].

وقوله سبحانه: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝﴾ [الفجر: 1 ـ 3] وغير=

بالله أو ليصمت»[1]، واعتقد أن ذلك من التعظيم الذي يجب توحيد الرب سبحانه به، ولا تجوز مشاركته فيهم.

ومنهم من أفتى بالكراهة فيما عدا الأصنام[2]، وأفتى في الأصنام

= ذلك لأن من العلماء من قال: تقديره: أقسم برب الزيتون...
وقيل: أقسم الله بمخلوقاته لينبه عباده على عظمتها عنده، فيعظمونها، ولا يلزم من الحجر علينا الحجر عليه، بل هو الملك المالك على الإطلاق يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد/ الحطاب مواهب الجليل: 265/3.

(1) هذا الحديث أخرجه البخاري عن عبدالله بن عمر ﷺ: (أن رسول الله ﷺ، أدرك عمر بن الخطاب ﷺ وهو يسير في ركب يحلف بأبيه، فقال: **ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»/ صحيح البخاري: 530/11، وصحيح مسلم مع اختلاف في اللفظ: 105/11، 106.
أفاد الحديث النهي عن الحلف بالآباء، لأن فيه تعظيم غير الله تعالى وهو المخلوق بمثل ما يعظم به الخالق.
وهذا المنع من الحلف بالمخلوقات لا يخلو أمره إما أن يكون بشيء من المعبودات كالحلف بغير ملة الإسلام أو الأصنام، فهذا أمر مجمع على تحريمه، وإما أن يكون الحلف بالمخلوقات غير التي تعبد كالحلف بالأبناء والأنبياء والكعبة وزمزم ورأس السلطان، وما شاكل ذلك فمنهم من أفتى بتحريمه مطلقاً واستدل على ذلك بما أخرجه أحمد عن عبدالله بن عمر ﷺ «أنه سمع رجلاً يقول: لا والكعبة، فقال له: لا تحلف بغير الله، فقد سمعت رسول الله يقول: **من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»/ المسند رقم: 222/8.
قال ابن حجر: والتعبير بقوله: «**فقد كفر أو أشرك**» للمبالغة في الزجر والمنع من ذلك/ فتح الباري: 11/ 531، ونيل الأوطار/ 123/9، 124.

(2) اتفقت المذاهب الإسلامية على المنع من الحلف بغير الله، ولكن اختلفوا هل هذا المنع للكراهة أو التحريم، وهذه مجموعة من نصوصهم لتوضيح آرائهم.
أ ـ المالكية: جاء في شرح رسالة عبدالله بن أبي زيد القيرواني (ت386هـ/977م) لابن ناجي قاسم بن عيسى التنوخي (ت837هـ/1414م) أن اليمين ببعض المخلوقات ثبت المنع فيها فهل المنع للتحريم؟ قولان والمشهور الكراهة/ شرح ابن ناجي: 15/2.
ب ـ الشافعية: قال النووي في شرحه للحديث: «**فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**» قال: الحلف بالله تعالى وصفاته كلها أمر مجمع عليه، وفيه النهي عن الحلف بغير أسمائه تعالى وصفاته: وهو عند أصحابنا مكروه ليس بحرام/ شرح صحيح مسلم: 106/11. =

[(15ب)] بالتحريم، واعتقد أن هذا من التعظيم الذي تجوز مشاركة خلقه له سبحانه فيه من حيث الجملة، ولم أر في الأصنام خلافاً لما فيه من تعظيمها.

والقسم على الله ببعض مخلوقاته تعظيم لذلك المخلوق[1]، فبمقتضى القاعدة أن يجري فيه الخلاف الجاري[2].

= ج - جاء في كتاب «بدائع الصنائع» للكاساني علاء الدين أبي بكر ملك العلماء (597هـ/1172م): اليمين بالآباء والأبناء والأنبياء والملائكة صلوات الله عليهم، والصوم، والصلاة، وسائر الشرائع، والكعبة، والحرم، وزمزم، والقبر، والمنبر، ونحو ذلك قد يجوز الحلف بشيء، من ذلك ولا يعتد به/ البدائع: 3/ 21.

د - الحنابلة: جاء في كتاب «الفتاوى» لأحمد ابن تيمية أبي العباس (ت728هـ/1309م): فأما الحلف بالمخلوقات كالحلف بالكعبة أو حياة سلطان أو بجاه أحد من المخلوقات، فإنه لا خلاف بين العلماء أن هذه اليمين مكروهة منهي عنها، وأن الحلف بها لا يوجب حنثاً ولا كفارة.

وهل الحلف بها محرم أو مكروه؟ قولان في مذهب أحمد وغيره أصحهما: أنه حرام/ الفتاوى: 35/243.

والحلف بهذه المخلوقات بالإضافة إلى منعها من قبل الجميع مع اختلاف أنظارهم في هذا المنع تحريماً أو كراهة، فإنه لا أحد يقول: إنه يترتب على الحالف بها حنثاً أو كفارة/ التاج والإكليل: 3/264، وبدائع الصنائع: 3/ 21، فتح الباري: 11/ 531، وفتاوى ابن تيمية: 35/243.

(1) قسم الله ببعض مخلوقاته ومن أمثلة ذلك: والسماء والتين والزيتون والفجر والليل ونحو ذلك، وقد أجاب العلماء عن ذلك بجوابين.

الأول: أن فيه حذفاً، والتقدير، ورب السماء، ورب التين، ورب الزيتون ورب الفجر.

الثاني: أن ذلك القسم مختص بالله تعالى، فإذا أراد تعظيم شيء من مخلوقاته أقسم به تنبيهاً لشرفه، وما يشتمل عليه من منافع وفوائد وليس لغيره ذلك/ شرح مسلم: 11/106، وفتح الباري: 11/ 531، ومواهب الجليل: 3/ 264.

(2) لقد جرى فيه الخلاف، فجمع من علماء المالكية، قالوا: الحكم، الحرمة لا الكراهة والقول الأصح عند أحمد التحريم لا الكراهة، شرح ابن ناجي للرسالة: 2/15، وفتاوي ابن تيمية: 3/ 35.

ومما تجب ملاحظته في هذا الصدد كيف يقع التوفيق بين النهي عن الحلف بالمخلوقات وبين حديث طلحة بن عبيدالله التميمي (ت36هـ/638م) عند مسلم قول النبي للنجدي الذي سأله عن الإسلام وبعد أن بين ما فرضه الله عليه من الفرائض=

هذا القسم الذي لم أر فيه غير المنع من العلماء، ولو فرض وقوع الخلاف فيه فينبغي للعاقل أن يجتنبه على كل تقدير، إما لتحريمه، أو على سبيل الورع.

العارض الثاني:

إذا عرضت للعبد داعية الدعاء، وداعية الثناء على الله تعالى[1]، فأيهما يقدم مع قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[2] وجاء: من شغله

= أقسم بأن لا يزيد على ما فرضه الله عليه فقال ﷺ: «أفلح وأبيه إن صدق»/ صحيح مسلم: 1/167، 168.

وقد أجيب عن ذلك بأن النهي عن الحلف بالمخلوقات أو بأن «وأبيه إن صدق» كلمة جارية على الألسنة لا يقصد بها الحلف وأن النهي ورد فيمن قصد به حقيقة الحلف لما فيه من تعظيم المخلوق به ومضاهاته بالله ﷻ أو أن فيه إضمار الرّب، وكأنه قال: ورب أبيه/ شرح صحيح مسلم: 11/105، 106، والفتح: 11/531، ومواهب الجليل: 3/64.

(1) الثناء على الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا يكون بكل فعل دال على تعظيمه وأنه المنعم علينا والمتفضل علينا بالإيجاد والإحياء والأرزاق والشفاء، وما لا يحصى من الآلاء...

وهذا الفعل إما أن يكون فعل القلب أو اللسان أو الجوارح.

ففعل القلب الاعتقاد الصحيح بأنه جل شأنه متصفاً بصفات الكمال والإجلال.

وفعل اللسان يكون بذكر ألفاظ دالة على أنه الموصوف بصفات الكمال.

وفعل الجوارح أن يأتي العبد بأفعال دالة على كونه ﷻ موصوفاً، كذلك بصفات الكمال والإجلال/ التفسير الكبير: 1/117.

وقد علمنا ربنا العزيز الحكيم الثناء عليه لما افتتح كتابه الكريم بقول جل شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 2 ـ 4].

ومهما اجتهد العبد في الثناء على الله فإنه عاجز عن الوفاء بما يستحقه المنعم علينا من الحمد والشكر، والرسول الكريم محمد ﷺ اعترف بعجزه عن حصر الثناء عليه تعالى بما أفاض علينا من الخيرات والنعم في حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول في سجوده: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»/ صحيح مسلم: 4/203.

(2) الآية بتمامها: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين[1][2]، وكيف الجمع بين الدليلين؟

---

(1) الذكر الذي ينشغل به الذاكر عن الدعاء أعلاه وأفضله القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

فكتاب الله تعالى هو أشرف أنواع الذكر الذي تعبدنا به.

ويطلق الذكر أيضاً على الأقوال والكلمات التي ورد الترغيب فيها من الشارع والإكثار منها كالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير والاستغفار، والدعاء بخيري الدنيا والآخرة.

كما يطلق لفظ الذكر على العمل بما أوجبه الله تعالى، أو ندب إليه، وعلى قراءة حديث الرسول ﷺ ومدارسته، ومثل ذلك التنفل بالصلاة ونحوها/ فتح الباري: 11/109.

والذكر بأنواعه أمرنا به ربنا ﷻ لعبادته وتقديسه وإجلاله وتعظيمه في عدد من الآيات الكريمة منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾ [الأحزاب: 41 ـ 42].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: 103].

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنه: أي: الليل والنهار في البر والبحر، والسفر والحضر والغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية/ الإحياء: 1/294.

وذكر الله تعالى تارة يكون باللسان، ويؤجر ويثاب عليه الناطق ولا يشترط استحضار معناه، ولكن يشترط أن لا يقصد به غير معناه، وإذا انضاف إلى اللسان الذكر بالقلب، فهو أكمل، وإذا انضاف إليهما معنى الذكر، وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى، ونفي النقائص عنه ازداد كمالاً، وإذا صحبه الإخلاص فهو أكمل.

وقد أوضح هذا المعنى الإمام الكبير والمفسر العمدة فخر الدين الرازي فذكر أن ذكر الله تعالى يكون باللسان والقلب والجوارح.

فالذكر باللسان يكون بالألفاظ الدالة على التسبيح والتحميد والتمجيد، والذكر بالقلب يكون بالتفكر في أدلة توحيد الله، وتنزيهه وأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وأدلة الأحكام التكليفية: الأوامر والنواهي، ثم التفكر في أسرار وحكم مخلوقاته تعالى.

أما الذكر بالجوارح فيكون بانشغالها في الطاعات والأعمال الصالحة، ومن ثم سميت الصلاة ذكراً في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: 14]/ المصدر السابق.

وذهب بعض العارفين من الصوفية إلى أعمق وأبعد من هذا فقال: إن الذكر على سبعة أنحاء فذكر العينين بالبكاء وذكر الأذنين بالإصغاء وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والقضاء/ فتح الباري: 11/209.

(2) هذا حديث قدسي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجه الترمذي في جامعه، ولفظه: =

فالجواب: إن الحالات ثلاث:

حالة الثناء، متعين فيها شرعاً لمشروعيته فيها كالأذان في أوقاته والثناء في الركوع، والتسبيح عقيب المكتوبات، والتكبير والتحميد.

وحالة يتعين فيها الدعاء، وحالة لم يعين الشرع فيها الثناء ولا الدعاء فهذه الحالة هي التي يحمل عليها (من شغله ذكري) فيقدم الثناء على الدعاء لما فيه من إيثار الرب وإجلاله على مصالح العبد وشؤونه[1].

العارض الثالث:

أن يجد الإنسان عنده داعية الدعاء لنفسه، وداعية الدعاء لغيره، ويريد الجمع بينهما.

والصواب في ذلك أن يتأدب بأدب القرآن ويقدم نفسه كما فعل سيدنا نوح[2] صلى الله على نبينا وعليه وسلم:

= قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الرب ﷻ من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»** قال أبو عيسى الترمذي حديث حسن غريب/ جامع الترمذي: 152/2.

(1) هذه هي المكافأة الكبرى الربانية لكل من اشتغل قلبه ولسانه وجوارحه بذكر الله ونسي نفسه وما تتطلبه من احتياجاتها وشؤونها وطموحاتها الدنيوية وانغمس في مقام الحضرة العلية.
إنها مكافأة وأعظم بها من جائزة إلٰهية أن ينسى العبد مطالبه الدنيوية ويندمج مع الذاكرين بكليته لساناً وقلباً وجوارح فيكافئه ربه بتحقيق احتياجاته ولو لم يسأله، مثله في ذلك مثل من سأله من العابدين بلسانه.

(2) سيدنا نوح عليه السلام يذكر النسابون أن أباه يدعى لمك بن متوشلخ ابن خنون وهو إدريس فيما يقال عليه السلام/ الجامع لأحكام القرآن: 298/18، والتفسير الكبير: 245/4.
وقد ذكر القرآن الكريم قصته مع قومه في ست سور، وملخصها كما جاءت في الكتاب العزيز: أن سيدنا نوحاً أرسله الله إلى قومه بشيراً ونذيراً لدعوتهم للإيمان بالله وترك عبادة الأصنام الخمسة التي كانوا يعبدونها: وداً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً. قال جل شأنه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ①﴾. =

= ولكن هؤلاء المشركين قابلوا دعوة التوحيد بتكذيبه واحتقاره وأصروا على كفرهم وعنادهم قائلين: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿23﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: 23 ـ 24].

ورغم إنذار نوح لهم بالعذاب الأليم، وترغيبهم بالنعم والخيرات في عاجل حياتهم: وسقيهم أراضيهم ووفرة الأموال وكثرة الذرية، فإنهم أصروا على كفرهم واستكبارهم واحتقار المؤمنين من قومهم، ولم يقتنعوا بالحجج والبراهين القاطعة الدالة، على صدقه في رسالته ولا بدعوته إياهم بالتوجه إلى الله طلباً للمغفرة من الذنب الكبير ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿10﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿11﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿12﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿13﴾﴾ [نوح: 10 ـ 13]

واستمر سيدنا نوح عليه السلام في دعوة قومه إلى الإيمان وهم صم بكم عمي ألف سنة إلا خمسين عاماً إلى أن جاء الامر الإلٰهي بصنع السفينة وحمل أهله ومن معه من المؤمنين، ومن كل شيء زوجين اثنين لإنقاذهم من الغرق في الطوفان.

ويروى أنه كان بحاراً ماهراً وكان متعرضاً لسخرية قومه أثناء صنعه، ولما أتمها أمره الله بالركوب فيها ومن معه عند ظهور فوران التنور، أي: فيضان الماء من أماكن وقود النار، وأن سبحانه سيجريها فوق طوفان الماء ويرسيها في المكان المحدد لها.

قال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿37﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿38﴾﴾ [هود: 37 ـ 38].

وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿40﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿41﴾﴾ [هود: 40 ـ 41].

ولما غمر الطوفان الأرض نجى الله نوحاً ومن كان معه في السفينة إلا ولده كنعان الذي رفض الإيمان فأغرقه الله، فتحسر نوح على ولده، فعاتبه الله على ذلك وقال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿45﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿46﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿47﴾﴾ [هود: 45 ـ 47].

وقد ختم الله القصة بالإعلان عن انقضاء أمره جل شأنه فقال: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿44﴾﴾ [هود: 44]. =

«قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾»[1].

بدأ بنفسه وثنّى بوالديه لأنهما أحق أقاربه، وثلث بالمختص به من المؤمنين الذين صار لهم حق الصحبة والملابسة، وختم بكافة المؤمنين والمؤمنات ليكون له بكل واحد منهم عمل صالح.

والقاعدة الشرعية المقررة التي لا يختلف الناس فيها: إن القرب لا يدخلها الإيثار ولا يحسن فيها التأخير، ولا يليق بالإنسان أن يؤثر غيره على نفسه بقربه من الرب لما في ذلك من قلة الأدب[2].

فلو أن سيداً من السادات أخذه العطش فأمر أحد عبيده أن يسقيه فأمر ذلك العبد المأمور عبداً غيره بإزالة العطش عن السيد لمنعه السيد لتأخره عن طاعته[3].

ومن دعا لغيره قبل الدعاء لنفسه مع قصده الجمع بين نفسه وغيره، فقد تأخر عن التقرب إلى الله تعالى بإظهار افتقار نفسه وبدأ بإظهار افتقار غيره، والبدء باختيار غيره على البدء باحتياجه في دعائه قلة أدب لما ذكرناه.

= والجودي: قيل: إنه جبل في الجزيرة، وقيل: إنه جبل في الموصل، وقال بعضهم: هو الطور/ تفسير ابن كثير: 2/47.
ولم يبق من أولاد نوح بعده إلا ثلاثة: سام وحام ويافث/ الجامع لأحكام القرآن: 7/233.

(1) سورة نوح، الآية: 28.

(2) هذه القاعدة ذكرها شيخ القرافي عز الدين بن عبدالسلام سلطان العلماء (ت660هـ/338م) فقال: لا إيثار في القربات/ القواعد: 257.
والإيثار هو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية رغبة في الحظوظ الدينية وذلك ناشىء عن قوة اليقين، وتأكيد المحبة، والصبر على المشقة يقال: آثرته بكذا، أي: خصصته به وفضلته، وهذا في الأمور الدنيوية أما العبادات كالأمثلة التي سنذكر، فلا إيثار فيها.

(3) هذا المثال مثل به شيخ القرافي عز الدين بن عبدالسلام في كتابه القواعد: 257، 258.

ولهذه القاعدة: قال العلماء[1]: لا ينبغي أن يؤثر غيره بفرجة الصف الأول، ولا بالأذان، ولا بما يستحقه عن السبق بحفظ شيء من القرآن أو العلم أو تعلّمه أو غير ذلك من أنواع القرب، لأن المؤثر في هذه الصورة متأخر عن طاعة الله تعالى معرض عنها، والمطلوب من العباد المبادرة إلى الخيرات والمسارعة إليها[2].

العارض الرابع:

رفع الأيدي بعد الدعاء إلى الوجوه والمسح بها عليها، وهذا مما يفعله كثير من الناس، والمنقول عن الخواص من أهل العلم غيره وأنه بدعة[3].

---

(1) من هؤلاء العلماء شيخ القرافي عز الدين بن عبدالسلام، فقد قال: «لا إيثار في القربات، فلا إيثار بالماء في التيمم، ولا بالصف الأول، ولا بستر العورة في الصلاة، لأن الغرض بالعبادات التعظيم والإجلال، فمن آثر به فقد ترك إجلال الإله وتعظيمه»/ القواعد: 257، 258.

(2) ومن أدلة ذلك قول الله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: 133].
وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: 148].

(3) هذا الفريق من العلماء الذين وصفهم القرافي بالخواص يعني بهم العدد القليل المقابل للجمهور الذين يفسرون البدعة بأنها المقابلة للسنة.
والقرافي مذهبه في هذا الموضوع هو مذهب الجمهور بدليل تفسيره للبدعة وتقسيمها إلى الأقسام الخمسة للأحكام الشرعية في كتابه «الفروق» كما سيأتي، وبهذا يكون القرافي حاكياً وراوياً لمذهب هؤلاء الخواص من العلماء، وجعله عارضاً من العوارض تبعاً لمذهبهم.
وقد أحسن القرافي في التعبير عن جمهور العلماء الذين لا يمنعون مسح الوجه باليدين إثر الدعاء عبّر عنهم بقوله: وهذا ما يفعله كثير من الناس، أي: اقتداء بجمهور العلماء.
ولا يزال صدى أقوال هذا العدد القليل من العلماء يتردد إلى يومنا هذا ونحن في سنة 31 من القرن الخامس عشر الهجري، حيث نسمع من ألسنة بعض أئمة المساجد الخطباء على المنابر يرددون القول: أن رفع الأيدي بعد الدعاء، ومسح الوجه بها هو بدعة، وليس سنة.

= ومعنى ذلك: أنه منكر. أو يقال: إنه غير جائز، ويعلل عدم الجواز بمخالفته للسنة، أي: لم يرو فيه شيء عن الرسول ﷺ وهو ما ذهب إليه الإمام مالك بن أنس ﷺ فقد سئل عن الرجل يمسح بكفيه وجهه في الدعاء وقد بسطها قبل ذلك؟ فأنكر ذلك وقال: ما أعلمه/ البيان والتحصيل: 9/18.

قال أبو الوليد محمد بن رشد (ت595هـ/1180م) في كتابة «البيان والتحصيل» بعدما أورد سؤال مالك والجواب عنه قال: إنما أنكر ذلك مالك رحمه الله لا لأنه رآها بدعة، إذ لم يأت في ذلك أثر عن النبي ﷺ ولا مدخل للرأي فيه، وإنما أخذ مسح اليدين من فعله ﷺ/ البيان والتحصيل: 49/18، 50.

ومن الأحاديث النبوية الدالة على ذلك حديثان أخرجهما البخاري في صحيحه عن عائشة ﷺ.

الحديث الأول: قالت عائشة: (إن رسول الله كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، قالت: فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيمينه رجاء بركتها)/ صحيح البخاري: 62/9.

الحديث الثاني: عن عائشة ﷺ (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات/ صحيح البخاري 62/9.

والملاحظ هنا أن مالكاً ﷺ لم يسمّ مسح الوجه باليدين عند الدعاء بدعة حيث قال: «وما أعلمه» فنفى معرفته لأية سنة جاءت بذلك، وابن رشد هو الذي سمى ذلك بدعة، ولكن ليس المراد الممنوع المحرم عند مالك، ثم نفى أن يكون المسح بدعة للأحاديث الدالة على أن مسح الوجه باليدين كان من فعله ﷺ كما تقدم بيانه.

أما القائلون ببدعة مسح الوجه باليدين، وأنها بدعة محرمة فرافع لوائهم عالمان جليلان تقيان صالحان تشهد تآليف كل منهما بعمق المعرفة وصدق العقيدة والتقوى والصلاح.

الأول: أبو زكرياء محيي الدين يحيى بن شرف النووي المحدث الفقيه الشافعي، شيخ الإسلام صاحب التصانيف المفيدة النافعة (ت676هـ/1258م) فنقل عنه القول بتحريم أي بدعة وخاصة في كتابيه «الأذكار» و«شرح المهذب»/ الفتاوى التونسية: 579/1.

الثاني: العالم المحقق الحافظ إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الفقيه الأصولي المحدث المجتهد «مؤلف الكتب النفيسة العديدة، راسخ القدم في الصلاح=

= والعفة والتقوى والورع واتباع السُّنَّة ومجانبة البدع» (ت790هـ/1369م).
ألف كتابه «الاعتصام» لمحاربة البدع في مذهبه، ووجد معارضة شديدة من أقرانه، وحتى من شيوخه، الأمر الذي أدى به إلى الابتلاء، كما صرح بذلك في شعره قائلاً:

بليت يا قوم والبلوى منوعة　　بمن أداريه حتى كاد يرديني
دفع المضرة جلب لمصلحة　　فحسبي الله في عقلي وديني

نيل الابتهاج بتطريز الديباج: 46 ـ 50، الفتاوى التونسية: 1/979.
ومن الأدلة التي اعتمدها هذا الفريق في تحريم أي بدعة حديث العرباض بن سارية الصحابي الجليل من أهل الصفة (ت75هـ/675م) عند أبي داود والترمذي عن النبي ﷺ قال: **«إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»**.
وزيد في رواية الترمذي: **«فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين عضّوا عليها بالنواجذ»**/ سنن أبي داود: 4607، وسنن الترمذي: 2676.
فهذا الحديث يدل بظاهره على التحذير من العمل بالأمور المحدثة وأن كل أمر محدث هو بدعة وكل بدعة ضلالة، والضلالة هي المعاصي والمحرمات.
وبين الحديث ـ أيضاً ـ أن الأمر المحدث مرادف للبدعة عند هذا الفريق في الحكم بدليل ما أورده الشاطبي عن الإمام مالك ﷺ أنه كان يكثر من إنشاد البيت التالي:

وخير أمور الدنيا ما كان سنة　　وشر الأمور المحدثات البدائع

/الاعتصام: 1/60.
فقد جمع هذا البيت المحدث والبدعة بوجه الترادف وقدم المحدثات/ الفتاوى: 1/580.
فقد رأى البعض أن ما ليس بسنة أنه محدث هو منكر وحرام، ودليلهم حديث الصحيحين عن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»** أي: مردود وباطل/ صحيح البخاري: 5/ 301، وصحيح مسلم: 12/16، 17.
واستدلوا ـ أيضاً ـ على أن ما ليس بسنة هو بدعة محرمة بحديث العرباض بن سارية المتقدم في قوله ﷺ: **«كل بدعة ضلالة»** وحديث أبي هريرة ﷺ عند مسلم وهو قوله ﷺ: **«ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»**/ صحيح مسلم: 16/ 227.
ولكن حكم المحدث والبدعة عند هذا البعض ليس كما تقرر عند الجمهور.
فهذا الفقيه المحدث القاضي أبو بكر محمد بن العربي (542هـ/1128م) يبين حكم كل منهما في كتابه «عارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي عند شرحه لحديث=

= العرباض بن سارية» فيقول ما نصه: «ليس المحدث والبدعة مذمومين للفظ محدث ولفظ بدعة، ولا لمعناهما، فقد قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝﴾، أي: قاله في مقام توبيخ الذين أتاهم الذكر المحدث. حيث لم يعملوا به لقوله تعالى عقبه: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: 2 ـ 3]».

وقال عمر ﷺ في شأن صلاة التراويح: «نعمة البدعة هذه» وإنما يذم منها ما دعا إلى ضلالة ومخالفة للسنة/ عارضة الأحوذي: 147/10، وصحيح البخاري بفتح الباري: 250/4، والفتاوى التونسية: 580/1، 581.

وبهذا القول يتبين مدى مخالفة الجمهور للشاطبي وأتباعه في تعريف البدعة.

فقد عرفها الشيخ الإمام الفقيه المجتهد المفسر محمد الطاهر ابن عاشور التونسي الذي لم تعرف تونس في عصره رجلاً عالماً مصلحاً أوفر إنتاجاً وأكثر انتفاعاً منه للمجتمع في مجال الثقافة، كما تدل على ذلك آثاره العلمية (ت1393هـ/1953م).

عرّف الشيخ البدعة لغةً: بأنها الأمر الجديد الذي لم يسبق بنظير، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 9].

أما البدعة في الإسلام فتكون بإحداث شيء في أحوال المسلمين ليس له مساس بالدين، وتكون بإحداث شيء يمس أمور الدين، وراعى جمهور العلماء كلتا الحالتين أي ما ليس له مساس بالدين وما له مساس به، أما الإمام النووي وأبو إسحاق الشاطبي فقد راعيا ما له مساس فقط.

ولمعرفة الحقيقة يتحتم تتبع جذور المسألة بشرح المعنى الذي ارتضاه الجمهور في تعريف البدعة، ورأي غيرهم ليكون البحث مستوفى، وتكون الحجة لنفوس المترددين.

وعلى رأي الفريق الأول ـ وهم الجمهور ـ عرف عز الدين بن عبدالسلام البدعة بقوله: «هي ما لم يعهد في عصر رسول الله ﷺ»/ قواعد الأحكام: 204.

وعلى رأي الفريق الثاني عرف أبو إسحاق الشاطبي البدعة في كتابه «الاعتصام» بقوله»: «هي طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشريعة، يقصد بسلوكها المبالغة في التعبد»/ الاعتصام: 19/1.

وقد تصدى الشيخ ابن عاشور لتحليل مقولة الشاطبي في تعريفه للبدعة ـ من جهة ـ ونقده من جهة ثانية فقوله: «طريقة»: الطريقة المراد بها العمل أو القول.

و«المخترعة» هي التي لا أصل لها في الشريعة، و«تضاهي الشريعة» أنها تشبه الأمور المشروعة ـ وليست منها فأخرج العادات التي أحدثها الناس بعد زمن النبوة، كاتخاذ المناخل للدقيق، وغسل الأيدي بالصابون. =

= وقوله: يقصد بسلوكها المبالغة في التعبد: أخرج به الأمور التي لا تتعلق بالعبادة، مما يدخل في أبواب المعاملات.

فاختص البدعة ـ على رأي الشاطبي ـ بما يحدث في العبادات خاصة، وهي بعض الدين، بينما الدين اعتقادات ومعاملات وعبادات، وهو رأي جمهور العلماء، وقد ترددت على ألسنتهم فمن ذلك أنهم سموا محدثات الاعتقاد بدعاً وسمّوا أصحابها بأهل البدع، وسمى الفقهاء بعض أنواع الطلاق بالطلاق البدعي، ونحو ذلك/ الفتاوى التونسية: 579/1، 580.

قال الإمام أبو حامد الغزالي مبيناً أن ليس كل ما أحدث بعد الرسول ﷺ بدعة محرمة، واستشهد على ذلك بحديث أنس بن مالك ﷺ عند البخاري: (ما علمت النبي ﷺ أكل على سكرّجة قط، ولا خبز له مرقق قط، ولا أكل على خوان قط).

قيل لقتادة: فعلام كانوا يأكلون؟ قال: (على السفر)/ صحيح البخاري بفتح الباري: 530/9.

السكرّجة: لفظ فارسي معرب، صحاف صغار يؤكل فيها، ومنها أيضاً الكبير.

والمرقق: الخبز الرقيق الواسع، والخوان: المائدة التي عليها طعام، والسفرة أصلها الطعام نفسه، واشتهرت بما يوضع عليه الطعام/ المصدر السابق.

قال أبو حامد: واعلم أنّا وإن قلنا: الأكل على السفرة أولى، فلسنا نقول: الأكل على المائدة منهي عنه نهي كراهة أو تحريم إذ لم يثبت نهي فيه.

وما يقال: إنه أبدع بعد رسول الله ﷺ فليس كل ما أبدع منهياً عنه، بل المنهي بدعة تضاد سُنَّة وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته، بل الإبداع قد يجب في بعض الأحيان إذا تغيرت الأسباب.

وليس في المائدة إلّا رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه/ الإحياء: 3/2.

وقول الرسول ﷺ: «كل بدعة ضلالة» معناه: أن كل بدعة هي إحداث جنس من الاعتقادات أو العبادات أو أصل في التشريع لا أصل له في الشريعة هو ضلالة.

والضلالة ضد الهداية، وهي في عرف الشرع المعاصي.

وهذا هو مفهوم البدعة عند الجمهور المطابق لمعناها اللغوي. كما هو الظاهر، ويكون قوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة» من العام المخصوص، ومخصصاته الأدلة الكثيرة الدالة على أن كثيراً من الأفعال التي أحدثها المسلمون بعد رسول الله ﷺ تكون واجبة أو مندوبة أو مباحة أو مكروهة، فلا يصح أن يكون واحد من هذه الأفعال ضلالة/ المصدر السابق، وتهذيب الفروق بهامش الفروق: 219/4.

وإذا كان لفظ البدعة قد نقل في اصطلاح الشرع إلى اختراع المحرمات المنافية لما=

= جاء به الدين كما ذهب إليه الشاطبي كان من المجمل الذي يحتاج إلى بيان الأفعال التي هي بدعة لتتميز عما عداها.

وتكون مبيناته جميع الأدلة الشرعية التي أجمع عليها العلماء، أو ما استنبطوه من أحكام بطريق القياس كتحريم النبيذ الذي ليس فيه نص شرعي قياساً على الخمر، وكتحريم ربا النسيئة في الأرز قياساً على القمح والشعير في وصف الاقتيات والادخار/ الفتاوى التونسية: 1/584، 585، والشرح الكبير: 3/47.

وتكون القاعدة - حينئذٍ - أن أية بدعة حدثت تعرض على الأدلة الشرعية، فأي شيء دخلت فيه من الأدلة والقواعد ألحقت به، فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة، وإن دخلت في قواعد التحريم فهي محرمة، وإن دخلت في قواعد المكروه فهي مكروهة، وإن دخلت في قواعد المباح فهي مباحة/ قواعد الأحكام: 660، 661، الفروق: 4/202 - 205.

واعتماداً على هذه القاعدة صارت البدعة تعتريها أحكام الشرع الخمسة، ومن هنا وقع تقسيمها إلى خمسة أقسام: الوجوب - الندب الإباحة - الحرمة - الكراهة/ المصادر السابقة، وتهذيب الفروق: 4/219.

أ - البدعة الواجبة: هي التي تناولتها أدلة الوجوب، مثل: جمع القرآن الكريم في زمن أبي بكر الصديق ﷺ وتدوين الحديث في عهد عمر بن عبدالعزيز الخليفة الراشد الخامس (ت101هـ/ 701م) لما خيف عليهما الضياع، فإن التبليغ لمن بعدنا واجب إجماعاً، وكذلك كل ما يخدم هذين الركنين من العلوم المستحدثة، مثل: علوم القرآن وعلوم الحديث، واللغة العربية، والفقه وأصوله ونحو ذلك.

ب - البدعة المندوبة: وهي التي تناولتها أدلة الندب وقواعده كصلاة التراويح في رمضان وقال عمر بن الخطاب فيها: «نعمة البدعة» ومثل اتخاذ عمر المصابيح في المسجد النبوي الشريف، فقال له علي بن أبي طالب ﷺ: «نور الله مضجعك يا ابن الخطاب كما نورت مسجدنا».

ومثل توسيع عثمان ﷺ المسجد النبوي، وأدخل فيه بعض الحجرات لأمهات المؤمنين، ولم ينكر عليه أحد من علماء الصحابة/ فتح الباري: 1/540، والفتاوى التونسية: 1/592.

ج - البدعة المباحة: وهي الراجعة إلى العادات كالألبسة والمآكل، واتخاذ لباس خاص للشرطة أو الجيش، وكذلك عادات الناس في أعراسهم ومآتمهم مما ليس بمنهي عنه شرعاً.

د - البدعة المحرمة: وهي التي تناولتها قواعد التحريم، كابتداع دور للهو وبيع الخمور، وسفور المرأة، وكشف عورتها في عدد من البلاد الإسلامية. =

وإنما وردت السُّنَّة في رفع الأيدي بالدعاء خاصة وبالغ في الرد على ذلك أو إنكاره[1].

= ولعب الميسر جهاراً، واستبدال القوانين الشرعية بالقوانين الوضعية في المعاملات.
ومثل ابتداع عادة التدخين المضر بالأبدان، أو التدخين بالحشيشة المخدرة، وامتصاص الأفيون وانتشاق الكوكايين.
ومنها تولية المناصب الشرعية لمن لا يصلح لها بطريق التوارث.
هـ ـ **البدعة المكروهة**: كالزيادة في المندوبات كالتسبيح عقب الصلوات أكثر من ثلاثة وثلاثين، والزيادة في مقدار زكاة الفطر على الصاع بسبب أن تلك الزيادة فيها إظهار الاستعلاء على الشارع، وهو قلة أدب معه، ومثل تخصيص الأيام الفاضلة بنوع من العبادات.
ومن ذلك النهي عن تخصيص القيام للعبادة ليلة الجمعة من بين الليالي، وصيام يوم الجمعة إلا أن يقع صيام قبله أو بعده. فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**لا يصم أحدكم يوم الجمعة إلا أن يصوم قبله أو يصوم بعده**». وقال: ﷺ: «**لا تختصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم**/ صحيح مسلم بشرح النووي: 8/18، 19، والقوانين: 115 ـ 119.
والحكمة من النهي عن صوم يوم الجمعة أنه يوم دعاء وذكر وعبادة من الغسل والتبكير إلى الصلاة وانتظارها واستماع الخطبة وإكثار الذكر بعدها، وغير ذلك من العبادات/ النووي على مسلم: 8/19.
وخلاصة القول في البدعة: أنه لما تقرر عند جمهور العلماء أنها تعتريها الأحكام الخمسة. وأن قوله ﷺ: «**كل بدعة ضلالة**» هو من العام الذي وقع تخصيصه بالأدلة أو المجمل المبين، فلم يبق حينئذٍ أي شك في صحة مذهب الجمهور.

(1) قولة هذه الجماعة: أن السُّنَّة لم يرد فيها إلا رفع اليدين في الدعاء فقط أما مسح الوجه باليدين بعد الدعاء فلا توجد فيه سنة، هذا القول منقوض بالأحاديث الواردة في مسح الوجه باليدين، ومنها:
أ ـ حديث عائشة ﷺ عند ابن ماجه المتقدم، وفيه: أن الرسول ﷺ لما مرض كان يقرأ المعوذات، وينفث، ولما اشتد به المرض كانت عائشة تقرأ عليه المعوذات وتمسح بيمينه تبركاً.
ب ـ حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ عند ابن ماجه السالف الذكر أن النبي ﷺ أمره بالمسح عند التعوذ بالله لما مرض واشتد وجعه.
ج ـ حديث: السائب بن يزيد ﷺ (ت91هـ/691م) عند أبي داود: (أن النبي ﷺ كان إذا دعا، فرفع يديه ومسح وجهه بيديه)/ سنن أبي داود: 1492. =

العارض الخامس للدعاء سؤاله من الغير:

وهو باب عظيم النفع جليل القدر، ينبغي لكل عاقل أن يستكثر منه ما استطاع[1].

= قال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث له شواهد أخرى، ومجموعها يقضي بأنه حديث حسن/ بلوغ المرام: 312.

وقال السيد الإمام الأمير الصنعاني (ت1182هـ/1749م) في شرحه لهذا الحديث: فيه دليل على مشروعية مسح الوجه باليدين بعد الدعاء.

قيل: وكأن المناسبة أنه تعالى لا يردهما صفراً، فكأن الرحمة أصابتهما، فناسب إفاضة ذلك على الوجه الذي هو أشرف الأعضاء، وأحقها بالتكريم/ سبل السلام: 219/4.

د ـ حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنه عند ابن ماجه: أن النبي ﷺ قال: **«إذا دعوت الله فادع ببطون كفيك ولا تدع بظهورهما، فإذا فرغت فامسح بهما وجهك»**/ سنن ابن ماجه رقم: 778.

وفي لفظ للحاكم: **«إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم، ولا تسألوه بظهورها وامسحوا بها وجوهكم»**/ المعجم الصغير: 25/1.

وقال الإمام الحافظ جلال الدين عبدالرحمٰن السيوطي (ت991هـ/1476م) هذا الحديث حسن/ المعجم الصغير: 25/1.

إذن وبعد عرض هذه الأحاديث الشريفة المثبتة لمسح الوجه باليدين بعد الفراغ من الدعاء هل يبقى شك في مشروعية هذا المسح، فحتى لو كانت هذه الآثار ضعيفة، فإن بعضها يقوي بعضها ـ حسب القاعدة ـ وتكون بمجموعها حجة ودليلاً مثبتاً للمسح، ولا حجة لمن أنكره.

(1) وأصل هذا ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن أم سليم رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أنس خادمك ادع له فقال: **اللّهمَّ أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته»**/ صحيح البخاري: 182/11.

قال الإمام النووي: هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ في إجابة دعائه، وفيه دليل لمن يفضل الغني على الفقير.

وأما من قال بتفضيل الفقير فقد أجاب عن هذا بأن هذا قد دعا النبي ﷺ بأن يبارك له فيه، ومتى بورك فيه لم يكن فتنة، ولم يحصل بسببه ضرر، ولا تقصير في حق ولا غير ذلك.

وفي هذا الحديث كذلك فضائل لأنس وأدب رفيع بديع، وهو أنه إذا دعا بشيء له تعلق بالدنيا ينبغي أن يضم إلى دعائه طلب البركة فيه والصيانة ونحوهما، وكان أنس وولده رحمة وخيراً بسبب دعائه/ النووي على مسلم: 39/16، 40.

ثم ذكر حكاية الإفرنج حين استسقوا، ثم حكاية فرعون والنيل[1] ثم قال: وينبغي للإنسان أن يستوهب الدعاء من كل أحد ولو كان من شر خلق الله[2]، ففضل الله تعالى لا يدخل تحت حصر ولا ينقطع عن بر ولا فاجر.

---

(1) حكاية فرعون والنيل رواها كعب الأحبار أبو إسحاق كعب بن مانع من أقدم رواة الحديث، كان يهودياً فاعتنق الإسلام في عهد أبي بكر أو عمر ﷺ ولقب بكعب الأحبار، لمعارفه الواسعة في التوراة قال عنه ابن حجر العسقلاني: ثقة من طبقة التابعين الثانية، توفي في خلافة عثمان ﷺ/ تقريب التهذيب: 135/2.

وخلاصة هذه الحكاية: أن نيل مصر أمسك عن الجريان في زمانه، فقالت القبط لفرعون: إن كنت ربنا فاجر لنا الماء فقفز في النيل، واختفى عن الأنظار ولبس ثياباً أخرى، وسجد وتضرع لله تعالى، فأجرى له الماء.

فأتاه جبريل، وسأله عن رجل له عبد نشأ في خدمته، ولا سند له غيره، فكفر نعمه، وادعى السيادة لدونه؟

فكتب فرعون: جزاؤه الغرق، فلما أدركه الغرق ناوله جبريل خط يده، فابتلعه النيل/ الجامع لأحكام القرآن: 378/8.

(2) أشر خلق الله: هو المذنب العاصي الفاسق الفاجر، وهو إذا أمر بطاعة الله وعبادته يهرب منها.

وطلب الدعاء ممن هذا شأنه لا يتلاءم مع ما ذكر القرافي في آداب الدعاء الظاهرة التي منها تقديم الطهارة والصلاة على الدعاء.

وهذا الشرير والذي يجعل وسيلة للدعاء ممن طلبه منه. قد يكون نجساً تاركاً للصلاة، والدعاء عبادة لا تقبل إلا من الطيب، وما ذكره القرافي هو لا يتلاءم ـ كذلك ـ مع آداب الدعاء الباطنة التي منها تصفية القلوب من التشبهات بعد اجتناب المحرمات.

وما يدريك لعل هذا الداعي المتوسل به سيئ العقيدة، غارق في المحرمات والمعاصي، وهذا قد يكون سبباً قوياً لمنع استجابة الله لدعاء الطالب له من ذلك العاصي. الذي جعل وسيلة ملوثة في عبادة الدعاء.

فهو نفسه غير مستجاب الدعاء لنفسه فكيف لغيره حتى لو كان هذا الغير مطيعاً، فقد أخبر الرسول ﷺ في حديث مسلم: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً». ثم قال في الرجل الذي يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: «يا رب، يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك».

العارض السادس للدعاء أن يسأله الإنسان:

واعلم أن جماعة ممن فاتهم الصواب يمتنعون من ذلك، ويقولون: لسنا أهلاً لذلك. وهذا غلط كبير فليس أحد في العالم إلا وهو أهل للتضرع لجلال الله، والطلب منه، والافتقار إليه بل العصاة أولى بذلك من المطيعين لشدة حاجاتهم، وفرط ضرورتهم.

وما علم هؤلاء أن الذي سألهم الدعاء قد حضهم على الوقوف بين يدي الله تعالى، والخضوع له والتذلل بين يديه والطلب من فضله.

فإن قالوا: نحن عصاة؟ قلنا: العصاة أولى بالخضوع والتذلل، والسعي في مصالح العباد ليخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم[1] يسامحهم بفضله، ويعاملهم بلطفه كما عاملوا عباده.

فإن قالوا: هذا منصب يكثر فيه الرياء[2] فنحن نفر منه.

قلنا: الله [(17أ)] سبحانه أمر عباده أن يطيعوه ويجتنبوا مفسدات عباداته، لا أنهم يتركون الطاعات، خشية من المفسدات وإنما يحسن ترك

---

(1) هذا بعض آية من سورة التوبة، وهي بأكملها: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: 102].

(2) الرياء: هو إظهار عمل العبادة لينال مظهرها غرضاً دنيوياً. أما لجلب نفع دنيوي، أو لدفع ضرر دنيوي، أو تعظيم أو إجلال.

فمن اقترن بعبادته شيء من ذلك أبطلها، لأنه جعل عبادة الله وطاعته وسيلة إلى نيل أغراض خسيسة فاستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وهذا هو الرياء الخالص/ قواعد الأحكام: 210، 211.

وأما رياء الشرك فمن أنواعه التسميع، وهو المقصود بالفرار منه في كلام القرافي، وهو الدعاء بالصوت ليسمع لأجل مصلحة الداعي، وهو ليس قربة من قربات الله تعالى.

ولأجل ما قد يخالطه من الحصول على منزلة في القلوب يكون محبطاً للأعمال أيضاً. لما رواه مسلم في الحديث القدسي: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»/ صحيح مسلم بشرح النووي: 115/18، وقواعد الأحكام: 210، 211.

الطاعات التي ليست بواجبة إذا بذل الإنسان جهده في دفع الرياء فعجز.

وأما الإعراض عن الدعاء ابتداء بناءً على أنهم عصاة فلا.

العارض السابع للدعاء وقوع التعارض بين أن يدعوه لنفسه أو يدعو لغيره:

فربما زين الشيطان للإنسان أنه عاص: مسرف على نفسه، وأن مثله لا يليق به الوقوف بين يدي ربه وقد قابله بالمعصية، وأن من المصلحة أن لا يدعو لغيره، وأنه أولى من الدعاء لنفسه.

وهذا غلط عظيم؛ بل ينبغي للإنسان أن يبادر بنفسه للوقوف بين يدي ربه، والتذلل له، والإعراض عن ذلك قلة أدب موجبة لزيادة المحنة ومضاعفة الرزية ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[1].

العارض الثامن للدعاء التامين[2] وفيه فصول:

(الفصل) الأول: لفظه وفيه لغتان: المد وهي المشهورة، وآمين بتشديد الميم خطأ، وقيل: هي لغة[3].

الفصل الثاني في معناه، وفيه مذهبان: أصحهما أنه اسم فعل[4].

---

(1) الآية بتمامها: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: 76].

أي: أن مشركي مكة رغم ما أصابهم من القحط والجوع سبع سنين لم يتواضعوا فيؤمنوا بالله، وأعرضوا عن الدعاء.

(2) التأمين: مصدر أمّن يؤمّن بالتشديد، أي: قال: آمين، وهي بالمد والتخفيف في جميع الروايات/ فتح الباري: 226/2.

(3) آمّين: بالمد والتشديد ليست لغة وهي رواية منقولة عن الإمام أبي عبدالله جعفر الصادق سادس الأئمة الاثني عشر (48هـ/649م) ابن الإمام محمد الباقر ومعناها: قاصدين إليك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: 2]/ فتح الباري: 262/2، والجامع لأحكام القرآن: 128/1، 129.

(4) إنها من أسماء الأفعال، مثل: «صه» للسكوت، وتفتح في الوصل، مثل: كيف، =

(المذهب الثاني) أنه اسم من أسماء الله.

ورد أبو علي الفارسي[1] على هذا المذهب في بعض تآليفه.

الفصل الثالث: فيمن يختص به التأمين: ينبغي أن يكون المؤمن من الداعين أخفض [(17ب)] الفريقين رتبة، لأن المؤمن يؤكد دعاء الداعي والمؤكد تابع.

والداعي كالإمام المتبوع، فينبغي أن يكون هو الأفضل.

وينبغي للمؤمن أن يستحضر ما دعا به الداعي حالة التأمين ويطلبه بقلبه من الله تعالى ولا يطلق اللفظ وهو ساه لاه[2].

ويلتزم في تأمينه من آداب الدعاء السابقة ما يليق به، فإنه في الحقيقة

= لأنها مبنية بالاتفاق ومعناها عند الجمهور: استجب.

وقيل غير ذلك مما يرجع جميعه إلى هذا المعنى، كقول من قال: اللَّهمَّ آمنا بخير.

وقيل: كذلك يكون، وقيل: درجة في الجنة تجب لقائها.

وقيل: أمّي بالقصر والتشديد: كلمة عبرانية أو سريانية.

وقال الصحابي يحيى بن نفير، أبو زهير النميري ﷺ: إن آمين مثل الطابع على الصحيفة، ثم ذكر حديث أبي داود عن أبي مصبح المقرائي التابعي الثقة قال: كنا نجلس إلى أبي زهير النميري، وكان من الصحابة، فيحدث أحسن الحديث، فإذا دعا الرجل بدعاء قال: اختمه بآمين، فإنّ آمين مثل الطابع على الصحيفة.

قال أبو زهير: ألا أخبركم عن ذلك خرجنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فأتينا على رجل قد ألح في المسألة، فوقف النبي ﷺ يسمع منه فقال النبي ﷺ: **«أوجب إن ختم»** فقال له رجل من القوم: بأي شيء يختم؟

قال: **«بآمين فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب»**، أي: طلب من الله إجابة دعائه/ الجامع لأحكام القرآن: 127/1، وفتح الباري: 262/2.

(1) أبو علي الفارسي: الحسين بن أحمد اللغوي المشهور، من أقطاب اللغويين بالبصرة ولد في إيران من أم عربية، وتوفي ببغداد سنة (377هـ/968م)/ وفيات الأعيان: 80/2، 83.

(2) امتثالاً لما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل»**/ المستدرك: 1817.

داع له حكم الدعاء[1]، فيستفرغ جهده في الأدب مع الله، فربَّ داع استجاب الله لتأمين مؤمنه.

□ □ □ □ □ □

(1) دليل ذلك: قوله تعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام بعد دعاء موسى على فرعون وقومه بالهلاك ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: 89]، وقد كان موسى داعياً، وهارون مؤمناً/ المنتقى: 1/ 161.



الباب الثامن
عشرة أدعية
من
جوامع كلمه ﷺ

[ذكر فيه عشرة أدعية من الصحاح المأثورة عن النبي ﷺ منها][1]:

ما أخرجه مسلم[2] أنه ﷺ كان يدعو: **«اللَّهمَّ اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري[3]، وما أنت أعلم به منّي، اللَّهمَّ اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي[4] [اللَّهمَّ اغفر لي ما قدمت وما**

---

(1) ما بين المعقوفتين ليس من كلام القرافي.

(2) خرّج الحديث إضافة إلى مسلم البخاري في صحيحه، أخرجاه عن أبي موسى الأشعري عبدالله بن قيس ﷺ (ت50هـ/ 651م) وهذا اللفظ لمسلم/ صحيح مسلم بشرح النووي: 40/17، وصحيح البخاري بفتح الباري: 196/11، 197.

(3) قوله ﷺ: **«اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري»** الخطيئة: الذنب، والجهل ضد العلم، والإسراف هو مجاوزة الحد في كل شيء/ فتح الباري: 198/11.

(4) **«وكل ذلك عندي»**، أي: من قوله ﷺ: **«اغفر لي خطيئتي»** إلى قوله: **«وعمدي»** أي: أنا متصف بهذه الأشياء، اغفرها لي.

قيل: قاله تواضعاً، وعدّ على نفسه فوات صفات الكمال ذنوباً، وقيل: ما كان قبل النبوة.

وعلى كل حال فهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فدعا بهذا الدعاء وغيره تواضعاً، لأن الدعاء عبادة. شرح النووي لمسلم: 40/17.

أخرت[1]، وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر[2]، وأنت على كل شيء قدير»][3].

فانظر إلى سيد المرسلين ﷺ أين وضع نفسه الكريمة وما نسب إليها من النقائص.

وأما سؤاله ﷺ غفر الخطأ مع أن الخطأ لا إثم فيه؟ فجوابه من وجوه:

الأول: أن الخطأ والنسيان تارة يقعان عن تفريط وإهمال في ضبط الأسباب وسد الذرائع[4]، فتقع المؤاخذة بهما بناءً على التفريط السابق.

---

(1) «اللَّهمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت». اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2].
قيل: مغفرة ما تقدم وما تأخر، أي: ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة، وما تأخر إلى وقت نزول هذه الآية.
وقيل: وقوع الصغيرة جائز على الأنبياء، فيكون الاستغفار من ذلك/ فتح الباري: 198، شرح النووي لمسلم: 40/17، والجامع لأحكام القرآن: 263/16.

(2) «أنت المقدم وأنت المؤخر»: يقدم من يشاء من خلقة إلى رحمته بتوفيقه، ويؤخر من يشاء عن ذلك لخذلانه بسبب معاصيه.

(3) ما بين المعقوفتين إلى آخر الحديث لم يكتبه الناسخ.

(4) سد الذرائع: المراد بها شرعاً هو قطع الوسائل والطرق المؤدية إلى المحرم والفساد، لأن الوسيلة إلى المحرم محرمة.
ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108].
فقد حرم الله سب آلهة المشركين مع كون السب غيظاً وحمية لله تعالى وإهانة لآلهتهم، لكن حرم ذلك لكونه ذريعة ووسيلة إلى سبهم لله تعالى.
ومثل ذلك بيع العنب لمن يعصره خمراً وإجارة الدكان لمن يجعله للعب الميسر، أو اللهو والمجون، أو إقراض شخص ما ليتعامل فيه بالربا ونحو ذلك.
فهي عقود ممنوعة شرعاً مؤدية إلى الحرام، يجب سد وسائلها، وحتى إن وقع خطأ، فإنه يترتب عليه الإثم والمؤاخذة.
قال شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (751هـ/1331م) «باب سد الذرائع أحد أرباع التكليف، فإنه أمر ونهي. =

وفي الحقيقة لم تقع المؤاخذة عليهما، وإنما وقعت على إعمال الجرم سابقاً[1].

وتارة يقعان لا عن تفريط، ولا إثم فيهما البتة لقوله [(18أ)] عليه السلام: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان».

= ● والأمر نوعان: أحدهما: مقصود لنفسه، والثاني: وسيلة إلى المقصود.
● والنهي نوعان: أحدهما: ما يكون المنهي عنه مفسدة في نفسه، والثاني: ما يكون وسيلة إلى المفسدة، فصار سد الذرائع المفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين».
وقد استدل على منع الوسائل المؤدية إلى الحرام بتسعة وتسعين وجهاً على عدد أسماء الله الحسنى في مقدمتها الدليل الأول المذكور قبل الآن/ أعلام الموقعين: 159/3.

وهذه الذريعة كما يجب سدها إن أدت إلى الحرام يجب فتحها، وتكره وتكون مندوبة ومباحة بحسب ما تؤدي إليه، وهي لذلك تعتريها الأحكام الشرعية الخمسة الوجوب والندب والإباحة والحرمة والكراهة.
فالسعي مثلاً إلى صلاة الجمعة وسيلة واجبة، لأنه يتوقف عليه فرض الجمعة الواجب، ومثل ذلك السعي في طلب الرزق الحلال، لأنه يتوقف عليه حصول الغذاء الذي هو واجب للجسم تتوقف عليه حياة الإنسان وهكذا. . ./ أعلام الموقعين: 135/3 ـ 159، والفروق: 32/2، 33، والموافقات: 198/4 ـ 200.

(1) النسيان والخطأ والذرائع التي تقع عن تفريط فعلاً لمحرم، أو تركاً لواجب بدون عذر شرعي من أمثلتها:
أ ـ من رأى في ثوبه نجاسة فأخر إزالتها إلى أن نسي فصلى وهي على ثوبه يعد مقصراً إذ كان يلزمه المبادرة إلى إزالتها، وأما إذا لم يرها في ثوبه وصلى، فإنه يعذر.
ب ـ من رمى صيداً خطأ في موضع فأصاب إنساناً، فقد يكون بحيث لا يعلم الرامي أنه يصيب ذلك الصيد أو غيره، فإذا رمى ولم يتحرز كان ملوماً، ولا يعذر، إلا إذا كانت أمارات الغلط ظاهرة.
ج ـ من تشاغل عن صلاة الجمعة، باللهو ـ مثلاً ـ فأنساه ذلك السعي إلى الجمعة حتى فاتته لا يكون معذوراً.
د ـ وقد أخرج البخاري في كتابه «العلل الكبرى» عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ (كان إذا أراد أن يذكر حاجته شد خيطاً في إصبعه)/ العلل رقم: 380.
فثبت بهذا وجوب التحرز والاحتياط، دفعاً لما قد ينشأ عن النسيان والخطأ من خلل في ترك واجب أو فعل منهي عنه/ التفسير الكبير: 380/2.

(الجواب) الثاني: المؤاخذة يجب أن تكون خاصة به لا سيما وهو ﷺ يقول: «رفع عن أمتي» ولم يقل: عنا، وحسنات الأبرار سيئات المقربين[1] فقد يحسن منا ما لا يحسن منه[2].

---

(1) هذه المقولة ليست حديثاً نبوياً، وقد نسبها القرطبي في تفسيره لشيخ الطائفة الصوفية الجنيد أبي القاسم (ت297) ونسبها شهاب الدين الخفاجي إلى كبير مشائخ المتصوفين أبي سعيد الخراز المتوفى سنة (286هـ/ 891م).
وحسنات الأبرار أتقياء الأمة، وسيئات المقربين والمقربون هم الأنبياء وخلص الأولياء.
والمعنى: أن حسنات أتقياء الأمة يعتقدها المقربون بالنسبة إلى أحوالهم كالسيئات وإن لم تكن سيئات حقيقية/ الجامع لأحكام القرآن: 1/308، 309، نسيم الرياض: 4/213، 214.

(2) يجب أن لا يفهم من هذا الجواب مؤاخذة الرسول ﷺ وتأثيمه على خطأ صدر منه، لأن من صفات الأنبياء الواجبة في حقهم العصمة من المعاصي والذنوب.
هذه العصمة التي تسمى الأمانة وهي حفظ جميع جوارحهم الظاهرة والباطنة من الوقوع في المنهي عنه، ويسمى صاحبها أميناً للأمن في جهته من المخالفة لما شرع له، وأمر بتبليغه.
وقد نقل لنا أحمد شهاب الخفاجي المصري (ت1064هـ/1634م) تعريف العصمة عن شيخنا القرافي في كتابه «شرح الأربعين في أصول الدين لعز الدين الرازي» قال القرافي:
«العصمة لغةً: الامتناع، ومنه العصم لبعض الوحش لبعده عن مظان الأذى وامتناعه، واستعصم الرجل: امتنع، ومنه عصمة الزوجية.
وحملة الشرع يطلقون العصمة على معنيين؛ أحدهما: عدم المعصية في الجملة ومنه قولهم في الدعاء: نسألك من العصمة تمامها.
والثاني: عصمة الأنبياء والملائكة عن الكفر دون سائر البشر، وتزيد عصمة الأنبياء بعدم الكفر، فصانهم الله تعالى في قضائه وقدره عن الكفر وغيره، وقدر لهم السعادة الأبدية حتماً مقضياً» بتصرف/ نسيم الرياض: 4/39.
فالرسول هو المثل الأعلى في أمته الذي يجب الاقتداء به في اعتقاداته وأقواله وأفعاله وأخلاقه، وأمر الله تعالى الأمة بالاقتداء به واتباع شريعته دليل على معنى العصمة عن المعصية، والأمانة على أوامر الله تعالى ونواهيه.
قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: 21].
وقد اتفق جمهور العلماء على عصمة الأنبياء من الكبائر والصغائر وأن ما جاء من=

الجواب الثالث: «أن ذلك يجوز أن يكون قاله قبل رفع إثم الخطأ وورد فضل الله بعد ذلك»[1].

= النصوص الشرعية مما يوهم أنه معصية هو مؤول ومفسر بأحد أمرين.

الأول: أن المعصية الثابتة للنبي وقعت قبل النبوة كمعصية آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه: 121 ـ 122].

فالاجتباء والهداية وقعا قبل النبوة/ نسيم الرياض: 38/4، 39.

الأمر الثاني: أن المعصية التي يوهم ظاهرها نسبتها إلى الرسول هي في واقع الأمر ليست معصية ولكنها أحد أمرين:

الأول: خطأ في اجتهاد غير مأذون ثم أرشد الله رسوله إلى ما هو أتم وأكمل كقصة فداء أسرى بدر بالنسبة للنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾ [الأنفال: 67].

والمعنى: ما كان يجوز لنبي أن يقوم بفداء الأسرى قبل الإكثار من قتل الكفار، وهذا الحكم قد نسخ بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد ﷺ: 4].

أي: تمنون على الأسرى بإطلاق سراحهم من غير شيء أو بفدية مال أو أسرى من المسلمين.

الأمر الثاني: الذي لا يعد معصية في حق النبي ﷺ هو اختياره للمفضول من أمرين مباحين ثم جاء الإرشاد الرباني إلى أن المتروك اختياره أفضل من الأول مثل قصة إذن الرسول ﷺ لبعض المسلمين بعدم الخروج معه إلى القتال في غزوة «تبوك» المشار إليها بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٤٣﴾ [التوبة: 43].

الجامع لأحكام القرآن: 308/1 و46/8 ـ 54، والتفسير الكبير: 386/4 ـ 338 ـ 443.

فهذان الأمران التوجيه الرباني إلى وجه الصواب في الاجتهاد غير المأذون فيه أو الإرشاد إلى الأفضل والأكمل يعتبران بالنسبة للبشر من الحسنات، أما بالنسبة للرسل عليهم السلام فيعتبر أن في حقهم سيئات، نظراً إلى مناصبهم وعلو أقدارهم وذلك هو معنى المقولة، وهو معنى قول القرافي: يحسن منا ما لا يحسن منه أي النبي ﷺ.

(1) لم يذكر الطالب الكاتب لهذه المخطوطة من الأحاديث العشرة التي نص عليها القرافي في هذا الباب الثامن إلا هذا الحديث، ولذلك فسداً لهذا النقص اخترت تسعة أحاديث من الصحيحين أذكرها في الهوامش، وسوف لا أتعمق في تحليلها، فأشرح بإيجاز بعض الألفاظ والعبارات اعتماداً على ما جاء على ألسنة العلماء وعلى الله التوفيق. =

الحديث الأول

طلب صلاح الدين وخير الدنيا

عن أبي هريرة ﷺ قال: «كان النبي ﷺ يقول: **اللّهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»/ صحيح مسلم: 17/40.

الشرح:

يتطلب بيان هذا الحديث وتحليله إلى خمسة عناصر: التعريف بالراوي، والأدعية الخمسة الواردة فيه.

1 ـ **الراوي**: **أبو هريرة**: هو عبدالرحمٰن بن صخر الدوسي، كان اسمه في الجاهلية عبد شمس، فسماه الرسول ﷺ عبدالرحمٰن، وكناه بأبي هريرة لما رآه حاملاً هرة في كمه.

لازم الرسول ﷺ طلباً للعلم والحديث، وروى عنه كثيراً من الأحاديث، وتلقى أحاديثه ما يزيد عن ثمانمائة بين صحابي وتابعي.

توفي بالمدينة سنة سبع وخمسين وقيل: تسع وخمسين/ الإصابة: 4/202 ـ 211.

اللّهمّ: افتتح الرسول ﷺ هذه الأدعية بقوله: «**اللّهمّ**» وقد أجمع العلماء على أنها منادى ـ يا الله ـ وأصلها في القول الأشهر والأصح: أنها يا الله، حذف حرف النداء الياء والألف من أولها، وعوض بحرفين في الآخر هما: الميم المشددة/ الجامع لأحكام القرآن: 4/53، 54.

2 ـ **الدعاء الأول**: في هذا الحديث: «**اللّهمّ اصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري**» هذا الإصلاح المطلوب من الله تعالى يكون بتوفيق العبد إلى الامتثال إليه تعالى فيما أمرنا به من الطاعات والإخلاص فيها على اختلافها وتنوعها، واجتناب المعاصي، والإقلاع عنها والتوبة منها، ورد المظالم والحقوق إلى أصحابها.

فهذا الدين بتعاليمه السامية ووعده وعيده يكوّن للمؤمن نوراً يسير عليه في مختلف شؤون حياته، في عقائده وعباداته، ومعاملاته وأخلاقه، يعرّفه بالحلال فيسارع إليه، ويبين له الحق فيتمسك به، والخير فيطلبه، والصلاح فيتحلّى به، وينأى به عن المفاسد والشر والمعاصي، وذلك هو معنى «**عصمة أمري**».

أي: أن الدين يمنعني ويحميني من الوقوع في الأخطاء والمهالك قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً أو خلقاً.

فالدين نور. كما أخبر عنه الخالق تبارك وتعالى في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: 22].

= وقال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122].

فمن يمشي في النور المسلم بنور الدين، والسائر في الظلمات الضّال.

3 ـ **الدعاء الثاني**: **«أصلح لي دنياي التي فيها معاشي»**: طلب إصلاح الدنيا من الله تعالى يحصل بتوفيقه إلى ترك العبد الركون إلى الدنيا وعدم الاغترار بها وبمباهجها وزينتها، والإعراض عن شهوات النفس وأهوائها، وما يحسنه الشيطان لها من اللذائذ الآثمة، وترك العمل للآخرة.

ولذلك نهانا الله تعالى عن الاغترار بالدنيا والإصغاء إلى وساوس الشيطان ودفعنا إلى المعاصي، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: 33].

والغرور هو الشيطان اللعين، أي: لا تغرنكم الدنيا عن الإسلام ـ ولا يغرنكم بالله في حلمه وإمهاله الشيطان/ تفسير الجلالين: 2/143.

والجانب الثاني لطلب صلاح الدينا سؤال الله أن يتفضل على العبد بكل خير حتى تكون حياته هنيئة مطمئنة في الصحة والمسكن الطيب، والزوجة الصالحة، والوالد البار، والرزق الواسع والعلم النافع والعمل الصالح، والثناء الجميل ونحو ذلك من النعم التي يسعد بها المسلم الصالح في حياته الدنيوية، ويكون لسانه رطباً بالثناء على مولاه، وشكر فضله امتثالاً لقوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: 172].

4 ـ **الدعاء الثالث**: في الحديث الضراعة إلى الله تعالى بأن يوفق المؤمن للعمل الصالح في حياته الذي تصلح به آخرته، وذلك بالفوز برضاء الله عليه والتنعم بجناته.

وصلاح الآخرة يكون بأمرين نطقت بهما الآيات الكريمة فيما يزيد عن خمسين آية، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة: 7].

5 ـ **الدعاء الرابع والخامس**: قوله ﷺ: **«واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة من كل شر»**.

هذا دعاء المؤمن في توجهه إلى ربه بأن يجعل حياته الدنيوية، هنيئة سعيدة منعماً فيها بصحته وبدنه وغير ذلك. يزيد الخير فيها بالطاعات، ولا ينقص بالمعاصي، ولا تنغيص فيها ولا تكدير، ولا ذل ولا هوان ولا عجز ولا أكدار.

6 ـ **أما الدعاء يجعل الموت راحة للمؤمن من كل شر وبلاء**: فمعناه أن يجنبه الله تعالى كل شر قد يتعرض له الإنسان بقضاء الله تعالى. بما في ذلك شرور القبر لعموم قوله ﷺ: «من كل شر». =

= وليس في هذا الدعاء الأخير الدلالة على جواز الدعاء بالموت، وإنما دل على سؤال الله أن يجعل الموت في القضاء به على الإنسان راحة له من شرور الدنيا، ومنها شرور القبر/ سبل السلام: 223/41.

الحديث الثاني

الإقرار بالاعتماد على الله تعالى وطلب الهداية منه

عن عبدالله بن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقول: **«اللَّهمَّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللَّهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»**/ صحيح مسلم/ 38/17، 39.

الشرح:

في هذا الحديث سبعة عناصر: التعريف بالراوي - الإقرار بالإسلام والإيمان - التوكل على الله والاعتماد عليه والإنابة إليه - الجدال بتعاليمه - الاستجارة به من الضلال - الثناء عليه.

1 - **الراوي**: عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم الرسول ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، ودعا له الرسول ﷺ بالفهم في القرآن، فكان يسمى البحر والحبر لسعة علمه، وهو أحد المكثرين من رواية الحديث الشريف، وأحد العبادلة السبعة من فقهاء الصحابة، توفي بالطائف سنة (668 أو 669)/ تقريب التهذيب: 225/1، الإصابة: 141/4، وأسد الغابة: 192/3.

2 - **«اللَّهمَّ لك أسلمت وبك آمنت»**، أسلمت: خضعت لك وانقدت لتعاليمك، وأطعتك فيما أمرتني به، وامتثلت تطبيقاً لأحكامك يا رب، واعتقدت اعتقاداً جازماً قلبياً بأنك الواحد الأحد، لا شريك لك في ملكك الواسع المديد، يا إلٰهي يا من له الأسماء الحسنى يسبح ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: 24].

ففي هذه الضراعة لرب العزة الاعتراف بالخضوع إلى أوامره ونواهيه والعمل بها، والاعتراف كذلك بالإيمان الذي هو التصديق القلبي بوحدانية الله، وما يجب لجلاله من صفات العظمة والجلال والكمال.

وفي هذا الاعتراف إشارة إلى من فرّق من العلماء بين الإيمان والإسلام وقولهم مثلاً: الإيمان قول والإسلام عمل، وقد نشأ عن هذا نقاش كبير وجدال حاد، هل هما بمعنى واحد أو مختلفين.

ومن الأقوال المعتبرة: أنهما لشيء واحد مجموعه الدين، لأن التصديق والعمل=

= يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعاً بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19].

ومن أدلة ذلك ما جاء في حديث عمر بن الخطاب ﷺ عند مسلم أن الرسول ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان والإسلام عرف الإيمان بأنه التصديق والنطق بالشهادتين وأن الإسلام هو العمل والإتيان بأركان الإسلام الخمسة.

فبعد تعريف الرسول ﷺ لكل من الإيمان والإسلام قال: «إنه جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم»/ صحيح مسلم: 163/1، 164.

فلم يفرق عليه الصلاة والسلام بينهما وجعلهما اسمين لمسمى واحد هو الدين/ شرح صحيح مسلم النووي: 157/1، 158.

3 ـ قوله ﷺ: «وعليك توكلت»، أي: فوضت جميع أموري إليك، وهي استجابة العباد لأمر الله تعالى بالتوكل عليه، وتفويض جميع شؤونهم إليه كما جاء في العديد من الآيات القرآنية الكريمة، منها: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: 122].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

4 ـ قوله ﷺ: «وإليك أنبت»، أي: رجعت إلى اتباع دينك الحنيف المستقيم اعتماداً على تعاليمك في منهجه الواضح البين الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف بعد التوبة الصادقة امتثالاً لأوامرك في القرآن الكريم، كقولك وأنت أصدق القائلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: 8].

وهذه الإنابة إلى الله تعالى واجبة محتمة امتثالاً لأمره تعالى بها في قوله عز من قائل: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: 54].

5 ـ قوله ﷺ: «وبك خاصمت»، أي: بتعاليم دينك وبراهينه وحججه أحتج على العصاة والمذنبين والمفسدين والضالين، وأدافع وأقاتل وأستشهد في سبيل إعلاء كلمتك وإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

6 ـ قوله ﷺ: «اللَّهمَّ إني أعوذ بعزتك إلا إله إلا أنت أن تضلني»، أي: أحتمي يا رب وأتحصن بقوتك وعزتك من السير في طريق الانحراف والضلال، طريق الشيطان الرجيم، فاحفظني يا عزيز، واحمني من الشرور، واهدني إلى الصراط المستقيم، دين الإسلام القويم ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: 6، 7].

7 ـ قوله ﷺ: «أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»، أي: حياتك يا رب أزلية أبدية، صمدية مستقلة لا تحتاج إلى شيء يغذيها، ولا إلى مدد يمدها، =

= لأن من يحتاج إلى مدد يمده لا بد أن يكون ناقصاً مثل كل مخلوق، فالحياة فيه تحتاج إلى استمرارها إلى الغذاء.
أما الله تعالى فهو الكمال المطلق في ذاته وصفاته، وقد وصف الله نفسه في كتابه الكريم بأنه حي، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58].
وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 254].
وقد جاء في الحديث الشريف أن الحي هو اسم من أسماء الله الحسنى، أي: ذو الحياة الأبدية.
وإذا كانت حياتك أيها الإنسان في هذه الدنيا منتهية بالموت، فإن هناك حياة أخرى مستمرة بعد الموت وعد الله بها الشهداء الذين يفضلون الشهادة على الحياة الدنيوية رغبة في إعلاء كلماته فعليك أيها المسلم أن لا تبخل بنفسك في سبيل الله لتحصيل هذه الشهادة، لأن وراءها حياة سعيدة راقية ينالها الشهداء ومن كان في مراتبهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: 169].

الحديث الثالث

سؤال الهداية والتقوى والعفاف والغنى

عن عبدالله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**اللَّهمَّ إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**»/ صحيح مسلم: 17/40، 41.
الشرح:
عناصر الحديث خمسة: التعريف بالراوي ـ سؤال الهداية ـ سؤال التقوى ـ سؤال العفاف ـ سؤال الغنى.
1 ـ **الراوي عبدالله بن مسعود** بن غافل الهذلي أبو عبدالرحمٰن من السابقين الأولين، ومن كبار علماء الصحابة، مناقبه كثيرة توفي بالمدينة سنة (32 أو 33هـ/365م)/ تقريب التهذيب: 1/450.
2 ـ **أسألك الهدى**: الهدى لغةً: الرشد والبيان.
والمعنى: يا إلٰهي دلني على الطريق السوي طريق الصلاح والاستقامة الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وأرني يا رب طرق هدايتك الموصلة إلى قربك ومحبتك، وهو معنى قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: 6، 7].
والهدى نوعان: هدى دلالة وإرشاد إلى طرق الخير والحق، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم، وفي هذا السياق جاء قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: 7]. =

= وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: 52].
أثبت الله تعالى لهم الهدى الذي معناه الدلالة إلى الدين الصحيح، والدعوة إلى اتباعه، والتحذير من مخالفته.
النوع الثاني: الهدى الذي تفرد به خالقنا ومعناه التأييد والتوفيق لعباده للأعمال الصالحة، ومنه قوله جل وعلا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56].
3 ـ قوله ﷺ: «والتقى» التقى لغةً: الحذر من الوقوع في المهالك، يقال: اتقيت الشيء، أتقيه تقى وتقوى، والاسم التقوى/ القاموس المحيط: 104/4.
والمتقي هو الذي يتقي بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله، مأخوذ من اتقاء المكروه بما يجعله حاجزاً وفاصلاً بينه وبين المكروه.
والتقوى شرعاً: هي الخشية والخوف والرهبة من الله تعالى، وقد جاءت الأوامر القرآنية بهذا المعنى فمن ذلك قول الله تعالى أول سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ﴾.
ومثله في أول سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾.
وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عمران: 102].
ويكون معنى سؤال الداعي من الله أن يتفضل عليه بالتقوى: أن يملأ قلبه خوفاً من عذابه، وخشية من عقابه، فيقبل على الطاعات ويبتعد عن المخالفات، فتكون عباداته وقاية وسداً بينه وبين عذاب الله تعالى وسخطه وغضبه، وسبيلاً لرضائه والفوز بنعيم جناته.
وقيل في التقوى: أن تزين سرك للحق كما زينت ظاهرك للخلق.
ويقال: التقوى أن لا يراك مولاك حيث نهاك.
ويقال في المتقي: هو من سلك سبيل المصطفى، ونبذ الدنيا وراء القضاء، وكلّف نفسه الإخلاص والوفاء، واجتنب الحرام والجفاء/ الجامع لأحكام القرآن: 160/1، والتفسير الكبير: 162/1.
4 ـ قوله ﷺ: «والعفاف» العفاف والعفة: التنزه عما لا يباح واجتنابه قولاً أو اعتقاداً أو فعلاً أو خلقاً، وهو المعنى الوارد في القرآن الكريم مثل قوله تعالى خطاباً للأولياء، على اليتامى قبل ترشيدهم حفظاً لأموالهم: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: 6].
أي: يعف عن مال اليتيم، ويمتنع من أكله، وبذلك يكون الولي قد تنزه عن فعل=

= المحرم، وتكره امتثالاً لأمره تعالى.

ويكون معنى سؤال العبد من الله تعالى العفاف: أن يوفقه ويهديه، ويصلح قلبه ويوجهه إلى سبل الخير والحق والحلال التي أمرنا بها في كتابه الكريم وفي سنة نبينا محمد ﷺ كي يتنزه وينأى عن المعاصي، فيمقتها ولا تميل نفسه إليها.

5 ـ وقوله ﷺ: «والغنى»: الغنى المطلوب من الله تعالى بالسؤال هو غنى النفس، وفي هذا جاء حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري أن النبي ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»/ صحيح البخاري: 11/ 271.

العرض كل ما ينتفع به من متاع الدنيا مالاً أو عقاراً ونحو ذلك.

أما غنى النفس فهو كما قال القرطبي: الغنى هو الذي تكف فيه عن المطامع، فتشرف، ويحصل لها من النزاهة والطهر والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله فقير النفس، لحرصه وطمعه ودناءة همته وبخله، وكثرة من يذمه من الناس، فيصغر قدره عندهم، ويكون أحقر من حقير/ فتح الباري: 11/272.

وإنما يحصل غنى النفس بغنى القلب الذي يفتقر صاحبه إلى ربه في جميع أموره واحتياجاته، فيعتقد أنه المعطي، المانع، ويرضى بقضائه ويشكره على نعمائه، ويفزع إليه في كشف ضرائه، فهو غنى منبعه الرضا بقضاء الله تعالى، والتسليم لأمره علماً بأن الذي عند الله خير وأبقى/. فتح الباري: 11/272، 273، شرح النووي لمسلم: 17/ 41.

الحديث الرابع
سيد الاستغفار

عن شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**سيد الاستغفار أن يقول: اللَّهمَّ أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**».

«**قال: ومن قالها من النهار وهو موقن بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**»/ صحيح البخاري: 11/97، 98، النسائي اليوم والليلة رقم: 19.

الشرح:

شرحنا لهذا الحديث الشريف سيكون لستة عناصر: الراوي ـ عنوان الحديث ـ افتتاح الدعاء بالثناء على الله تعالى ـ الإقرار بالعبودية والالتزام بما تقتضيه ـ سؤال المغفرة عن التقصير ـ الجزاء. =

= 1 ـ الراوي: شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر الأنصاري، صحابي جليل، كنيته أبو يعلى، اختلف في صحبة أبيه.
لم يخرج البخاري له في صحيحه إلا هذا الحديث، توفي سنة (58هـ/659م)، فتح الباري: 99/11، والإصابة: 139/2، 140.
2 ـ عنوان الحديث قوله ﷺ: «سيد الاستغفار» الاستغفار هو الضراعة إلى الله تعالى في طلب محو الذنوب، ومغفرة المعاصي، والتجاوز عن السيئات بعد التوبة، والإقلاع عن الآثام والعزم على عدم العودة إليها، عسى الله أن يعفو عنها، ويغفرها، فهو الغفار التواب، كما أخبر بذلك عن نفسه في العديد من الآيات، ومنها قوله جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: 135 ـ 136].
والفاحشة تطلق على كل معصية، ولكن كثر إطلاقها في ألسنة العلماء على الزنا.
وقوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ قيل معناه: الخوف من عقابه، والحياء منه، أو الثناء عليه وتمجيده وتعظيمه وإجلاله عند التوجه إليه بالدعاء، وذلك لأن من أراد أن يسأل الله مسألة فالواجب أن يقدم على تلك المسألة الثناء على الله تعالى كما جاء في سياق الحديث: الثناء ثم جاء الاستغفار.
أما تسمية الرسول ﷺ لدعائه في هذا الحديث بأنه (سيد الاستغفار) فمعناه أنه أفضل الدعاء وأكثره نفعاً لمن واظب عليه.
وقد حاز هذه السيادة، لأنه جامع لمعاني التوبة كلها بشرط صدق النية والإخلاص والتوجه والأدب مع الله تعالى، فاستعير له اسم السيد وهو في الأصل الرئيس الذي يقصد في الحوائج، ويرجع إليه في الأمور/ فتح الباري: 99/11.
3 ـ افتتاح الدعاء بالثناء على الله تعالى: قوله ﷺ: «أن يقول: اللَّهمَّ أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني».
هذه أربع عبارات وقع بها الثناء والتعظيم لله تعالى سنحللها مرتبة:
أ ـ «اللَّهمَّ» سبق أن ذكرنا معناه وهو: يا الله، فقد أجمع العلماء على أنه منادى.
يا الله، وأصلها في القول المشهور والأصح أنها يا الله، حذف حرف النداء الياء والألف من أولها وعوض بحرفين هما: الميم المشددة، وهو من أسمائه الحسنى.
الله هو علم على الذات الإلٰهية، وأشهر أسمائه ﷻ لإضافة هذه الأسماء إليه، وإليه ينسب كل اسم له، فيقال: الرؤوف الكريم من أسماء الله تعالى، ولا يقال: من أسماء الرؤوف الكريم الله/ شرح صحيح مسلم: 5/17. =

= ب - قوله ﷺ: «أنت ربي» هذا إقرار بتوحيد الربوبية، أي: أنا عبدك ومملوكك، وأنت يا الله يا رب المالك المتصرف في حياتي كلها.

والرب هو المالك وكل من ملك شيئاً فهو ربه ومالكه.

والرب السيد كقول الله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف عليه السلام في قوله للسجين: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42]، أي: سيدك.

والرب بالألف واللام هو اسم من أسمائه تعالى، لا يطلق على غيره، وإذا حذفتا منه صار إطلاقه مشتركاً بين الله وعباده، فيقال: رب العباد، ويقال: فلان رب الدار.

والله تعالى هو رب الأرباب، يملك المالك والمملوك، وهو خالق كل شيء ورازقه/ الجامع لأحكام القرآن: 1/136 - 138.

والرب اسم من أسماء الله الحسنى، وقد جاء ذلك في حديث النبي ﷺ في سنن ابن ماجه في كتاب الزهد رقم: 1/385.

وقال بعض العلماء: إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم لكثرة الداعين به في القرآن الكريم/ شرح مسلم: 5/17.

ج - قوله ﷺ: «لا إله إلا أنت»: هذا اعتراف صريح بوحدانية الله تعالى التي هي صفة واجبة لله تعالى ومعناها أن الله واحد لا شريك له في ملكه، وأنه المتصرف، المهيمن على الكون كله، وقد وصف نفسه في القرآن الكريم بأنه واحد لا شريك له في ذاته وصفاته في عدد من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: 163].

والأحد، هو بمعنى الواحد، وجاء ذكره في حديث ابن ماجه المشار إليه سابقاً، وأنه من الأسماء الحسنى، فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: 1].

د - قوله ﷺ: «خلقتني»: ثناء على الله تعالى وتمجيده، وإقرار بأنك خلقتني بعد العدم، وأوجدتني بعد أن لم أكن شيئاً في شكلي وتكويني الشامل الكامل، وصورتني في أحسن صورة، كما نطق بذلك قولك العزيز: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: 24].

الخالق: من معانيه، الإبداع، وهو إيجاد الشيء على غير مثال سابق كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [هود: 7].

البارىء: قيل: الخالق، وقيل: هو الذي جعل مخلوقاته كلها بريئة من التفاوت والتنافر المخل بالنظام، فهو أدل على كمال الخلق من لفظ الخالق.

المصور: مبدع صور المخترعات، ومرتبها بحسب مقتضى حكمته حسناً وجمالاً وتناسقاً وزينة، فالله خالق كل شيء، بمعنى موجده من أصل ومن غير أصل، وبارئه بمقتضى حكمته من غير تفاوت ولا اختلال، ومصوره في أحسن صورة يتم بها كماله. =

= وهذه الصفات الثلاث من صفات أفعال الله تعالى: إلا إذا أريد بالخالق: المقدر فيكون من صفات الذات/ فتح الباري: 13/ 391.

4 ـ الإقرار بالعبودية: قوله ﷺ: «وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت»، أي: أنا يا الله عبدك الذليل الخاضع لك المطيع لأوامرك، المجتنب لنواهيك، وأنت السيد المالك لكل شيء، فالناس كلهم مخلوقون لله تعالى فهم عبيده وعليهم طاعته في أمره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: 21].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: 36].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: 92].

فعبوديتي لك يا رب توجب علي وتلزمني بالوفاء بما التزمته لك وعاهدتك عليه من إخلاص الطاعة لك، والإيمان في حدود المقدرة التي تفضلت بها علي. كما قلت وقولك الحق: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16].

ويحتمل أن يكون معنى «**أنا على عهدك**» أنا مقيم على ما عهدت إلي من أمرك، ومتمسك به، ومنجز وعدك في المثوبة والأجر.

وقال علي بن بطال القرطبي قوله: «**وأنا على عهدك ووعدك**»: يريد العهد الذي أخذه الله على عباده حين أخرجهم أمثال الذرّ.

وقد أشهدهم على أنفسهم، فأقروا وشهدوا له بالربوبية والوحدانية في قوله عز من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172].

فالعهد هنا بمعنى الميثاق، والوعد هو الجزاء بالجنة لمن صفت عقيدته، وصلح عمله، الذي بشر الله تعالى به في قوله وهو أصدق القائلين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة: 9]/ فتح الباري: 11/99، 100.

5 ـ سؤال المغفرة عن التقصير: قوله ﷺ: «**أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»، في هذه الفقرة ثلاثة أمور:

أ ـ «**أعوذبك من شر ما صنعت**»، أي: ألجأ إلى حماك، وأعتصم بك، وألتمس منك أن تحفظني وتحميني من عذاب ما اقترفته من شر، وتعفو وتصفح عما ظلمت به نفسي من سوء بعد التوبة كما وصفت نفسك بذلك في قولك العزيز: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: 25].

ب ـ **قوله ﷺ: «أبوء بنعمتك علي وأبو لك بذنبي»**: أعترف بنعمك التي لا تحصى التي أنعمت بها علي، وأعترف بأني لم أقم بشكرك المطلوب مني، والاعتراف بجميلك. =

= والتقصير في ذلك ذنب، لأن فيه عدم الوفاء بواجب الشكر، قال جل شأنه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: 152].

ويرى بعض العلماء أن قوله ﷺ: «أبوء لك بذنبي» مطلق الذنب ليصح الاستغفار منه، لا أنه التقصير في أداء نعم الله/ فتح الباري: 100/11.

ج ـ قوله ﷺ: «اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» قال ابن حجر: يستفاد من هذا أن من اعترف بذنبه غفر الله له.

وقد صرح الرسول ﷺ بهذا في حديث «الإفك»، الطويل عند مسلم عن عائشة رضي الله عنها فقال ﷺ: «إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه»/ صحيح مسلم: 111/17.

6 ـ **الجزاء: قوله ﷺ: «قال: ومن قالها من النهار، وهو موقن بها، فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة».**

«ومن قالها من الليل وهو موقن بما فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»، أي: من قال ما جاء في هذا الحديث الشريف سيد الاستغفار مصدقاً بثوابه صحيح النية بشره عليه الصلاة والسلام بالدخول إلى الجنة، إن كان القول نهاراً أو كان القول مساء، وأكرم به من جزاء.

نقل الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني عن الفقيه المالكي المحدث الراوية القدوة أبي محمد عبدالله بن أبي جمرة (ت699هـ/1280م) نقل عنه قوله مبيناً قيمة هذا الحديث:

جمع رسول الله ﷺ في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى سيد الاستغفار: ففيه الإقرار لله وحده بالعبودية والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعد به، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعم إلى الله الواهب لها، وإضافة الذنب إلى صاحبه ومرتكبه ورغبته في المغفرة، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو، وفي ذلك كله إشارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة.

والمراد بالحقيقة أن تكاليف الشريعة لا تحصل إلا إذا كان في ذلك عون من الله تعالى/ فتح الباري: 99/11، 100، والشجرة: 199.

الحديث الخامس

الدعاء عند إرادة النوم

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، وقل: اللَّهمَّ أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ، ولا منجا** =

= منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، فإن مت على الفطرة فاجعلهن آخر ما تقول. فقلت: أستذكرهن: وبرسولك الذي أرسلت. قال: لا وبنبيك الذي أرسلت»/ صحيح البخاري واللفظ له 109/11، وصحيح مسلم مع اختلاف يسير في اللفظ: 32/17 وما بعدها.

الشرح:

هذا الحديث عناصره ستة: الراوي وثلاث سنن: الوضوء قبل النوم ـ النوم على الشق الأيمن ـ الدعاء ـ ثم فضل الدعاء ـ إصلاح خطأ الراوي عند حفظه للحديث الشريف من قبل الرسول ﷺ.

1 ـ الراوي: هو البراء بن عازب بن الحارث بن عدي الأنصاري الأوسي، صحابي ابن صحابي غزا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة غزوة، وفي رواية: خمس عشرة غزوة.

روى عن النبي ﷺ جملة من أحاديثه الشريفة، كما روى عن أبيه وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وغيرهما من كبار الصحابة رضي الله عن جميعهم.

نزل بالكوفة واستقر بها إلى أن وافاه أجله بها سنة اثنتين وسبعين/ الإصابة: 142/1، 143.

في هذه الرواية أن المخاطب بالحديث هو البراء بن عازب (قال: قال لي رسول الله ﷺ) وفي رواية أخرى: (أمر رسول الله ﷺ رجلاً...) وفي رواية ثالثة: (يا فلان إذا أويت إلى فراشك...)/ فتح الباري: 109/11، صحيح مسلم: 34/17.

2 ـ السنة الأولى: الوضوء عند إرادة النوم: قوله ﷺ: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة**» الأمر بوضوء الصلاة عند إرادة النوم للندب لما يشتمل عليه من الفوائد التي منها:

المبيت على طهارة لئلا يفاجئه الموت فيكون على هيئة كاملة.

الاستعداد للموت بطهارة القلب، لأنه أولى من طهارة البدن.

ويتأكد هذا الوضوء في حق المحدث ولا سيما الجنب فيكون منشطاً للغسل فيبيت على طهارة كاملة.

أن يكون هذا الوضوء أصدق لما يراه المؤمن في المنام، وأبعد من تلاعب الشيطان به، في منامه وترويعه إياه، بالرؤى المخيفة المزعجة.

أن هذا الوضوء أنشط للعودة إلى الجماع، لما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عند مسلم عن النبي ﷺ قال: «**إذا أتى أحدكم أهله، ثم أراد أن يعود، فليتوضأ، فإنه أنشط للعود**»/ صحيح مسلم: 216/3.

وفي رواية لابن خزيمة زيادة: «**فليتوضأ وضوءه للصلاة**»/ نيل الأوطار: 271/1، =

= 272، فتح الباري: 110/11، النووي على مسلم: 32/17، 33.
وهذا الوضوء لا يبطل ببول ولا غائط إلا بمعاودة الجماع، ويندب للمجنب قبل اغتساله، لما أخرجه مالك في الموطأ عن عائشة ﵂ أنها كانت تقول: «**إذا أصاب أحدكم المرأة ثم أراد أن ينام قبل أن يغتسل، فلا ينم حتى يتوضأ وضوءه للصلاة**»/ الموطأ بهامش المنتقى: 98/1.

3 ـ السنة الثانية: الاضطجاع على الجانب الأيمن: قوله ﷺ: «**ثم اضطجع على شقك الأيمن**» وفي رواية أخرى للبخاري: «كان رسول الله ﷺ إذا آوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن» خص الجانب الأيمن لعدة فوائد؛ منها:

أن النوم على الجانب الأيمن هو أسرع للانتباه.

الاقتداء بالرسول ﷺ الذي يحب التيامن.

أن هذه الهيئة هي أصلح للبدن بنص الأطباء على منافعها.

4 ـ السنة الثالثة: الدعاء، أمر فيه الرسول ﷺ البراء بأربعة أنواع من ذكر الله تعالى فقال ﷺ للبراء: «**وقل: اللَّهمَّ أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت**».

أ ـ قوله ﷺ: «**اللَّهمَّ أسلمت وجهي إليك**»، أي: جعلت شخصي، وجعلت ذاتي منقادة إليك، طائعة لك تابعة لحكمك، إذا لا قدرة لي على تدبير أمورها بجلب ما ينفعها، ودفع ما يضرها لأن الأمر كله إليك.

ب ـ وقوله ﷺ: «**وفوضت أمري إليك**»: توكلت عليك في جميع شؤوني لأنال محبتك، فقد قلت وقولك الحق: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]

ج ـ وقوله ﷺ: «**وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك**»: عليك يا الله اعتمادي في كل أموري لتساعدني على القيام بها كما تحب وترضى طمعاً في ثوابك وخوفاً من عقابك.

وقوله ﷺ: «**لا ملجأ، ولا منجا منك إلا إليك**»: أنت الملجأ الوحيد الذي ألوذ به، وأحتمي به من كل سوء يؤذيني، ومنجاتي من الهموم والكروب والمصائب والآلام.

قال الطيبي شرف الدين بن عبدالله (ت743هـ/1323م) في نظم هذا الذكر عجائب لا يعرفها إلا المتفوق في علم البيان، فأشار الحديث في قوله ﷺ: «**أسلمت نفسي**» إلى أن جوارحه منقادة لله تعالى في أوامره ونواهيه.

وبقوله: «**وجهت وجهي**» إلى أن ذاته مخلصة له بريئة من النفاق.

وبقوله: «**فوضت أمري**» إلى أن أموره الداخلية والخارجية، مفوضة إليه لا مدبر لها غيره. =

= وبقوله: «**ألجأت ظهري**» إلى أنه بعد التفويض يلتجيء إليه ليحميه، مما يضره ويؤذيه من الأسباب كلها.
وقوله: «**رغبة ورهبة**»، أي: فوضت أموري إليك رغبة، وألجأت ظهري إليك رهبة/ فتح الباري: 111/11.
د ـ يأتي بعد هذا قوله ﷺ: «آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت».
الكتاب الذي يجب الإيمان والتصديق به هو القرآن الكريم، ويحتمل أنه اسم جنس ويراد به جميع الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء والرسل عليهم السلام/ المصدر السابق.
فقد جاء الأمر بوجوب الإيمان بها للنبي ﷺ ولأمته في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: 84].
أما قوله ﷺ: «**وبنبيك الذي أرسلت**» فهو الحبيب المصطفى، النبي الخاتم المرسل إلى الناس جميعاً، محمد ﷺ الذي أمر الله كل الناس بالإيمان به والتصديق برسالته في قوله جل شأنه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158].
5 ـ فضل الدعاء: قال ﷺ مخاطباً البراء بن عازب، وكل من ذكر الله بهذا الدعاء من أمته: «**فإن مُتّ متّ على الفطرة، فاجعلهن آخر ما تقول**».
وفي رواية لمسلم: «**واجعلهن من آخر كلامك، فإن مت من ليلتك مت وأنت على الفطرة**»/ صحيح مسلم: 33/17.
ولكن لو لم يمت الذاكر في ليلته تلك فقد بشره الرسول ﷺ عوضاً عن ذلك بخير يصيبه إذا أصبح، طالما تلاه وكان آخر كلامه، وامتدت حياته، كما جاء ذلك في رواية أخرى للحديث عند مسلم: «**فإن مت من ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيراً**»/ المصدر السابق.
وهذه الفطرة اختلفت أقوال العلماء في تحديد مدلولها اختلافاً كثيراً ومن تفسيراتهم لها:
أ ـ أنها التوحيد: توحيد الخالق فإن الله فطر الناس عليه، حيث أخذهم من ظهور آدم وسألهم: ألست بربكم؟ فقالوا: بلى وهو ما نطقت به الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: 172]/ التفسير الكبير: 525/6.
ب ـ أنها الخلقة بدليل قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى=

= ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [الروم: 30]، أي: لا تبديل لخلقه الله تعالى.

ج ـ أنها دين الإسلام: وهو قول عامة السلف من المفسرين، واستدلوا على ذلك بالآية الكريمة السالفة.

واستدلوا ـ أيضاً ـ بحديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»/ صحيح البخاري: 245/3، 246.

أي: أن كل من ولد على الفطرة وكان له أبوان على غير الإسلام نقلاه إلى دينهما.

قال يوسُف بن عبدالبر النمري: «أشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام، وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ الإسلام»/ فتح الباري: 248/3، والجامع لأحكام القرآن: 24/14 وما بعدها.

6 ـ إصلاح خطأ الراوي عند حفظه للحديث الشريف من قبل الرسول ﷺ: (قال ـ أي البراء ـ: فردّدتهنّ لأستذكرهنّ فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت).

أخطأ البراء ولم يأت بما قاله ﷺ: «آمنت بنبيك الذي أرسلت»، فقال له ﷺ: «قل آمنت بنبيك الذي أرسلت».

اختلف العلماء في سبب إنكاره عليه الصلاة والسلام للبراء ورده للفظ المخالف لقوله ﷺ فرأى البعض منهم أن هذا الإنكار ليبين رسولنا الكريم الفرق بين النبي وبين الرسول، فالنبي ما أنبأه الله بشريعة خاصة به، ولم يأمره بتبليغها إلى الناس فهو يتعبد بها ربه وحده.

أما الرسول فهو ما أنبأه الله بشريعة دين، وأمره بتبليغه للناس وليس خاصاً به وحده. فالفرق بينهما أن كلًا منهما منبأ وموحى إليه بشرع لكن الرسول مأمور بتبليغه للناس، أما النبي فلم يأمره الله بتبليغه الناس، ولذلك فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً.

ويرى البعض من العلماء أن سبب إنكار النبي ﷺ للبراء، أن ما قاله عليه الصلاة والسلام ذكر ودعاء فينبغي الاقتصار والالتزام باللفظ الوارد بحروفه كما قاله ﷺ وقد يتعلق الجزاء بتلك الحروف نفسها.

ولعل الله تعالى أوحى إليه بهذه الكلمات، فيتعين أداؤها بحروفها كما نطق بها عليه الصلاة والسلام.

قال النووي: «وهذا القول حسن واختاره الفقيه المالكي الإمام صاحب المؤلفات الجيدة أبو عبدالله محمد بن علي التميمي المازري» المتوفى سنة (537هـ/1123م)/ فتح الباري: 112/11، والنووي على مسلم: 33/17. =

= قال الكرماني محمد بن يوسف (ت786هـ/1365م) ملخصاً لما جاء في هذا الحديث: «إنه يشتمل على الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إجمالاً من الكتب والرسل من الإلٰهيات والنبوات، وعلى إسناد الكل إلى الله تعالى من الذوات والصفات والأفعال، لذكر الوجه والنفس والأمر، وإسناد الظهر مع ما فيه من التوكل على الله والرضا بقضائه، وهذا كله بسبب المعاش، وعلى الاعتراف بالثواب والعقاب خيراً وشراً، وهذا بحسب المعاد»/ فتح الباري: 113/11.

الحديث السادس

كراهية تمني الموت

عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه، فإذا كان لا بد فاعلاً فليقل: اللَّهمَّ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إن كانت الوفاة خيراً لي**»/ صحيح البخاري: 127/10، 150/11.

وأخرجه مسلم في صحيحه عن أنس أيضاً مع اختلاف يسير في بعض العبارات، يقع التعرض إليها في محالها/ صحيح مسلم: 7/17.

شرح الحديث:

تحليل معاني هذا الحديث يقتضي تقسيمه إلى خمسة أقسام: التعريف بالراوي - قوله ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت**» - قوله ﷺ: «**من ضر أصابه**» - قوله ﷺ: «**فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللَّهمَّ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني**» الحديث/ خلاصة.

1 - **الراوي**: هو أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ لمدة عشر سنين وهو أحد المكثرين الذين تجاوزت أحاديثهم الألف، فكان من حفاظ الصحابة وأعلامهم توفي سنة 92هـ/693م وقد جاوز المئة/ تقريب التهذيب: 84/1.

2 - **قوله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت»**: يندرج تحت هذا القسم أربعة عناصر: معناه - الحكمة من النهي - الفائدة من النهي - رد دعوى نسخ حكم النهي.

أ - معنى النهي عن تمني الموت: التمني أو طلب الموت واختياره بدل الحياة يكون ناشئاً عن حدوث أمر صعب يشق على المؤمن تحمله فيختار موته على حياته.

وليس في هذا التمني أو الطلب مصلحة ظاهرة، بل فيه مفسدة محققة تتمثل في الرغبة في إزالة نعمة الحياة، وما يترتب عليها من الفوائد التي لا تحصى، ولذلك وقع النهي عن تمني الموت، أو طلبه لما فيه من الاعتراض عن قضاء الله تعالى وقدره. =

= والنهي عن تمني الموت ـ كما قال الحافظ ابن حجر: كأنه أمر بالصبر، بل هو أمر بالصبر على ما نزل بالمؤمن من الابتلاءات/ فتح الباري: 13/220، 221.

قال الله تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: 186].

هذه الآية خطاب للنبي ﷺ وأمته من بعده، ومجمل معناها:

لتختبرن ولتمتحنن في أموالكم بالمصائب والأرزاء وسائر التكاليف الشرعية، وتمتحنن في الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب.

والمطلوب في هذه الأحوال العصيبة الصبر والتقوى، لأنهما من الأمور التي يعزم على فعلها لوجوبها/ الجامع لأحكام القرآن: 4/303، 304.

فيا من تتمنّى الموت لسوء أصابك، أليس الصبر المأمور به أفضل لك لما فيه من الفوائد الكثيرة؟

ومنها: أن الصبر على المصائب والمكاره كفارة للذنوب والخطايا لما أخرجه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها الخطايا**»/ صحيح البخاري: 10/103.

بيَّن الرسول صلوات الله وسلامه عليه في حديثه هذا أنواعاً من الأمراض والمكاره التي تمسح الذنوب وتكفر الخطايا: نوعين من الأمراض الظاهرية هما: النصب: وهو التعب، والوصب: وهو المرض، والبقية الباقية أمراض باطنية.

ب ـ **الحكمة من النهي عن تمني الموت**: إن تمني الموت كأنه دليل على عدم الرضا بالأجل الذي حدده الله تعالى لكل حي، واعتراض على ما قضى به وقدره له، ولذلك نهى عنه.

وتمني الموت لا يؤثر في زيادة الآجال ونقصانها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾ [آل عمران: 145].

فقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: علمه بوقت موتها، فإذا جاء ذلك الوقت حل الموت كما قال جل شأنه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34].

وقيل: إن الإذن هو قضاء الله وقدره، فإنه لا يحدث شيء في ملكه إلا بمشيئته وإرادته.

أما قوله تعالى في الآية: ﴿كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾ فالمراد بالكتاب هو اللوح المحفوظ/ التفسير الكبير: 3/60، 61. =

= ج ـ **الفائدة من النهي عن تمني الموت**: زيادة الخير والثواب بالعمل الصالح إذا طال العمر، كما جاء ذلك في حديث النبي ﷺ عند مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال ﷺ: «**لا يتمنى أحدكم الموت، ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً**»/ صحيح مسلم: 17/8.

فتمني الموت أو الدعاء به معناه: انقطاع العمل بالموت. بينما لو طال العمر واستمرت الحياة، فإنه يستمر معها وجود العمل الطيب الذي يثمر زيادة الثواب والخير.

وقد جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري أن الرسول ﷺ قال: «**ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فله أن يستعتب**»/ صحيح البخاري: 127/10.

أي: إما أن يزداد خيراً بطول العمر وأما إذا كان مسيئاً فلعله يرجع عما استوجب اللوم والعتب عليه بترك الإساءة، ويسترضي الله بالإقلاع والاستغفار والتوبة/ فتح الباري: 130/10.

ولكن قد يطول عمر الشخص ويعمل السيئات فيزيد عمره شراً؟

وأجيب عن ذلك: بأن قوله ﷺ في حديث البخاري «لعله» التي للترجي. والترجي يشعر بالوقوع غالباً، فدل على أن المراد من طول العمر في الخير من باب تحسين الظن بالله تعالى. ذلك: أن المحسن يرجو من الله الزيادة بأن يوفقه إلى العمل الصالح، وأن المسيء لا ينبغي له اليأس والقنوط من رحمة الله، ولا قطع رجائه/ فتح الباري: 130/10، 131.

د ـ **دعوى نسخ حكم تمني الموت**: ذكر الحافظ ابن حجر أن هنالك من العلماء من رأى أن حكم كراهة تمني الموت منسوخ بحديث عائشة ﷺ عند البخاري قالت: (سمعت رسول الله ﷺ وهو مستند إلي يقول: **اللّهمَّ اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى**»/ صحيح البخاري: 122/10.

وفي رواية أخرى للبخاري قالت عائشة ﷺ: (سمعت النبي ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مستند إلى ظهري يقول: «**اللّهمَّ اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى**»).

ومما ورد في تفسير معنى الرفيق الأعلى الذي طلب ﷺ إلحاقه به عند قرب موته: أنهم الأنبياء ومما ذكر معهم في الآية الذي ختمت بقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ وهو القول الأقوى.

والآية هي قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ =

= ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: 69]/ فتح الباري: 8/137، 138.

وقوّى مدّعي نسخ حكم تمني الموت بما جاء في قول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

وبقوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النمل: 19].

والرد على من ادعى النسخ بأمرين:

● **الأمر الأول: أن هذه الحالة من خصائص الأنبياء عليهم السلام، فإنه لا يقبض نبي** حتى يخيّر بين البقاء في الدنيا وبين الموت.

ودليل ذلك ما أخرجه البخاري عن عروة بن الزبير (ت94هـ/694م) عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: «**إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيّا ـ أو يخير**»).

وجاء في رواية أحمد: «**فخيرت بين ذلك، وبين لقاء ربي والجنة، فاخترت لقاء ربي والجنة**»/ صحيح البخاري، وفتح الباري: 8/126، 127.

● **الأمر الثاني**: أن هؤلاء الرسل عليهم السلام سألوا الموت عند حضور الأجل، وليس ذلك من باب تمني الموت المنهي عنه/ فتح الباري: 10/130.

3 ـ **قوله ﷺ: «من ضر أصابه»** وفي رواية لمسلم: «**ضر نزل به**».

هذا الضر الذي كان سبباً في تمني الموت المنهي عنه هل هو ضر دنيوي كالمرض، والفقر أو الخوف من عدو، أو غير ذلك من كرب الدنيا، أو ديني كالفتنة في الدين؟ ذهب إلى الأول جماعة من السلف الصالح، ولذلك فإن وجد الضرر الديني فلا كراهة، لأنه لم يدخل في عموم النهي أخذاً من مفهوم الحديث. كما رأى ذلك النووي وقال: (وقد فعل هذا خلائق من السلف عند خوف الفتنة في أديانهم)/ صحيح مسلم: 17/8.

ومن أدلتهم على ذلك حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عند أحمد: «**وقل يا محمد إذا صليت: اللّهمَّ إني أسألك الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون...**»/ مسند أحمد رقم: 5/162.

وكذلك حديث عبدالرحمٰن بن عايش الحضرمي عند الحاكم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وذكر الرب تعالى فقال: «**قل: اللّهمَّ إني أسألك الطيبات، وترك المنكرات، وحب المساكين وأن تتوب علي، وتغفر لي، وترحمني، وإذ أردت فتنة في نوم فتوفني غير مفتون**».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وقد روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن=

= النبي ﷺ مثله/ المستدرك كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر رقم: 1912.

4 ـ قوله ﷺ: «فإن كان لا بد فاعلاً ـ وعند مسلم ـ فإن كان لا بد متمنياً ـ فليقل: اللَّهمَّ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

تحليل هذه الفقرة يتطلب ثلاثة عناصر:

أ ـ قوله ﷺ: «فإن كان لا بد فاعلاً ـ أو متمنياً ـ فليقل»، أي: مخالفاً وعاصياً بتمني الموت بسبب الأذى والضر الذي صار من المتعذر احتماله والصبر عليه، فليقل بدلاً عن تمني الموت الذي فيه عدم الرضا بقضاء الله وقدره: فليضرع إلى الله تعالى بالدعاء الذي أمرنا به الرسول ﷺ في هذا الحديث.

وقوله ﷺ: «فليقل» يدل على أن النهي عن تمني الموت المطلق غير جائز، لأن فيه اعتراضاً على قدر الله تعالى في الأجل المحتوم للإنسان كما تقدم.

أما ما أمر به الرسول ﷺ في الحديث: «وتوفني...» فإنه نوع من تفويض الأمر لله تعالى والتسليم لقضائه.

ب ـ الأمر بالدعاء عند تعذر احتمال الأذى في حديثه ﷺ: «فليقل» جاء بصيغة فعل المضارع المقترن بلام الأمر. هل يدل على وجوب الدعاء في هذه الحالة العصيبة، أو استحبابه أو إباحته؟

اختلف العلماء في ذلك بسبب اختلافهم في القاعدة الأصولية: هل الأمر الوارد بعد النهي يدل على الوجوب أو الإباحة؟

فمنهم من قال: يدل على الوجوب، وهو مذهب عامة الحنفية والمعتزلة، أي: يجب على المبتلي قول الدعاء/ فواتح الرحموت بهامش المستصفى: 379/1، ونهاية السؤال: 272/1، 273.

ومنهم قال: الأمر بعد النهي يدل على الإباحة، أي: لا يترتب على فعله أو تركه ثواب، ولا مؤاخذة، وقال بهذا: الإمام الشافعي وغيره من العلماء.

وبيان ذلك أن النهي عن تمني الموت جاء عقبه الأمر بالدعاء: «فليقل»، فهو أمر للإذن، أي: الإباحة فقط، لا يدل على وجوب القول بالدعاء ولا على استحبابه.

ج ـ قوله ﷺ: «أحيني ما كانت الحياة خيراً لي»: هذا طلب من الله تعالى باستمرار الحياة إذا كانت طيبة هنيئة مرضية يغمرها الصلاح وتحفها التقوى، فيزداد الخير والفلاح والسعادة بطولها ما طال العمر، وهذا هو المراد ـ والله أعلم ـ بقوله ﷺ في دعائه رواية عن أبي هريرة ﷺ: «واجعل الحياة زيادة لي في كل خير».

د ـ قوله ﷺ: «وتوفني إن كانت الوفاة خيراً لي»: هذا إرشاد وتوجيه من الرسول ﷺ لكل مؤمن من أمته أن يدعو بطلب الموت إذا كان خيراً له فيه، إذا=

= ابتلي بشرور لا يقدر على تحملها، أو الصبر عليها في دينه، كفساد الزمان وضعف الدين أو خوف ذهابه، في رأي القاضي عياض اليحصبي المحدث، المفسر الفقيه (ت544هـ/1130م) والفقيه المحدث يوسف بن عبدالبر النمري الفقيه المحدث (ت463هـ/1052م) وغيرهما كالنووي الذي أضاف: والأفضل الصبر/ صحيح مسلم: 17/8.

قال يوسف بن عبدالبر: ظن بعضهم أن هذا الحديث معارض للنهي عن تمني الموت أو ناسخ له، وليس كذلك وإنما يكون لشدة تنزل بالناس من فساد الحال في الدين، فالنهي حينئذٍ يتعلق بضرر الجسم، وأما إذا كان لضرر يتعلق بالدين فلا/ فتح الباري: 75/13.

وقد مر الاستدلال على هذا بحديث عبدالله بن عباس ﷺ عند أحمد وحديث الحضرمي عند الحاكم، ويؤيد هذا القول: ثبوت تمني الموت عند فساد الزمان وضعف أمر الدين عن جماعة من السلف الصالح. ذكر النووي منهم عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز ﷺ المتوفى سنة (101هـ/701م).

ورأي الحافظ ابن حجر أن هذا الدعاء الوارد في الحديث بتمني الموت عام لكل ضرر دنيوي أو ديني كما يدل عليه ظاهر الحديث/ فتح الباري: 128/10 و75/13 ـ 22، وصحيح مسلم: 7/17، 8.

فهذا الدعاء بطلب الموت إن كان فيه خيراً يدل على أن قصر العمر قد يكون فيه خيراً كذلك، وهو لا يعارض ولا ينافي حديث أبي هريرة ﷺ عند مسلم المتقدم: «**أن المؤمن لا يزيده عمره إلا خيراً**» إذا حملنا حديث أبي هريرة على الأغلب والكثير من المؤمنين، وحملنا حديث أنس على القليل النادر.

وذلك أنه ما دام الإيمان باقياً في قلب المؤمن، فإنه دافع له إلى الخير والصلاح، فالحسنات ستتضاعف، والسيئات تتناقص وتمحى، ونادراً ما يقع عكس هذا كما هو مشاهد/ فتح الباري: 130/10.

وبناءً على ما يدل عليه ظاهر الحديث، فإن الدعاء بطلب الموت في هذه الحال العصيبة المتعذر احتمالها ليس من باب تمني الموت المنهي عنه، وهذا ما فهمه أنس بن مالك ﷺ راوي الحديث فقد أخرج له البخاري له قوله: «لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **لا تتمنوا الموت لتمنيته**»/ صحيح البخاري: 128/10.

قال ابن حجر: لعل أنساً رأى التفصيل في الحديث: «**أحيني.... وتوفني...**» الذي يدل على أن هذا التمني ليس من باب التمني المنهي عنه/ المصدر السابق.

ومن المتيقن أن ما اعتمده أنس في أن تمني الموت إذا لم يكن فيه خير منهي هو ما اعتمده خبّاب بن الأرت ﷺ (ت37هـ/639م) في قوله عند البخاري: (لولا أن=

= رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به»/ المصدر السابق.
النهي عن الدعاء بالموت جاء صريحاً مطلقاً غير مقيد في حديث أبي هريرة عند مسلم السالف ذكره: «**لا يتمنى أحدكم الموت، ولا يدع به من قبل أن يأتيه...**»/ صحيح مسلم: 8/17.
وقد وقع تقييد تمني الموت الذي فيه خير للمؤمن بحديث أنس: «**وتوفني...**».
والدعاء بالموت هو أخص من تمني الموت الذي يمكن أن يكون فيه خيراً أو لا يكون، ولذلك يقال: كل دعاء تمن وليس كل تمن دعاء، لأن التمني هو طلب شيء مرغوب فيه: نجاح ـ سلامة ـ غنى ـ زواج... إلى آخره. والدعاء بالموت في حديث أنس نوع من أنواع التمني وقع تقييده هنا بالموت الذي فيه خير للمؤمن: «**وتوفني إن كانت الوفاة خيراً لي**».
5 ـ **الخلاصة**: ننقلها عن النووي في شرحه لحديث أنس في صحيح مسلم قال:
«جاء في الحديث التصريح بكراهة تمني الموت لضر نزل بالمؤمن من مرض أو فاقة أو محنة من عدو، أو نحو ذلك من مشاق الدنيا».
«فأما إذا خاف ضرراً في دينه أو فتنة فيه، فلا كراهة لمفهوم هذا الحديث وغيره وقد فعل هذا الثاني خلائق من السلف عند خوف الفتنة في أديانهم».
«وفي الحديث: أنه إن خالف العبد ولم يصبر على حاله في بلواه بالمرض ونحوه فليقل: «**اللَّهمَّ أحيني إن كانت الحياة خيراً لي...**» إلى آخره، والأفضل الصبر والسكون للقضاء»/ صحيح مسلم: 7/17، 8.

الحديث السابع

سؤال الله تعالى التقوى والاستعاذة به مما يخدشها

عن زيد بن أرقم ﷺ أن رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهمَّ إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وعذاب القبر، اللَّهمَّ آت نفس تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللَّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»/ صحيح مسلم: 41/17، 42.
الشرح:
لفظ هذا الحديث انقسم إلى ثلاث فقرات، فقرتي الاستعاذة، توسطت بينهما فقرة سؤال الله تعالى تقوى النفس وتزكيتها.
ولذلك فإن عناصر تحليله أربعة: التعريف بالراوي، شرح الفقرات الثلاث الواحدة تلو الأخرى. =

= 1 ـ الراوي: زيد بن أرقم بن زيد الخزرجي، روى عن النبي ﷺ حديثاً كثيراً، وغزا معه سبع عشرة غزوة، وأنزل القرآن الكريم تصديقه لما رفع إلى رسول الله ﷺ مقالة عبدالله بن أبي بن سلول قوله: «ليخرجن من المدينة الأعز منها الأذل»، فأكذبه عبدالله بن أبي، وحلف كاذباً فأنزل الله تصديق زيد.

وها هو يروي قصته كما جاءت في صحيح البخاري: «قال: كنت مع عمي، فسمعت عبدالله بن أبي بن سلول يقول: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون: 7].

وقال أيضاً: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: 8].

فذكرت ذلك لعمي فذكر عمي لرسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبدالله بن أبيّ وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني.

فأصابني هم لم يصبني مثله، فجلست في بيتي فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ - إلى قوله -: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ - إلى قوله -: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ فأرسل إلي رسول الله ﷺ فقرأها عليّ ثم قال: «إن الله قد صدقك»/ صحيح البخاري: 646/8.

والمعنى: يقول المنافقون لأصحابهم لا تنفقوا على المهاجرين حتى يتفرقوا عن رسول الله ﷺ ويبقى وحده، والأعز قصدوا به أنفسهم والأذل قصدوا به المؤمنين.

توفي زيد سنة (66هـ/667م) أو ثمانية وستين/ الإصابة: 560/1، والاستيعاب بهامش الإصابة: 556/1، 558.

2 ـ **الفقرة الأولى: قوله ﷺ: «اللّهمَّ إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر».**

هذه الفقرة أخرجها البخاري، وكررها خمس مرات مع اختلاف أحياناً في ألفاظها وزيادة/ صحيح البخاري: 176/11، 178.

في هذه الفقرة علمنا الرسول ﷺ الاستعاذة بالله والاحتماء به من ستة أضرار تصيب الإنسان حفظنا الله منها وجنبنا شرورها: سبق الحديث عن عذاب القبر في الكلام عن الأدب التاسع من آداب الدعاء الظاهرة، ونشرع الآن في تحليل الخمسة الأخرى متابعة لمنهجه ﷺ.

أ ـ العجز: هو ترك الأمر المطلوب القيام به لعدم القدرة عليه لمرض أو إكراه أو كبر ونحوه، ويكون الإنسان في هذه الحالة محتاجاً إلى المساعدة والإعانة.

وهذا العجز بالنسبة للعبادات فإن الله ﷻ يسر للمؤمن القيام بها في حدود استطاعته وبالنسبة لأموره الأخرى في شؤون الحياة الدنيوية، فإنه وإن كان يجد عنتاً وصعوبة وألماً، فإنه مثاب مأجور على ذلك، ويبشره الله بالجنة إن كان من الصابرين=

= المحتسبين، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: 155].

وأخرج البخاري عن عبدالله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يصيبه أذى ـ مرض فما سواه ـ إلا حط الله سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»/ صحيح البخاري: 10/123.

ب ـ الكسل: الأمر الثاني الذي استعاذ الرسول ﷺ وعلمنا الاستعاذة منه هو الفتور والتواني والتواكل، وضده النشاط والحيوية والجدّ والاجتهاد، وهو ترك الشيء مع القدرة عليه.

وهو صفة ذميمة مناقضة لمقصد الشارع فيما أوجبه علينا وحتمه للقيام بالواجبات وامتثال أوامره في العبادات وغيرها مما هو مفروض علينا أو مندوب أو مباح.

وقد عدّ القرآن الكريم الكسل صفة من صفات المنافقين فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142].

فالكسل هو ضد الأخذ بالأسباب والتوكل على الله تعالى في كل ما يروم العبد إنجازه، وقد أمر به تعالى فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23].

وقال جل شأنه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: 11].

وقال أيضاً: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

ويكفي حب الله تعالى للمتوكل المجد المجتهد سواء في طلبه للعلم، أو في عباداته، أو صلاحه أو علاجه أو في طلب رزقه ونحو ذلك من مختلف الأعمال.

وقد ضرب لنا الرسول ﷺ المثل بالطير في توكله على الله طلباً لرزقه في حديث عمر بن الخطاب ﷺ عند الحاكم عن النبي ﷺ قال: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتعود بطاناً». هذا حديث صحيح الإسناد لم يخرجه البخاري ومسلم/ المستدرك ـ كتاب الرقاق رقم: 7894.

ج ـ الجبن: ضد الشجاعة وهو الخوف على النفس مما قد يلحقها من ضرر أو أذى في الجهاد في سبيل الله أو الدعوة إلى الحق والصلاح أو الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، ونحو ذلك من المواقف التي تتحتم فيها الشجاعة، وعدم الجبن وترك الخوف، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78].

والرسول ﷺ قدوتنا فقد أخرج البخاري عن أنس ﷺ قال: (كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس، لقد فزع أهل المدينة، فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس وقال: وجدناه بحراً، أي: كثير الجري)/ صحيح البخاري: 10/455. =

= وقال في حديث جبير بن مطعم بن عدي ﷺ (ت58 أو 59هـ/659م) «لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»/ صحيح البخاري: 35/6.

فالجبن رذيلة ومعصية لما يترتب عليه من الشرور التي تصيب الأمة في دينها ووحدتها أو أمنها أو سلامتها أو عزتها أو مجدها وكل حياتها ومقوماتها، ولذلك علمنا الرسول ﷺ التعوذ منه.

وفي الاحتماء بالله من مضاره أمرنا بالشجاعة في إحقاق الحق وإزهاق الباطل ونصرة الأمة والثناء على الشجاع.

د ـ البخل: هو ترك أداء الواجب، كمنع إخراج الزكاة، والحقوق المترتبة على الذمة، أو ترك المندوبات مثل نوافل الخير، عبادات أو غيرها ولذلك علمنا الرسول ﷺ الاحتماء بالله من شره دنيا وأخرى.

وقد اختلف فيه هل هو مرادف للشح، أو هما بمعنى واحد؟

وقيل: إن الشح هو البخل مع الحرص حفظنا الله من شرورهما الكثيرة التي ذكرها القرآن الكريم ومنها: منع إخراج الزكاة الواجبة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: 180].

وأخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية الكريمة بعد قوله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة، شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية/ صحيح البخاري: 262/3.

(الشجاع): ذكر الحيات، أقرع، أبيض رأسه من السم ـ الزبيبتان: قيل: قرنان.

والسعادة والفلاح في الكرم، وإعطاء الحقوق لأهلها قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿16﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿17﴾﴾ [التغابن: 16 ـ 17].

هـ ـ الهرم: الذي تعوذ به الرسول ﷺ وعلمنا التعوذ منه هو الزيادة في كبر السن والخرف، الذي عبر عنه القرآن الكريم في قوله جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: 70].

أفادت الآية الكريمة أن من وصل إلى أرذل العمر، أي: أسوأه وأرداه يرجع إلى حالة الطفولة، فلا يعلم ما كان علمه وتعلمه من الأمور لضعف عقله وقوته.

وقد قيل: إن هذا لا يكون للمؤمن، لأنه لا ينزع عنه علمه، ولا ما حفظه، وخاصة القرآن الكريم. =

= وقيل: المراد بالعلم في هذه الآية العمل لعدم قدرة الهرم عليه، إذ تأثير الكبر في عمله أبلغ من تاثيره في علمه.

فعلى المؤمن أن يرغب إلى ربه، ويضرع إليه في رفع ما نزل به، ودفع ما لم ينزل، لأنه مفتقر إليه في جميع ذلك، وكان النبي ﷺ يتعوذ من جميع ما ذكر دفعاً عن أمته ما يضرها ويسيء إليها، وتشريعاً لهم كي يبين لهم صفة المهم من الأدعية حتى لا يغفلوا عنها/ الجامع لأحكام القرآن: 140/10، وفتح الباري: 176/11.

3 ـ **الفقرة الثانية**: في هذه الفقرة طلب تحصيل تقوى النفس وتزكيتها، فقال ﷺ داعياً ربه، ومعلماً أمته أفضل الأدعية، وأنفعها لهم في صلاح الدين والدنيا: «**اللَّهمَّ آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**».

قوله ﷺ: «**آت نفسي تقواها**» تقوى النفس: الخشية من الله تعالى والخوف من عقابه بالبعد عن ارتكاب المعاصي، والرجاء في نيل فضله ونعمه الوافرة التي لا تحصى، وطلب رضاه.

وقد مر الكلام عنها في الحديث الثالث عند قوله ﷺ: «**إني أسألك الهدى والتقى**».

وقوله ﷺ: «**وزكها أنت خير من زكاها...**»، أي: طهّر النفس من الآثام والذنوب والخطايا والأخلاق الرذيلة وكل سوء، فإنه لا مطهر لها إلا أنت بتوفيقك وتعاليمك فأنت خالقها وولي أمرها ترعاها وتحفظها، وتصلح شؤونها وأمورها، وأنت المالك لها المتصرف فيها، وقد رتبت الفلاح على تطهيرها وتزكيتها، والخسارة والخيبة على تلوثها، فقلت وقولك الحق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: 9 ـ 10].

أي: فاز وسعد من زكى نفسه وطهرها بالطاعة، وخسر وخاب من دس نفسه إلى المعصية، والأصل دسسها من التدسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء، فأبدلت السين ياء/ الجامع لأحكام القرآن: 77/2.

وقوله ﷺ: «**خير من زكاها**» فخير ليست للتفضيل بل المعنى لا مزكي لها إلا أنت كما قال: أنت وليها/ شرح النووي لمسلم: 41/17، 42.

4 ـ **الفقرة الثالثة من الأدعية في الحديث الشريف**: الاستعاذة من أربعة أمور حفظنا الله منها:

الأمر الأول قوله ﷺ: «**اللَّهمَّ أعوذ بك من علم لا ينفع**» العلم غير النافع الذي نسأل الله تعالى أن يبعدنا عنه وأن يحفظنا من الاقتراب منه اقتداء بنبينا محمد ﷺ هو العلم الذي يهدم الصلاح وينشر الفساد في العقائد والعبادات والسلوك والأخلاق، يجعل العبد منحرفاً عن السير في الطريق المستقيم.

ومن تلك العلوم المنحرفة علم الشعوذة وعلم السحر، الذي شهد له القرآن الكريم=

= بأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين، فقال تعالى: قاصًا عليها ترك اليهود العمل بالتوراة التي جاء فيها الأمر بالتصديق بنبينا محمد ﷺ واتباعهم تعلم السحر. قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾ [البقرة: 102]/ الإحياء: 29/1 ـ 31.

الأمر الثاني: الذي استعاذ منه نبينا الكريم ﷺ ونبهنا إلى الاحتماء بالله منه: القلب الذي لا يخشع.

والقلب هو محل الخشوع، الذي هو هيئة في النفس يظهر منها في جوارح المؤمن سكون وتواضع.

ولذلك لما نظر عمر بن الخطاب ﷺ إلى شاب يصلي نكس رأسه قال له: (ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب).

فخشوع القلب هو الخشوع المحمود، لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خضوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه.

وقد مدح الله تعالى المؤمنين الخشع في صلاتهم، وبشرهم بالفلاح والنجاح فقال جل شأنه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: 1 ـ 2].

وفقنا يا ربنا إلى تركيز هذه الصفة الحميدة في قلوبنا وأبعد علينا الرياء والمرائين آمين/ الجامع لأحكام القرآن: 374/1، 375.

الأمر الثالث المستعاذ منه بالله: النفس الجشعة التي لا تشبع، وهواها الحرص والطمع والشره والتعلق بالآمال الدنيوية البعيدة ونحوها من المهلكات التي لا حدود لها، ولم تتعظ وتعتبر بما أعده الله لصاحبها من العذاب عكس النفس القنوعة المطمئنة قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: 37 ـ 41].

وقد أخبر الرسول ﷺ بتعاسة وشقاء عباد الأموال، فقال عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري: **«تعس عبد الدينار والدرهم، والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض»/** صحيح البخاري: 253/11.

القطيفة والخميصة: نوعان من الأكسية.

الأمر الرابع المستعاذ منه الرسول ﷺ ودعوة أمته إلى التحصن بالله تعالى منه:=

= الدعوة التي لا تستجاب، كالأدعية المنهي عنها، وقد سبق الحديث عنها في باب الأدعية الممنوعة المحرمة، ومثلها الاستعجال من الله تعالى بإجابة الدعاء.

وفي هذا السياق جاء حديث أبي هريرة ﷺ عند مسلم أن النبي ﷺ قال: «**يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، وما لم يستعجل**».

قيل: يا رسول الله: ما الاستعجال؟

قال: «**يقول: قد دعوت: وقد دعوت فلم أر يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك، ويدع الدعاء**»/ صحيح مسلم: 17/52.

وفي هذا الحديث أدب من آداب الدعاء، وهو أن الداعي يلازم الطلب، ولا ييأس من الإجابة لافتقاره لله تعالى، ولا سيما أن الأحاديث دلت على أن دعوة المؤمن لا ترد، وأنها إما أن تعجل له الإجابة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها، وإما أن يدخر له في الآخرة خير منها.

فقد روى الحاكم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها)/ المستدرك رقم: 16، 17، فتح الباري: 11/96 ـ 141.

الحديث الثامن

الاستعاذة بالله من الفتن وطلب المغفرة منه

عن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول: **اللَّهمَّ إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال**».

«**اللَّهمَّ اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب**»/ صحيح البخاري: 11/176.

الشرح:

تحليل معاني الحديث يقتضي تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: التعريف بالراوية ـ فقرة التعوذ ـ فقرة الدعاء بغسل الخطايا.

1 ـ **التعريف بالراوية**: أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق ﷺ، **فهي** الصديقة بنت أبي بكر الصديق ﷺ، ولدت في الإسلام قبل الهجرة بثماني سنوات أو نحوها.

تزوجها الرسول ﷺ وهي بنت ست، ودخل بها وهي بنت تسع، وكانت أحب=

= أزواجه إليه، حتى أنهن طلبن منه العدل بينهن فكان جوابه ﷺ: «إنها ابنة أبي بكر»/ صحيح مسلم: 15/205 ـ 207.

وجاء عن أنس بن مالك ﷺ عند البخاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»/ صحيح البخاري: 7/106، 107.

وقال مخاطباً زوجته أم سلمة هند بنت أمية ﷺ (ت59هـ/660م): «لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها»/ المصدر السابق.

وقالت عائشة: (فضلت بعشر، فذكرت: مجيء جبريل بصورتها، ولم ينكح النبي بكراً غيري، ولا امرأة أبواها مهاجران غيري، وأنزل الله براءتي من السماء، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي، وكنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه، وقبض بين سحري ونحري، مستند إلى صدري، في بيتي وفي ليلتي، ودفن في بيتي/ الإصابة: 4/59 ـ 61.

صحبت عائشة ﷺ الرسول ﷺ سفراً وحضراً، وشاهدت وعلمت ما لم يطلع عليه غيرها، فكانت أعلم نساء الأمة، ذات الرأي الصائب في الفتوى والاستنباط، وقد ملأت أقوالها وفتاويها كتب الصحاح، وهي إحدى المكثرين لرواية حديث النبي ﷺ وقد أخذ عنها المئات مروياتها من كبار الصحابة والتابعين ﷺ.

توفيت سنة (658 أو 650)/ صحيح البخاري بفتح الباري: 7/106 ـ 109، صحيح مسلم: 15/202 ـ 211، الإصابة: 4/359 ـ 361، الاستيعاب: 4/356 ـ 361.

2 ـ فقرة التعوذ: جاء فيها استعاذة الرسول ﷺ من أحد عشر أمراً تواضعاً منه وهو المعصوم، وتعليماً لأمته، وتحريضاً لهم على طلب الحماية من الله تعالى مما ينجز عن تلك الأمور من مضار وشرور.

● الأول والثاني: قوله ﷺ: «اللَّهمَّ إني أعوذ بك من الكسل والهرم» وقد مرّ بيان هذين في الحديث السابع المتقدم في قوله ﷺ: «اللَّهمَّ إني أعوذ من العجز... والهرم».

الثالث: الاستعاذة من المأثم: المأثم هو كل اعتقاد خاطىء أو قول أو عمل أو خلق فيه مخالفة لأوامر الله تعالى أو نواهيه، يؤاخذ عليه العبد، ويترتب عليه إنجازاً وعد الله بمعاقبة العاصين وعذاب المجرمين لعدم امتثال أمره بوجوب ترك الآثام كلها، ظاهرها وباطنها، سواء تعلقت بحقوقه جل شأنه، أو بحقوق عباده، فقال جلت حكمته: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: 120]. =

= ظاهر الإثم وباطنه: علانيته وسره.
والإثم: قيل: الزنا، وقيل: كل معصية/ تفسير الجلالين: 167/1.
وقال تعالى في تحريم أكل أموال الناس بالباطل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: 188].
وقال جل شأنه في تحريم كتمان شهادة الحق التي يترتب عليها ضياع الحقوق: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: 283].
وتبعاً لما ينجم عن هذه المآثم على تنوعها واختلافها من المفاسد استعاذ الرسول ﷺ بالله من أي إثم، وعلمنا هذا الدعاء لنعمل به اقتداء بسنته، واجتناباً لعقاب ربنا ﷻ.
الرابع: الاستعاذة بالله من المغرم فإن معناه الغرامة، وما يلزم الشخص أداؤه كالدين الذي ينجر عن الاقتراض فيما يجوز من المباحات وفيما لا يجوز من المحرمات، والعجز عن تسديده والوفاء به للدائن.
وفي حديث أنس بن مالك ﷺ استعاذ الرسول ﷺ كذلك من الدين بعد استعاذته من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل قال ﷺ: «وضلع الدين»/ صحيح البخاري: 178/11.
الضلع أصله: الاعوجاج، والمراد به هنا ثقل الدين وشدته، حيث لا يجد المدين الوفاء بدينه مع المطالبة به والإلحاح عليه/. فتح الباري: 174/11.
وجاء في حديث عائشة ﵂ في رواية للبخاري أن عائشة سألته عن المغرم قائلة: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم؟ فقال ﷺ: «إن الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف»/ صحيح البخاري: 317/2.
فقد بين ﷺ أن من بين المضار الاستعاذة بالله من الدّين لما يترتب عليه من الكذب وخلف الوعد.
الأمر الخامس والسادس: الاستعاذة من فتنة القبر وعذاب القبر: سبق الحديث عنهما في الأدب التاسع الظاهري للدعاء، في دعاء التشهد قبل السلام.
الأمر السابع والثامن: المستعاذ بالله منهما: قوله ﷺ: «ومن فتنة النار وعذاب النار» والاحتماء بالله من فتنة النار، وهي فتن كثيرة منها سؤال الخزنة للكفار والمجرمين على سبيل التوبيخ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: 8].
أما عذاب النار وهو الجزاء الرباني المؤجل لمن وضعتهم معاصيهم في أتونها. =

= فهذه النار التي تعددت أسماؤها: النار ـ لظى ـ السعير ـ جهنم ـ هي مثوى الكافرين بالله والمستكبرين عن طاعته وعبادته، وأنها منازل ودرجات تتناسب مع مستوى الخطيئة والمعصية، فمن ذلك قوله تعالى عن درجة المنافقين في عذابهم بناره: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145].

وأن هذه جهنم أعاذنا الله منها لن يخلد فيها إلا الكافرون كما جاء في عشرات الآيات القرآنية، أما العصاة والمذنبون من الأمة المحمدية فيقضون فيها مدة حسب سيئاتهم.

فقد أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة وأهل النار يقول الله: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه**»/ صحيح البخاري: 11/416، 417.

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7، 8].

فالإيمان خير يلاقي المؤمن الجزاء عليه، لكن بعد تطهيره بالعذاب الذي يسبق الدخول إلى الجنة.

الأمر التاسع: الذي علمنا الرسول ﷺ الاستعاذة بالله منه قوله: «**ومن شر فتنة الغنى**»: قيد رسولنا الكريم ﷺ فتنة الغنى بالشر، لأن الغنى ليس شراً كله، فهو من النعم الجليلة إذا أدى مالكه حقوق المال وما على صاحبه من واجبات والتزامات.

وفتنة الغنى المرادة هنا هي كما نقل الحافظ ابن حجر عن أبي حامد الغزالي: الحرص على جمع المال وحبه وكسبه ولو من غير حله، ومنعه من واجبات إنفاقه وحقوقه/ فتح الباري: 11/177.

الأمر العاشر: المستعاذ منه بالله قوله ﷺ: «**وأعوذ بك من فتنة الفقر**» وفتنته هي ـ كما نقل ابن حجر عن الغزالي ـ الفقر المدقع الذي لا يصحبه خير ولا ورع، ويتورط صاحبه بسببه فيما لا يليق بأهل الدين والمروءة، وتدفعه فاقته إلى أي حرام كان، وقيل: المراد به فقر النفس الذي لا يرده ملك الدنيا بحذافيرها.

الأمر الحادي عشر: المستعاذ منه قوله ﷺ: «**وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال**» لقد تقدم الكلام عن هذا في أدب الدعاء التاسع الظاهري في دعاء التشهد قبل السلام.

3 ـ الفقرة الثانية في هذا الحديث الشريف قوله ﷺ: «اللَّهمَّ اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد...».

اشتمل هذا الدعاء على طلب الرسول ﷺ لثلاثة أشياء: مسح الخطايا ـ تنقية القلب منها ـ إبعادها عنا. =

= الشيء الأول: قوله ﷺ: «اللَّهمَّ اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد»: الخطايا جمع خطيئة هي الإثم والذنب أو المعصية التي اقترفها العبد وتشمل الصغائر والكبائر، وتكون سبباً في شقائه وغضب الرب عليه.

فعلمنا رسولنا الكريم هذا الدعاء الذي نتوجه به إلى المنعم علينا الرحيم بنا بعد التوبة والإقلاع عن المعاصي، أن يغسل الخطايا المسجلة في صحائف أعمالنا غسلاً دقيقاً جيداً، بحيث لا يبقى أي أثر لها، وهذا الغسل الجيد يكون بماء الثلج والبرد.

والحكمة في العدول عن الغسل بالماء الحار إلى الثلج والبرد مع أن الماء الحار أبلغ في إزالة الأدران والأوساخ. الحكمة في ذلك الإشارة إلى أن الثلج والبرد ماءان طاهران لم تمسهما الأيدي، ولم يمتهنهما الاستعمال فكان ذكرهما أبلغ في هذا المقام، كما جاء في تفسير الخطابي سليمان البستي (ت388هـ/979م).

وقال الكرماني محمد بن يوسف (ت786هـ/1365م): الحكمة في ذلك: أنه جعل الخطايا بمنزلة النار لكونها تؤدي إليها، فعبّر عن إطفاء حرارتها بالغسل تأكيداً في إطفائها، وبالغ فيه باستعمال المبردات ترقياً من الماء إلى أبرد منه وهو الثلج، ثم إلى أبرد منه وهو البرد، بدليل أنه قد يجمد ويصير ثلجاً بخلاف الثلج، فإنه يذوب/ فتح الباري: 11/177، 178.

إن طلب العبد من مولاه مسح ذنوبه وخطاياه ليس معناه أن لا يعمل، ويقتصر على الدعاء فقط.

ومن أكبر الأعمال الماسحة للمعاصي وغسلها من صحف الأعمال المواظبة على الصلوات الخمس بأركانها وشروطها ومندوباتها في أوقاتها، فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول؟ ذلك يبقى من درنه؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيئاً.

قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا»/ صحيح البخاري: 2/11.

وقد نقل الحافظ ابن حجر عن محمد بن العربي المعافري المالكي الإشبيلي (ت543هـ/1129م) في شرحه لهذا الحديث في بعض كتبه: وجه التمثيل لغسل الصلاة للخطايا بالماء والثلج والبرد بتنظيف البدن وتطهيره بالماء من الملوثات والأوساخ: وجه التمثيل أن المراد: كما يتدنس البدن والثياب بالأقذار ويقع تطهيرهما بالماء: فكذلك الصلوات الخمس تطهر العبد من الذنوب والآثام/ فتح الباري: 2/11، 12.

الشيء الثاني: قوله ﷺ: «ونقّ قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من=

= الدنس» هذا تأكيد للطلب من الله ﷻ تنقية القلب وتصفيته من أي معصية، مثلما توفق عبادك في غسل أحدهم ثوبه الأبيض الخالص، غسلاً جيداً إذا خالطه وسخ فلا يبقى له أي أثر.

الشيء الثالث: هو قوله ﷺ: «وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب».

فبعد التضرع إلى الله تعالى في غسل الخطايا، وتنقية القلب من آثارها يأتي الدعاء الثالث في الضراعة إليه تعالى بطلب المباعدة بينه وبين خطاياه.

هذه المباعدة التي ليس لها مثيل في نوعها أبداً، فما أبعد مشرق الشمس عن مغربها، ولن يقتربا أبداً، ولن يتحول المشرق مشرقاً، ولا المغرب مشرقاً إلا عند اختلال نظام هذه الحياة بإذنه تعالى عند قيام الساعة، فلا بقاء للأرض ولا للشمس ولا الكواكب والنجوم على أوضاعها كما هي الآن قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ [الانفطار: 1، 2] والانفطار: الانشقاق والتساقط.

وقد استشكل العلماء دعاء الرسول ﷺ في هذه الفقرة أو في غيرها، وهو المعصوم من الأخطاء مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكيف يطلب من الله غسل أخطائه؟

وأجيب عن ذلك بأجوبة ثلاثة:

أحدها: قصد التعليم لأمته.

وثانيها: أن المراد السؤال منه لأمته ليس له: فيكون المعنى: أطلب منك لأمتي.

ثالثها: سلوك الرسول ﷺ طريق التواضع، وإظهار العبودية لله تعالى والخوف منه وتعظيمه والافتقار إليه، وامتثال أمره في الرغبة إليه.

هذا ومن جهة أخرى فإنه لا يمتنع تكرار الطلب من الله تعالى مع تحقق الإجابة، لأن ذلك يضاعف الحسنات ويرفع الدرجات وفيه أيضاً - تحريض لأمته على ملازمته/ فتح الباري: 2/319.

قال الصنعاني الأمير محمد بن إسماعيل (ت852هـ/1435م): إيراد هذا الإشكال من الفضول، لأنه ﷺ أخبر أنه يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة في حديث البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»**/ صحيح البخاري: 11/101.

وعلمنا الاستغفار، فعلينا التأسي به والامتثال إليه، لا إيراد السؤال والإشكال، ويكفينا كونه ذاكراً الله على كل حال، وهو مثل طلبنا للرزق، وقد تكفل به، وعلمنا الدعاء بطلبه في قوله جل شأنه: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: 114]، وكله تعبد وذكر الله/ سبل السلام: 4/220. =

=

الحديث التاسع

دعاء النبي ﷺ في جوف الليل إذ قام إلى الصلاة

عن عبدالله بن عباس ﷺ (أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول: «**اللَّهمَّ لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيّام السماوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن**».

«**أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق ولقاؤك حق، والجنة حق والنار حق، والساعة حق، اللَّهمَّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وأسررت وأعلنت أنت إلٰهي لا إلٰه إلا أنت**»/ الموطأ بهامش المنتقى: 358/2، ومسلم بشرح النووي: 54/6، 55، وصحيح البخاري: 116/11.

الشرح:

هذا اللفظ للحديث هو رواية مالك في الموطأ، ورواية مسلم، أما رواية البخاري له ففيها اختلاف عنهما في بعض الألفاظ أو زيادة، وسيقع التنبيه على ذلك عند شرح ألفاظ الحديث.

يقتضي شرح ألفاظ الحديث وبيان معانيه تقسيمه إلى أربع فقرات تبعاً لذلك، هي: التحميد والثناء على الله تعالى ـ التصديق والإقرار بما جاء فيه من المعتقدات ـ الخضوع لله تعالى والاعتماد عليه، الدعاء والضراعة إليه بطلب المغفرة.

● **الفقرة الأولى**: التحميد والثناء على الله تعالى: (أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول: **اللَّهمَّ لك الحمد أنت نور السماوات والأرض**» وزيد في لفظ البخاري: «**ومن فيهن**».

ولفظ البخاري: «**إذا قام من الليل يتهجد**» والتهجد: السهر بعد النوم، وأصل الهجود النوم ومعنى تهجدت: طرحت النوم وأبعدته/ القاموس المحيط: 347/1، فتح الباري: 3/3، 4.

وقوله ﷺ: «**اللَّهمَّ لك الحمد أنت نور السماوات والأرض**»: وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35].

اختلف العلماء في تأويل معنى الآية والحديث، ومن تفسيراتهم: أن السماوات والأرض أنيرت أضواؤها واستقامت أمورها، وقامت مصنوعاتها بقدرته تعالى.

وقيل: المعنى: مدبر الأمور في السماوات والأرض، وقيل: مزين السماوات بالشمس والقمر والنجوم ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين.

وقيل: هادي السماوات والأرض، بإنارة قلوب المؤمنين.

والنور بمعنى الهداية، أي: أن الله تعالى هاد بنوره أهل السماوات والأرض/ الجامع=

= لأحكام القرآن: 12/256، 257، والمنتقى: 1/358، وشرح النووي لمسلم: 6/54.
قوله ﷺ: «ولك الحمد أنت قيام السماوات والأرض» وفي لفظ البخاري: «قيم».
قال العلماء من صفاته تعالى: القيّام والقيّم كما جاء في هذا الحديث والقيّوم بنص القرآن: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 2] هو كما قال عبدالله بن عباس ﷺ الذي لا يزول، أي: الدائم حكمه فيهما وتدبيره لهما.
ولكن إذا قلنا: القيوم هو القائم على كل شيء فيحتمل أن يكون من قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: 33].
قيل: معناه يحافظ على كل نفس لا يغفل ولا يموت فيكون معناه إنه حافظ السماوات والأرض/ الجامع لأحكام القرآن: 3/271، والمنتقى: 2/358، وشرح النووي لمسلم: 6/54، 55.
قوله ﷺ: «ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن» لا توجد هذه المقولة الشريفة عند البخاري.
«رب»: الرب سبق الكلام عن بعض معانيه أثناء تحليل الحديث الرابع: «سيد الاستغفار».
فرب السماوات والأرض ومن فيهن مالكهم، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، ويحتمل على قول بعض المفسرين أن يكون المعنى السيد ـ وهو المعنى الثاني ـ فيقال: سيد السماوات والأرض ومن فيهن.
وقد أنكر مالك ﷺ الدعاء بسيدي، لأنه لا يصح أن يقال: سيد الجبال والشجر/ المنتقى: 2/358، والجامع لأحكام القرآن: 1/136، 137، وشرح النووي لمسلم: 6/55.
● الفقرة الثانية: الإيمان والإقرار والتصديق بهذه العقائد من قوله ﷺ: «أنت الحق ـ إلى قوله ـ: والساعة حق».
قوله ﷺ: «أنت الحق» أنت يا الله الحق الموجود الثابت الذي لا يزول ولا يتغير، ولا يجوز إنكاره والواجب إثباته واعتقاده بالبراهين القاطعة التي دلت على ذلك ولا تقبل الطعن في صدقها.
قوله: «وقولك الحق»، أي: المتحقق الثابت بدون شك الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: 42]، أي: كله حق متحقق لا شك فيه.
وهو القول المقدس الفاصل بين الحق والباطل كما علمنا ربنا في كتابه الكريم وصدقنا به في قوله جل من قائل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق: 11 ـ 14]. =

= قوله ﷺ: «ووعدك حق» سقطت من لفظ البخاري هي: «وقولك الحق» المتقدم.
وعد الله حق، لأنه يفي به ولا يخلفه كما أخبر بذلك في قوله جل من قائل: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: 20].
وقيل: المراد به قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ [إبراهيم: 22]، أي: وعد الجنة لمن أطاعه ووعد النار لمن كفر به.
وقيل: يحتمل أن يقصد به قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: 33].
أي: إثبات أنه قد وعد بالبعث والحشر والنشر والثواب والعقاب، إنكاراً لقول من أنكر وعده بذلك، وكذب بالرسل ﷺ فيما بلغوه من وعده ووعيده/ المنتقى: 358/2، شرح النووي لمسلم: 54/6.
قوله ﷺ: «ولقاؤك حق»، أي: الإقرار بالبعث بعد الموت، وهو مآل المخلوقات جميعاً في الدار الآخرة للحساب والجزاء على الأعمال، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 223].
قوله ﷺ: «والجنة حق والنار حق» إشارة إلى أنهما موجودتان حقاً وجزماً لا شك في ذلك ولا ارتياب، وقد زيد في لفظ البخاري: «والنبيون حق ومحمد حق».
خص الله سيدنا محمداً ﷺ بالذكر تعظيماً له وعطفه على الأنبياء إعلاماً بأنه فضله عليهم بأوصاف مختصة به/ فتح الباري: 3/4.
قوله ﷺ: «والساعة حق» لا شك فيها مثلما أخبرنا بذلك القرآن الكريم في قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ۝﴾ [الحج: 6 ـ 7].
وإطلاق لفظ الحق على ما ذكر في الحديث الشريف معناه، أنها حق وصدق وأنها مما يجب التصديق بها.
وتكرار لفظ: «حق» للمبالغة في التأكيد على حتمية اعتقادها والتصديق بها/ فتح الباري: 3/4.
● الفقرة الثالثة: من قوله ﷺ: «اللَّهمَّ لك أسلمت» إلى قوله: «وبك خاصمت» سبق بيانها في الحديث الثاني لابن عباس عند مسلم.
قوله ﷺ: «وإليك حاكمت» والمعنى أن كل من جحد الحق حاكمته إليك، وجعلتك يا إلٰهي أنت الحكم بيننا، فلا أرضى إلا بحكمك ولا أعتمد غيره/ فتح الباري: 5/3، وشرح النووي لمسلم: 55/6، 56.
وقوله ﷺ: «فاغفر لي ما قدمت...» إلى آخر الحديث، فقد سبق بيانه في الباب الثامن عند تحليل الحديث الأول الذي ذكره القرافي في رواية مسلم عن أبي موسى الأشعري وعبدالله بن قيس ﷺ. =



= وقد نقل الحافظ ابن حجر عن شمس الدين محمد بن يوسف الكرماني (ت789هـ/1269م) نقل عنه قوله في شرحه لهذا الحديث: إنه من جوامع الكلم لتضمنه الإشارة إلى الحقائق التالية:

«فلفظ: القيم يشير إلى أنه المالك للسماوات والأرضين والقائم عليها تنويراً وتدبيراً ورعاية وحفظاً وكل شؤونهما يفعل في ملكه ما يشاء، وكل ذلك من نعمه تعالى على عباده، ولهذا قرن ذلك بالحمد وخص الحمد به».

وقوله: «**أنت الحق**» إشارة إلى النبوة والجزاء ثواباً وعقاباً، والإشارة إلى وجوب الإيمان والإسلام والتوكل والإنابة والخضوع والتضرع لله تعالى/ فتح الباري: 3/4.

وأضاف ابن حجر: «إن في الحديث زيادة معرفة النبي ﷺ بعظمة ربه وعظيم قدرته ومواظبته على الذكر والدعاء والثناء على ربه، والاعتراف له بحقوقه والإقرار بصدق وعده ووعيده، وتقديم الثناء عليه عند كل مسألة، وعلينا الاقتداء به ﷺ»/ المصدر السابق.



الباب التاسع
طرف يسير من
أدعية السلف الصالح

ذكر فيها طرفاً يسيراً من أدعيتهم(1):

(1) هذا الطرف اليسير من الأدعية المأثورة عن السلف الصالح وهم الصحابة رضوان الله عليهم/ شرح زروق على الرسالة: 309/1.
وهذا الطرف اليسير لم يذكر منه الناسخ للكتاب أو المملى عليه، ولو دعاءً واحداً.
وقوله: «طرفاً يسيراً»: معناه عدداً قليلاً من تلك الأدعية.
وسداً لهذا النقص، وملء الباب التاسع، ليكون الكتاب كاملاً فإني سأذكر فيه أربعة من أدعية السلف الصالح علمهم الرسول ﷺ الدعاء بها أذكرها في الهامش مع شرح بسيط بدءاً بالحديث الأول لعائشة رضي الله عنها.

الحديث الأول

حديث عائشة رضي الله عنها سؤالها الخير كله عاجله وآجله

روى ابن ماجه والحاكم وصححه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ علمها هذا الدعاء: **«اللَّهمَّ إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، اللَّهمَّ إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك وأعوذ بك من شر ما عاذ منه عبدك ونبيك، اللَّهمَّ إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيراً».**
هذا اللفظ لابن ماجه مع اختلاف يسير في رواية الحاكم، سنن ابن ماجه كتاب=

= الدعاء باب الجوامع من الدعاء رقم: 3846 والمستدرك كتاب الدعاء والتكبير والتهليل رقم: 1914.

الشرح:

تضمن هذا الحديث الشريف الذي علمه الرسول ﷺ لزوجته أم المؤمنين عائشة ﵂ لتبلغه إلى أمته أربعة أدعية من جوامع كلمه ﷺ وكل دعاء جاء فيه أمران، طلب واستعاذة ما عدا الأخير، وقد سبق التعريف بالسيدة عائشة ﵂.

● **الدعاء الأول: قوله ﷺ: «اللَّهمَّ إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله» إلى قوله: «وما لم أعمل»** الطلب في هذا الدعاء هو لكل خير دنيا وأخرى، العاجل في الدنيا والآجل في الآخرة، وهو المعنى المراد للحسنة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: 201].

لما جاء عن أنس بن مالك ﵁ إن إخوانه سألوه أن يدعو لهم فقال: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الآية، ثم قال: إذا آتاكم الله ذلك فقد آتاكم الخير كله/ فتح الباري: 11/191.

وقال القاضي عياض: إنما كان النبي ﷺ يكثر الدعاء بهذه الآية لجمعها معاني الدعاء كله من أمر الدنيا والآخرة.

والخير المطلوب في هذا الدعاء عام شامل لكل خير دنيوي وأخروي فطن إليه العبد أو لم يفطن به.

وخير الدين كثير لا يحصى ومنه الصحة والعافية والزوجة الصالحة والأولاد البارون والرزق الواسع، والعلم النافع والعمل الصالح، والثناء الجميل إلى غير ذلك من النعم المستعصية عن الحصر.

أما الاستعاذة فهي طلب الاحتماء بالله تعالى وحفظه من كل شر مهما كان نوعه معجلاً في الدنيا كالأمراض والشدائد، والمعاصي أو مؤجلاً في الآخرة ابتداءً بسوء الخاتمة وانتهاءً بعذاب النار.

حفظنا الله من شرور الدنيا والآخرة، ووفقنا إلى الاستعاذة به من ذلك تصديقاً لقوله جل شأنه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: 1 ـ 2].

● **الدعاء الثاني قوله ﷺ لعائشة ﵂: «اللَّهمَّ اني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك وأعوذ بك من شر ما عاذ مه عبد ونبيك».**

الطلب في هذا الدعاء سؤال العبد مولاه أن يتكرم عليه ويرزقه من أفضل ما طلبه نبينا محمد ﷺ وجاء في أدعية كثيرة روتها لنا أحاديثه الشريفة الصحيحة كطلب صلاح الدين والدنيا.

أما الاستعاذة بالله والتي علمها الرسول ﷺ لعائشة ﵂ لتبلغها لنا ونتعلمها، وكان=

= عليه الصلاة والسلام يحتمي بالله منها، فهي التحصن من كل شر كالعجز والبخل والكسل والفقر وجهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء وغير ذلك مما ذكر في الأحاديث بالباب التاسع.

● **الدعاء الثالث: قوله ﷺ: «اللَّهمَّ إني أسألك الجنة وما قرّب» إلى قوله: «أو عمل»**: المطلب في هذا الدعاء هو ضراعة العبد إلى مالكه ومنشئه بأن يجعل مآله الأخروي الجنة ونعيمها، وأن يوفقه ويرشده إلى نيلها بالأقوال والأعمال.

والأقوال المقربة إلى نعيم الجنة: الذكر بأنواعه وأرفعه كتاب الله ﷻ، ومثل ذلك الأدعية وقول الحق، والتوبة الصادقة، وكل عمل صالح، أمر به ربنا، يحبه ويرضى عنه.

وملخص الدخول للجنة وما يقرب إليها الإيمان والعمل الصالح، وهما الركنان اللّذان ورد ذكرهما في القرآن الكريم في 62 آية منها قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: 7 ـ 8].

وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ [لقمان: 8 ـ 9].

والاستعاذة بالله في هذا الدعاء هي من عذاب النار، وما يقرب إليها من المعاصي سواء أكانت أقوالاً كالشرك والكفر والنفاق والكذب والباطل والغيبة والنميمة وشهادة الزور، أو كانت تلك المعاصي أعمالاً كترك القيام بالعبادات أو الانهماك في المعاصي كالسرقة والغصب والزنا والاعتداء على الغير بالقتل ونحوه مما ورد النهي عنه ومنعه قرآناً كريماً أو سنة نبوية.

● **الدعاء الرابع: قوله ﷺ: «وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيراً»** في هذا الدعاء سؤال الله تعالى أن يركز في قلب المؤمن الاعتقاد الصحيح والإيمان القوي بأن كل قضاء قضى الله تعالى به للإنسان أن يكون خيراً ولو كان يراه في ظاهره شراً، لأن كل شيء جاء به هو حسن هو خير هو عدل فهو كما أخبر عن نفسه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأعراف: 87].

هذا الحديث من جوامع الكلم كما جاء ذلك في رواية الحاكم أن النبي ﷺ قال: **«يا عائشة عليك بجوامع الكلم»** ولما سألته عنها قال لها: **«قولي: اللَّهمَّ إني أسألك. . . .»** الحديث.

فهو جامع لطلب كل خير عاجل أو آجل، والاستعاذة من كل شر عاجل أو آجل، وسؤال كل خير طلبه الرسول ﷺ والاستعاذة من كل شر تعوذ منه وسؤال الدخول إلى الجنة وكل ما يقرب إليها والاستعاذة من النار وكل ما يقرب إليها، وسؤال العبد مولاه كل قضاء له أن يكون خيراً. =

= وفي الحديث إرشاد لنا وتوجيه إلى تعليم أهلنا الأدعية التي شرعها لنا ربنا في كتابه الكريم أو في سنة نبينا محمد ﷺ اقتداء به فهي الأفضل والخير كله في الاتباع المشروع.

الحديث الثاني
دعاء فاطمة الزهراء رضي الله عنها الاستغاثة بالله
في إصلاح الشأن كله والتغلب على شهوات النفس وأهوائها

أخرج الحاكم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة: «**ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به، أن تقولي: إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**».
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين مسلم والبخاري، ولم يخرجاه ـ المستدرك ـ كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر رقم: 2000.
الشرح:
نتناول في بيان الحديث الشريف عنصرين: التعريف بفاطمة ثم شرح وصية الرسول ﷺ لها، أما التعريف بالراوي أنس بن مالك فقد تقدم.
1 ـ **فاطمة الزهراء:** بنت رسول الله ﷺ أصغر بناته وأمها خديجة الكبرى بنت خويلد رضي الله عنها.
رزق النبي ﷺ بفاطمة في مكة المكرمة، مع اختلاف كتاب السيرة في تاريخ مولدها هل كان قبل بعثة الرسول ﷺ أو بعدها؟
نشأت فاطمة الزهراء رضي الله عنها في بيت النبوة والرسالة وتربت في مهبط الوحي والذكر الحكيم، فتأدبت بأدب أبيها رسولنا الكريم ﷺ الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه وتلقت منه ما يتلقاه من ربه تعالى العلي العظيم فكانت المثل الأعلى في الخلق الرفيع، والطبع السليم، والكمال والجلال والسير على منهاجه الرباني المستقيم.
فهذه المثالية في السمو الروحي والسلوك الرفيع، والتأسي والاقتداء به ﷺ بوأتها مكانة عالية فكانت بذلك سيدة نساء المؤمنين دنيا وأخرى.
فقد أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لفاطمة: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين ـ أو: سيدة نساء هذه الأمة ـ**»/ صحيح مسلم: 6/16 (ت638/36).
وأخرج الحاكم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**نزل من السماء ملك فاستأذن الله أن يسلم عليّ لم ينزل قبلها، فبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة**».
قال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرجاه ـ أي: البخاري ومسلم/ المستدرك، =

= مناقب فاطمة رقم: 4722.

أحبها الرسول ﷺ حباً منقطع النظير، فأخبر أن من أساء إليها قد أساء إليه، وقد جاء هذا في حديث مسلم عن المسور بن مخرمة (64هـ/665م) ﷺ أنه سمع النبي ﷺ وهو على المنبر يقول: «ابنتي بضعة مني - يعني فاطمة - يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها».

وفي رواية للبخاري: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»/ صحيح مسلم: 18/2، وصحيح البخاري: 105/7.

ونقل المحدثان يوسف بن عبدالبر النمري والحافظ أحمد بن حجر العسقلاني من عدة طرق أنه عليه الصلاة والسلام قال: «سيدة نساء أهل الجنة مريم، ثم فاطمة بنت محمد، ثم خديجة، ثم آسيا امرأة فرعون»/ الإصابة (376، 377) والاستيعاب بهامش الإصابة: 276/4، 377.

تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه في السنة الثانية للهجرة وأنجبت منه الحسن والحسين ﷺ.

روت الحديث عن أبيها ﷺ وأخذ عنها ابناها الحسن والحسين وأبوهما وعائشة وأنس بن مالك وغيرهم رضي الله عن جميعهم.

توفيت سنة (11هـ/613م) بعد موت النبي ﷺ بستة أشهر، وقيل غير ذلك، وقيل: إن عمرها أربع وعشرون سنة حسب الروايات.

وقد علمت ﷺ بقرب أجلها بعد موته ﷺ كما جاء ذلك في حديث عائشة ﷺ عند مسلم: (أن رسول الله ﷺ دعا فاطمة فسارّها فبكت، ثم سارّها فضحكت، فقلت - أي عائشة - لفاطمة: ما هذا الذي سارك به رسول الله ﷺ فبكيت، ثم سارك فضحكت؟ فقالت: سارني فأخبرني بموته، ثم سارني فأخبرني أني أول من يتبعه من أهله فضحكت)/ صحيح مسلم: 16/5.

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: هذه معجزة ظاهرة من معجزاته بل معجزتان فأخبر بلقائها بعده، وبأنها أول أهله لحاقاً به.

أما ضحكها فكان سروراً بلحاقها به، وإيثارها الآخرة، وسرورها بالانتقال إليها والخلاص من الدنيا/ صحيح مسلم بشرح النووي: 5/16، 6.

ومن فقهها الذي أجمع عليه الصحابة بعد موتها: أنها أوصت زوجها علياً أن يغسلها فكانت أول امرأة غسلها زوجها في الإسلام، وأقره الصحابة على ذلك، فكان إجماعاً، وهو مقدم على ما يقتضيه القياس من أن الزوج بعد وفاة زوجته يصبح أجنبياً عليها، لانقطاع رابطة الزوجية بالوفاة.

ومن وصاياها ﷺ: أن يجعل عليها في النعش قبة لئلا ترى، وهي أول من فعل بها=

= ذلك للتفريق بين النساء والرجال ستراً لهن/ الإصابة: 376/4، والاستيعاب بهامش الإصابة: 379/4.

2 ـ وصية الرسول ﷺ لفاطمة ؓ نتناول فيها أربعة أمور: مقدمة الوصية ـ افتتاح الدعاء فيها بالثناء على الله تعالى باسمين من أسمائه الحسنى ـ الاستغاثة برحمته في طلب إصلاح الشأن ـ طلب قهر النفس.

أ ـ مقدمة الوصية: قوله ﷺ: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟» بهذا التساؤل دعا النبي ﷺ ابنته الكريمة إلى أن تتهيأ وتستعد لتلقي وصيته ﷺ بكل مداركها وروحها قلباً وقالباً وإن كانت لم تعرف عنها شيئاً، وأن تدفع عن نفسها كل شيء يمنعها من تلقيها ويحول بينها وبين سماعها، لاعتقادها أن ما سيوصيها به مصدره الوحي الإلٰهي المنزل من السماء، وأنه لن يكون إلا خيراً وصلاحاً ديناً ودنيا لها ولعموم أمته إلى آخر الزمان.

ب ـ الثناء على الله تعالى قبل بدء الدعاء في قوله ﷺ مخاطباً فاطمة: «أن تقولي: إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث».

أمر الرسول ابنته فاطمة وأمته من بعدها بالمداومة على هذا الدعاء صباحاً مساءً، وافتتاحه بالثناء على الله تعالى الذي هو من آداب الدعاء وقد ذكر هذا القرافي في الكتاب الذي نقوم بتحقيقه «المنجيات والموبقات في الأدعية» ومن قوله هنالك:

«وسبب تقديم الثناء أن العادة ـ عند قصد الآمال ـ تقديم الثناء قبل ذكر الحاجة تيسيراً للمقاصد، وربما كان الثناء كافياً في تحصيل المقاصد» ثم قال: «وكذلك قدم الثناء في الفاتحة على دعائها» 12 ـ أ ـ ب.

قوله ﷺ: «يا حي يا قيوم»: الحي هو الذي لا يموت ولا يدركه الفناء، وهو اسم من أسمائه الحسنى، سمى الله به نفسه لتصريفه الأمور في مواقعها دون تغيير وتقديره الأشياء حسب مقاديرها، وقيل: إن الحي هو اسم الله الأعظم.

«يا قيوم»: القيوم من قام وأصل قيوم قيووم، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء، فصارت قيوم.

والقيوم اسم من أسماء الله تعالى الحسنى، ومعناه القائم بتدبير شؤون خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وكل ما هم في حاجة إليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: 33].

أي: ما عملت من خير أو شر وهو الله تعالى حتى يجازيها بعملها من حيث أنه هو العالم بما لا يخفى عليه شيء منها.

وقيل: إنه الاسم الأعظم، وقيل: القيوم: الذي لا يحول ولا يزول/ الجامع لأحكام القرآن: 271/3، 272، والتفسير الكبير: 310/2. =

= أما اتصال اسمي الله ﷻ ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ببعضهما ووصفه تعالى بهما مقترنين فرأى بعض العلماء أنهما معاً يدلان على اسم الله تعالى الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به استجاب.
جاء في تفسير القرطبي: أن ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هو اسم الأعظم، ويقال: أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان إذا أراد أن يحيي الموتى يدعو بهذا الدعاء يا حي يا قيوم.
ويقال: أن آصف بن برخيا، لما أراد أن يأتي بعرش بلقيس إلى سليمان عليه السلام دعا بقوله يا حي يا قيوم.
ويقال: إن بني إسرائيل سألوا موسى عن اسم الله الأعظم فقال لهم: أيا هيا، شراهيا، يعني: يا حي يا قيوم، وقيل: دعاء البحارة إذا خافوا الغرق يدعون به/ الجامع لأحكام القرآن: 3/ 271.
وقال فخر الدين الرازي: أنه لا سبيل إلى الإحاطة بالمسائل المتعلقة بالعلم الإلٰهي إلا بواسطة كونه حياً قيوماً، فلا جرم أن يكون هو الاسم الأعظم/ التفسير الكبير: 308/2.
وقوله ﷺ: «برحمتك أستغيث» الرحمة صفة فعل لله تعالى ومعناها: ذو الرعاية الشاملة لعباده، والرأفة بمخلوقاته جميعاً في مختلف شؤون حياتهم وكل أحوالهم، كما أخبر سبحانه بذلك في قوله جل شأنه: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: 156].
وقد اشتق من الرحمة اسمان لله ﷻ من أسمائه الحسنى هما: الرحمٰن والرحيم.
فالرحمٰن معناه: المنعم بجلائل النعم على مستحقيها وغير مستحقيها، وإثابة الطائعين من عباده المتقين الصالحين.
واسم الله الرحيم معناه، المنعم بدقائق النعم، وصغارها على مستحقيها وغير مستحقيها. قال جل شأنه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: 163].
والذي عليه جمهور العلماء: أن الرحمٰن والرحيم ليسا بمعنى واحد كما ذكرنا، لأن الرحمٰن خاص الاسم عام الفعل، والرحيم عام الفعل خاص الاسم.
ومعنى ذلك أن الرحمٰن مختص بالله تعالى ولا يسمى به غيره بدليل أنه لا يثنى ولا يجمع، وكونه عام الفعل، أي: يشمل جميع أنواع الرحمة.
والرحيم عام الاسم خاص الفعل، ومعنى عام الاسم يسمى به غير الله تعالى، وكونه خاص الفعل أنه خاص بالمؤمنين كما قال جل شأنه: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43].
وقوله ﷺ: «أستغيث»: الاستغاثة هي طلب المدد والعون والنصرة من رحمته=

= الواسعة التي وسعت الخلائق عموماً في معايشهم، ومصالحهم.
ففي الدنيا تسع المؤمن والكافر، بل كل ما يدخل تحت المشيئة الإلٰهية مكلفين وغيرهم، أما في الآخرة فهي خاصة بالمؤمنين كما تقدم.
والرحمة هي إرادة الخير، ولا حي إلّا وقد خلقه الله للرحمة، واللطف والرأفة، لأنه إن كان منتفعاً فهو برحمة الله، وإن حصل له ألم وأذى فالمؤمن مأجور ومثاب إن صبر، وهذا من نعمة الله تعالى ورحمته قال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].
3 ـ وصية الرسول ﷺ لفاطمة رضي الله عنها تضمنت هذه الوصية طلبين: طلب صلاح الشأن وطلب قهر النفس والتغلب على أهوائها.
أ ـ طلب إصلاح الشأن: قال ﷺ موصياً فاطمة وأمته بالتوجه إلى الله تعالى بهذا الدعاء «أصلح لي شأني» الشأن: الأمر الحال، الحاجة، والصلاح ضد الفساد وأصلحه ضد أفسده/ القاموس المحيط: 235/1.
فالرسول ﷺ في هذه الوصية لابنته فاطمة أمرها بأن تضرع إلى خالقها العليم بشؤونها المحيط بأحوالها أن يوفقها إلى إصلاح ما قد يختل من شؤونها عامة، دينية كضعف الاعتقاد والتقصير في أداء الواجبات، والانحراف عن منهاج الخير، أو دنيوية مما يتعلق بالمعاش كالغذاء والكساء والصحة والعمل وغيره.
فسؤال الله تعالى إصلاح الشأن هو عام كما بينا، ولعل حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي سبق وافتتحنا به الأحاديث التسعة التي انتقيتها وجعلتها في الهامش تعويضاً عن الأحاديث التي حذفت من المخطوط، لعل هذا الحديث يفسر المراد بالشأن تفسيراً مجملاً، وهو قوله ﷺ: «اللّهمَّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي» وقد وقع تحليله وتوضيحه.
فالمطلوب من كل مؤمن أن يدعو الله بهذا الدعاء لكي تستقيم حياتنا، وتهنأ، وتسلم من المكدرات والمنغصات والمهلكات، ونفوز في آخرتنا بما وعدنا به المولى ﷻ في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ [غافر: 40].
ب ـ طلب قهر النفس: الضراعة إلى الله تعالى بإصلاح الشؤون والأحوال تأتي الوصية بالأمر الثاني، وهو سد كل باب يتسرب منه الفساد بعد الصلاح، وأعظمه أهواء النفس الشيطانية، فقال الرسول ﷺ لفاطمة رضي الله عنها وأمته من بعدها، قولي: «ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين».
أي: يا إلٰهي لا تجعل لنفسي عليّ سلطاناً كي أنطلق وأتصرف حسب أهوائها، =

= ومنساقاً وراء رغباتها ولو لحظة إغماضة عين لأنها لا تأمر بالخير، ولا تسير في طريق الهدي ولا تسمع صوت النصح والإرشاد.

لقد أخبر القرآن الكريم عن حقيقة هذه النفس على لسان يوسف عليه السلام، أو امرأة العزيز، خلاف في ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: 53].

فهذه النفس كما وصفها الكتاب العزيز ميالة إلى الشر، نزاعة للمعصية لا يردعها، ويكبح جماحها إلا قهرها ومجاهدتها، وعدم الإصغاء إلى تحسين لذائذها الخبيثة اعتماداً على الله تعالى خالقها، وذلك بالسير وفق منهاج تعاليمه، وامتثال أمره في وجوب السمو بها وتطهيرها من الآثام، وتزكيتها من المعاصي لتكون سبباً في إسعاد صاحبها، ونيله الفلاح الموعود به في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩﴾ [الشمس: 9].

فمن رحمة الله تعالى بالإنسان أنه سبحانه أضاء له طريق الهداية، وبين دلائل الرشاد في نفسه وفي من حوله بتعاليمه، فيرى الحق واضحاً في صورته الصحيحة، وبذلك ينكشف له المسار الرباني السليم، حتى إذا أرادت هذه النفس الانحراف عن طريق الخير - ولو قليلاً -، يتصدى لها المؤمن ويقاوم مبتغاها الآثم بحزم وصرامة، وخوف من الله تعالى فترتدع وتنزجر وتؤوب إلى جادة الحق والصواب.

فهذه النفس التي انتصر صاحبها على هواها، وأمسك بزمامها تتحول إلى عنصر صالح موجه للخير، مبعد عن الشر والفساد، وهي النفس اللوامة التي أقسم بها سبحانه على البعث في اليوم الآخر، فقال تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة: 2].

أي: النفس التي تلوم ذاتها على الخير إن قصرت فيه، وعلى الشر إذا فعلته مع الندم على ما فات وانقضى، وهذا هو المعنى العام في تفسير «النفس اللوامة» لعدد من العلماء.

فهذه النفس اللوامة اليقظة التقية الخائفة من غضب ربها تعالى، هي النفس الطيبة الكريمة عند الله تعالى المطمئنة إلى قدر الله تعالى، في الشدة والرخاء، مطمئنة في بسط الرزق وقبضه، مطمئنة فلا تنحرف، مطمئنة لا ترتاع ولا تخاف يوم الهول العصيب.

ولعل هذه النفس التي أثنى الله عليها ومدحها هي النفس المطمئنة التي ينادي عليها في الملإ الأعلى يوم القيامة: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر: 27 - 30].

أي: ارجعي إلى ربك راضية بالثواب الجزيل، مرضية عنده بالعمل الصالح، فادخلي =

= في عبادي الصالحين، وادخلني جنتي معهم/ الجامع لأحكام القرآن: 57/20، 58.
إن هذا الحديث الشريف الذي أوضحنا بعضاً من معانيه يعد من جوامع كلم الأدعية، لأنها في مجموع معانيها سؤال الله تعالى الخير وتحقيق المصالح إما بجلب مصلحة وخير للداعي، أو دفع ضرر أو شر عنه.
وفقنا الله إلى إصلاح شؤوننا وأعاننا على مجاهدة أهواء النفس حفاظاً على استقامتها وصلاح ديننا ودنيانا. آمين.

الحديث الثالث

دعاء أبي بكر الصديق ﷺ

سؤال الله المغفرة والرحمة والتجاوز عن ظلم النفس

عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال لرسول الله ﷺ: علّمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: قل «**اللَّهمَّ ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغ**
مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»/ صحيح البخاري
وصحيح مسلم: 27/17، 28.

الشرح:
نتناول في شرح هذا الحديث أربعة أمور: التعريف بأبي بكر الصد
للرسول ﷺ: «**علمني دعاء في صلاتي**» ـ **الفقرة الأول**: «**قل: اللَّهمَّ**
ظلماً كثيراً...» ـ الفقرة الثانية: «**فاغفر لي مغفرة من عندك...**».
1 ـ **التعريف بأبي بكر** ﷺ: هو عبدالله بن عثمان بن عمرو بن
التميمي أبو بكر الصديق بن أبي قحافة خليفة رسول الله ﷺ وأمّه
سلمى بنت صخر.
ولد بعد عام الفيل، وصحب النبي ﷺ قبل البعثة، وسبق إلى التصديق والإيمان به. واستمر معه طول إقامته بمكة المكرمة، ورافقه في الهجرة إلى المدينة، وفي المشاهد والوقائع كلها.
لقب أبو بكر بألقاب عديدة، كلها تفصح عن علو منزلته ومكانته الرفيعة، ومنها:
أ ـ **الصديق**: لقبه به النبي ﷺ لكثرة تصديقه له، وفي هذا تروي أم المؤمنين عائشة ﷺ عند الحاكم فتقول: (لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس، كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعى رجال إلى أبي بكر فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ كان يزعم أن أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟
قال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك صدق، قالوا: أوَتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء؟ قبل أن يصبح؟ =

= فقال نعم، إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء غدوة أو روحة) فلذلك سمي أبو بكر الصديق/ المستدرك: كتاب معرفة الصحابة رضوان الله عليهم رقم: 4407، 4458.

ب ـ العتيق: لقب بذلك لقوله ﷺ في حديث عائشة عند الترمذي قالت: (إن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فقال: «أنت عتيق من النار» فيومئذٍ سمي عتيقاً)/ صحيح البخاري ـ باب المناقب: 3678.

وقد ذكر المؤرخون أسباباً أخرى لهذا اللقب منها: أنه سمي عتيقاً لجمال وجهه، وقيل: لأنه كان قديماً في الخير، وقيل: إن أمه كان لا يعيش لها الولد، فلما ولدته استقبلت به الكعبة وقالت: اللّهمّ إن هذا عتيقك من الموت فهبه لي/ الإصابة: 342/2.

ج ـ الصاحب: لقبه به المولى ﷻ في كتابه العزيز حكاية عن هجرته ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة صحبة أبي بكر ﷺ واختفائهما في الغار قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40].

د ـ الأتقى: لقبه الله تعالى به في قوله وهو أصدق القائلين: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: 17 ـ 21].

أجمعت الأمة أن الأتقى هو أبو بكر الذي يبعده الله على النار، وهو التقي الذي ينفق ماله متزكياً عند الله تعالى خالصاً ابتغاء وجهه ﷻ لا رياء فيه ولا سمعة فيكون زاكياً عنده تعالى/ الجامع لأحكام القرآن: 88/20.

ومن مسند أحاديثه التي رواها عن الرسول ﷺ أخرج له البخاري في صحيحه خمسة وعشرين حديثاً منها الحديث المشروح ومنها ـ كذلك ما جاء في فضائله رواية عن عبدالله بن عباس ﷺ أن الرسول ﷺ قال: «إن أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته»/ صحيح البخاري: 12/7.

والمراد بأخوة الإسلام ومودته: أن هذه الأخوة والمودة متفاوتة بين المسلمين في نصر الدين وإعلاء كلمة الحق وتحصيل كثرة الثواب ولأبي بكر من ذلك أعظمه وأكثره/ فتح الباري: 13/7.

ومن اجتهاداته، قال له عمر ﷺ كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت=

= **أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله».**

فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها.

قال عمر ﷺ: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر ﷺ فعرفت أنه الحق/ صحيح البخاري: 262/2.

فقد قاس أبو بكر قياس من امتنع من الزكاة على من امتنع من الصلاة فزال الخلاف.

بويع بالخلافة بعد موت الرسول ﷺ، ومكث في خلافته سنتين وثلاثة أشهر وقيل: شهرين... خلاف في ذلك.

ودفن في بيت عائشة ﷺ مع النبي ﷺ ولا اختلاف في أن سنه انتهى إلى حين وفاته ثلاثاً وستين سنة/ الإصابة: 2/ 341 ـ 344، والاستيعاب بهامش الإصابة: 2/243 ـ 257.

2 ـ **قول أبي بكر ﷺ علّمني دعاء أدعو به في صلاتي:** لما كان العبد مخلوقاً ضعيفاً، مفتقراً إلى خالقة ومنشئه، محتاجاً إليه في كل صغيرة أو كبيرة من حياته أمره بالتوجه إليه بالدعاء لإعانته وتيسير أموره، وتحقيق ما يرجوه من الهداية والصحة والعافية والرزق والحلال والعلم النافع وغيره مما هو راغب فيه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186].

ولما كانت الصلاة هي عقد الصلة بين العبد وربه، ومناجاته والعبودية والخضوع له وتفويض كل الأمور إليه، والتماس الأمن والسكينة والنجاة من سخطه، وهي أفضل مواطن استجابة دعائه، طلب أبو بكر ﷺ من الرسول ﷺ تعليمه دعاء يدعو به في صلاته.

والأمر بالدعاء في الصلاة ورد مطلقاً من غير تقييد أو تخصيص في عمل من أعمالها، ولذلك حمل العلماء الأمر به في الموضعين اللذين وقع الأمر فيهما بالدعاء في الصلاة وهما السجود، أو بعد التشهد الأخير قبل السلام/ فتح الباري: 320/2.

وقد مر الحديث عنهما في الأدب التاسع للدعاء، والصفة الخامسة من هيئات الداعين.

3 ـ **الفقرة الأولى من الحديث: قوله ﷺ: «قل: اللَّهمَّ ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت».**

قوله ﷺ: **«ظلمت نفسي ظلماً كثيراً»** هذا إرشاد وتعليم لأبي بكر والأمة من بعده، واعتراف بالتقصير تجاه الخالق تبارك وتعالى، وأن العبد لا يسلم من الخطأ ولو كان=

= صديقاً مثل أبي بكر، فالعصمة فقط لأنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.
وما ورد في القرآن الكريم أن منهم من ظلم نفسه ودعا بهذا الدعاء فغفر الله له: أن هذا محمول على أن المخالفة وظلم النفس وقعت قبل التكليف بالنبوة مثل معصية آدم عليه السلام بأكله من شجرة الخلد وقد نهاه الله تعالى عن الأكل منها، وإخراجه من الجنة مع زوجته إلى الأرض عقاباً لهما، قال تعالى على لسانيهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 23].
وقال تعالى مخبراً عن معصية آدم وغفرانه له: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: 121، 122].
ومثل قتل موسى عليه السلام للقبطي، ثم ضراعته لله تعالى معترفاً بذنبه طالباً مغفرته فغفر له، قال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: 16]/ التفسير الكبير: 1/ 301 وما بعدها، و6/ 429، والجامع لأحكام القرآن: 1/ 308 وما بعدها و12/ 261 وما بعدها.
وظلم النفس معناه: تعريضها للوم والعتاب والعقوبة إن ارتكب صاحبها الذنوب والآثام وحرمانها من نعيم الجنة وخيراتها.
قوله ﷺ: «ولا يغفر الذنوب إلا أنت»: هذا اعتراف وإقرار بالوحدانية وطلب المغفرة مثل قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: 135].
فقد أثنى الله على المستغفرين وفي ضمن ثنائه عليهم بالاستغفار إشارة إلى الأمر به لقاعدة: أن كل شيء أثنى الله على فاعله فهو آمر به، وكل شيء ذم فاعله فهو ناه عنه/ فتح الباري: 2/319، 320.
4 ـ الفقرة الثانية: قوله ﷺ: «فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».
قوله ﷺ: **«فاغفر لي مغفرة من عندك»**، أي: هب لي مغفرة منك تفضلاً وكرماً، وإن لم أكن أهلاً لها وجديراً بنيلها بمقتضى عملي، واستر ذنوبي وقبائحي بين عبادك، واحمني من الفضيحة عندهم، فلا تظهرهم على قبائحي يا غفار.
وقوله ﷺ: **«وارحمني»**، أي: فيما يستقبل من الحياة فلا توقعني بتوفيقك في ذنوب أخرى.
وقوله ﷺ: **«إنك أنت الغفور الرحيم»**: صفتان ذكرهما الرسول ﷺ ختماً للكلام على جهة المقابلة **«فاغفر لي وارحمني»** فالغفور مقابل لقوله: **«اغفر لي»** والرحيم مقابل لقوله: **«ارحمني»**/ فتح الباري: 2/319، 320. =

= فالله تعالى هو الغفور وهو الغفار كما وصف نفسه بقول جل شأنه في أربع آيات من كتابه العزيز منها قوله جل ذكره: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: 82].

وهو «الرحمٰن الرحيم» فالرحمٰن ذو الرحمة الشاملة للخلق جميعاً، والرحيم صفة للمؤمنين خاصة بهم، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43].

والمراد رحمته تعالى إرادة نفع من سبق في علمه أن ينفعه، وأما الرحمة التي جعلها وخلقها في قلوب عباده فهي رقة في القلب على المحتاج إليها من مريض أو فقير أو غيره، والله تعالى منزه عن ذلك، تعالى عن ذلك علواً كبيراً/ فتح الباري: 358/13، وإحكام الأحكام: 78/2.

وفي هذا الحديث جملة من الفوائد منها: طلب التعليم من العالم خصوصاً في الدعوات المطلوب فيها جوامع الكلم.

ومنها: مشروعية الدعاء في الصلاة وفضل الدعاء المذكور على غيره.

وفي تعليم النبي ﷺ لأبي بكر ﷺ إشارة إلى إيثار أمر الآخرة على أمر الدنيا/ فتح الباري: 131/11، 132.

الدعاء الرابع

دعاء بريدة الأسلمي

استمداد القوة والعون من الله تعالى

للتغلب على الضعف البشري ديناً ودنيا وجعل الإسلام الغاية من الحياة كلها

أخرج الحاكم عن بريدة الأسلمي ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«قل: اللَّهمَّ إني ضعيف فقوِّ في رضاك ضعفي، وخذ لي الخير بناصيتي، واجعل الإسلام منتهى رضائي، اللَّهمَّ إني ضعيف فقوني، وإني ذليل فأعزني، وإني فقير فارزقني»**.

قال الحاكم النيسابوري: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ومسلم، ولم يخرجاه/ المستدرك ـ كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر رقم: 1921.

الشرح:

يستدعي بيان هذا الحديث الشريف ثلاثة عناصر: التعريف بالراوي ـ الفقرة الأولى منه ـ الفقرة الثانية.

1 ـ **الراوي**: هو بريدة بن الحصيب بن عبدالله من قبيلة أسلم كنيته أبو عبدالله الأسلمي، اعتنق الإسلام قبل غزوة بدر حين التقى برسول الله ﷺ في الغميم: واد بين مكة والمدينة على بعد مرحلتين من مكة.

في هذا المكان أسلم بريدة هو ومن كان معه من قبيلته وكانوا حوالى مئة، وصلوا=

= العشاء خلف رسول الله ﷺ وتعلم بريدة ليلتها قدراً من القرآن الكريم، ثم عاد ومن معه إلى بلاد قومه.

ولم يرق المقام له في موطنه فقدم إلى رسول الله ﷺ وسكن المدينة بعد غزوة أحد، وشارك في غزوات الرسول ﷺ ومنها «الحديبية».

والحديبية واد على مرحلة من مكة فيه شجرة جمع فيها رسول الله ﷺ أصحابه تحتها وطلب منهم مبايعته قبل مفاوضته مع قريش الذين منعوه من أداء العمرة، وصدوه عن المسجد الحرام.

وهذه البيعة يقال لها: بيعة الحديبية، وتسمى بيعة الشجرة أو بيعة الرضوان التي أعلمنا الله تعالى بها في كتابه العزيز في قوله جل شأنه: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾ [الفتح: 18].

أي: علم الله ما في قلوبهم من الصدق والوفاء فأنزل السكينة والاطمئنان وعدم الخوف، وأثابهم فتحاً قريباً هو فتح خيبر بعد انصرافهم من الحديبية.

وبعد موت الرسول ﷺ انتقل بريدة إلى «البصرة» ومنها خرج غازياً في سبيل الله إلى خراسان، فمات بـ«مرو» في إمارة يزيد بن معاوية في (76هـ/676م)/ الإصابة 146/1، والاستيعاب بهامش الإصابة: 173/1 ـ 176، والجامع لأحكام القرآن: 439/7.

2 ـ الفقرة الأولى: قوله ﷺ: «اللَّهمَّ إني ضعيف فقوِّ في رضاك ضعفي، وخذ لي الخير بناصيتي واجعل الإسلام منتهى رضائي».

في هذه الفقرة ثلاثة أدعية:

أ ـ الدعاء الأول: قوله ﷺ: «إني ضعيف فقوّ في رضاك ضعفي» هذا إقرار من المؤمن بضعفه تجاه شهوات النفس الجامحة، وقصور في قوته أمام إغراءات الشياطين واعتراف بأنه لا حول ولا طاقة له على التغلب على الأهواء الفاسدة إلا بعون الله تعالى وقوته لإعانته على طاعته وعبادته وتقديسه، فهو وحده القوي العزيز الذي يُستمد منه العون والقدرة على القيام بالأعمال الصالحة، والبعد عن الانحرافات والمعاصي.

والضعف: هو عدم الاستطاعة والعجز عن الإتيان بالتكاليف أو غيرها لصغر أو كبر أو مرض، أو بسبب ما يعتري الإنسان من أحوال أخرى كالغضب وغيره، أو قلة الجهد في مقاومة ميول النفس إلى الانغماس في المعاصي والممنوعات.

وهذا الأخير هو الضعف المطلوب فيه القوة من الله تعالى للتغلب عليه بدليل قوله ﷺ: **«فقوّ في رضاك ضعفي»**، أي: أسألك القوة لأكبح جماح نفسي العدوانية كي تسير في منهاجك المستقيم، وتحوز رضاك وهو الفوز العظيم الذي وعدت به=

= عبادك المؤمنين الطائعين في قولك جل شأنك وأنت أصدق القائلين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: 72].

أي: أن رضوان الله أعظم من ذلك النعيم كله.

ومعنى ذلك ما روي عن الرسول ﷺ في الحديث القدسي عن أبي سعيد الخدري ﷺ عند مسلم قال: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون، لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»/ صحيح مسلم: 168/17.

ب ـ الدعاء الثاني: قوله ﷺ: «وخذ لي الخير بناصيتي» الناصية هي شعر الجبهة، ويكنى بها عن الوجهة والوجه والرأس وعن جملة الإنسان بدناً وأعضاء قلباً وعقلاً وجوارح وعملاً صالحاً أو سيئاً.

وفي هذا المعنى جاء الجزاء الذي توعد الله به الكافر الشرير العدو الألد للرسول ﷺ أبا جهل، فقال جل شأنه: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: 15 ـ 16].

وكما توصف الناصية مجازاً إخباراً عن سوء مصير صاحبها توصف كذلك بالبركة والطيب، فيقال: هذه ناصية مباركة/ الجامع لأحكام القرآن: 125/20، 126.

ومعنى هذا الطلب والله أعلم: تفضّل عليّ يا رب واهدني إلى كل خير حيثما توجهت بأنوار تعاليمك المقدسة وأنوار نبينا محمد ﷺ للقيام بما فرضته علي من واجبات وترك ما منعته من المنهيات للحصول على الخير والسعادة الدنيوية والأخروية وهو مطلب الأتقياء الصلحاء.

ج ـ الدعاء الثالث: قوله ﷺ: «واجعل الإسلام منتهى رضائي»، أي: أن رضائي الأوحد هو ديني الإسلامي فقط، ولا أرضى بغيره بديلاً، لا مالاً ولا جاهاً ولا نفوذاً ولا سلطاناً ولا غيره.

فالرضا بالإسلام ديناً، والعمل بتعاليمه عقيدة وسلوكاً مدى الحياة هو الهدف الأسمى لكل مؤمن ومؤمنة، وهو مطلب كل مسلم يرجو رحمة ربه ويخشى عقابه، لأنه يحقق الفوز والنجاح والتقوى والصلاح المرتكزة كلها على أمرين: الإيمان الصادق والاستقامة الخالصة اللذين وعد الله تعالى من سار على هديهما بنعيم الجنان، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: 30]. =

= فهذا الجزاء العظيم أعده الله تعالى لمن وحده واستقام على أمره طيلة حياته ولم يحد عن ذلك حتى يتوفاه الله.

فالإيمان بأركانه والاستقامة على تعاليم الدين الحنيف، هما أفضل مطلب تختم به حياة المسلم.

وفي هذا المقام جاء دعاء سيدنا يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

فيوسف تمنى الموت على الإسلام وهو منتهى أمره/ الجامع لأحكام القرآن: 269/9.

2 ـ الفقرة الثانية: قوله ﷺ: «اللَّهمَّ إني ضعيف فقوني، وإني ذليل فأعزني وإني فقير فارزقني».

في هذه الفقرة ثلاثة أدعية أيضاً هي:

أ ـ قوله ﷺ: «اللَّهمَّ إني ضعيف فقوني» هذا الدعاء هو زيادة تأكيد للمطلب الأول، أي: يا الله يسر لي أسباب القوة للتغلب على ما يعتري نفسي من قصور في طاعتك وعبادتك، والإخلاص لك سراً وعلانية، أو ما يعترضني في حياتي من مصاعب دنيوية أمراض أو غيرها.

ب ـ قوله ﷺ: «وإني ذليل فأعزني» العزة لغةً: القوة والشدة والغلبة/ القاموس المحيط: 182/1.

فالعزة حينئذٍ هي صفة تمنع الإنسان من أن يكون ذليلاً مهاناً مغلوباً مقهوراً، أي: يكون مكرماً محترماً عزيز الجانب، مرفوع المكانة والمقام.

وقد يطلب لفظ العزة على الاستعلاء المذموم، والأنفة الممقوتة، والحمية البغيضة كما في قوله تعالى واصفاً الأخنس بن شريق المنافق: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾ [البقرة: 206].

والاعتزاز قد يكون بعوامل أخرى دنيوية كالغنى والكرسي والوطنية وغير ذلك، أما العزة الحقيقية المطلوبة في هذا الدعاء، فهي المرتبطة بالدين التي مدحها القرآن الكريم في قوله جل شأنه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8].

فهي عزة المؤمن بالله العزيز القوي الغالب، العزة الحقيقية الباقية هي التي تكون بالإسلام والسير في الحياة على منهاجه الصحيح، وعدم الاغترار والاعتزاز بالأغراض الفانية الزائفة.

وبهذه العزة يطمع المؤمن في حب الله وقربه منه، ومن أحبه الله سعد وفاز، وهو ما بشرنا به في محكم تنزيله فقال وقوله الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54]، أي: أعزة بالإسلام. =

= ج - قوله ﷺ: «وإني فقير فارزقني» هذا أيضاً اعتراف العبد بافتقاره وضعفه واحتياجه إلى ربه في كل شأن من شؤون حياته سواء في طلب الرزق الحلال أو الاهتداء إلى سبل الخير والصلاح.

فالله سبحانه كما أخبر عن نفسه هو الغني الرزاق: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿15﴾﴾ [فاطر: 15].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿19﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿20﴾﴾ [الشورى: 19 - 20].

والحرث هو الفوز بالأعمال الطيبة.

والرزق هو كل شيء ينتفع به دنيا أو أخرى في الدنيا بالعافية، وبالعلم النافع وبالحلال الطيب مثلاً.

وفي الآخرة بالأعمال الصالحة التي يتضاعف ثوابها عند الله، لا أغراض الدنيا وأمتعتها، وزينتها الفانية، التي تؤدي بمن يغتر بها إلى سوء المصير في الآخرة.

وهذا ما أكدته الآيات القرآنية من سورة الإسراء، وبينته بياناً شافياً في قوله جل شأنه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿18﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿19﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿20﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿21﴾﴾ [الإسراء: 18 - 21].

في هذه الآيات الأربعة:

● الأولى رقم 18: جاء فيها أن من يحب الدنيا العاجلة لم يعطه الله منها إلا ما شاء ثم يؤاخذه بعمله السيئ ويرمى في النار مطرود مبعداً عن رحمة الله.

وهذه صفة المنافقين والمرائين وأمثالهم، الذين يتظاهرون بالصلاح لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم.

● وفي الآية رقم: 19: أن من طلب الآخرة وعمل لها من الطاعات وسعى إلى الخيرات والفضائل بصدق وإيمان وإخلاص يكون سعيه مشكوراً محموداً، وقيل: تضاعف حسناته بعشر أمثالها، وقيل: إلى الألف، كما نطقت بهذه الزيادة آية الشورى رقم: 20 السالفة الذكر: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ والحرث هو الكسب والعمل الصالح.

● وفي الآية رقم: 19: أن من طلب الآخرة وعمل لها من الطاعات بصدق إيمان وإخلاص في الأفعال يكون سعيداً، وكسبه مقبولاً مشكوراً.

وقيل: تضاعف حسناته بعشر أمثالها، وقيل: إلى الألف في بعض الروايات. =

[ثم قال][1]: وينبغي للإنسان أن يتنقل في الأدعية، وأن لا يواظب على دعاء واحد اقتداء بسيد المرسلين، وخير العالمين ﷺ[2].

فقد خرج له المحدثون ﷺ أدعية كثيرة جداً كان يتنوع فيه وينتقل منها، لأن النفس إذا واظبت على دعاء واحد صار لها عادة تنطق به

= • أما الآية الثالثة رقم: 20: فأخبر الله تعالى فيها أنه هو الكريم الرزاق للمؤمنين والكافرين وأن عطاءه وفضله غير مقطوع ولا ممنوع عن أحد مهما كان عمله.

• والآية الرابعة رقم: 21: يأمر الله تعالى فيها بالنظر بعين الاعتبار، كيف فضل جل شأنه بعض خلقه على بعض في المال أو الجاه أوالسعة أو السلطان في الدنيا، ولكن التفضيل الحقيقي يكون بأكبر الدرجات وأرفع المنازل للمؤمنين في الآخرة وهو أكبر تفضيلاً.

فالكافر أو العاصي وإن وسع الله عليه في الدنيا مرة، وضيق عليه مرة، فإن الآخرة لا قسمة فيها إلا مرة واحدة، سعادة أو شقاء حسب الأعمال حسنة أو سيئة/ الجامع لأحكام القرآن: 10/235.

وفي هذا الحديث الشريف إرشاد وتربية، وتعليم لكل مسلم بأن يضرع إلى خالقه تعالى القادر القوي العزيز الرزاق راجياً الاستجابة له في إمداده بالقدرة لأعانته على القيام بعبادته، وتحصيل رزقه، والاعتزاز بإسلامه وتسديد وجهته في كل تصرفاته نحو الخير والتقوى، والاستقامة، في حصن تعاليم دينه القويم على امتداد الحياة استجابة للنداء القرآني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: 102].

(1) ما بين المعقفوتين ليس من كلام القرافي، وبعده وقع الرجوع إلى كتاب «المنجيات».

(2) لما أتم القرافي هذا الطرف اليسير من أدعية السلف وإن كانت محذوفة من قبل من لا يقيم وزناً للأمانة العلمية ـ ناسب أن ينبه القارىء والمتعلم إلى أمر عظيم ما كان السلف الصالح يغيب عن أذهانهم عند التوجه إلى الله تعالى ضارعين داعين خاشعين متذللين اقتداء بالنبي ﷺ.

هذا الأمر العظيم الهام هو التنوع في الأدعية، وعدم الاقتصار عن التلفظ بدعاء واحد، لأنه بالمواظبة عليه تعتاده النفس، وإذا اعتادته يقع الإعراض عن تدبر معناه، والغفلة عن مقصوده وهو معنى عدم حضور القلب.

قال أبو حامد الغزالي: «فأي سؤال في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: 6] إذا كان القلب غائباً أو غافلاً؟

وإذا لم يقصد كونه تضرعاً ودعاء، فأي مشقة في تحريك اللسان به مع الغفلة لا سيما بعد الاعتياد»/ الإحياء: 1/160.

معرضة عن معناه، فإذا كان الدعاء قريباً من العبد كثرت ملاحظته، والفكرة في معناه، وهذا هو المطلوب من الداعين[1]، والإعراض عن معاني الأدعية والأذكار والقراءة قلة أدب مع الله تعالى[2].

فقد قال يحيى بن معاذ[3]: إن الشيطان ليشغلني عن معاني القرآن بذكر الجنة والنار[4].

فجعل ذكر الجنة والنار من علم الشيطان لكونه ملهياً عما هو بصدد من القرآن.

---

(1) المطلوب من الداعي التحلي بآداب الدعاء الباطنية التي منها: الإقبال على الله تعالى بكلية القلب، وقد سبق هذا في محله في الفصل الثاني من آداب الدعاء الباطنية.

ومعنى الإقبال على الله بكلية القلب، هو ـ كما مر ـ حضور القلب، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو المراد/ الإحياء: 1/ 161.

(2) وليس في هذا قلة أدب مع الله تعالى فقط، وأيضاً فليعتقد مثل هذا الداعي أنه لا مطمع له في حصول الإجابة أصلاً، لأن المقصود في الدعاء ـ كما تقدم ـ ليس حركة اللسان بالألفاظ والكلمات بل المقصود معانيها مع الخشوع والتذلل والرجاء والحاجة والافتقار إلى حصول المطلوب.

وإذن؛ فكيف يطمع هذا الداعي وأمثاله بدعاء شكلاً لا مضموناً وقالباً لا قلباً. والرسول صلوات الله وسلامه عليه أخبرنا وهو الصادق أن من بين أسباب إجابة الدعاء التيقن بالإجابة، وإن من بين عدم الاستجابة انشغال القلب عما يطلبه اللسان في حديث أبي هريرة عند الحاكم: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالأجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل**»/ المستدرك: كتاب الدعاء رقم: 18/17.

(3) يحيى بن معاذ الرازي، قال عنه أبو نعيم الأصفهاني الحافظ الصوفي في كتابه «حلية الأولياء»: القانع الصبار الواعظ الذكار، لزم الحداد توقياً من العباد، واستلذ السهاد تحرياً للوداد، واحتمل الشداد توصلاً إلى المراد، كانت وفاته سنة (258هـ/ 856م)/ الحلية: 163/10.

(4) قال أبو حامد الغزالي: «واعلم أن من مكائد الشيطان أن يشغلك في قراءتك ودعائك أو ذكرك بشغلك عن معاني الآخرة ليمنعك عن فهم ما ينطق به لسانك، ولهذا فإن ما يشغلك عن ذلك هي وساوس الشيطان الرجيم فاصرفه عن خاطرك والعنه»/ الإحياء: 167.

وينبغي أن يكون ميل الإنسان إلى الأدعية النبوية أكثر لكونها جامعة بين الدعاء وبركة الاقتداء[1].

فالخير كله في الاتباع، والشر كله في الابتداع[2]، جعلنا الله ممن اتبع فنجا وأقبل بكليته على [(18أ)] الحق فاهتدى.



---

(1) وأيضاً ومن أعظم فوائد ذلك الاقتداء بالرسول ﷺ الذي أعلمنا وعلمنا أن أحب الأدعية إليه الجوامع، فقد جاء في سنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها: (أنه كان يستحب الجوامع من الدعاء، ويدع ما سوى ذلك)/ سنن ابي داود رقم: 1482، وصحيح ابن حبان رقم: 867، والمستدرك 1978.

والجوامع هذه جمع جامعة وهي الكلمة الجامعة لكل معاني الخير وقد أخبر ﷺ عن هذه الميزة التي ميزه الله تعالى بها فقال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد: «وأعطيت جوامع الكلم»/ مسند أحمد: 7576.

وقد اختلف العلماء في تفسير هذه الجوامع، فرأى بعضهم أن المراد بها: أن الله تعالى منّ عليه ﷺ بإقداره على التكلم بكلمات بليغة جزلة حاوية لمعان نافعة من المواعظ والأدعية وغيرهما.

وقيل: المراد بالجوامع القرآن الكريم، فقد جمع الله فيه معاني كثيرة في ألفاظ يسيرة وكلامه ﷺ كان كذلك.

وقيل: إن جوامع الكلم التي أكرم الله بها نبيه ﷺ ما جمعه الله تعالى له من الكتب التي كانت قبله في الأمر الواحد والأمرين.

فجوامع الكلم هي من كمالات الرسول ﷺ وفصاحته وبلاغته، فقد كان يتكلم في محاوراته بقليل الألفاظ الجامعة لمعان لا حصر لها في الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة/ نسيم الرياض: 1/408، 409.

(2) والشر كله في الابتداع: ليس هذا على عمومه، وهو مخصص بالابتداع في المعاصي والضلالات بصفة عامة، وقد مر بيان ذلك عند الحديث عن العارض الرابع من عوارض الدعاء، رفع الأيدي بعد الدعاء إلى الوجوه والمسح بها عليها، وقد رأى البعض أن ذلك بدعة ففصلنا الكلام عنها وعن أقسامها هناك.

أما الابتداع في الدعاء فالمراد به الأدعية المنهي عنها، وقد سبق الحديث عنها في قسمي الدعاء: الدعاء المحرم والدعاء المكروه.



الباب العاشر
في اسم الله الأعظم

واختلف العلماء فيه، فمنهم من قال: له حقيقة في نفسه، ومنهم من قال: ليس له حقيقة في نفسه(1).

---

(1) هؤلاء العلماء الذين أنكروا وقالوا: اسم الله الأعظم لا حقيقة له، ذكر منهم الحافظ ابن حجر العسقلاني أربعة: الطبري والأشعري وابن حبان والباقلاني، فمن هم هؤلاء؟

أ ـ الطبري هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تصنيفه في الأئمة المجتهدين الثالث عشر. جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه غيره، كان حافظاً لكتاب الله عارفاً بالقرآن الكريم بصيراً بمعانيه فقيهاً بأحكامه، عالماً بالسُّنَّة وأحكامها، صحيحها وسقيمها وبالناسخ والمنسوخ، مطلعاً على أقوال الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتابعيهم، يدل لذلك تفسيره الكبير المنقطع النظير، وكتابه تهذيب الآثار وغيره، كما أنه كان عارفاً بأيام الناس وسيرهم وأحوالهم، وهو ما يستفاد من كتابه التاريخي الذي ليس له مثيل.

امتحن في أواخر حياته لقوله: إن الإمام أحمد بن حنبل محدث وليس فقيهاً فأساء ذلك للحنابلة وأهاجوا عليه العامة ومنعوا الناس من الدخول إليه في حياته ومنعوا دفنه نهاراً.

وكانت وفاته سنة (310هـ/903م) تاريخ بغداد: 162/2، وطبقات الشافعية: 135/2، والفكر السامي: 42/2 وما بعدها.

ب ـ الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الفقيه المتبحر والإمام الحافظ مالكي المذهب، وقيل: شافعي، ولا يبعد أن يكون مجتهداً ليس شافعياً ولا مالكياً. =

= كان في أول أمره معتنقاً مذهب المعتزلة، مغرماً بفلسفتهم واعتماداتهم على العقل دون المنصوص عليه.

واستمر سائراً في هذا المنهج طيلة ثلاثين سنة متسلحاً بفلسفة المعتزلة المقتبسة من كتب اليونان واليهود وغيرهم، إلى أن هداه الله باطلاعه على السُّنَّة الشريفة وأقوال أقطابها من العلماء.

فرأى أن السُّنَّة هي الحق وأن الاعتزال ضلال فأسس مذهباً جديداً مرتكزاً على دعائم القرآن والسُّنَّة. هدّم به قواعد الاعتزال بالفلسفة التي هي عدتهم بالبراهين القاطعة، وناصر أهل السُّنَّة عليهم بنصوص الشريعة الصحيحة، وكان بمذهبه الجديد الذي ينسب إليه سلفياً سنياً.

بلغت مؤلفاته حوالى خمسة وخمسين في الرد على المعتزلة والفرق الضالة وسائر الملاحدة والمبتدعين، وكانت وفاته سنة (334هـ/936م)/ الديباج المذهب: 37 طبقات الشافعية: 2/345.

ج ـ ابن حبان: هو أبو حاتم محمد بن حبان البستي، الإمام الحافظ الجليل، صاحب التصانيف الشهيرة في الحديث والجرح والتعديل إضافة إلى فقهه الواسع في الدين ومعرفته بالنجوم والفلك والطب، ومن أشهر كتبه «الثقات» في الجرح والتعديل.

كانت وفاته سنة (354هـ/946م)/ تذكرة الحفاظ: 3/920، 921، وتاريخ بغداد: 2/243، والفكر السامي: 2/87.

د ـ الباقلاني: هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، أشعري المذهب ناصراً لطريقته، ناشراً له بأقواله أو مؤلفاته في العقيدة، ومن أشهرها: «الإبانة عن إبطال مذهب الكفر والضلالة والتمهيد والإنصاف».

ومن مؤلفاته في العلوم الأخرى: «الأصول» الكبير في الفقه، وإعجاز القرآن و«التقريب والإرشاد» في أصول الفقه ونحو ذلك من المصنفات التي تعد بالعشرات.

وقد توج هذا العطاء العلمي الفياض والسخاء الفكري اللماع بالأجل المحتوم الذي وافاه سنة ثلاث وأربعمائة (993)/ الديباج المذهب: 267، القاضي أبو بكر الباقلاني أراؤه الكلامية والفلسفية: وتاريخ بغداد: 5/379.

حجة المنكرين لحقيقة اسم الله الأعظم: قال هؤلاء: لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض ونسب هذا القول ـ أيضاً ـ لمالك بن أنس ﷺ لقوله بكراهة إعادة سورة بعينها لئلا يعتقد أن بعض القرآن أفضل من بعض، فيؤدي ذلك إلى اعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل، وحملوا ما ورد من ذلك في=

والقائلون بالأول اختلفوا على مذاهب[1]: فمنهم من يقول: هذا الاسم هو الله لوجوه:

● **أحدها**: أن سائر الأسماء تجري عليه مجرى النعوت: فيقال: الله الحي القيوم إلى غير ذلك من أسماء الصفات، والذي تجري عليه النعوت هو اسم الذات ولم يوجد غيره يشاركه في هذا المعنى، فيكون هو اسم الله الأعظم، لأن الذات أشرف مما سواها والاسم إنما يشرف بشرف مسماه.

● **وثانيها**: أن أحداً من الخلائق ما أمكنه أن يتسمى به إجلالاً له، سواء وجد وازعاً من الشرائع أو لم يوجد بخلاف غيره من الأسماء فدل ذلك على أنه اسم الله الأعظم[2].

= الحديث بعبارة الاسم الأعظم أن المراد بالأعظم العظيم وأن أسماء الله تعالى كلها عظيمة.

ولكن الإمام فخر الدين الرازي وصف هذا القول بالضعيف، وذلك لأن الاسم الدال على الذات المخصوصة يجب أن يكون أشرف الأسماء وأعظمها/ فتح الباري: 224/11، والجامع لأحكام القرآن: 103/1، والتفسير الكبير: 60/2.

(1) هذه المذاهب استقصاها الحافظ ابن حجر فقال: جملة ما وقفت عليه أربعة عشر قولاً/ فتح الباري: 224/11.

(2) وهذا مما ذهب إليه فخر الدين الرازي فقد قال: «إن الاسم الأعظم هو قولنا: (الله) وهو الأقرب عندي، لأن هذا الاسم يجري مجرى اسم العلم في حقه ﷻ وإذا كان كذلك كان دالاً على ذاته المخصوصة».

وأيضاً لاختصاص هذا الاسم بخواص لم توجد في سائر أسماء الله تعالى، منها:

الخاصية الأولى: أنك إذا حذفت الألف من قولك: (الله) كان الباقي، وهو مختص به ﷻ كما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: 4].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: 7].

وإن حذفت عن هذه البقية اللام الأولى من: (الله) بقيت البقية (له) وهو اسمه تعالى: كما في قوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى: 12].

وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: 1].

وإن حذفت اللام الباقية كانت البقية هي قولنا: (هو) ـ أيضاً ـ يدل عليه ﷻ، كما=

● **وثالثها**: أنه مشتق من الوله وهو التحير[1]، والعقول لم تتحير في

= في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: 65].

والواو في: (هو) زائدة بدليل سقوطها في التثنية والجمع، فإنك تقول: هما فلا تبقى الواو فيهما.

ولفظ: (هو) فيه أسرار عجيبة وأحوال عالية، وتأثير عجيب في القلب لا تستطيع الألفاظ الكشف عنه وبيانه، وهو عند أهل الكشف اسم الله الأعظم بمفرده وقد ذكر له الرازي إحدى عشرة فائدة، منها:

أن الرجل إذا قال: يا هو، فكأنه يقول: من أنا حتى أعرفك، ومن أنا حتى أكون مخاطباً لك.

وما للتراب ورب الأرباب، وأي مناسبة بين المتولد عن النطفة والدم وبين الموصوف بالأزلية والقدم، فأنت أعلى من جميع المناسبات، وأنت مقدس عن علائق العقول والخيالات، فلهذا السبب خاطبه العبد بخطاب الغائبين فقال: يا هو.../ التفسير الكبير: 4/75 ـ 78.

فهذه الخاصية الأولى موجودة في لفظ: (الله) غير موجودة في سائر الأسماء.

وكما حصلت هذه الخاصية بحسب اللفظ فقد حصلت ـ أيضاً ـ بحسب المعنى، فإنك ـ مثلاً ـ إذا دعوت الله بالرحمٰن فقد وصفته بالرحمة، وما وصفته بالقهر، وإذا دعوته بالعليم قد وصفته بالعلم وما وصفته بالقدرة.

وأما إذا قلت: يا الله، فقد وصفته بجميع الصفات، لأن الله لا يكون إلٰهاً إلا إذا كان موصوفاً بجميع الصفات.

الخاصية الثانية لهذا الاسم ـ كذلك ـ: أن كلمة الشهادة وهي الكلمة التي بسببها ينتقل الكافر من الكفر إلى الإسلام لم يصلح فيها إلا هذا الاسم (الله)، فلو أن الكافر قال: أشهد أن لا إلٰه إلا الرحمٰن، أو: ولا الملك ولا القدوس، لم يخرج من الكفر، ولم يدخل في الإسلام/ التفسير الكبير: 2/84، 85.

(1) هذا على مذهب القائلين بأن اسم (الله) مشتق، وقد ذكروا له ثمانية أوجه؛ منها: أنه مشتق من ألهت إلى فلان، أي: سكنت إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره والأرواح لا تعرج إلا بمعرفته.

ومنها كذلك: أنه مشتق من لاه يلوه إذا احتجب، ومعنى كونه محتجباً أنه محتجب عن العقول، ولذلك قال بعض المحققين: سبحان من احتجب عن العقول بشدة ظهوره، واختفى عنها بكمال نوره.

ومنها ـ أيضاً ـ: أنه مشتق من أله الفصيل إذا ولع بأمه، والمعنى: أن العباد مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال.../ التفسير الكبير: 1/83. =

معنى غيره من الأسماء فيكون معناه محجوباً عن البشر فيكون هو الاسم الأعظم.

وأما أن بعض الخلائق يدعون به فلا يستجاب لهم، فلقيام المانع من جهتهم، وهو الإعراض عن الله تعالى، وترك الأدب اللائق بجلاله.

ومنهم من قال: هو الحي القيوم، لأن الحي هو القابل لصلات الكمال، ونعوت الجلال.

والقيوم هو صيغة مبالغة في القيام بمصالح العباد، وتدبير السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، وما ليس فيهما، وهو شأن عظيم يندرج تحته عالم. الخلق [(18ب)] وعالم الأمر[1]،

= أما القائلون بأن لفظ (الله) اسم علم لله تعالى وليس مشتقاً، فأكثر الأصوليين والفقهاء وهو قول سيبويه (ت151هـ/749م) والخليل بن أحمد الفراهيدي (160هـ/758م)/ الجامع لأحكام القرآن: 1/102.
ومن أدلتهم: أنه لو كان لفظاً مشتقاً لكان معناه معنى كلياً لا يمنع من وقوع الشركة فيه بين كثيرين.
ولو كان كذلك لما كان قولنا: لا إلٰه إلا الله توحيداً حقاً مانعاً من وقوع الشركة فيه.
وحيث أجمع العقلاء على أن قولنا: لا إلٰه إلا الله يوجب التوحيد الخالص علمنا أن قولنا: الله اسم علم موضوع لتلك الذات المعينة، وأنها ليست من الألفاظ المشتركة.
ومن أدلة القائلين بعدم الاشتقاق ـ كذلك ـ أن من أراد أن يذكر ذاتاً معينة، ثم يذكره بالصفات، فإنه يذكر اسمه أولاً ثم يذكر عقيب الاسم الصفات مثل أن يقول: زيد الفقيه النحوي الأصولي.
إذا عرفت هذا فنقول: إن كل من أراد أن يذكر الله بالصفات المقدسة، فإنه يذكر أولاً لفظة (الله) ثم يذكر عقيبه صفات المدح، مثل أن يقول: الله العالم، القدير، الحاكم، ولا يقع العكس فيقال: القادر الله/ التفسير الكبير: 1/81.

(1) لعل القرافي يشير هنا إلى آية سورة الأعراف 54 التي يذكر الله تعالى فيها كلمتي الخلق والأمر وهي قوله جل شأنه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، أي: خلق عباده وأمرهم بما أحب وهذا الأمر يقتضي النهي، ولا يمكن الجمع بين الخلق والأمر. =

فيكون هو الاسم الأعظم[1]، وأما أن بعض الناس لا يستجاب له، فلما مر في الوجه الأول.

ومنهم من يقول: هو اسم مبهم لم نقف على حقيقته البتة، بل هو لفظ خص الله تعالى خواصه بذلك الاسم الذي إذا سئل به أعطى، لا ينخرم ذلك البتة على أي حالة كان الداعي.

وعلى هذا المذهب وردت حكاية مشائخ الصوفية والعباد.

حكي أن ذا النون المصري[2] خدمه تلميذ سنين ليعلمه اسم الله

= قال سفيان بن عيينة الهلالي (98هـ/726م): (هناك فرق بين الخلق والأمر ومن جمع بينهما في معنى واحد فقد كفر، فالخلق المخلوق والأمر كلامه، تعالى وهو غير مخلوق، وهو قوله: ﴿كُن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: 82]/ الجامع لأحكام القرآن: 7/221، 222، والتفسير الكبير: 4/233.

(1) وهذا ما استقر عليه رأي فخر الدين الرازي الذي ذهب إلى أنّ (الحي القيوم) هما الاسم الأعظم بعد بحث معمق مدعوم بالأدلة.
وقد كان الأقرب عنده هو (الله)، وصرح به قبيل قليل في الصفحة السابقة فقال بالحرف الواحد: إن الاسم الأعظم هو قولنا: (الله) وهو الأقرب عندي، لأن هذا الاسم يجري مجرى العلم/ التفسير الكبير: 2/84، 85.
ولكن قال الفخر عند تفسيره لأول آية الكرسي في البقرة: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾: إنه لا سبيل إلى الإحاطة بالمسائل المتعلقة بالعلم الإلٰهي إلا بواسطة كونه حياً قيوماً فلا جرم أن يكون الاسم الأعظم/ التفسير الكبير: 2/308.

(2) هو: ثوبان بن إبراهيم كنيته أبو الفيض ولقبه ذو النون، أوحد أهل زمانه علماً وأدباً وورعاً، متصوف ومحدث وفقيه روى الموطأ عن الإمام مالك بن أنس ﷺ.
كان من أقطاب الصوفية، يعد في منزلة الجنيد الصوفي اللامع (ت297هـ/891م) وأبي يزيد البسطامي، طبقور بن عيسى (ت261هـ/856م) وينسب إلى ذي النون أنه أول من تناول ترتيب مقامات الصوفية، وأحوالهم ولذلك يعتبره الصوفيون مؤسس طريقتهم.
ويذكر القشيري في رسالته: أنه أول من عرّف التوحيد بالمعنى الصوفي، وأنه أول من وضع تعريفات الوجد والسماع.
وافاه الأجل المحتوم سنة (245هـ/848م) عن عمر قارب التسعين من السنين/ شذرات الذهب: 2/102، والفكر السامي: 2/52، والشجرة: 59.

الأعظم، فلما أراد تعليمه أخذ فأراً وجعله في علبة، وأمره بإيصالها إلى شخص بجزيرة مصر فأخذ العلبة ومضى.

فلما توسط النيل، قال: ما هذه العلبة الخفيفة؟ وليت شعري[1] أي شيء فيها، ففتحها ليرى ما فيها، فوثب الفأر منها إلى البحر.

فسُقط في يدي التلميذ[2]، فرجع إلى ذي النون فأخبره.

فقال له: إذا لم يكن لك أمانة على فأر، كيف تكون لك أمانة على اسم الله الأعظم؟ وانقطعت صحبتهما.

ويحكى أن ولياً كان بالقاهرة وكان يعلم اسم الله الأعظم، كان له خادم له سنون في خدمته ليعلمه اسم الله الأعظم، فخرج الولي يوماً مع خادمه إلى باب القنطرة فوجد جندياً على فرس، يضرب شيخاً ضعيفاً ضرباً عنيفاً، وقد جرح رأسه في مواضع كثيرة.

وقد أشفق من ذلك وهم يسألونه فيه، وهو يأبى تركه [(19ب)] فعمد الولي إلى ذلك الجندي يسأله سؤالاً كثيراً، فأبى إلا الضرب.

فقال الشيخ لتلميذه: لو كنت تعلم اسم الله الأعظم ما كنت تفعل بهذا؟

فقال: كنت أدعو الله عليه فيهلك.

فقال يا بني: والله إن هذا الشيخ هو شيخي في اسم الله الأعظم[3].

تم الكتاب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، دائماً إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين[4].

---

(1) ليت شعري: ليتني شعرت، وأحسست بما في العلبة/ القاموس المحيط: 59/1.
(2) سقط في يدي التلميذ: زلّ، وأخطأ وندم/ القاموس المحيط: 365/2.
(3) لعل في هذه الحادثة إشارة إلى أن من لم يلتزم بما يقتضيه احترام الاسم الأعظم يتعرض لمثل هذا.
(4) انتهى الكتاب بدون معرفة الناسخ، ولا تاريخ النسخ.



الخاتمة

الحمد لله، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، أمدنا بعونه على تحقيق وتكميل هذا الكتاب الجيد في موضوعه ومحتواه لنشره وتعميم الاستفادة من كل ما اشتمل عليه في فقه الدعاء وفحواه.

ونصلي ونسلم على سيدنا محمد أفضل خلق الله وعلى آله وأصحابه وأتباعه وكل من سار على سنته ووالاه.

وبسند من الله تعالى وتوفيق منه تم تحقيق وتكميل كتاب «المنجيات والموبقات في الأدعية» للشيخ الفاضل الفقيه المالكي الكبير أحمد بن إدريس القرافي رحمه الله، وأسكنه فراديس الجنان وكان ذلك في أواسط شهر محرم (1434هـ/1912م)، ولا يسعنا عند هذا الختام إلا أن ندعو ربنا الكريم المنان أن ينفع بهذا التأليف من طلبه أو كتبه أو قرأه أو نشره أو أعان عليه على امتداد الزمان وأن يجازينا بالعفو والإحسان ويتجاوز عما يكون قد عرض لنا في تأليفه من تقصير أو خطأ أو سهو أو نسيان، فأنت يا ربنا العفو الرحيم الرحمٰن واسع الفضل مرجو الإجابة والصفح والغفران فلك الحمد أولاً وآخراً وكل وقت وحين وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفهارس

1 ـ فهرس الآيات القرآنية الكريمة.

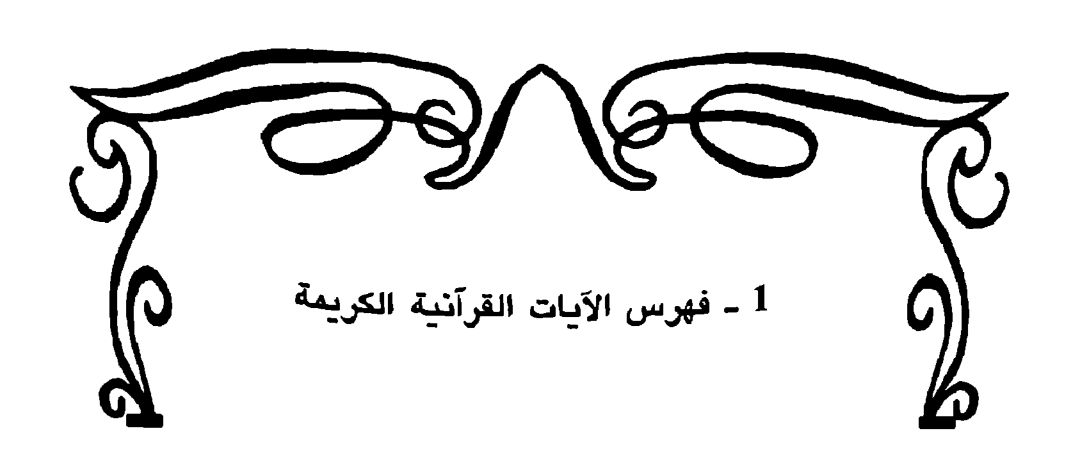
2 ـ فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.

3 ـ فهرس الأعلام.

4 ـ فهرس البلدان والأماكن.

5 ـ فهرس المصادر والمراجع.

6 ـ فهرس الموضوعات.



1 ـ فهرس الآيات القرآنية الكريمة

السورة	طرف الآية	رقمها	صفحتها
آل عمران	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ﴾	102	349، 398
آل عمران	﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾	103	124
آل عمران	﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾	122	346
آل عمران	﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾	133	325
آل عمران	﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ﴾	134	263
آل عمران	﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾	135	350، 392
آل عمران	﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾	145	359
آل عمران	﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا﴾	147	264
آل عمران	﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾	159	346، 355، 366
آل عمران	﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	169	374
آل عمران	﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾	180	367
آل عمران	﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾	185	134
آل عمران	﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾	186	275، 359
آل عمران	﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾	193	264
آل عمران	﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾	194	160، 167
النساء	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾	1	173، 349
النساء	﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾	6	349
النساء	﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾	12	164
النساء	﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾	28	279
النساء	﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾	32	135



2 ـ طرف الحديث

طرف الحديث	الصفحة

ـ أ ـ

طرف الحديث	الصفحة
«إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى»	186، 332
«إذا سألتم الله فاعظموا المسألة فإن الله لا يتعاظمه شيء»	186
«إذا سلَّم عليكم أهل الكتاب فقولوا: عليكم»	231
«إذا صليتم على الميت فاخلصوا له الدعاء»	200
«إذا عطس أحدكم فليحمد الله، وليقل من عنده: يرحمك الله» ...	73، 74، 237
«إذا عطس فحمد الله فحق على كل مسلم أن يشمته»	236
«إذا عطس فشمته»	236
«إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله»	275
«إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللَّهم...»	216
«إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة: أنصت، والإمام يخطب»	232
«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»	310
«إذا مضى شطر الليل وثلثه ينزل الله تبارك وتعالى»	295
«إذا نسي الصائم فأكل وشرب ناسياً فإنما...»	181
«إذا نعس أحدكم في الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه»	206
«استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي»	301
«استقبل النبي ﷺ الكعبة فدعا على نفر من قريش»	380
«كل ميسر لما خلق له»	123
«أفضل الحج العج والثج»	208
«أفضل العبادة الدعاء»	281
«أفضل المجالس ما استقبل به القبلة»	280
«أفلح وأبيه إن صدق»	320
«أقبلنا مع رسول الله ﷺ من تبوك حتى أشرفنا»	301
«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»	227
«التمسوها في العشر الأواخر»	289
«ألا إن الفتنة من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان»	315
«ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفاً»	318
«اللَّهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها»	368

طرف الحديث	الصفحة

طرف الحديث	الصفحة
«أنا أغنى الشركاء، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري...»	334
«أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني»	250، 251
«أنا أول من تشق عنه الأرض يوم القيامة»	182
«أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فقال: أنت عتيق من النار»	390
«أن تقولي ذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم...»	385
«إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات...»	202
«إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي»	278
«إن أمن الناس في صحبته وماله أبو بكر»	390
«وإن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج...»	276
«إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف»	372
«إن رجلين خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة»	151
«إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ فقال:...»	233
«إن رسول الله ﷺ كان إذا أوى فراشه كل ليلة...»	196، 326
«إن رسول الله ﷺ استسقى فأشار بكفيه إلى السماء»	260
«إن رسول الله ﷺ لما مرض كان يقرأ المعوذات وينفث»	331
«إن رسول الله ﷺ دعا فاطمة فسارها فبكت»	384
«إن رسول الله ﷺ دخل بيت زوجته ميمونة فأتي بضب محنوذ»	286
«إن رسول الله ﷺ لبس خاتماً نقشه: محمد رسول الله»	242
«إن شعبان شهر يغفل عنه الناس بين رجب ورمضان»	296
«إن الصلاة إلى الصلاة كفارات لما بينهما»	174
«إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمئة عام»	183
«إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة»	183
«إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»	158
«إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما...»	282
«إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلاء»	309
«إن الله تعالى سمي المدينة طيبة»	301
«إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»	333

طرف الحديث	الصفحة
«إن الله قد صدقك»	365
«إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه»	277، 278
«إن عطس فشمته، ثم إن عطس فشمته»	241
«إن الله يحب الرفق في الأمر كله»	231
«إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون:...»	395
«إن للصائم دعوة لا ترد»	291
«إن ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق»	213
«إنما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ»	280
«إن أم سليم قالت: يا رسول الله، أنس خادمك...»	332
«إن من الشعر حكماً أو حكمة»	311
«إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء»	149
«يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً»	181
«إن النبي ﷺ احتجم وهو محرم في رأسه»	209
«إن النبي ﷺ كان إذا دعا فرفع يديه ومسح...»	331
«إن النبي ﷺ لم يكن على شيء من النوافل أشد...»	215
«إن اليهود إذا سلم عليكم أحدهم فإنما يقول: السام»	231
«إنه جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم»	346
«إنه كان يستحب الجوامع من الدعاء، ويدع ما سوى...»	400
«إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة»	361
«إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر»	389، 390
«أن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم»	276، 277
«أوجب إن ختم، فقال له رجل من قوم: بأي شيء...»	336
«أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله»	293
«إياكم واللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر»	287
«إياكم ومحدثات الأمور»	327
«إياكم والوصال، قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله»	284
«أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»	249

طرف الحديث	الصفحة

— ش —

— ص —

— ط —

— ع —

طرف الحديث	الصفحة

طرف الحديث	الصفحة
«لا تختصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي»	131
«لا تجدوني بخيلاً، ولا كذوباً ولا جباناً»	367
«لا تجعلوني كقدح الراكب فإن الراكب يملأ...»	269، 270
«لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحق»	173، 312
«لا تزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين»	99
«لا تزال من أمّتي عصابة قوامة على أمر الله»	312
«لا تشد الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام»	297، 301، 306
«لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»	298
«لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافعه الأخبثان»	206
«لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه، فإن كان لا بد...»	358، 360
«لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدعو به من قبل أن يأتيه»	364
«لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»	207
«لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»	312
«لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة»	252
«لا يصم أحدكم يوم الجمعة إلا أن يصوم قبله أو يصوم بعده»	331
«لا يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا تعب حتى الشوكة...»	173
«لا يقل أحدكم: اغفر لي إن شئت»	186
«لا يقولن أحدكم: اغفر لي إن شئت»	93، 184
«لا يموت لإحداكن ثلاث من الولد فتحتسبه إلا دخلت الجنّة»	176

— ي —

طرف الحديث	الصفحة
«يا عائشة، إن الله يحب الرّفق في الأمر كله»	231
«يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً»	181
«يدخل فقراء أمّتي الجنّة قبل أغنيائهم بخمسمئة عام»	183، 398
«يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقول:...»	262
«يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة، وما لم...»	370
«يسلم الصغير على الكبير، والراكب على الماشي»	228

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



3 ـ فهرس الأعلام

التاء

الثاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الذال

الراء

الزاي

السين

الشين

الصاد

الطاء

العين

الغين

الفاء

القاف

الكاف

اللام

الميم



4 - فهرس البلدان والأماكن

النون

الواو

الياء



5 ـ فهرس المصادر والمراجع

1 ـ **القرآن الكريم.**

2 ـ **الأبي:** محمد بن خلفة الوشتاتي المالكي.
إكمال إكمال المعلم: 7ج، مطبعة السعادة، مصر 1328.

3 ـ **الآمدي:** سيف الدين أبو الحسن علي الآمدي.
الإحكام في أصول الأحكام: 4ج، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان 1400.

4 ـ **ابن الأثير:** أبو الحسن علي بن محمد الجزري.
الكامل في التاريخ: 13ج، دار صادر، ودار بيروت 1385هـ ـ 1963.

5 ـ **الأدفوي:** كمال الدين أبو الفضل.
الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد: الجمالية ـ مصر 1332.

6 ـ **الأسنوي:** جمال الدين عبدالرحيم الأسنوي.
نهاية السول في شرح منهاج الأصول: 4ج، مصر 1344.

7 ـ **الألباني:** محمد ناصر الدين.
سلسلة الأحاديث الضعيفة، 4ج، الرياض 1412.

8 ـ **الأنصاري:** زكرياء الأنصاري.
فتح الوهاب بهامش حاشية الجمل، 5ج، الميمنية ـ مصر 1305.

9 ـ **الأنصاري:** عبدالعلي بن نظام الدين الأنصاري.
فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، بأسفل كتاب المستصفى ـ جزآن ـ بولاق ـ الأولى، مصر 1322.

10 ـ **ابن أياس:** محمد بن أحمد.
بدائع الزهور في وقائع الدهور، 3ج، بولاق، الأولى 1311.

11 ـ الإيجي: عضد الدين عبدالرحمٰن.
شرح مختصر المنتهى، تحقيق د. حسن فرهود، دار التأليف بمصر ـ الأولى 1389 ـ 1969.
12 ـ الباجي: أبو الوليد سليمان بن خلف.
المنتقى، شرح موطأ مالك بن أنس، 4ج، السعادة، الأولى ـ مصر 1332.
13 ـ البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري.
ـ الجامع الصحيح المسند، بصلب فتح الباري، لابن حجر، 13ج، دار المعرفة ـ بيروت.
ـ العلل الكبرى.
14 ـ البخاري: علاء الدين عبدالعزيز البخاري.
كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، 4ج، دار الكتاب العربي ـ لبنان 1334.
15 ـ بخيت: محمد بخيت المطيعي.
سلم الوصول لشرح نهاية السول، بهامش كتاب نهاية السول البيضاوي.
16 ـ بدوي: أحمد بدوي.
الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مطبعة نهضة مصر.
17 ـ البراذعي: أبو سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي.
تهذيب المدونة والمختلطة، مجلدان مخطوطان بالمكتبة الوطنية التونسية 14962 ـ 14963.
18 ـ ابن بسام: محمد بن أحمد.
نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة المعارف ـ بغداد 1968.
19 ـ البغدادي: القاضي عبدالوهاب بن علي بن نصر البغدادي.
الإشراف على مسائل الخلاف، جزآن، مطبعة الإرادة، تونس.
20 ـ البوصيري: محمد بن سعيد بن حماد البوصيري الصنهاجي.
ديوان البوصيري، الحلبي ـ مصر 1374 ـ 1955.
21 ـ البهوتي: منصور بن يونس الحنبلي.
كشاف القناع على متن الإقناع، مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة.
22 ـ البيضاوي: ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي.
منهج الأصول مع شرحه نهاية السول، 4ج، السلفية ـ القاهرة 1345.

23 ـ **البيهقي**: أحمد بن الحسين.
السنن الكبرى، 10ج، حيدر آباد ـ الهند 1355.

24 ـ **الترمذي**: أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي.
سنن الترمذي، 5ج، دار الدعوة، إستانبول 1401 ـ 1981.

25 ـ **ابن تغرى بردي**: جمال الدين يوسف بن تغرى بردي ـ الأتابكي.
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 12ج، دار الكتب المصرية 1357 ـ 1938.

26 ـ **التنبكتي**: أحمد بابا بن أحمد بن عمر.
نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مصر 1329.

27 ـ **ابن تيمية**: تقي الدين أحمد بن عبدالحليم.
مجموع الفتاوى، 37ج، المكتب التعليمي السعودي بالمغرب 1401 ـ 1981.

28 ـ **ابن جزي**: أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي.
القوانين الفقهية، الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس 1982.

29 ـ **الجصاص**: أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص.
أحكام القرآن، 3ج، البهية، مصر 1347.

30 ـ **جعيط**: محمد العزيز.
حاشية منهج التحقيق والتوضيح لحل غوامض التنقيح، جزآن، مطبعة النهضة ـ تونس 1921.

31 ـ **ابن الجلاب**: عبيدالله الحسين البصري.
التفريع، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية رقم 15130.

32 ـ **الجمل**: سليمان بن عمر الجمل.
حاشية على شرح المنهج لزكرياء الأنصاري، 5ج، الميمنية، مصر 1305.

33 ـ **الجوهري**: إسماعيل بن حماد.
الصحاح، 6ج، دار الكتب العربية ـ مصر.

34 ـ **ابن الحاج**: محمد العبدري.
المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، 4ج، دار الفكر 1401 ـ 1981.

35 ـ **ابن أبي حاتم**: عبدالرحمٰن الرازي.
العلل، المطبعة السلفية ـ مصر 1343.

36 ـ **حاجي خليفة**: مصطفى بن عبدالله.
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المطبعة البهية 1360 ـ 1941.

37 ـ الحاكم النيسابوري: أبو عبدالله محمد بن عبدالله.
المستدرك على الصحيحين، 4ج، دار الكتاب العربي.
38 ـ حبنكة: عبدالرحمٰن الميداني.
العقيدة الإسلامية، طبعة أولى 1385 ـ 1966.
39 ـ ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني.
ـ الإصابة في تمييز الصحابة، 4ج، مطبعة السعادة مصر 1328.
ـ بلوغ المرام من أدلة الأحكام ـ مصر.
ـ تقريب التهذيب، جزآن، دار المعرفة، بيروت 1395 ـ 1975.
ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، 4ج، الهند 1349.
ـ فتح الباري، شرح صحيح البخاري، تحقيق عبدالعزيز بن باز، 13ج، دار المعرفة ـ بيروت.
ـ لسان الميزان، 7ج، الهند 1329.
40 ـ الحجوي: محمد بن الحسن الحجوي الفاسي.
الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، جزآن، المكتبة العلمية، المدينة المنورة 1396.
41 ـ ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم.
42 ـ المحلى، 11ج، دار الطباعة المنيرية، مصر 1374.
43 ـ أبو الحسن: علي بن محمد الشاذلي المصري.
كفاية الطالب الرباني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، جزآن، مطبعة مصطفى محمد، مصر 1356.
44 ـ ابن حسين: محمد علي بن حسين المالكي.
تهذيب الفروق والقواعد السنية، بهامش كتاب الفروق، 4ج، مصر 1344.
45 ـ الحصكفي: محمد علاء الدين.
الدر المختار شرح تنوير الأبصار، بهامش رد المختار، لابن عابدين، 5ج، بولاق 1395.
46 ـ الحطاب: أبو عبدالله محمد بن محمد الحطاب.
مواهب الجليل شرح مختصر أبي الضياء خليل، 6ج، السعادة، مصر 1329.
47 ـ الحموي: أحمد بن محمد.
غمز عيون البصائر، شرح الأشباه والنظائر، مطبوع بأسفل كتاب الأشباه والنظائر، دار الطباعة العامرة.

48 ـ الحموي: شهاب الدين ياقوت بن عبدالله.
معجم البلدان، 5ج، دار صادر، ودار بيروت، 1376 ـ 1957.
49 ـ ابن حنبل: أبو عبدالله أحمد بن محمد.
المسند، 6ج، دار الدعوة، إستانبول 1401 ـ 1981.
50 ـ ابن خزيمة: محمد بن إسحاق النيسابوري ـ صحيح ابن خزيمة 4ج ـ دار المكتب الإسلامي.
51 ـ الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب.
تاريخ بغداد، 14ج، السعادة، مصر 1349 ـ 1931.
52 ـ ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان.
وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان، 8ج، دار صادر، بيروت لبنان.
53 ـ خليل: ابن إسحاق الجندي المصري.
مختصر ما به الفتوى مع شارحيه: الحطاب والمواق.
54 ـ الخضري: عبدالرحمٰن.
متن السلم في المنطق.
55 ـ الخضري: محمد.
حاشية الخضري على شرح ابن عقيل، جزآن، دار إحياء الكتب العربية.
56 ـ ابن خلدون: عبدالرحمٰن بن محمد.
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، 7ج، دار الكتاب اللبناني 1968.
57 ـ أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني.
سنن أبي داود، ج4، دار الدعوة، إستانبول 1401 ـ 1981، المعارف الإسلامية.
58 ـ الدردير: أحمد بن محمد.
الشرح الصغير، جزآن، دار المعرفة للطباعة والنشر 1398 ـ 1978.
59 ـ الدسوقي: محمد بن أحمد بن عرفة.
حاشية على الشرح الكبير للدردير في شرحه لمختصر خليل.
60 ـ ابن دقيق العيد: تقي الدين محمد بن دقيق العيد.
إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، 4ج، المنيرية 1344.
61 ـ ابن أبي دينار: محمد بن أبي القاسم الرعيني.
المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تونس 1350.
62 ـ الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان.

تذكرة الحفاظ، جزآن، الهند 1334.
63 ـ الرازي: أبو عبدالله بن عمر بن حسين.
التفسير الكبير، 8ج، العامرة، مصر 1327.
64 ـ ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد.
البيان والتحصيل، 18ج، دار المغرب الإسلامي.
65 ـ ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الحفيد.
بداية المجتهد، ونهاية المقتصد، جزآن، دار الفكر.
66 ـ أبو زهرة: محمد.
المذاهب الإسلامية، الألف كتاب، الثقافة الأمة بمصر.
67 ـ ابن أبي زيد: أبو محمد عبد بن أبي زيد القيرواني.
الرسالة، مطبوعة بهامش شرحي زروق وابن ناجي.
68 ـ السبكي: تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب السبكي.
طبقات الشافعية الكبرى، 6ج، الحسينية ـ مصر.
69 ـ سحنون: عبدالسلام بن سعيد بن حبيب التنوخي.
المدونة الكبرى، ج4، الخيرية ـ مصر 1325.
70 ـ السخاوي: محمد بن عبدالرحمٰن السخاوي.
المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة، الخانجي ـ مصر 1375 ـ 1956.
71 ـ السويسي: محمد بن يونس العباسي.
مجال النية في الفقه الإسلامي، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس 1431 ـ 2010.
72 ـ سيد قطب.
في ظلال القرآن، 7ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ الخامسة 1386.
73 ـ السيوطي: جلال الدين عبدالرحمٰن بن أبي بكر السيوطي.
ـ الأشباه والنظائر في الفروع، دار الكتب العلمية ـ بيروت 1403 ـ 1983.
ـ تفسير الجلالين بالاشتراك مع جلال الدين المحلي، البابي الحلبي 1325 ـ 1934.
ـ الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، جزآن، القاهرة 1373 ـ 1954.
74 ـ ابن الشاط: قاسم بن عبدالله الأنصاري.
أدرار الشروق على أنواء البروق، طبع بأسفل كتاب الفروق الذي سيأتي ذكره.

75 ـ الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى.
ـ **الاعتصام**، 3ج، المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر.
ـ **الموافقات في أصول الشريعة**، 4ج، المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر.
76 ـ أبو شاكر: محمد بن شاكر الكتبي.
فوات الوفيات، 4ج، دار صارد بيروت ـ 1973.
77 ـ أبو شامة: عبدالرحمٰن بن إسماعيل.
الذيل على الروضتين، دار الجيل ـ بيروت.
78 ـ الشعراني: عبدالوهاب بن أحمد الأنصاري.
طبقات الشافعية الكبرى، جزآن، مصر.
79 ـ الصديق: أحمد عثمان.
مسالك الدلالة على مسائل الرسالة، مكتبة القاهرة، طبعة ثانية 1391 ـ 1971.
80 ـ الصنعاني: محمد بن إسماعيل الأمير.
سبل السلام، 4ج، البابي الحلبي، القاهرة 1378 ـ 1958.
81 ـ ابن عاشور: محمد الطاهر.
التحرير والتنوير، 30ج، الدار التونسية للنشر ـ تونس.
82 ـ ابن عبدالبر: يوسف بن عبدالبر.
الاستيعاب في معرفة الأصحاب، بهامش الإصابة، 4ج، السعادة ـ مصر 1328.
83 ـ عبدالرزاق: أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني.
المصنف، 11ج، تحقيق عبدالرحمٰن الأعظمي، دار القلم ـ لبنان 1392 ـ 1972.
84 ـ ابن عبدالسلام: عز الدين بن عبدالسلام.
قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مصر 1388 ـ 1964.
85 ـ ابن عدي: أحمد بن عبدالله.
86 ـ **الكامل في الضعفاء**، دار الكتب المصرية، مخطوط.
87 ـ العراقي: زين الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي.
المغني عن حمل الأسفار، مطبوع بأسفل كتاب الإحياء، 4ج، دار المعرفة ـ بيروت 1402 ـ 1988.
88 ـ ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبدالله المعافري.
أحكام القرآن، تحقيق محمد البجاوي، 4ج، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

89 ـ ابن عربي: أبو عبدالله محمد بن عربي.
الفتوحات المكية، 4ج، دار الكتب العربية ـ مصر.
90 ـ ابن العماد: عبدالحي بن العماد الحنبلي.
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 8ج، دار الآفاق ـ بيروت.
91 ـ العمادي: أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي.
تفسير أبي السعود، طبع بهامش التفسير الكبير لفخر الدين الرازي المتقدم.
92 ـ عياض: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي.
الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، جزآن، الاستقامة، القاهرة.
93 ـ الغزالي: أبو حامد محمد بن أحمد الغزالي.
ـ إحياء علوم الدين، 5 أجزاء، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان 1402 ـ 1982.
ـ المستصفى في أصول الفقه، جزآن، بولاق مصر.
94 ـ الفارسي: أبو علي الحسن بن أحمد.
95 ـ الإيضاح العضدي، تحقيق د.حسن فرهود، دار التأليف بمصر 1389 ـ 1969.
96 ـ ابن فرحون: برهان الدين إبراهيم بن محمد اليعمري.
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، مصر 1329.
97 ـ الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي.
القاموس المحيط، 4ج، عالم الكتب ـ بيروت.
98 ـ ابن قدامة: عبدالله بن أحمد بن قدامة.
المغني، 9ج، مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض.
99 ـ القرافي: أحمد بن إدريس القرافي.
ـ الإحكام في تمييز الفتاوى من الأحكام، تحقيق محمد عرنوس، الأنوار 1357 ـ 1938.
ـ الذخيرة في الفقه، جزء واحد مطبوع، مصر 1381 ـ 1961.
ـ الذخيرة في الفقه، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية، جزء واحد رقمه 1360.
ـ الفروق، 4ج، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.
ـ الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، مطبوع بهامش، الفارق بين الخالق والمخلوق لعبدالرحمٰن باجة جي.

- الاستغناء في أحكام الاستثناء، مخطوط بالأسكوريال رقمه 620.
- البيان فيما أشكل من التعاليق والأيمان، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية رقمه: 8628.
- تنقيح الفصول في علم الأصول، مطبوع بهامش حاشية التوضيح لابن عاشور.
- ترتيب القواعد والفروق، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 12298.
- شرح الأربعين في أصول الدين، ذكره في كتاب الفروق 27/3.
- العقد المنظوم في الخصوص والعموم، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية رقمه 620.
- نفائس الأصول في شرح المحصول، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية، رقمه 6544.

100 - القرطبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي.
- الجامع لأحكام القرآن، 20 جزءاً، دار الكتاب العربي، القاهرة 1387 - 1967.

101 - ابن القيم: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.
- أعلام الموقعين عن رب العالمين، 4ج، دار الجيل - لبنان 1973.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، 4ج، المطبعة المصرية الأولى 1347 - 1922.

102 - الكاساني: علاء الدين أبو بكر ابن مسعود.
بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، 7ج، الجمالية - مصر 1328.
ابن ماجه: أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني.
سنن ابن ماجه، جزآن، دار إحياء الكتب العربية، مصر 1372 - 1952.

103 - مالك بن أنس الأصبحي.
الموطأ رواية يحيى بن يحيى الليثي، 3 أجزاء، دار الكتب العلمية.

104 - المجدوب: عبدالعزيز.

105 - القاضي أبو بكر الباقلاني وآراؤه الكلامية والفلسفية، دار سحنون النشر والتوزيع 1430 - 2003.

106 - المحبي: محمد أمين بن فضل الله.
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، الوهبية 1284.

107 ـ المحلي: شمس الدين محمد بن أحمد المحلي.
تفسير الجلالين، وقد مرّ أنه بالاشتراك مع جلال الدين السيوطي، الحلبي، مصر 1352 ـ 1934.
108 ـ مخلوف: محمد بن محمد مخلوف.
شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، السلفية، الأولى 1349.
109 ـ ابن مريم: محمد بن محمد التلمساني.
البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الثعالبية، الجزائر 1326.
مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري.
صحيح مسلم، طبع بأعلى شرح النووي، 18ج، دار إحياء التراث العربي 1349.
110 ـ معلوف: لويس معلوف.
المنجد في اللغة والأدب والعلوم ـ الكاثوليكية ـ الخامسة، بيروت ـ لبنان.
111 ـ المقدسي: بهاء الدين عبدالرحيم بن إبراهيم الحنبلي.
العدة شرح العمدة، مكتبة الرياض الحديثة.
112 ـ المقريزي: أحمد بن علي.
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، 3ج، بولاق مصر 1270.
113 ـ ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي.
لسان العرب، 3ج، دار لسان العرب، لبنان.
114 ـ ابن ناجي: قاسم بن عيسى التنوخي.
شرح رسالة ابن أبي زيد بأسفل شرح زروق، جزآن، الجمالية ـ مصر.
115 ـ ابن نجيم: زين العابدين إبراهيم بن نجيم.
الأشباه والنظائر، القاهرة، مطبعة وادي النيل 1298.
116 ـ النسائي: أحمد بن علي بن شعيب.
ـ سنن النسائي، 8ج، دار الدعوة، إسلامبول 1401 ـ 1981.
ـ عمل اليوم والليلة.
117 ـ أبو نعيم: أحمد بن عبدالله الأصفهاني.
حلية الأولياء وطبقة الأصفياء، 10ج، السعادة، الأولى ـ مصر 1351.
118 ـ النووي: محيي الدين بن شرف النووي.
شرح صحيح مسلم، 18ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان 1349.





الفهرس العام

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع: آداب الدعاء

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب العاشر في اسم الله الأعظم

الفهارس

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑